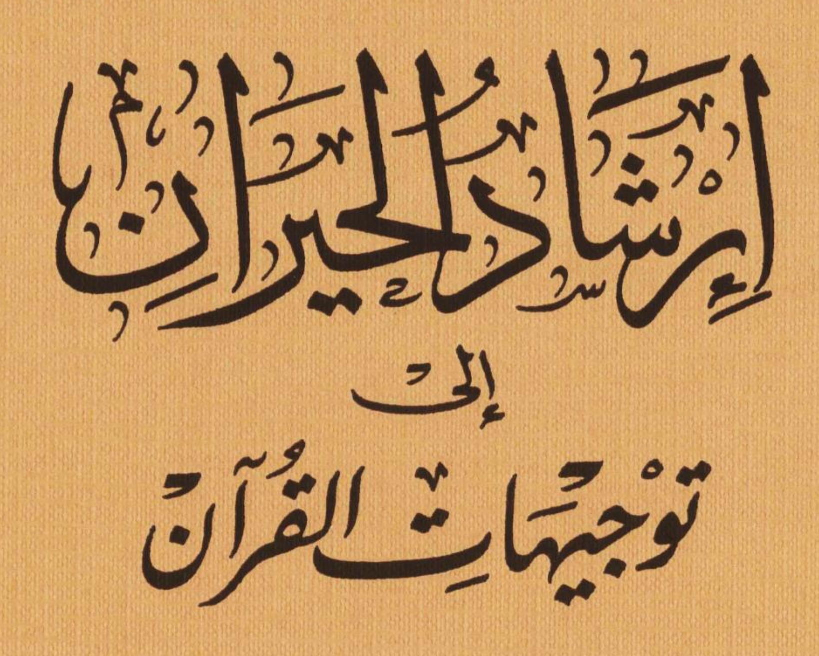
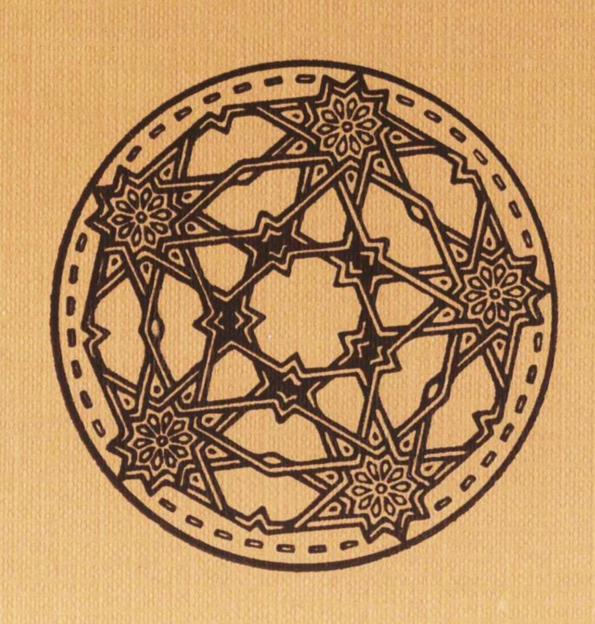


بقلم

فضيلة الشيخ

أحمد عبد السلام أبو مزيريق



دار المدار الاسلامي

إِرْشَادُ الحَيْرَانِ

إِلَى

تَوْجِيهَاتِ القُرْآنِ

1

بقلم

فضيلة الشيخ

أحمد عبد السلام أبو مزيريق

دار المدار الإسلامي


إرشاد الحيران
إلى
توجيهات القرآن

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن 12/1
الشيخ أحمد عبد السلام أبو مزيريق

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2011 إفرنجي

موضوع الكتاب تفسير قرآني
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 17 × 24 سم
التجليد فنّي

ردمك ISBN 9959-29-182-0
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2003/5680

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

الإهــداء

إلى من كان السبب الأول في هذا الاتجاه:

عندما جئته صغيراً في زاويته التي يعلم فيها القرآن. . .

وجّهني إلى حفظ القرآن. . .

ثم إلى دراسته. . .

ثم وجّهني إلى تدريسه والعمل به:

الشيخ المربي صاحب الفضل

أبو الحسن علي أحمد حسن المنتصر

في وقت كان فيه عملاء الطليان، وأولياء الشيطان يوجّهون الليبيين للكفر وعمل المنكر والشر. . .

وعباد الرحمن يوجّهون للإيمان والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

﴿أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾.

إلى الفردوس في دار النعيم، مع الأبرار والبرّ الرحيم!

المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ﴿**ربِّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾.

وبعْدُ. . .

فمنذ زمن بعيد وأنا حريص كل الحرص على تتبع المفسرين في كتبهم من السابقين وفي المقدمة تفسير ابن جرير، واللاحقين، وفي المقدمة تفسير «التحرير والتنوير»، وما بين هذا وذلك كثير وكثير، فجمّعت منها ما تيسر لي تجميعه من مباحث لغويّة وأساليب بلاغيّة وأعاريب نحويّة وأحكام وتوجيهات شرعيّة من واجبات ضروريّة وتحسينات تكميليّة. . .

واقتصرت في هذه المباحث: في نص القرآن على رواية قالون عن قراءة نافع، وفي الإعراب على المشهور من إعراب الجمهور، وفي البلاغة ما ظهرت براعته وتلألأت عبارته، وفي الأحكام الشرعيّة ما اتضح دليلها واتحد سبيلها. . وتجنبت الخلافات وابتعدت عن الاحتمالات، وتوخيت الوضوح والتوضيح، وابتعدت عن الإشارة والتلميح. وقد اهتمّ المفسرون في كتبهم بما يتعلق بالتفسير ومعناه، ومأخذه ومغناه، وجعلوا في تلك المباحث مقدمات وافية قدمُوها عن الغرض المطلوب، وعلى من يريد الاطلاع عليها يجدها إن كان له فيها غرض مطلوب. . وسميت ما جمّعته من هذه المباحث: **إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن**. . واللهَ أرجو أن ينفع به كما نفع بسببه.

هذا الكتاب

إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن للأستاذ الشيخ أحمد عبد السلام أبومزيريق، أكبرُ أبحاثه العلمية وأهمّها، ويُعتبر إضافةً إلى المكتبة القرآنية والإسلامية، التي افتقرت منذ زمن إلى المنجزات العلمية التي تنتمي إلى طائفة الكتب الموسوعية الكبيرة في علوم القرآن. وهو أول تفسير يسير فيه مؤلفه على قراءة قالون عن نافع المدني، ولم يخرج عنها إلى غيرها من القراءات الأخرى رسماً وضبطاً، كما أن المذهب الفِقهي الذي اعتمده المؤلف مذهباً رئيساً في تأويل المسائل الفِقهية هو مذهب أهل المدينة.. مما جعل هذا التفسير مدنيًّا بامتياز.

* * *

لقد حثّ القرآن الكريم على التأمل والتدبّر والنظر المستمر الذي لا يعرف التوقف عند حد معيَّن، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ ولذا فإنه لا مجال لسيطرة فكرة واحدة قد تقيّد النص وتحجِّم من محاولات وطرائق استنباطه. كما أن النص القرآني الكريم حمّال دلالات عدة، ووجوه للتأويل متشعبة، بحيث غدا نصًّا متشظيَ الدلالات، متسع المعنى، مفتوحاً لطرق الاستنباط والتأويل الموضوعيين المرتبطين بطبيعة النص القرآني من حيث بنيته، وأنظمته، ورؤاه، ومستودعه المعرفي والإنساني.

وتأسيساً على ذلك فقد اجتهد الشيخ أحمد أبومزيريق لتقديم قراءاته للنص القرآني، تحمل في طياتها آفاق التعامل مع هذا النص، مستفيدة من منجزات نخبة من المفسرين الكبار كالطبري، والألوسي، وابن عاشور، وسيّد قطب.. وقد ارتكزت تأويلات الشيخ أبومزيريق على جوانب مختلفة لتقديم قراءة تعكس صلاحية النص القرآني لكل زمان ومكان، ومحققة طروحات إعجاز هذا النص من خلال التحليل الدقيق لمعطياته المكنونة في نظامه البنيوي.

ففي مبحث المفردات اللغوية يستعرض معانيها، دون توسع وإطناب، وفي مبحث الإعراب نأى المؤلف عن الخلافات النحوية، وتعدّد أوجه الإعراب،

واقتصر على وجه إعرابيّ واحد، وفي مبحث الأسلوب البلاغي اهتمّ بتقنيات الصورة البلاغية وجمالها في النص القرآني، على اعتبار أنها أحد أوجه الإعجاز في هذا النص، ثم ينتهي إلى خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام باعتبارها الهدف الأعلى والمقصد الأسمى لهذا التفسير.

ويستند الشيخ أبومزيريق في هذا المنهج على أن هذه العلوم ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة مساعدة لفهم النص، ولذا فقد حمَّل تفسيره بعض أفكاره وتأملاته للنص القرآني؛ لأن هذه التوجيهات، هي هدفه ومقصده، ولهذا لم يسمِّ كتابه (تفسيراً) كما جرت عليه غالبية من كتبوا في هذا الفن، بل هي إرشادات إلى توجيهات النص؛ فلا يمكن لبشر إدراك نص إلهيّ مقدس معجز، وإنما كل إنسان يفهم منه حسب مقدرته واستعداده، وهذا ما حاول الشيخ أن يؤكده في هذه الإرشادات والتوجيهات، مقتدياً ومتأثّراً بمن سبقه من العلماء، الذين جعلوا خدمة النص القرآني، غايتهم وهدفهم، متوسلاً إلى ذلك بقراءات محتملة للنص القرآني، اقترحت أدوات إجرائية معروفة، ووظفت الجرأة المطلوبة في القراءة الجادّة، والتي لا تزعم لنفسها أنها القراءة الأولى أو الوحيدة.

* * *

انطلق المفسرون القدامى من اتجاهات شتّى في بيان دلالة النص القرآني بأبعاده المختلفة، النصية الإرشادية، والبلاغية الإعجازية، واللغوية النظامية، والفِقهية الشرعية، والمجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والقصص والعِبر والعظات، ونحو ذلك.

وقد حرص الأستاذ الشيخ أبومزيريق في كتابه هذا على تتبّع المفسرين السابقين وانكبّ على كتبهم ليشكّل منها رصيداً معرفياً ومرجعية علمية مهمة وجمع منها مباحث لغويّة وأساليب بلاغيّة وأوجه إعراب نحويّة وأحكاماً وتوجيهات شرعيّة.

وقد حاول الخروج من الجمود الذي أصاب القراءات التأويلية للقرآن الكريم، التي نحت به نحو الخرافة والإيغال في السرد التاريخي أو الانشغال بالتفاصيل والخلافات النحوية عن الإرشاد والهداية التي هي الغاية العظمى المنشودة لبني الإنسان على هذه الأرض.

الناشر

التعريف بالمؤلف والتفسير

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدًى وذكرى لأُولي الألباب، فأضاء له حوالك الدياجير وأخرج البشر من الظلمات إلى النور..

والصلاة والسلام على مبعوث رب العالمين، هادياً إلى الصراط المستقيم، وداعياً إلى الاعتصام بحبل الله المتين..

أدّى إلينا هذا القرآن وأرشدنا إلى ما فيه من هَدْيٍ وأحكامٍ وبيانٍ.. فقال في حقه مُنَزِّل القرآن: **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون**.. وبعد؛

فإن قيوم السموات والأرض عزّ وتقدس هيّأ صفوة من عباده لدراسة كتابه العزيز وإيصال ما أَوْدَعَ فيه الحق تعالى من توجيهات إلى سبيل الرشاد والسداد والسعادة والحسنى والزيادة..

ونحسب أن من أولئك الصفوة الخيرة البررة الأستاذ الكبير والعلامة القدير الشيخ أحمد عبدالسلام أبومزيريق بتفسيره المرسوم بـ **إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن**.. والذي تشرّفت دار المدار الإسلامي بطباعته وتقديمه للقراء خدمة لديننا الحنيف.

أولاً: التعريف بالمؤلف

*** ميلاده:**

ولد الشيخ العلَم الفذ الكبير الأستاذ أحمد عبدالسلام محمد أبومزيريق سنة 1929م في قرية رأس علي بمصراتة....

*** لقبــه:**

يقول الشيخ عن أصل لقبه ومعناه: "'بومزيريق' أصلها الفصيح: أبومُزَيْرِيق، مصغر مِزْريق مأخوذ من زرق: انفصل، خرج بسرعة واختفى بسرعة وهو يَدُلّ

على سرعة الحركة والخفة والنشاط، وهي صفة ظاهرة يتحلّى بها جَدّي محمد، وهي السبب في تسميته 'بومزيريق'".

❊ طفولته ونشأته الأولى:

يقول الشيخ عن جَدِّه لأبيه وقد قضى شطراً من طفولته تحت رعايته: "كانت له مربوعة يجتمع فيها خواصّه وأصدقاؤه، وكنت أُحِبّ الاجتماع بهم، وعندما تعلّمتُ القراءة في الكتب كنت أقرأ لهم القصص، وكتب التاريخ مثل **فتوح الشام**. . . .". ويمضي الشيخ متحدِّثاً عن علاقته بجَدِّه في طفولته: "كانت علاقتي به في طفولتي منذ عام 1934م وكنتُ أزاول معه الحرث والحصاد، والرعي، وكل ما يتعلق بإنتاج الأرض، وعلّمني ركوب النخل للتَّأبير وجَنْي الرُّطب" .. ويقول فيما يتصل بطفولته أيضاً: "وكنتُ في هذه المدة طالب قرآنٍ، أولاً: في جامع القرية، ثم في زاوية الْبَيْ".

❊ حفظه القرآن:

درس أحمد أبومزيريق القرآن العظيم في سنٍّ باكرة، أولاً بجامع القرية رأس عليّ.. وثانياً بزاوية الْبَيْ. وحَفِظَهُ وعمره يقرب من الثالثة عشرة. وأبرز الذين أقرأوه القرآن الشيخان الفاضلان المربيان: عليّ الشريف المُغْربي وعليّ حسن المنتصر.

ويقول الشيخ أحمد أبومزيريق إنه قرأ على الشيخ عليّ الشريف المُغْربِي من سورة الناس حتى سورة التغابن صعوداً. وذلك بمسجد رأس عليّ، والذي نصحه بكلمةٍ بقيت تَرِنّ في أذنه وكان لها أطيب الأثر في تكوينه، وهي الكلمة التي حفظها المترجَم لهُ إلى الآن "رُد بالك بيش تحفظ القرآن حتى تكون سيد الجميع" .. وقد كان ما توسّمه فيه هذا الشيخ المُربّي الجليل رحمه الله تعالى. وكان الشيخ المُغْربِي هذا إماماً، وخطيباً، ومقرئاً للقرآن العظيم.

ثم انتقل بعدئذٍ إلى زاوية الْبَيْ بمصراتة المدينة، وأكمل فيها حفظ بقية كتاب الله المجيد. وكان حَفِظَ ما تبقَّى من كتابِ الله على يدِ شيخه الثاني عليّ حسن المنتصر.. والذي يذكره دائماً بالثناء العاطر.. وقد أهدى إليه تفسيره هذا الذي نُعرّف به.. وبقي بزاوية الْبَيْ يقرأ القرآن ويتقن حفظه ويُكَتِّبُ الطلاب، وهو شبل صغير حتى سنة 1943م.

*** شيوخــه:**

كان في باكر حياته وعمره ما بين العاشرة والرابعة عشرة يحضر في بعض الأحايين دروس الشيخ الطيب العربي المسلاتي بزاوية الإمام أحمد زروق في التفسير من خلال **تفسير الجلالين** بحاشية الصاوي، والجَمَل. وفي آونةٍ أخرى من هذه الفترة من سِنِيِّ حياته كان يجلس في حلقات دروس الشيخ العلّامة النحرير محمد حسن بن عبدالملك، وهو من علماء الأزهر المتفوقين، سمع منه أحمد أبومزيريق شرحه لمتن **العاصمية في الأحكام، والسُلَم في المنطق**، وفي البلاغة: **السمرقندية، والجوهر المكنون.**

ومن شيوخه الأوائل الشيخ محمد عليّ السهولي العالم الفقيه الورع الحكيم، درس عليه المترجَم لهُ من سنة 1945م إلى سنة 1950م حيث أخذ عنه جملة من الكتب الشرعية والعربية..

فمن الكتب الشرعية التي تلقّاها عليه، وهي كلها في الفِقه المالكي **حاشية الصفتي على العشماوية**، وا**بن حمدون**، و**الرسالة**، و**أقرب المسالك**.. وهي كتب شهيرة في الفِقه المالكي..

أما في علم العربية فدرس على شيخه محمد عليّ السهولي: **خالد**، و**القطر**، و**العشماوي**، و**الشذور**..

ودرس على الشيخ الصالح الجليل مفتاح اللبيدي **أقرب المسالك** في جامع الشيخ امحمد -ويُعرَف في مصراتة بجامع الشيخ، وهذا الجامع بوسط مدينة مصراتة- في الفترة الواقعة بين سنة 1948 - 1950م.

*** دراسته الثانوية الدينية والجامعية:**

تولى الإمامة والخطابة وتعليم القرآن بجامع المغاربة سنة 1950 بعد أن رشّحه شيخه ومعلمه الشيخ عليّ المنتصر لهذه المهمة، وبعد افتتاح معهد القويري الديني اشترك للحصول على الشهادة الابتدائية منه سنة 1955 وبعد افتتاح القسم الثانوي بالمعهد نال منه الشهادة الثانوية سنة 1964، ثم انتقل بعدها إلى مدينة البيضاء لمواصلة دراسته الجامعية بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالبيضاء تاركاً أسرته بمسقط رأسه قرية رأس عليّ.. وقد كان عميد الجامعة حينذاك الشيخ

مصطفى التريكي، ونال العالمية من هذه الكلية سنة 1968م..

ونذكر هنا أن مناهج الكليات بالجامعة الإسلامية حينها تتأثل المنهج الأزهريّ فمن درسها ونجح فيها فكأنما تخرّج من الجامع الأزهر..

وليست المناهج وحدها أزهرية، وإنما كان مدرّسوها ممن درسوا في الأزهر وتخرجوا.. ومن شيوخه وأساتذته ومن ألمع من درس عليهم الشيخ أحمد أبومزيريق في كلية أصول الدين: الشيخ محمد السماحي.. ويقول عنه الشيخ أحمد: إنه كان يمتاز بإشراقة الفكرة، ورَفْضِ الخرافة، ورفْضِ الدَّجَل في التفسير. ويوالي المترجَم لهُ وَصْفَه للسَّماحي قائلاً: كان الشيخ السماحي يرفض الأحاديث الضعيفة، وله دقّة خاصة في توجيه الأحاديث النبوية الشريفة.. وكان الشيخ أحمد أبومزيريق قد أخذ عن شيخه محمد السماحي بحث تَخرُّجه الذي عَنْوَنَهُ بـ **الكلمات العشر في القرآن**..

وقد انعكس هذا التأسيس القويّ القويم على نظرات الشيخ أحمد أبومزيريق التفسيرية واستفاد أَيُّما استفادة من هذا الشيخ الجليل محمد السماحي أستاذ التفسير في كلية أصول الدين وأمثاله..

❊ شروعه في الدراسات العليا:

بعد أن نال العالمية من أصول الدين التحق الشيخ المفسِّر بالدراسات العليا بـ " معهد الجغبوب "، ومكث هناك به مدة عامٍ ونصفٍ، وبعد ذاك توقفت الدراسة بذلك المعهد، وأُقفل باب الدراسات العليا به، فانتقل منه إلى معهد المعلمات بالبيضاء مدرّساً مدة سنة واحدة.. ثم نُقِل بعدئذٍ إلى معهد القراءات بالبيضاء أيضاً، ودرّس طلابه به زهاءَ ثلاث سنين.. من عام 1971- 1973، ودرّس بالقراءات العربيةَ في كتاب **قطر الندى** لابن هشام، **وشرح الأربعين النووية**، **والتفسير الواضح** لمحمود حجازي في أجزائه الثلاثة الأخيرة..

وعُرف أثناء عمله بهذا المعهد مثال الجِدّ، والبذل، وحسن العطاء، ناقداً للخرافات، والخزعبلات، والتُرَّهات، سواءً ما أُلصق وأُنيط بالتفسير، أو شروح الأحاديث، أو ما لاَبَسَ المجتمع من ذلك كله..

آبَ الشيخ أحمد أبومزيريق من البيضاء إلى مدينته مصراتة. وإثر عودته عُيِّن

مديراً بمدرسة "رأس عليّ القرآنية" وفي الآن نفسه أُسندت إليه الخطابة بمسجد أبي شحمة بمصراتة المدينة.. ودأَب على الخطبة فيه مدة أربع عشرة سنة.. ثم انتقل منه إلى مسجد قريته "رأس عليّ" إماماً وخطيباً، واتصل عمله فيه بهاتين المُهمّتين من سنة 1987م إلى سنة 2005م.. وكان إبّان الفترة الخطابية، والإمامية مدرّساً بـ"معهد القويري الديني"، وبالثانوية الاجتماعية يؤدّي رسالته التعليمية والتربوية التوجيهية لطلابه الكُثُر الذين نهلوا عنه، وأفادوا منه، وتَرَكَ في نفوسهم غِراساً طيّباً يزهر ويثمر كلَّ حينٍ..

*** أهم الشخصيات العلمية المؤثّرة في حياة صاحب التفسير:**

1. الشيخ المُربّي الجليل عليّ حسن المنتصر أخذ عنه الشيخ المفسِّر القرآن الكريم، وكان يشجع صاحب التفسير، ويَحْدَب عليه، ويُؤْثِره، وبسببه حفظ الشيخ أحمد أبومزيريق القرآن العظيم وهو لايزال غضّ الإهاب طريّ العود..
2. الشيخ الجليل الزاهد الورع الحكيم محمد عليّ السهولي كان ساهم في تكوين الشيخ المفسِّر في بداياته، لاسيما في العربية والفِقه..
3. ومن العلماء الأَجِلّاء الذين طبعوا الشيخ المفسِّر بطابع الجِدِّ والمثابرة على التحصيل العلمي: الشيخ عبدالحميد شاهين وهو من شيوخ الأزهر الأجلاء الفضلاء، كان مبعوثاً من الأزهر شيخاً لمعهد القويري الديني، ولم يقتصر دور الشيخ شاهين على رئاسة المعهد، وإنما قام بالخطابة في مسجد القويري التابع للمعهد، ويقوم إلى جوار رياسته للمعهد وخطابته في المسجد بالدعوة والموعظة في أوساط المجتمع المصراتي.. والشيخ شاهين داعيةٌ مصلحٌ وجيهٌ، بارعٌ في أسلوبه، وبليغٌ في منطقه، لذلك أثّر تأثيراً حسناً في طلابه خاصة، والمجتمع المصراتي عامة.. وكان لشيخنا أحمد أبومزيريق قدوة حسنة فيه. ونشير أيضاً إلى أن الشيخ شاهين يتأثل طريقة الإمام محمد عبده في الإصلاح!!..
4. ومن الأساتذة الفضلاء الذين كانت لهم بصماتهم الغائرة، وآثارهم الباهرة في تكوين صاحب هذا التفسير! الشيخ الأستاذ الدكتور محمد السَّماحي المصريّ الأزهريّ.. كان أستاذ مفسّرنا في كلية أصول الدين كما مرَّ معنا، وكان أصيلاً في تقرير علم التفسير، فلا خرافة ولا فضول، ولا آراء ضعيفة ولا

تدجيل.. ومن هذا الشيخ الجليل محمد السّماحي أخذ أستاذنا أبومزيريق نهجه الأصيل الأثيل في التفسير.

*** كتبه وآثاره العلمية:**

نذكرها سرداً ثم نصطفي أهمّها للتعريف به بصورة موجزة مركّزة...

1. يأتي في مقدمة كتبه وآثاره العلمية تفسيره هذا الذي نعرّف به هنا وهو مكوّن من اثني عشر مجلداً،
2. كشف المغطّى من حقائق المُوَطّا.
3. شرح منظومة الفطيسي في الفِقه المالكي.
4. كشف الغطاء عمّا وقع في المآتم من أخطاء.
5. اقتباس الشعر الحكيم من آيات القرآن الكريم.
6. مختارات خالدة ممتدة من تاريخ الإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.
7. المنتخب من أحاديث لسان العرب.

1. التعريف بشرح منظومة الفطيسي في الفِقه المالكي:

سمّى الشيخ أبومزيريق شرحه على **المنظومة الفطيسية** بـ **الدروس الأساسية في شرح المنظومة الفطيسية**

واقتصر الشيخ في شرحه على تحليل النظم بأخصر عبارة، مع تجاوزه عن شرح ما يتعلق بالرقّ نظراً لخروج هذا البحث من الفِقه إلى التاريخ.. وحسناً فعل... ويقع شرحه في 335 صفحة وهو تحت الطبع، وقد فرغ الشيخ من شرحه بتاريخ الأربعاء 5 ربيع الثاني سنة 1419 هـ.

أما صاحب **المنظومة الفطيسية** فهو محمد الفطيسي من علماء زليتن إحدى المدن الليبية العلمية الشهيرة، أصله من الأسر الأندلسية العريقة في العلم..

والأستاذ الفطيسي من علماء القرن الثالث عشر الهجري توفي سنة 1310 هـ. وتقع **المنظومة الفِقهية الفطيسية** في 1421 بيتاً من بحر الرجز.

2. التعريف بكتاب: كشف المغطَّى من حقائق المُوَطّا:

عرَّف فيه الشيخ أحمد أبومزيريق بأصح روايات المُوَطّا، وهي رواية يحيى بن يحيى الليثي..

كما أعطى تعريفاً بهذا السِفْر العظيم **المُوَطّأ** الذي هو أحد كتابين أسَّسَا للمدرسة المالكية.. والكتاب الآخر هو المدوَّنة أو **مدوَّنة مالك** وقد عرّف الشيخ أبومزيريق أيضاً بالمدوَّنة، وأعطاها الربع الأخير من كتابه **كشف المغطى**.

ومن النبذ المهمة التي كشف بها المؤلف عن كتاب **المُوَطّأ** أنه من أوائل ما أُلِف في علم الحديث.. كما أبان أن **المُوَطّأ** نبراس أضاء الدياجير الحوالك التي أعتمَت بها الآفاق بسبب الفِرق المتطرفة التي تبدَّت في بلاد الإسلام من مرجئة ومعتزلة وخوارج وروافض..

المُوَطّأ نبراس أضاء الدياجير، ونبع نمير طهّر الأرجاس والأنجاس فنفى الآراء الدخيلة، وعفّى على العادات السيِّئة العليلة.

وألقى **كشف المغطى** ضياءً كاشفاً حيال (رفع اليدين) عند الركوع والرفع، ولدى القيام من التشهد..

وتكلم بجلاء وإطناب عن حديث (وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة)..ممَا ينظر في موضعه من الكتاب..

وتحدَّث عن وضع الحديث، وأسبابه، وتناول ذلك ببيانٍ شافٍ كافٍ.

كما أبان عن نسبة الأحاديث الصحيحة، والحسنة، والضعيفة، في كتاب **الإحياء** للغزالي مستعيناً في تحديدها على جهة التقريب بتخريج العراقي على كتاب **الإحياء**..

وجلَى عن المسائل العشر لمحمد بن علي السنوسي التي خالف فيها المدرسة المالكية..وذلك استناداً على كتاب السنوسي نفسه. لقد أعطى فضيلة. الأستاذ الشيخ أحمد أبومزيريق في كتابه **كشف المغطى** حقائق نحسب أن قسماً لا بأس به يُعرَض لأول مرة.

3. التعريف بكتاب: المنتخب من مختار جمع الحديث المرتب من كتاب لسان العرب:

- عدد الأحاديث بهذا الكتاب **المنتخب** ثلاثمائة حديث.
- شرحه للأحاديث شرحٌ وسَطٌ وافٍ بالغرض والمقام. عبارة المؤلف فيه رصينة مُتقنة مُحكَمة.
- يُعَدُّ هذا الكتاب عملاً قيّماً يضاف إلى **التفسير**، إذ إن هذا الكتاب **المنتخب** شرح للأحاديث الشريفة والسُنَّة النبوية التي تمثّل المصدر التشريعي الثاني في الإسلام الحنيف.
- تمثّل في كتاب **المنتخب** أسلوب الشيخ أحمد أبومزيريق الذي نحا فيه إلى التعبير المسجّع غير المتكلّف، وهو في هذا يحذو حذو بعضِ القدامى في أساليبهم المسجّعة إلاّ أنه لا يُكثر ولا يُسِفّ ولا يتكلف!.
- أبدى الشيخ في هذا الكتاب **المنتخب** نصائح وتوجيهات قيّمة كدأبه في تفسيره إلاّ أنه هنا من خلال الأحاديث الشريفة التي انتخبها من **لسان العرب** لابن منظور.
- وللاطّلاع على الأسلوب والطريقة والمنهج وكذلك لمعرفة غاياته ومراميه الأصيلة الجليلة من هذا التأليف القيّم تُنظر أرقام الأحاديث التالية وما أبداه حولها من شروحات وإيضاحات:
- الحديث رقم 103، ونصّه: "**فارسٌ نطحةً أو نطحتين**". وأيضاً الحديث رقم 109، وهو قوله: "**يأتي على الناس أفضلُهم زخاخاً أقصدهم عيشاً**".

وكذلك يُنظر الحديث رقم 123، ونصه: "**خير المال مُهْرةٌ مأمورةٌ، وسكّةٌ مأبورةٌ**". . والحديث رقم 128، والذي يقول: "أعطيت الكنزين؛ الأحمر والأبيض".

وبإجمال، فهذا الكتاب في تقديرينا من أجمل ما كُتب حول الحديث الشريف في العصر الحديث، لأمرين:

1- لغرابة مادته .
2- ولإبداع مؤلفه في التحليل والتأويل.. والأمثلة وافرة نكتفي بما أشرنا إليه، ولا ينقص الكتاب إلاّ تخريج أحاديثه.

4. التعريف بكتاب: اقتباس الشعر الحكيم من آيات القرآن الكريم

هذا الكتاب قليل الصفحات فأحْرِ به أن يسمَّى رسالةً.. اختار له المؤلف عنوان **اقتباس الشعر الحكيم من آيات القرآن الكريم** لموافقة البحور المختارة من بحر الخليل بن أحمد الفراهيدي آيةً أو جزءَ آيةٍ من آيات الكتاب الكريم، وهذا النهج قد سلكه بعض المفسرين والأدباء نذكر من بينهم العلاّمة ابن عاشور في تفسيره لآية سورة "يس" وهي قوله تعالى: **وما علمناه الشعر وما ينبغي له.**

اجتبى الشيخ أحمد في رسالته هذه ثمانية بحور من أبحر الشعر وهي البحور الأكثر دوراناً واستعمالاً في الشعر العربي قديماً وحديثاً.. ورتّب تلك **البحور** على هذا النهج:

1-الطويل. 2- الخفيف. 3- الوافر. 4- الكامل. 5- البسيط. 6- المتقارب. 7- الرَّمَل. 8- الرَّجز.

وكان منهاجه المتّبَع في عرض هذه البحور:

أنْ يحدد اسم البحر الذي سيتناوله بالعرْض والتوضيح، ثم يُردِف بتحديد تفعيلاته في بيتٍ، شطرُهُ الأول التفعيلات مجرّدةً، وشطره الثاني الجزء المقتبس من آيات الكتاب الكريم.. ثم يعقّب بقصيدةٍ مختارة من إنشائه وصنعته، تكون تطبيقاً على البحر الذي أورده.. وعلى هذه الوتيرة مضى إلى نهاية هذه الرسالة الطريفة في رسم نهج للمِران والدُّرْبة على علم موازين الشعر. ويا ليت الناشدين المُنشدين للشعر الموزون يطّلعون على ما كتبه أستاذنا الجليل في هذا السبيل، من عَروض الخليل.. وكان فراغ المؤلف من هذه الرسالة بتاريخ غرة رمضان عام 1424هـ.

*** كفاحه العلمي والتربوي:**

عاش صاحب هذا التفسير للعلم طالباً ومعلّماً، ومرشداً ومربيًّا في قاعات الدروس، وعلى المنابر، وفي مجالسه.. وكانت مجالسه مجالس علم وفائدة وتربية.

انتظم في التدريس ستين عاماً.. ما توانى ولا فتر طوالها.. وكان جلوسه في الحجرة الخاصة به المسمّاة بـ"الخلوة" إن كان وحده لا تراه إلاّ ممسكاً كتاباً يقرأ

فيه، وإن جاء طالبُ علمٍ وضع كتابه وأفاده بدرس أو حِوار ومناقشة، وهو في مناقشاته شديد الصراحة والوضوح.. متواضع لا يستبدّ بالحديث ولا يطغى على مناقشته بحِدَّة أو عنف.. جريء في نقده للعادات البالية والأفكار الشاذة!!.

* **سعة اطلاعه:**

كان الكتاب سلوتَهُ وغايته، إذا وقع في يديه كتابٌ بادر إلى قراءته، وألمّ بأطرافه، وأحاط بمقاصده ومآربه، إذا تحدث عنه -بعدُ- تحدث عنه حديث الخبير النحرير، يندر أن يكون كتاب هامٌّ قيّمٌ إلاّ فتّشه وأحاط به خُبُراً.. قرأ أمهات التفاسير، وراد كل كتاب شهيرٍ خطيرٍ. **كمقدمة ابن خلدون، وموافقات الشاطبي،** وكُتُب الغزالي المعاصر إلى غيرها من الكتب مما يضيق بحصره المقام.. والشيخ أحمد أبومزيريق شغوفٌ بالكتاب ينشده حيث كان في أي مكان ولدى أي إنسان، فإذا ظَفِرَ به بادر إلى سَبْره وتفتيشه في أوجز زمانٍ، حتى إنه ليقرأ المجلد الضخم في يوم أو يومين.. إن لم نقل في يومٍ أو بعض يوم!!..

ثانياً: التعريف بالتفسير:

أ) مصادر تفسيره وجوانب الاستفادة منها:

1- الطبري استفاد منه كثيراً.

2- **النيسابوري**: استفاد من آرائه التفسيرية الخاصة، إذ له لفتات قيّمة.

3- **تفسير ابن كثير**: أفاد من اختياراته الجيدة من وجه التفسير، ومن المحاسن التي تشدّه إلى **تفسير ابن كثير** اعتماده تفسير القرآن بالقرآن.

4- **النسفي**: أفاد من توجيهاته القيّمة المحكّمة.

5- **الرازي**: أفاده في ربط الآيات، والمطّلع على **تفسير الرازي** يبرز له حُسْن تأتّيه في الربط بين آيات الذكر الحكيم بما عزّ نظيره لدى غيره.

6- **الألوسي**: رجع إليه في بعض المسائل الإعرابية، ويثني المؤلف على دقته في الإعراب.

7- **المنار**: واستفادته منه إجمالية، وليست نقلية ولا تلقائية.

8- **الظلال**: أفاد منه في توجيهاته وتعابيره، وكلامه حول التصوير الفني في

القرآن العظيم. وله نُقُول كثيرة عنه أفعم بها التفسير، وهي نُقولٌ منتخبةٌ تدلّ على دقّته وحُسْن اختياره.

9- **التحرير والتنوير**: وقد أفاض من النقل عليه أيضاً في التوجيهات والربط للآيات واللغة والبلاغة.

ب) **الخطة التي نسّق عليها تفسيره والتزمها:**

1- إثبات النص القرآني في بداية كل موضوع مستقل، أو موضوعات مترابطة.. ويضع لهذا الموضوع الواحد أو الموضوعات التي يربطها نسقٌ ونظامٌ عنواناً واحداً جامعاً يزاوج فيه بين الدقة والأناقة.

2- المباحث اللغوية: وتأتي رديفة للنص المعنون بعناوين أنيقةٍ لبيقةٍ جامعةٍ.. وفي المباحث اللغوية يبدو اتّكاؤه الجليّ على **تفسير التحرير والتنوير**..

3- الأمر الثالث الذي اختطه لهذا التفسير ودأب ودَرَب عليه مبحث الإعراب، وفي هذا المبحث اصطفى الوجهَ الإعرابي الجليّ الواضح دون لجوءٍ إلى الخلافات والتشعبات. وقد تتبّع في هذا الجانب النحوي الإعرابي القرآن المجيد كلَّه، وكانت أوبته لدى كل إشكال في هذا المنحى إلى **تفسير الألوسي**.

4- الجانب الرابع في خطة المؤلف لهذا التفسير: المبحث البلاغي، وفيه اعتمد فضيلته على **تفسير الإمام ابن عاشور** رحمه الله تعالى.

5- الجانب الخامس والأخير من جوانب هذا التفسير ما أطلق عليه: خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام؛ هذه العناصر والجوانب الخمسة اتخذها المؤلف -حفظه الله تعالى- نهجاً سار على مناره طيلة تفسيره.. فإذا استوفى الجوانب الخمسة المذكورة آنفاً في نص شرع في تفسير النص التالي له.. متناولاً إياه على الوتيرة السابقة. وهي خطة منظمة مُحكمة أبدع المؤلف في اجتبائها وحبكها فأوفى بتطبيقها جُلَّ الغايات الكبرى للتفسير، وبهذا المنحى الذي سلكه صاحب هذا التفسير يكون قد أوفى بمعظم المقاصد المنشودة من علم التفسير.. وبهذا الصنيع فإن المؤلف جمع ما توزع من مآرب المفسرين في تفاسيرهم.. والناظر في هذا التفسير والباحث في أطوائه يُلفِيه قد صدر عن مناهل عدة.. في وقت يغلب على كثير من التفاسير نهلها من مَشْرَب واحد، ونبذ ما سواه.

فمن كان ضليعاً في أي علم غلّبه وتعاطاه، كالزمخشري في كشّافه إذ أبرز فيه علوم العربية وطغت فيه على مناحي التفسير الأخرى. وعلى نحو قريب منه درج ابن عطية في تفسيره.. مع بعَض فروق أخرى يدركها الباحثون في طوايا كتب التفسير..

ورأينا أبا حيّان الأندلسي يفصّل القول في النحو تفصيلاً حتى كاد تفسيره أن يكون كتاب إعرابٍ.. ورأينا القرطبي في تفسيره **الجامع لأحكام القرآن** يجتبي عنوان تفسيره لِما هو صريح منذ البدء في قصده من تفسيره أَلاَ وهو الإغراق في بيان أحكام القرآن الكريم وقد حقق هذا المأرب في تفسيره الضخم حتى إنه ليذكر للحُكم الفِقهي الواحد عشرات المسائل..

ذلك هو ما غلب على جمهرة التفاسير السابقة من طغيان الغرض الذي تخصص فيه مؤلفه على غيره من غايات ومقاصد التفسير الأخرى. وأحسب أن التفسير الأمثل لكتاب الله العزيز هو التفسير الذي يُولي جوانب التفسير حقّها بقدر الطاقة البشرية ويغلّب المقصد الأسمى من علم التفسير الشاخص في بيان مرامي الآيات من أحكامٍ وتوجيهات، وهذا ما نحسب مُفسّرنا العلاّمة قد يمّمه وتمّمه، وسخّر الجوانب الأخرى لخدمته وتمكينه.. فما تناوله من لغةٍ وإعرابٍ وبلاغةٍ وتحديدٍ موضوعيٍّ للنصوص - إنما كان للغاية الكبرى التي أبرزها في خلاصته للمعنى العام، وما فيه من توجيهات وأحكام.. وقد استعان في التوصّل إلى غايته الجليلة هذه بالتفاسير عامة، ويأتي في مقدمتها التفاسير المذكورة آنفاً..

ومُفسّرنا الشيخ أحمد أبومزيريق يؤسس أركان تفسيره على تفسيرين هامّين من نتاج المفسِّرين المعاصرين.. هما: **تفسير التحريروالتنوير** للإمام العلاّمة محمد الطاهر بن عاشور. والتفسير الآخر هو **تفسير الظِّلال** للأستاذ سيّد قطب.. وهما تفسيران شهيران كبيران أرْبَيَا على الغاية، لاسيما **تفسير ابن عاشور** الذي جمع فيه حقًّا بين التحرير والتنوير، وأبرز فيه أجمل ما توزّع في التفاسير، وأضاف عليها الكثير.. على أن كل قائلٍ يُؤْخَذ من كلامه ويُردُّ إلاّ صاحب الشريعة محمد صلَّى الله عليه وسلم.. لذا عمد الأستاذ العلاّمة المفسّر إلى التفسيرين المذكورين **التحرير والتنوير**، و**الظِّلال** فانتخب أجود ما فيهما وألفَّ بينهما وأضاف إليهما من تفاسير أخرى، أو مما ارتآه واجتباه من استنباطه وبنات أفكاره، وما سدّده ربه تعالى فيه، ووفّقه إليه.

جـ) الزمن الذي قضاه المؤلف في إعداد تفسيره:

ابتدأ الشيخ أحمد أبومزيريق تفسيره الجليل الضخم سنة 1973م وانتهى منه عام 1993م، فيكون مكثه في تفسيره استوعب من الزمن عشرين عاماً.. كان يكتبه في صبرٍ وأناةٍ وصمتٍ، فهو قليل الحديث عنه، ولم يُفصح عنه أو يذكره إلاّ بعد انتهائه من كتابته.

*** تفسير إرشاد الحيران والتفاسير الليبية السابقة:**

لم يخرج تفسير ليبي متكامل إلى وقت كتابة هذا التعريف رغم بروز عدد من العلماء الجهابذة على امتداد ساحة هذه البلاد وعلى مدى براح المدة الطويلة الخالية.. ولهذا أسباب، لعل أبرزها بُعدُ المسافات بين المدن والقرى الليبية؛ إلى جوار أن ليبيا على قلّة مواطنيها واتساع أرجائها بُليت باستعمارٍ قاسٍ ظالم جائرٍ طَمَسَ معالمها ومحاسنها واستأصل تراثها ألا وهو الاستعمار الإيطالي، وقدْ سبقته سنوات عجافٌ طوال تحت حكم الأتراك.. لذلك انمحق كثير من التراث المكتوب في كل المجالات، وفقدنا ميراثاً عزيزاً ضخماً من المؤلفات.. ومن بينه ما كتب حيال آيات الكتاب العزيز من تفاسير..

لم يبلغنا - إذاً - تفسير ليبي متكامل عن تلك الحِقَب الخالية ما عدا تفسيراً واحداً لأبي عبدالله محمد بن عليّ الخروبي الطرابلسي المتوفى سنة 963هـ عَنْوَنَه بـ **رياض الأزهار وكنز الأسرار في تفسير القرآن** وهو تفسير كبير يقع في ثماني مجلدات لا يزال مغموراً ما بين المخطوطات، وهذا التفسير يتّجه نحو الجمع بين الشريعة والحقيقة، أي بين الأحكام الشرعية الظاهرة وبين ما يسميه الأسرار الربانية الصوفية.. ولو برز تفسير الخروبي مطبوعاً لسدَّ فراغاً هائلاً وفضاءً واسعاً رحْباً في علم التفسير بهذه البلاد الفسيحة.

نقول هذا لأسباب:

1- لكون مؤلفه من علماء طرابلس الكبار.

2- ولأن عهد المؤلف ليس موغلاً في البعد.

3- وأيضاً لجمع تفسير الخروبي بين تفسيرين عظيمين سابقين، الأول: تفسير ابن عطية **المحرر الوجيز.** والآخر: تفسير الثعالبي الجزائري

الذي لخّص فيه تفسير ابن عطية.. فجاء الخروبي وجمع بين التفسيرين وزاد عليهما كما يقول الدكتور إبراهيم عبدالله ارفيدة في كتابه **النحو وكتب التفسير.**

لم يظهر تفسير الخروبي وبقي إلى الآن حبيس الرفوف ولم يعد من الممكن طباعته والاستفادة منه فيما رشح من كلام الدكتور ارفيدة عنه.

وحصيلة ما سبق أن الساحة العلمية الليبية خالية خلوّاً تامًّا من أيّ تفسير كامل للكتاب الكريم القرآن العظيم، فمن ثمة فإن تفسير أستاذنا الجليل الشيخ أحمد أبومزيريق يأتي في أوانه ومكانه، ليبشّر بعطاءٍ مدرارٍ في تفسير آيِ القرآن المجيد.

د) من مزايا تفسير إرشاد الحيران:

1- جَمْعُه لمطالب التفسير من لغة ونحو وبلاغة وإيضاح للروابط بين موضوعات وسور وآيات كتاب الله الكريم.

2- ضميمتُه لمزايا كتب التفسير منذ بزوغ فجرها حتى حاضر عصرها.

3- من مزاياه أنه جمع بين تفسيرين عصريين هما ذروة ما كُتب حديثاً في هذا السبيل.

جمع الشيخ الجليل أحمد أبومزيريق بين هذين التفسيرين القيّمين المغربي والمشرقي.. صهرهما معاً، واستخرج منهما تفسيراً رائعاً بديعاً شاملاً وافراً.. تحاشى تطويل ابن عاشور وإنْ أجاد.. وتحاشى من تفسير الظِّلال الغلوّ في الانتقاد.. فكان منصفاً معتدلاً مبتغياً للمراد. فهذا **التفسير** الذي بين أيدينا يُغني عن التفاسير السالفة والحاضرة، لغنائه وثرائه وجمعه واعتداله ونأيه عن التعصب والمغالاة واجتهاده في الاقتصار على صلب التفسير.. ولاحتوائه على ما كتبه الأوائل والأواخر من المفسرين على اختلاف طبقاتهم، واتجاهاتهم وغاياتهم، فهو جديرٌ بأن يقال فيه "كل الصيد في جوف الفرا"

4- من مزاياه نأيُهُ عن الخرافات والخزعبلات، والآراء الضعيفة، والروايات السخيفة، والإسرائيليات المدسوسة، والأقاويل التي لا تقوم على ساق الدليل..

5- من مزاياه أنه لا يغادر أجواءَ النص القرآني الحكيم.. ولا يشرد ولا يستطرد،

وإنما يُنزِّل الكلام حسب المقام.. ولو حصل منه استطراد نبّه عليه كصنيعه عندما استطرد بآخر سورة الأنعام إلى مسألة وصول ثواب القراءة على الأموات.

هـ) الجديد في هذا التفسير:

ربما نظلم هذا التفسير القيم لو قلنا عمّا نوجزه حول ما فيه من جديد إنه هذا الجديد فحسب، ولكن ننبه على أن ما نُلِمّ به ونذكره هنا من الجديد الواقع في هذا التفسير الجليل أنما هي إشارات لما هو مُودَع في زوايا التفسير وحناياه وخباياه فمن أراد الظفر بهذه الكنوز المذخورة تحتّم وتوجّب أن يردِّد النظر، ويُسرِّح في جنباته الفكر.

فمن الجديد في تفسير **إرشاد الحيران**:

1- تفسيره الدابة المذكورة بآخر سورة النمل بأنها السيارة والقطار وما إليهما، ذلك لأنها تخرج وتُصنَّع من الأرض، ولكونها " تكلِّمهم " أي تُكِلّم الناس بمعنى تجرِّحهم.. وهو تأويل يتجانس مع اللغة، ويساير الواقع المعاصر!!.

2- تفسيره الظهور في قوله تعالى **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم**بالظهور الذي معناها الخروج إلى الحياة.. فتكون **الظهور** في الآية الكريمة مصدراً، وتكون مِنْ السابقة عليها دالّة على الابتداء.. والمعنى على هذا أن الله تعالى ابتدأ إيجاد الذُرّيّة منذ ظهور الآباء وقدرتهم على الزواج.

3- قال بعدم نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان معلِّلاً ومستدلاً على منع نزوله بالقول: لو نزل عيسى عليه السلام بصفته نبيًا لَلَزِم ألاّ يكون محمد صلّى الله عليه وسلّم خاتم النبيئين.. ولو جُرِّد من وصف الرسالة لدى نزوله ونَزَل بشراً عاديًا لكان ذلك أمراً مرفوضاً، إذ لا تُسلب الرسالة من رسول أُوتيها..

ولو قال قائل إن أمر نزول عيسى عليه السلام بآخر الحياة الدنيا صحّت به الآحاديث إذ ورد في **الصحيحين** وغيرهما فإن جواب الشيخ على ذلك كما نعرفه من مناقشاتنا له في مثل هذه القضية يأتي على هذا المنوال بأن النزول أمرٌ من أمور العقيدة وأمور العقيدة لا يقبل فيها إلاّ النص المتواتر، ولا تواتر هنا!!.

4- وبحجة عدم التواتر أيضاً أنكر الشيخ أحمد أبومزيريق أن يكون محمد صلّى

الله عليه وسلَّم قد سُحِر مع أن الحديث القائل بجريان السحر على خاتم المرسلين من طرف اليهود واردٌ في **الصحيحين** وغيرهما.. ومن حجته في نَفْي أن يكون عليه الصلاة والسلام قد سُحِر أن ذلك منافٍ للقرآن في قوله تعالى على لسان المشركين **إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً**

5- ومن الجديد في هذا **التفسير** قوله في النَّسْخِ بآية البقرة بأنه نَسْخُ شرائع أي ما بين الشرائع المتقدمة على شريعة القرآن وبين ما جاء في القرآن من تشريعات في كافة المجالات. أي أن القرآن نسخ بعض تلك الشرائع فَنَقَلها إليه، وترك بعضاً آخر دون نسخ ونقل إلى الشريعة الإسلامية الخاتمة.. فالنسخ هنا معناه النقل، والنقل المراد من شرائع ماضية إلى شريعة الإسلام.

6- توسُّعُه في تفسير العصمة الواردة بآية المائدة، والذي اشتهر بين المفسرين أن عصمة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم من الناس مقصورةٌ على حفظه من القتل تمكيناً له من تبليغ رسالة ربه عزَّ وجلَّ للعالَمين.. أما مؤلف هذا **التفسير** فإنه يختار أن تكون العصمة لرسول الله من الناس عامة تشمل صيانته من القتل والسحر وكيد أعدائه!!. وهذا هو المناسب لعموم اللفظ الذي ينبغي أن تُحمَل عليه الآيات إن لم يكن ثمّ مانعٌ، ولا مانعَ،

7- فسّر عرْض آل فرعون على النار الوارد بآية غافر **النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا**بما وقع على آل فرعون من رِجْزٍ وعقوباتٍ كالطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدّمِ.. في حين يستدل جمهرة المفسرين بهاته الآية الكريمة على عذاب القبر.

8- فسّر زيادة فصاحة هارون عن موسى بِقِلّة مداخلة موسى للفراعنة، بخلاف هارون الذي كان يداخلهم ويتعامل معهم على أن هارون لم يترك أرض مصر، ولم يهجر لغةَ أهلها من الفراعنة.. وهو تعليلٌ عقلانيٌّ يعتمد الواقع التاريخي، ويهجر ما قيل من خرافة الجمرة والتمرة التي عرضها فرعون على موسى فأخذ الجمرة، ورماها في فمه فأنقصت من فصاحته!!.. وتأويل الشيخ هذا فيه مزيّتان: أولاهما: مراعاة جناب نبي الله موسى عليه السلام من نسبة الرُّتَّة إليه. وثانيهما: رفع مقام كلام الله تعالى عن تأويله بالخرافة، والأقاويل الضعيفة، والإسرائيليات السخيفة!!.

9- ومن الجديد في تفسير **إرشاد الحيران** تأويله اللطيف الذي يَعِزُّ العثور عليه في التفاسير ما أبداه حول الآية الكريمة من سورة الروم القائلة **واختلاف ألسنتكم وألوانكم** إذ فسّر اختلاف الألسنة بالأصوات التي تميّز الشخص عن سواه، وفسّر اختلاف الألوان باختلاف تفصيل القَسمات والسحنات في الوجوه!.

في نهاية هذا التقديم نلْفِتُ أنظار الباحثين من ذوي الرسائل العلمية ذات العلاقة أن يدرسوا من هذا التفسير جوانبه المختلفة.. كنهج المؤلف في تفسيره، ومصادره، وتخريج أحاديثه، والجديد في تفسيره، إلى غيرها من الموضوعات التي زخر بها هذا التفسير..

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللهوأزكى صلواته وتسليماته على خيرته من خلقه ومجتباه سيد العالمين، وإمام المرسلين، وخاتم رسل الله أجمعين، محمد المبعوث هداية لكافة الراشدين. .**سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**

الناشر

1 ـ افتتاحية القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مبحث المفردات اللغويّة:

الباء في ﴿**بسم الله**﴾ للملابسة، والملابسة هي المصاحبة، وهي الإلصاق أيضا، فهذه مترادفات في الدلالة على هذا المعنى، وهي كما في قوله تعالى: ﴿**تنبت بالدهن**﴾ وقولهم: بالرفاء والبنين، وهذا المعنى هو أكثر معاني الباء وأشهرها. والاسم لفظ جعل دالا على ذات حسيّة أو معنويّة، بشخصها أو نوعها، مشتق من السموّ وهو الرفعة، ويجمع على أسماء. والله علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد. ﴿**الرحمن**﴾ اسم من أسماء الله الحسنى خاص به لا يطلق على غيره سبحانه وتعالى. ﴿**الرحيم**﴾ من أمثلة المبالغة؛ لأنّ مدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلق.

مبحث الإعراب:

﴿**بسم**﴾ الباء حرف جر واسم مجرور بها، وعلامة جره الكسرة الظاهرة، والجار والمجرور متعلق بفعل مقدّر، والتقدير أبتدئُ بسم. ﴿**الله**﴾ مضاف إليه. ﴿**الرحمن**﴾ بدل من الله، أو بيان له مجرور بالكسرة الظاهرة. ﴿**الرحيم**﴾ مثله، ويجوز أن يكون نعتا للرحمن مجرور بالكسرة الظاهرة.

مبحث الأسلوب البلاغي

حذف متعلق الجار والمجرور؛ ليكون حسب الغرض المطلوب من الكلام المفتتح به، مع ما فيه من الإيجاز، وقدم اسم الله على الرحمن، لإثارة الهيبة في قلب المتكلم أو السامع، لما في اسم الجلالة من العظمة والهيبة والرهبة، وقدّم الرحمن على الرحيم؛ لأنّ الرحمن خاص بالله فاقترن به، ولما في الرحمن من رغبة الرحمة، ليقابل الرهبة والهيبة، فـ ﴿**الله**﴾ يدل على الجلال، و﴿**الرحمن**﴾ يدل على الجمال، و﴿**الرحيم**﴾ يدل على تعدد التعلق، فيتعلق بالله من حيث رحمانيته ويتعلق بغيره من حيث رحمته ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾، يهبها لمن

يشاء من عباده فقد وصف بها رسوله محمد ﷺ **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾**، ووصف بها أصحابه رضي الله عنهم **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**، وفي الحديث الشريف «الراحمون يرحمهم الرحمن».

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

افتتح الله - تعالى - كتابه بها، توجيهًا وتعليمًا وإرشادًا إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الخاضع المسترشد من بداية أمره، منطلقًا من نقطة البداية التي هي كلمة الحق، من الله الحق **﴿ذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنّى تصرفون﴾**. وهذا توجيه فذّ لجميع الناس، حتى لا تكون بدايتهم إلاّ من الله، واتجاههم إلاّ إليه؛ إخلاصًا له في أعمالهم ونياتهم في جميع الاتجاهات. ليس هناك إلاّ اسم الله تعالى، ليس هناك سلطان أو ملك أو زعيم أو رئيس يُتجه إليه، ويطلب منه الهداية والعون. فهؤلاء وغيرهم من المخلوقين جميعًا فقراء، محتاجون مقهورون ضعفاء، لا يدفعون فقرًا ولا يغيثون محتاجًا **﴿إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾**.

لقد علّمنا الله - سبحانه - كيف نسير، ومن أين نبتدئ، وإلى أين نتجه في قوله: بسم الله الرحمن الرحيم، فالواجب علينا، واللائق بنا نحن المسلمين، أن نأخذها نبراسًا نستضيء بها في حياتنا، اقتداء بنبينا ﷺ وبأصحابه الهادين المهتدين، وبأتباعهم المسترشدين رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين، لا نحيد عنها ولا نحيف، لنكون مثلهم من المفلحين. ولقد نقرأ لبعض من الذين عميت عليهم السبل وأضلتهم الشهوات وخيبة الأمل، فافتتحوا كتبهم ومقالاتهم وخطبهم بأسماء غير الله عزّ وجلّ، تملقًا وتزلفا لما عندهم من المتاع الزائل، والجاه الزائف الباطل، ونقرأ لهم أو نسمعهم يهرفون بما لا يعرفون: إلى جلالة مولانا...! أو باسم مولانا...! ونقرأ لهم أو نسمعهم يصفون رؤساءهم وزعماءهم وكبراءهم بأوصاف لا تليق بمخلوق، ولا يصح أن يتصفوا بها. مثل: ملك الملوك، أو جلالة الملك، أو الزعيم العظيم، أو المجاهد الأكبر...! كل هذه الأقوال والأوصاف التي هي أسماء على غير مسمى ما أنزل الله بها من سلطان.

واستمع إلى الله في كتابه حيث يرد على هؤلاء الضالين المضلين، ويفند

أقوالهم ويزيف اعتقاداتهم فيقول ﴿**إن هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى...**﴾ نعم جاء الهدى من الله، فبيَّن الرشد من الغي، فما لنا لا نهتدي به ولا نتبع سبيله. والله سبحانه وتعالى يقول ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين، نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيرا. إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا**﴾. اللهم إنّها فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. وبعد فهذه هي بسم الله الرحمن الرحيم، وهي الافتتاحية الحقة، والكلمة الطيبة التي يستظل بظلها المخلصون ويتمتع بأكلها المهتدون ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ وهي التي افتتح الله بها كتابه الحق، ليكون لنا هاديًا ودليلاً، ويضيء لنا في ظلمات الليل سبيلاً... هذا الذي أردت بيانه هنا قليل من كثير بالنسبة إلى ما خفي على الإنسان القاصر النظر الضعيف الفكر، الذي تسلطت عليه الأوهام، والتبست عليه المعالم في حالكات الظلام، فأخذ يتخبط في متاهات وآراء تباعد بها أو باعدته عن جادة صواب الأحكام. وبالرغم من هذا كله، فالحقيقة لازالت هي الحقيقة، ونور الشمس لا تطمسه السُّرج، لأنّها كلمة الله لا تبديل لها ولا تغيير فيها، فهي باقية ما بقي الزمان...

أيّها الواقف على هذا الكلام اسمعني أقل لك: لا تعتقد أنّي أقول هذا الكلام تنقيصاً وتهوينًا لما كتب في تفسير القرآن من الآراء والمقالات والمذاهب والخلافات، لا والله ما أردت هذا... ولكن أنصحك وأناشدك الله أن تقرأ هذه الآراء بجد وإخلاص، وتقارن بينها وبين ما تجده في نفس نص الآية، ليظهر لك الحق، وبعد ذلك تحكم على كلامي بالحق أو بالباطل. ذاكر كتب التفسير في هذا الموضوع، وفي غيره من الموضوعات الأخرى تجد الغث والسمين، والبخس والثمين، بشرط أن تكون من أصحاب العقول الذكيّة، والأفكار الصائبة النقية، ولا تكن كالذين اعتقدوا قبل أن يفكروا، والذين حكموا قبل أن يتصوروا، لأنّي أقول لك: حكمك على الشيء قبل تصوره باطل، واتهامك البريء ظلم، والمتهم بريء حتى تثبت إدانته، هذا هو الحكم العادل.

ونرجع بالكلام إلى ما كنا فيه من ذكر ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾: نحت

العلماء منها «بسمل» لقصد التخفيف، لكثرة دوران ذلك على الألسنة، فأصل بسمل قال بسم الله ثم أطلق على قول بسم الله الرحمن الرحيم. والمتفق عليه عند العلماء أنّ البسملة آية افتتح بها القرآن، وأنّها جزء آية من سورة النمل، والمختلف فيه بينهم؛ هل هي آية من الفاتحة ومن كل سورة، أو هي آية من الفاتحة فقط. فمالك ومن وافقه يرى أنّ البسملة آية من القرآن افتتح بها القرآن، فهي الآية الأولى فيه، وتكررت في أوائل كل سورة غير سورة التوبة، للفصل بين السور فقط. والشافعي ومن وافقه يقول: هي آية من الفاتحة تجب قراءتها في الصلاة معها. وبعض العلماء يقول: هي آية من كل سورة من سور القرآن غير سورة التوبة، وحكمة حذفها من سورة التوبة؛ أنّ فيها إعلان الحرب على الشرك والمشركين، والبسملة آية رحمة لا تتناسب مع الأحكام التي فيها العذاب!. ورأي مالك هو المقبول عند محققي العلماء، لأنّه لا يرد عليه الاعتراض الذي ورد على قول غيره.

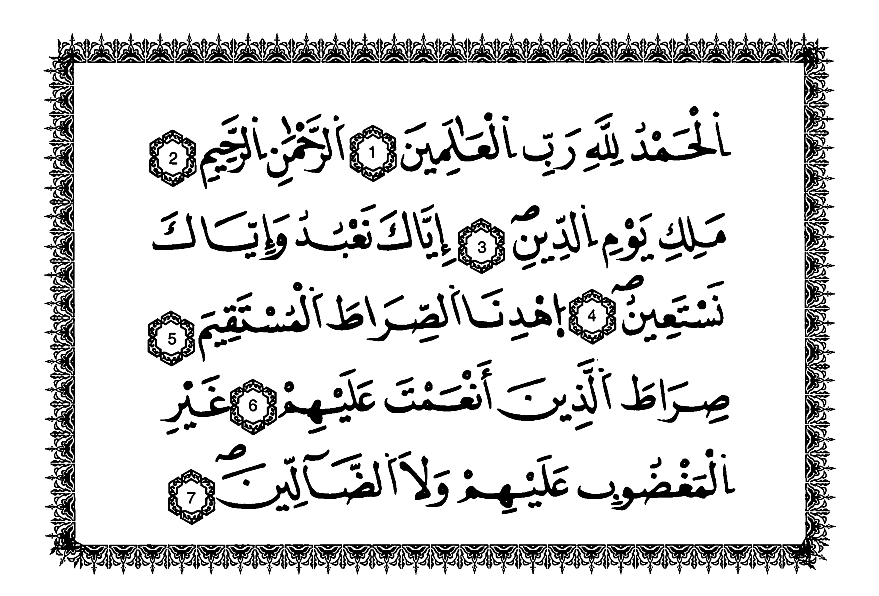
ولم يختلف العلماء في أنّ الافتتاح بالبسملة في الأمور المهمة ذوات البال، ورد في الإسلام، وروي فيه حديث «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» لم يورده أصحاب السنن ولا المستدركات، وقد وصف بأنّه حسن. وذكر البسملة ورد على ألسنة الأنبياء، فقد قال نوح عليه السلام ﴿**اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها**﴾، وقال سليمان عليه السلام في كتابه لملكة سبأ ﴿**إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، وكان رسول الله ﷺ يكتب رسائله ويبدأ فيها بسم الله الرحمن الرحيم، وقد حصل نزاع بينه وبين قريش عندما أراد أن يكتب وثيقة عهد الحديبية، في كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وفي كتابة باسمك اللهم كما هي عادتهم في كتابة العهود.

واستمر الحال بعد ذلك عند المسلمين جميعًا على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم في رسائلهم ومصنفاتهم، وفي ذكرها في ابتداء الأمر المهم، إلاّ في حالة ذبح الحيوان، فيقولون: باسم الله والله أكبر. وفي ذكرها عند الأكل كاملة أو بسم الله فقط خلاف، وقد ظهر في هذا العصر بعض المتحذلقين من يقول في ابتداء كلامهم: بسم الله فقط!. وهي ظاهرة غريبة وبدعة عجيبة! نعوذ بالله من الكبر والكبراء ونعوذ به من الجهل والجهلاء والضعف والضعفاء.

2 - مقدمة الكتاب المبين:
الحمد لله رب العالمين...



النص



مبحث المفردات اللغوية

﴿**الحمد**﴾: الثناء باللسان على الجميل الاختياري، وبهذا التعريف يخالف المدح... ﴿**لله**﴾: مُلكا واستحقاقا... ﴿**رب**﴾: مالك الشيء القائم على العناية به ورعايته حتى يبلغ غايته... ﴿**العالمين**﴾: جمع عالم، والعالم كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات... ﴿**الرحمن**﴾: مالك الرحمة... ﴿**الرحيم**﴾: واهب الرحمة... ﴿**ملك**﴾: الحاكم المطلق الخالق الآمر... ﴿**يوم الدين**﴾: يوم القيامة الذي يجازى فيه كل عامل بما عمل... ﴿**إياك**﴾: ضمير منفصل، وهو من ضمائر النصب... ﴿**نعبد**﴾: العبادة غاية الخضوع والانقياد... ﴿**نستعين**﴾: الاستعانة طلب العون والمساعدة... ﴿**اهدنا**﴾: طلب الهداية، والهداية إرشاد

الضال... ﴿**الصراط**﴾: الطريق... ﴿**المستقيم**﴾: الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء، والخط المستقيم أقصر وأخصر الخطوط لقربه ووضوحه... ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: أفضت عليهم الخير، وكل نافع ومحبوب... ﴿**غير**﴾: المغايرة مخالفة شيء لشيء آخر، في الذات أو في الصفات... ﴿**المغضوب عليهم**﴾: من حلّ عليهم الغضب، وهو المقت والطرد واللعن... ﴿**ولا الضالين**﴾: الضال: الذاهب الذي تاه في الفيافي والمتاهات المهلكة.

مبحث الإعراب:

﴿**الحمد**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة الظاهرة. ﴿**لله**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، أي: ثابت لله. ﴿**رب**﴾ نعت لله مجرور بالكسرة. ﴿**العالمين**﴾ مضاف إلى رب مجرور بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿**الرحمن**﴾ نعت أو بدل من الله مجرور بالكسرة. ﴿**الرحيم**﴾ مثله. ﴿**ملك**﴾ كذلك. ﴿**يوم**﴾ مضاف إلى ملك مجرور بالكسرة. ﴿**الدين**﴾ مضاف إلى يوم مجرور بالكسرة. ﴿**إيّاك**﴾ مفعول مقدم لنعبد، مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**نعبد**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير تقديره نحن. ﴿**وإيّاك نستعين**﴾ معطوف على إيّاك نعبد، وهو مثله في الإعراب. ﴿**اهدنا**﴾ فعل دعاء مبني على حذف الياء، والفاعل فيه ضمير تقديره أنت، وضمير المتكلمين فيه مفعول أول مبني على السكون في محل نصب. ﴿**الصراط**﴾ مفعول ثان منصوب بالفتحة. ﴿**المستقيم**﴾ نعت للصراط منصوب بالفتحة.

﴿**صراط**﴾ بدل من الصراط، وبدل المنصوب منصوب. ﴿**الذين**﴾ مضاف إلى صراط في محل جر. ﴿**أنعمت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأنعمت، وجملة أنعمت عليهم صلة الذين لا محل لها من الإعراب. ﴿**غير**﴾ نعت للضميرالمجرور في عليهم. ﴿**المغضوب**﴾ مضاف إلى غير مجرور بالكسرة. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بالمغضوب. ﴿**ولا الضالين**﴾ الواو للعطف ولا للنفي، والضالين معطوف على المغضوب عليهم مجرور بالياء؛ لأنّه جمع مذكر سالم.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾: اقتران الحمد لله رب العالمين ببسم الله الرحمن الرحيم، لما فيهما من براعة المطلع، وهو أسلوب بلاغي رفيع، لأنّه من أول المطلع يشير إلى الغرض الذي يريد أن يتكلم فيه المتكلم. وهنا يبتدئ القرآن بذكر اسم الله في الافتتاحية والمقدمة، لأنّ هذا الكلام من عند الله، داع إلى دين الله، فمن حسن المطلع، أن يبدأ فيه بذكر اسم الله، ويتذكّر نعم الله. ويُسمّى أيضا براعة الاستهلال، لأنّ المتكلم يستهل كلامه بما يشير إلى الموضوع. والحمد مصدر حمد حمداً، فأصله منصوب بإضمار فعلِهِ، على أنّه من المصادر التي ينصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار، كقولهم: شكرا وكفرا وعجبا، وينزلونها منزلة أفعالها، ولذلك لا يستعملونها معها. والعدول بها عن النصب إلى الرفع - كما هنا - للدلالة على الدوام والثبات بمصير الجملة الاسمية؛ والدلالة على العموم المستفاد في المقام من ألْ. . . والدلالة على الاهتمام المستفاد من التقديم، وليس واحد من هذه الثلاثة بممكن الاستفادة، لو بقي المصدر منصوباً، بمعنى أنّ الحمد لله أبلغ من أحمد الله حمداً. وأل في الحمد هنا للجنس المقيد بالحقيقة، لأنّ قوله: «لله» يفيد الاختصاص، فيستلزم انحصار أفراد الحمد في التعلق باسم الله تعالى، لأنّه إذا اختص الجنس احتصت الأفراد. إذ لو تحقق فرد من أفراد الحمد لغير الله تعالى لتحقق الجنس في ضمنه، فلا يتم معنى اختصاص الجنس المستفاد من لام الاختصاص الداخلة على اسم الجلالة.

﴿**رب العالمين**﴾: فبعد أن أسند الحمد لاسم ذاته تعالى تنبيهاً على الاستحقاق الذاتي، عقّب بالوصف وهو الرب، ليكون الحمد متعلقاً به أيضاً، لأنّ وصف المتعلق متعلق به. . . وقد أجرى عليه أربعة أوصاف هي: رب العالمين - الرحمن - الرحيم - ملك يوم الدين -، للإيذان بالاستحقاق الوصفي، فإنّ ذكر هذه الأسماء المشعرة بالصفات، يؤذن بقصد ملاحظة معانيها الأصلية، والرب هنا بمعنى المربي، والتربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً، وهو مصدر وصف به للمبالغة، وألْ في العالمين للاستغراق، وهو الشامل لجميع الأجناس الشامل لجميع الأفراد، والدليل على هذا جمع العالمين بأل، ومع هذا فقد روعي فيه العقلاء، ليفيد الكلام معنى المسؤولية والتكليف، وهذا ما يسمى بأسلوب

الحكيم، وهو من الأغراض البلاغية الرفيعة، خصوصاً مع ذكر الدليل لقوله: رب. . .

﴿**الرحمن الرحيم**﴾: والرحمن الرحيم سبق الكلام عليهما في مبحث البسملة، غير أنّ هناك ذكرتا مقرونتين ببسم الله ابتداء، وهنا ذكرتا مقرونتين بحمد الله ثناء، واعترافاً بالنعمة من كونه رب العالمين، أي: مدبّر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم في الوجودين؛ الجسماني والروحاني. . . ﴿**ملك يوم الدين**﴾: اتباع الأوصاف الثلاثة المتقدمة بهذا، ليس مجرد صفات من صفاته تعالى، بل هو مفيد لما تقدم من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم، ثم التنبيه بأنّ تصرفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرف رحمة عند من يعتبر. وكان من جملة تلك التصرفات، تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة، وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه، وفي نزعه عنه إرغام له ومشقة، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أُمروا به، ومثيراً لأطماعهم في العفو عن استخفافهم، وأن يتملكهم الطمعُ فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة، فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنّه صاحبُ الملك والحكم في يوم الجزاء. وكذلك في التعقيب على الأوصاف السابقة بقوله. . . ملك يوم الدين: إشارة إلى أنّه وليّ التصرف في الدنيا والآخرة، فهو إذن تتميم.

واعلم أنّ وصفه تعالى بملك يوم الدين، مكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، فإنّه بعد أن وصف بأنّه رب العالمين، وذلك معنى الإلهية الحقة، إذ يفوق ما كانوا ينعتون به آلهتهم من قولهم إله بني فلان، فقد كانت الأمم تتخذ آلهة خاصة لها، كما حكى الله عن بعضهم ﴿**فقالوا هذا إلهكم وإله موسى**﴾ وقال ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾، وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة. فوصف الله تعالى بأنّه رب العالمين كلهم، ثم عقَّب بوصفي الرحمن الرحيم لإفادة عظيم رحمته، ثم وصف بأنّه ملك يوم الدين، وهو وصف بما هو أعظم مما قبله، ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم

الجزاء، الذي هو أول أيام الخلود، فملك ذلك اليوم، هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي. وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى، إيماء بأنّ موصوفها أحق بالحمد الكامل، الذي أعربت عنه جملة: الحمد لله. . .

﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾: إذا أتم الحامد حمد ربّه يأخذ في التوجه إليه، بإظهار الإخلاص له انتقالا من الإفصاح عن حق الرب، إلى إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عبده من إفراده بالعبادة والاستعانة، فهذا الكلام استئناف ابتدائي. ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقة عربية، والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدإ من قوله الحمد لله، إلى قوله ملك يوم الدين، إلى أسلوب طريق الخطاب ابتداء من قوله إيّاك نعبد إلى آخر السورة، فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب، وهو المسمى عند علماء البلاغة بالالتفات، وما هنا التفات بديع، فإنّ الحامد لمّا حمد الله تعالى، ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال. ومما يزيد الالتفات وقعاً في الآية، أنّه تخلص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أنّ الدعاء يقتضي الخطاب، فكان قوله: إيّاك نعبد تخلصا يجيء بعده. . .

﴿**اهدنا الصراط**﴾: ونظير هذا كثير اختص به فرسان الكلام وشجعانه!، وهو دليل على حدة ذهن البليغ، وتمكنه من تصريف أساليب كلامه كيف شاء، كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكرّ والفرّ!. والحصر المستفاد من تقديم المعمول في قوله تعالى: إياك نعبد، حصر حقيقي، لأنّ المؤمنين الملقّنين لهذا الحمد لا يعبدون إلاّ الله. وإيّاك نستعين جملة معطوفة على جملة إيّاك نعبد، وإنّما لم تفصل عنها، للإشارة إلى خطورة الفعلين جميعاً في إرادة المتكلمين بهذا التخصيص، أي: نخصك بالاستعانة أيضاً، مع تخصيصك بالعبادة. وحُذف متعلق نستعين الذي حقه أن يذكر مجروراً بعلى، ولقد أفاد هذا الحذف إلهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدّبا معه تعالى. والحصر المستفاد من التقديم في قوله: إيّاك نستعين حصر ادعائي للمبالغة، لعدم الاعتداد بالاستعانات المتعارفة بين الناس بعضهم ببعض في شؤونهم. وفي العدول عن ضمير الواحد

إلى الإتيان بضمير المتكلمين، للدلالة على أنّ هذه المحامد صادرة من جماعات. ووجه تقديم قوله: إيّاك نعبد على قوله وإيّاك نستعين، أنّ العبادة تقرُّب للخالق تعالى، فهي أجدر بالتقديم في المناجاة، وأمّا الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه، فناسب أن يقدِّم المناجي ما هو من عزمه وصنعه، على ما يسأله مما يعين على ذلك ولأنّ الاستعانة بالله تتركب على كونه معبودا للمستعين به، ولأنّ من جملة ما تطلب الإعانة عليه العبادة، فكانت متقدمة على الاستعانة في التعقل، وقد حصل من ذلك التقديم أيضاً، إيفاء حق فواصل السورة المبنيّة على الحرف الساكن المتماثل، أو القريب في مخرج اللسان. . .

﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾: هذه الجملة نُزّلت منزلة المقصد ممّا تقدم، فكانت مفصولة عمّا قبلها. والصراط مستعار لمعنى الحق، الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز. والمستقيم هنا مستعار للحق البيّن، الذي لا تتخلله بُنَيَّات، فهو الذي لا تخلطه شبهة. . . ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: هذا الأسلوب - أسلوب الإبدال أو البيان - جاء لفائدتين: الأولى أنّ المقصود من الطلب إبتداء، هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة، واضحة سمحة سهلة. وأمّا كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله. الثانية ما في أسلوب الإبدال من الإجمال المعقب بالتفصيل، ليتمكن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لُقّنوا هذا الدعاء، فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضا لما في هذا الأسلوب من تقرير حقيقة هذا الصراط، وتحقيق مفهومه في نفوسهم، فيحصل مفهومه مرتين، فيحصل له من الفائدة ما يحصل بالتوكيد اللفظي. وإعادة الاسم في قوله: صراط، ليبني عليه ما يراد تعلقه بالاسم الأول - الصراط -، وهو أسلوب بهيج من الكلام البليغ، لإشعار إعادة اللفظ، بأنّ مدلوله بمحل العناية، وأنّه حبيب إلى النفس. ثم إنّ في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنّه. . . ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: دون بقية أوصافه تمهيداً لبساط الإجابة، فإنّ الكريم إذا قلت له: أعطني كما أعطيت فلانا، كان ذلك أنشط لكرمه. وفي إبدال صراط الذين من الصراط المستقيم معنى بديع، وهو أنّ الهداية نعمة، وأن المنعم عليهم بالنعمة الكاملة، قد هُدوا إلى الصراط المستقيم. . .

﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾: هذا الكلام شامل لفرق الكفر

والفسوق والعصيان؛ فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك، واستخفت بالديانة عن عمد أو عن تأويل بعيد جدا، والضالون جنس للفرق التي أخطأت الدين، واتخذت عقلها هاديا لها، واكتفت به دون إصغاء إلى دعوة الرسل، وكلا الفريقين مذموم، لأنّنا مأمورون باتباع سبيل الحق، وصرف الجهد إلى إصابته. واليهود من الفريق الأول، والنصارى من الفريق الثاني على ما ورد في الأثر. والمراد بالغضب: غضب الله، وهو على العموم يرجع إلى معاملة الحائدين عن هديه، العاصين لأوامره، فيترتب عليه الانتقام. والضلال سلوك غير الطريق المراد، وإطلاق الضال على المخطئ في الدين أو العلم استعارة كما هنا.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: موضوع الفاتحة من الكتاب الحكيم: فهي كالمقدمة للقرآن؛ فهي جامعة لمعانيه، ففيها الخطوط العريضة والأسس المتينة، التي بنى عليها جميع التفاصيل: في عقائده وشرائعه وآدابه وأخباره ووعده ووعيده؛ ليكون هذا المبدأ توجيهاً صحيحاً يأخذ به المؤلف والكاتب في منهجه الذي يقتضيه. ومن هذا سميت أم القرآن؛ لأنّها أصله ومحتوية على معانيه وأهدافه وأغراضه، فهي كالبذرة من الشجرة، فيها كل ما تحويه الشجرة من أغصان وأوراق وأزهار وثمار... ﴿**الحمد**﴾: الثناء باللسان والاعتراف بالجنان، بأنّ هذا لا يكون إلاّ لمن يستحقه... ﴿**لله**﴾: الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى...

﴿**رب العالمين**﴾: فالرب هو المربي بكل أنواع التربية الحسية والمعنوية، وهذه التربية شملت جميع المخلوقات العاقل وغير العاقل، المعبر عنها بالعالمين، وجُمع ليشمل جميع أصناف العالم، من السماوات وما فيها والأرض وما فيها وما عليها، وجمع جمعاً عاقلا لملاحظة المخاطبين بالقرآن الكريم، لأنّهم مكلفون بما فيه: الإنس والجن والملائكة، فالملائكة يُسبّحون بحمد ربّهم، ويستغفرون لمن في الأرض، والإنس أنزل الله إليهم هذا الكتاب، ليؤمنوا به وليعملوا بما فيه، والجن سمعوا القرآن فآمنوا به ﴿**قل أوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً**﴾. وإن كنت تريد أن تعلم جلالة هذا القرآن، فابحث في معنى (الرب) تجده يشير إلى التربية التي هي عبارة عن رعاية الشيء رعاية كاملة، والعناية به عناية شاملة، وأقرب شيء

إليك نفسك، فانظر لترى كيف ربّاها جسماً ونفساً وعقلاً وروحاً ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾؟!.. ﴿**الذي خلقك فسواك فعدلك**﴾!.. ومن هذه الزاوية تستطيع أن تعرف وتعلم كيفية التربية، لبقية أصناف العالم؛ تعرف من حواسك، وتعلم من عقلك أنّك تحت العناية والرعاية من أول نشأتك إلى آخر خطوة من خطوات حياتك، وأنت أيّها الإنسان المسؤول وحدك دون بقية المخلوقات أمام خالقك ومربيك، فهكذا فلتفهم من هذه الآية ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾.

ثم تأتي بعدها الآية الثانية... ﴿**الرحمن الرحيم**﴾: وهذه الآية ليست تكراراً لما قبلها في قوله: بسم الله الرحمن الرحيم، لأنّها هنا غيرها هناك، فهناك جاءت لتدل على الأوصاف، وهنا جاءت لتدل على الإلطاف، فالرحمن الرحيم هنا دليل على هذه التربية، لماذا خلق العالم ورباه بهذه الكيفية العجيبة؛ لأنّه الرحمن الرحيم!. فمن هذه الرحمة كان هذا العالم الواسع العظيم. وتأتي الآية الثالثة... ﴿**ملك يوم الدين**﴾: لتدل على عظمة هذه التربية، بشمولها للدنيا والآخرة: دار التكليف ودار التشريف، فهو الملك: المالك والحاكم والسلطان، في يوم لا يملك فيه حاكم ولا سلطان، فهو وحده الحاكم العادل يحاسب ويسأل، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، هناك وحده هو الذي يقضي بين الناس فيما اختلفوا فيه دون تدخل أحد، ولا عبرة لشيء من الأشياء ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاّ من أتى الله بقلب سليم**﴾. ﴿**يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله**﴾.

التوجيه الثاني: لفت النظر إلى ما في أسماء الله من العبر: الله - الرب - الرحمن - الرحيم - الملك: لكل اسم من هذه الأسماء معنى خاص بها، وتدل عليه، لذلك نجد القرآن يعبر بأسماء الله دون صفات الله، لأنّ الاسم يدل على المسمى. وهذه الدلالة دلالة حقيقية، بخلاف التعبير بالصفة، فإنّها تارة تكون حقيقية، وتارة وصفاً مجازياً، وتارة أخرى وصفاً خيالياً محضاً. ولقد تورط الفلاسفة الإلهيون ومن نهج بنهجهم من أصحاب الكلام في هذا الموضوع، فحصل بينهم نزاع أدى بهم إلى خلافات ومناقشات، أدت بهم إلى ضلالات وترّهات تباعدت بهم عن الحق الذي يجب أن يكون هو الهدف الأسمى دائما.

وتفرق أصحاب الكلام فيما بينهم نتيجة البحث الفلسفي المضلل، واختلفوا فصاروا شيعاً وأحزاباً: طوائف تلعن بعضها بعضاً، وتفسِّق بعضها بعضاً؛ كل يرى

نفسه على الحق، وغيره على الباطل، حكماً بالهوى دون رجوع إلى الحق. وتخبطاتُ وشطحاتُ الفلاسفة أدهى وأمرُّ، فلا تجد واحداً منهم وافق الآخر، وإنّما لكل واحد منهم وجهتُه وآراؤه، حتى تعددت الآراء وتنوعت الأوهام، وإن كنت في شك من هذا الكلام، فابحث في التاريخ عن أقوالهم وآرائهم وخلافاتهم، تجدها واضحة جلية، وكذلك في كتب أصحاب الكلام ومن سار على منهجهم، من بعض أصحاب كتب التفسير، حتى غطت هذه الآراءُ المنهجَ الواضحَ، والطريقَ المستقيمَ. قارن ما تقرأ من الآراء في هذه الكتب، بما تجده واضحاً بيّناً في كتاب الله تعالى، دون لبس أوغموض:

لم يمتحنا بما تعيى العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهمِ

والآن نقف لننعم النظر في أسماء الله الحسنى التي صدرت بها فاتحة الكتاب:

﴿**الله**﴾ علم على واجب الوجود الحي القيوم الأحد الصمد سبحانه وتعالى، وكلمة الله هي الدالة على الاسم خاصة به، ولم يرد بهذا الاسم في أي لغة من اللغات غير اللغة العربية، لأنّ الواقع في اللغات الأخرى، إنّما جاء بسم الإله، والإله في اللغة المعبود، وكلمة معبود كلمة مطلقة تتحمل معاني كثيرة، منها: المعظم، والمقدس، والمبجل، إلى غير ذلك من الأوصاف التي يتصف بها، أو يوصف بها - إمّا خوفاً منه، أو طمعاً فيه - كل من أراد أن يهيمن ويستعبد غيره، فالإله بهذا المعنى قد أطلق على كثير من المخلوقات، التي كانت تقدس وتعظم في الأمم القديمة، سواء كانت من الديانات التي جاء بها الرسل بعد تغييرها وتبديلها، أو كانت من الديانات الوضعية التي دان بها كثير من البشر في الشرق والغرب من قديم الزمان إلى عصرنا الحاضر. فالفراعنة كما كان يعتقد فيهم آلهة، وبُوذا وإبراهما وآلهة اليونان، وآلهة الإغريق، وإله الإسرائيليين، وإله المسيحيين، كل هذه أطلقت على المعبود بالباطل طبعاً. أمّا الإله المعبود الحق، فهو ما دلّت عليه دلالة صريحة فريدة في الوقت نفسه كلمة ﴿**الله**﴾ فهو المعبود المطلق، وأنّه ذو الوجود المحقق، تسمَّى بأسماء الكمال ﴿**له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾.

﴿**الرب**﴾ هذا الاسم له دلالتان: الأولى تدل على ما تدل عليه كلمة الله

بمعنى الخالق؛ لأنّ من مقتضيات التربية الإيجاد فهو الموجد، والإمداد فهو الممد، أو من مقتضياتها الخلق فهو الخالق، والرزق فهو الرازق، أو من مقتضياتها الإنشاء فهو المنشئ، والإعطاء فهو المعطي. والثانية تدل على المخلوق، لأنّ الرب يقتضي تربية، والتربية هي تربية الغير، والغير هو العالم المخلوق يقيناً بالعلم والمشاهدة ﴿**هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه**﴾، ولهذا رُبِطَتْ كلمة رب بالعالمين. إذن هنا خالق ومخلوق!.. فالله خالق والعالم مخلوق، فاتضح الفرق بينهما. هذا مبدأ ينطلق منه كل باحث في أي عقيدة من العقائد، فإن وجدت الفرق واضحاً فخذ به، وإلاّ فارجع وابحث من جديد حتى يتضح لك الأمر الجليّ. وكل من ترك هذا المبدأ، وهو الفرق بين الخالق والمخلوق، تورط في أوحال الزيغ، وارتبك في متاهات الضلال فضلَّ وأضل. هذا هو المنطلقُ الذي انطلق منه القرآن وأرشد الناسَ إليه، وحذرهم من خلافه في قوله ﴿**وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾.

﴿**الرحمن**﴾ هذا الاسم له دلالة واضحة على ملكية الرحمة الذاتية، التي هي الخير والنعمة والفضل والكرم، فهو منبع الخير لأنّه الرحمن، وهو رب النعم لأنّه الرحمن، وهو مولى الكرم لأنّه الرحمن. هذه الكلمة وما فيها من جمال تجعل المؤمن يتعلق بربه ويستمسك بحبله ولا يحيد عنه طرفة عين، ولهذا اقترنت برب العالمين، ليفهموا معنى هذا الكلام ويتجهوا الاتجاه الصحيح نحو خالقهم ومربيهم الرحمن.

﴿**الرحيم**﴾ هذا الاسم دلالته واضحة على إبراز تلك الرحمة، وإعطائها لمستحقيها ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبيء الأمي**﴾. فكلمة الرحيم تعني الإعطاء، تعني الكرم، تعني الفعل المعطى من الله الرحمن. وكل هذا توضيح وتوجيه، لنعرف معنى التربية، التي هي الخلق والإعطاء والرعاية والعناية، فإذا كانت على هذا الوصف الكامل الشامل فإذن هو الرحيم!.

﴿**الملك**﴾ الذي يملك الدنيا بما فيها، لأنّه ربّها بالنص المتقدم. ولم يبق إلاّ يوم الدين، وهذا هو اليوم الموعود به في جميع الأديان، التي أتت بها الرسل من

عند الله تعالى، والله هو الملك وحده في هذا اليوم، وهو يوم الدين، يحكم ويحاسب ويجازي على مقتضى وعده ووعيده. يجازي العالمين الذين أسدى إليهم هذه النعم العظيمة، وربّاهم هذه التربية الجليلة الكريمة، حتى يظهر العدل، ويأخذ كل أحد جزاءه. إنّه الملك الذي لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، ولا يستطيع مخلوق أن يفلت من قبضته، ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾. فهذا تخويف شديد وتهويل عظيم لو فهم الإنسان حقيقة الأمر، وتدبّر مغزى الكلام!. هذا ما أردت بيانه من هذه الأسماء الخمسة من أسماء الله الحسنى، التي جاءت في صدر هذه السورة؛ قليلة المبنى كثيرة المعنى، وهو خلاصة ما قيل فيها من أقوال العلماء.

التوجيه الثالث: في قوله تعالى: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾: لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة الأسماء، بما تدل عليه من وصف الجلال والجمال، من العظمة والكمال والعناية والإفضال، بيّن هنا استحقاقه للعبادة، وأنّها خاصة به وحده سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها شريك. والتفت بالخطاب المواجه - إيّاك - وهو معمول مقدّم لكلمة - نعبد -، ليدلّ على الاختصاص. والعبادة هنا الخضوع والتذلل والإنقياد لكل ما يأمر به هذا الخالق العظيم.

وفي «نعبد» نون الجمع لتدل على كثرة العابدين الخاضعين لعظمة الله تعالى، وتشير كذلك إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ من الابتعاد عن الأنانية والاعتداد بالنفس، والدخول مع غيره من بقية عباد الله الصالحين. ولما كانت العبادة تحتاج إلى جد واجتهاد، لأنّها عمل وكفاح، ومقاومة مستمرة مع النفس والأهواء والشهوات، طُلب من الله العون والسداد، لأنّه وحده سبحانه يملك العون والسداد، وغيره ضعيف فقير لا يملك نفعاً ولا ضراً، فقال: وإيّاك نستعين، وهذا هو معنى العبادة الكاملة، ليظهر العمل بأسمى معانيه، وحتى لا يظهر على العبد العُجب بعمله، والاستعداد بنفسه، ليكون عبد الله حقاً، عرف نفسه بالعجز والافتقار، فتعلق بربّه الملك المتعالي العزيز الجبار. وفي هذه الآية شيئان مهمان: العمل والإخلاص، فالعبادة عمل، والاستعانة إخلاص ﴿**وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾، وهذا هو أساس التوحيد، فالله وحده المعبود، والله وحده المقصود، فليس معه وسيط أو شفيع، لا أولياء ولا وسطاء، لأنّهم جميعاً

أمام الله سواء؛ يرجون رحمته ويخافون عذابه. هذا هو المبدأ الصحيح، والمنطق الواضح الفسيح، غير أنّ الناس انحرف أكثرهم، فتعلقوا بالأوهام، وتمسكوا بالخيالات والخرافات، فجعلوا مع الله شركاء يعبدونهم ويتخذونهم إلى الله زلفى. وهذا حاصل في القديم والحديث، ومشاهَد في كل جيل يبدل الطيب بالخبيث. وسرى هذا في المسلمين الذين يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم لكن دون فقه ولا فهم، إنّما هو التقليد الأعمى، والتمسك بالعادات الموروثة والجهالات المتبعة لأقوام شتّى. ولهذا نجد الآية الخامسة توضح لنا الطريق، لنسير على هدى وبصيرة، فنقول...

﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾: نطلب من الله الهداية والدوام عليها، والسير في طريقها دون حيف أو زيغ أو وقوف. وكما طلبنا الإعانة في التوفيق إلى العبادة، نطلب الهداية في السير إلى الهدف الأسمى. والصراط المستقيم هنا الإسلام، دين الله الذي جاءت به جميع الرسل ﴿**إنّ الدين عند الله الإسلام**﴾، وهو الدين المستقيم الواضح، لا انحراف فيه ولا غموض يعتريه، وإنّما فيه المبادئ السليمة والتوجيهات الحكيمة، ليس فيها أسرار الكهانات المزيفة ولا طقوس العبادات المنحرفة، وإنّما هي تعاليم مفيدة وأغراض هادفة حميدة. هذا هو الإسلام الحق الذي شرعه الله لنا؛ فهل فهمنا هذا حقا؟ واتبعناه صدقا؟. وما موقفنا الآن منه؟. نحن الآن في مفترق الطرق؛ بين طريق واضح مستقيم، وبين سراديب ودهاليز مخوفة مهلكة؛ فرجوعنا إلى الله والتمسك بكتابه، ووقوفنا أمامه وحده نطلب منه الهداية والتوفيق، هو المنجاة والخلاص من التدهور والضلال، وهذا هو معنى الآية السادسة...

﴿**صراط الذين أنعمت عليهم**﴾: فنجدها تعطينا نموذجاً رائعاً على من وفّقه الله، واهتدى وطلب الزيادة من هذا الهدى. فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟. وما هو صراطهم؟. هم الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وصراطهم هو الإسلام؛ فالنبيئون هم الذين أوحى الله إليهم بهذا الدين وبلّغوه الناس كما أمرهم الله، والصديقون هم خُلّص الأنبئاء، من أصحابهم الذين لازموهم وتعلموا منهم هذا الدين، كما جاء في القرآن المبين، والشهداء هم الذين ضحوا بأنفسهم لنصرة هذا الدين، فماتوا من أجله مستشهدين، والصالحون

هم خلفاؤهم والمبلغون عنهم ما جاءوهم به من ربهم ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنّك رءوف رحيم**﴾. ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم**﴾. هذا هو موكب المؤمنين الصادقين مدى حقب التاريخ، الجديد منه والقديم.

ويقابل هذا ما في الآية السابقة من فاتحة الكتاب الحكيم: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾، وهم الذين تاهوا في صحارى الضلال وفيافي الوبال، فكانت نهايتهم النكال والجحيم والعذاب الأليم، وهم على ثلاثة أقسام: القسم الأول: قوم لهم دين سماوي، وتعاليم إلهية جاءتهم بها رسلهم؛ فزاغوا عنها وحرّفوها اتباعاً لشهواتهم وأهوائهم، وابتغاء للجاه والسلطة والتحكم، وابتغاء للباطل ومرضاة الشيطان الرجيم، ويمثلهم الآن رؤساء الكنائس من اليهود والنصارى. القسم الثاني: قوم ليس لهم دين سماوي ولا كتاب إلهي، ولكن لهم آراء ومقالات في العقائد والأفكار، وقوانين في المعاملات اخترعوها من تلقاء أنفسهم اعتماداً على عقولهم وأفكارهم، وخلطوها بالأوهام والخيالات، ويمثلهم الآن زعماء السياسة ورؤساء الديانات الوضعية على اختلاف أنواعها من الأحزاب والطوائف والنِّحل والأهواء. القسم الثالث: قوم من الرعاع ليس لهم رأي ولاعقل تهتدي به، بل اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من القسمين السابقين، فهم سادتهم وكبراؤهم كما حكى عنهم القرآن لما سيقولون يوم الحساب ﴿**وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا**﴾. ويمثلهم في هذا العصر الأغلبية الساحقة من الأمم والشعوب، الذين لا يدينون بدين المسلمين، ولا يؤمنون بالله رب العالمين، وهذا هو موكب الضالين الكافرين مدى حقب التاريخ في كل حين.

وعندما ننظر في هذه الآيات الثلاث، نجد فيها من التوجيه العجيب إلى الأدب الرفيع - من التعبير البليغ - ما يجعلنا نقف أمامها مغمورين بروعة هذا الأسلوب؛ فالمؤمنون الصادقون أنعم الله عليهم بالهداية الكاملة، والنعمة الشاملة، فشملتهم رحمة الله الرحمن الرحيم. والكافرون الضالون المغضوب عليهم، المطرودون عن رحمته التي وسعت كل شيء، وذلك بسبب ضلالهم وإضلالهم،

فباءوا بالغضب والطرد من جميع العالمين ﴿**أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾. هذا هو سياق الآيات، وما فيها من التوجيه الذي ينبغي لكل باحث أن يسير على منهجه؛ ليكون البحث سليماً متصلاً بعضه ببعض، بعيداً عن الاحتمالات والتوجيهات المختلفة، متمشياً مع الحقيقة؛ حقيقة الصراط المستقيم.

التوجيه الرابع: بيان وجه تسمية السورة فاتحة الكتاب وأم الكتاب والسبع المثاني: سميت هذه السورة فاتحة الكتاب، لأنّها أول سورة كتبت في المصحف بإجماع الصحابة، يوم كتابة المصحف الإمام في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتى وصل إلينا متواتراً إلى يومنا هذا، وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، مصداقاً لقوله تعالى ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون**﴾. وسميت أم الكتاب؛ لأنّها تضمنت جميع ما في القرآن؛ من حيث ما يتعلق بالله تعالى، وما تضمنته أسماؤه الحسنى، من كونه الخالق البارئ المصور، والرزاق والمحيي والمميت والمربي والمدبّر، والقهار العزيز الجبار المتكبر، والقادر العليم الرحمن الرحيم. . . إلى غير ذلك مما يجب له تعالى من أسماء الجلال والجمال، وهو ما تضمنته الآيات الأولى الثلاث؛ وهو الله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين.

وفي السورة إشارة إلى جميع المخلوقات بكلمة مختصرة (العالمين). ثم بينت أقسام الإنسان، وفصلته فصلين: مؤمن صادق، وكافر ظاهر أو منافق، وفيها إشارة إلى يوم الدين، فشملت السورة الدنيا بما فيها من عمل خير أو شر، والآخرة وما فيها من ثواب و عقاب، وفي هذا كله أصل الإيمان المتعلق بعقيدة التوحيد، المشتمل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأشارت السورة إلى ما يتعلق بالعمل المعبر عنه بالإسلام، المتعلق بأفعال المكلفين من عبادات ومعاملات، وكل من هذين القسمين في حاجة إلى قسم ثالث، وهو الإخلاص في النية وفي القول وفي الفعل، وهذه الثلاث هي الدين الخالص: الإيمان والإسلام والإحسان، كما جاء به مصرحاً في الأحاديث الصحاح، وهو ما تشير إليه آية: إيّاك نعبد وإياك نستعين.

كما بيّنت السورة أهل الدين الخالص، وهم الذين اهتدوا وطلبوا الثبات على الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وأشارت كذلك إلى الأخلاق السيئة الذميمة، وهي الطرق المعوجة المنحرفة المتفرقة الملتوية الاتجاهات، وأنّ أصحابها مغضوب عليهم ضالُّون بما لهم من الأوصاف المنحرفة والاتجاهات المختلفة، وهذا ما تأصلت عليه حقائق علم الأخلاق في الإسلام. هذا هو وجه التسمية بأم الكتاب: بيّنّا لك ما تشير إليه باختصار، وقد وجد العلماء في هذه السورة أصل جميع العلوم والمعارف، فأطنبوا ووسعوا القول فيها، وإن أردت المزيد فعليك بكتب التفسير وكتب الأخلاق وكتب الفقه الموسوعة، وكلها فروع لهذا الأصل، وهو ما في هذه السورة (أم الكتاب)، وقد أينعت وأثمرت وآتت أكلها كل حين، لأنّها كلمة طيبة، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾.

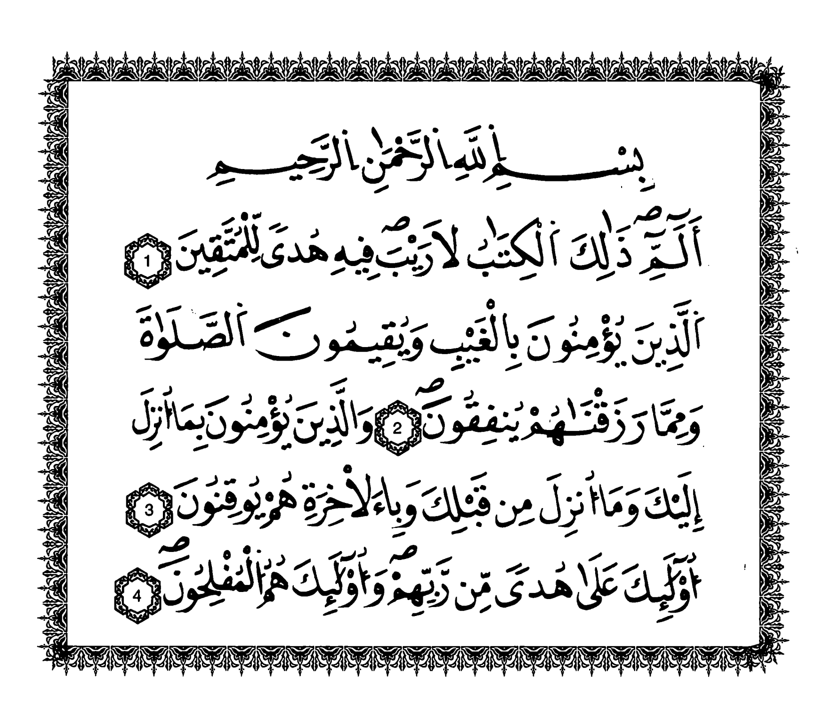
وسميت السبع المثاني، لأنّها سبع آيات تكرر في كل صلاة حسب ركعاتها، ففي صلاة الفرض تتلى كل يوم سبع عشرة مرة، لأنّها فرض في كل ركعة على أرجح الآراء. والكثرة من قراءة الفاتحة مقصودة؛ ليكون المصلي دائما على ذكر من أحكام ربه، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، فكأنّه يقرأ القرآن كل يوم هذه المرات الكثيرة. وفي هذا فتح لأبواب الرحمات على المصلي المخلص في صلاته لله رب العالمين ﴿**وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾. فيا أخي تمسك بتعاليم دينك، وافهم كلام ربك، وانهج نهج نبيك، فإنّه الغذاء الوافي، والدواء الشافي ﴿**والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾.



سورة البقرة مدنية وهي: مائتان وست وثمانون آية، وهي أول سورة ابتدأ نزولها بالمدينة.

1 ـ أول ما فيها من أوصاف الناس المعتبرة:

النص



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿1﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿2﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿3﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿4﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَآنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿5﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿6﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿7﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿8﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿9﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿10﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿11﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ
كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ
هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿12﴾ * وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿13﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿14﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿15﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ
بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿16﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ
فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿17﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ

وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿18﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿19﴾

وجهة النظر في الحروف التي في أوائل السور

إنّ من يتجه بنظره إلى الأقوال والآراء التي قيلت في الحروف التي بدئت بها بعض سور القرآن الكريم، يجد الطرق متشعبة وملتوية لا توصل إلى مطلوب، وإنما تتجه اتجاهات مختلفة. وقد وصلت الآراء فيها إلى أكثر من عشرين قولا، ولعل بعضها جاء من مصادر غير موثوق بها، كرواية الأعداد الحسابية المستخرج منها ما ينتج عنها من أحداث المستقبل، أو جاء من توهمات شخصية وآراء وعقائد من يعتقد في أسرار الحروف وتأثيراتها على النفوس، كرواية أنّ لكل حرف من هذه الحروف خادما من الملائكة، يلبي الداعي ويجيب المنادي، وكل هذه وأمثالها بعيدة كل البعد عن هذا الكتاب الذي يرفض الرجم بالغيب، وأنكر أشدّ الإنكار على الكهانات والتنجيم وأصحاب الأوهام والخيالات.

والذي يجب على الباحث في معاني هذا الكتاب الحكيم، أن يتجه في بحثه رسم الخطة التي وضعها هذا الكتاب، لا يحيد عنها ولا ينصرف إلى غيرها من الأوهام والاحتمالات. وعندما نتجه بأنظارنا متوخين الحقيقة متمسكين بخطط القرآن نفسه، نجد الأمر واضحا من الغرض الذي يهدف إليه، من وضع الحروف الهجائية في بداية بعض سوره، ليشير إلى أنّ هذا الكتاب مكتوب بهذه الحروف المعروفة للعرب، والتي منها يتألف كلامهم من شعر وخطابة ومراسلة ومحادثة، والقرآن يختلف عنها في تراكيبه وأساليبه وإعجازه جملة وتفصيلا، بحيث لا تجد

مشابهة بينه وبينها، إلاّ في مفرداته وحروفه فقط، وهذا هو التحدي الكامل والإعجاز الشامل. وعندما ننظر إلى توجيهات القرآن نظر الفاحص المدقق، نجد أول آيات نزلت من القرآن على الرسول ﷺ **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾**. ففي هذه الآيات جرى ذكر التعلم بالقلم، مع ما سبقه من الأمر بالقراءة وتعليمها بالقلم.

وقد أقسم الله بالحرف المكتوب بالقلم فقال **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾** ومعلوم أنّ ما يسطرونه بالقلم، هو الكلام المؤلف من الحروف، وهذه الحروف التي تكتب هي: «ألف، لام، ميم». إلى آخر ما يكتب من حروف الهجاء الموجودة في أوائل بعض سور القرآن، وبالفحص وجدنا هذه الحروف تشير إلى جميع حروف الهجاء الموجودة في اللسان العربي، باعتبار أنّ هذه الحروف لم تكن منقوطة أول ما كتب القرآن بها، فصورة النون مثل صورة الباء والتاء والثاء والياء، فذكرت النون ولم تذكر بقية مثيلاتها اكتفاء بها، لأنّ النون لها وضع غير وضع بقية أمثالها عندما تكون آخرا في الكلمة، مثلها الياء في وضعها آخر الكلمة. وصورة الحاء مثل صورة الجيم والخاء، فجاءت الحاء في أوائل بعض السور، وتركت الجيم والخاء. وصورة الراء مثل صورة الزاي فجاءت الراء وتركت الزاي. وصورة السين مثل صورة الشين، فذكرت السين وتركت الشين. وصورة الصاد مثل صورة الضاد، فذكرت الصاد وتركت الضاد. وصورة الطاء مثل صورة الظاء، فذكرت الطاء وتركت الظاء. وصورة العين مثل صورة الغين، فذكرت العين وتركت الغين. وصورة القاف مثل صورة الفاء، فذكرت القاف وتركت الفاء. وذكرت الحروف التي لم يكن لها مثيل، وهي الكاف واللام والميم والهاء والألف، وبقي حرفان وهما الدال والواو، وهي أشبه ما تكون بالراء، لأنّها من الحروف التي لا تُجر إلى الأمام مثل الألف.

من هذا الجانب لاح لي سر إعجاز القرآن، لأنّ كل باحث فيه يجد شيئاً جديداً يحتاج إلى البيان، ومن جملته ما قلته لك من وضع جميع حروف اللسان العربى ضمناً. وإن لم يقل به أحد من المفسرين فيما اطلعت عليه من تفاسيرهم، ولعل من المفسرين من ذكر ذلك ولم نطّلع عليه، أو كان ولم يُعثر عليه، فسبحان

الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم!. من هذا كله نرى أنّ العرض لهذه الحروف، هو تذكير الناس بأنّ هذا القرآن مؤلف من حروف وكلمات معروفة بادية بينهم جميعاً، لكن المعاني والتراكيب وما فيها من أغراض وأهداف تفرق بينه وبين كلامهم. يدركه الباحث عندما يقارن بين كلام شعرائهم وخطبائهم ومتكلميهم على مختلف طبقاتهم، وبين أسلوب القرآن، وهو دليل على أنّه من عند الله، لأنّه مركبٌ من حروف يعرفها كثير من الناس، ومع هذا فقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، ولو بأقصر سورة منه، مثل ما عجزوا على خلق نطفة أو تكوين ذرّة. وهذا ما تشير إليه أول آية نزلت منه ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم**﴾.

وهذه طريقة يرسمها القرآن، ليمشي على نهجها الإنسان، فيتعلم الحروف التي ذكرت لتكون سُلَّما يرتقي بها إلى العرفان.

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ألم**﴾: من الحروف التي بدأ الله بها بعض سور القرآن، وقد بيّنّاها فيما سبق... ﴿**ذلك**﴾: أصل ذا، وضع للمشار إليه المشاهد القريب، ويشار به إلى البعيد والغائب والمنزل منزلتهما، فيزاد فيه لام البعد وكاف الخطاب... ﴿**الكتاب**﴾: على وزن فعال بمعنى المكتوب، واشتقاقه من كتب، بمعنى جمع وضم، لأنّ الكتاب تجمع أوراقه وحروفه، فإنّ النبيء ﷺ أمر بكتابة كل ما ينزل من الوحي وجعل للوحى كُتَّابا. وتسمية القرآن كتاباً، إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه... ﴿**لا ريب فيه**﴾: الريب: الشك مع القلق واضطراب النفس من جهة الخبر... ﴿**هدى للمتقين**﴾: الهدى اسم مصدر الهدي، وفعله هدى، والهدى هو الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى المطلوب، والمراد هنا الهدى الشرعي، وهو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاح الآجل. والمتقي: من اتصف بالاتقاء، وهو طلب الوقاية، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه، فالمتقي هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر، والمراد هنا المتقين الله، والتقوى الشرعية هي امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر...

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾: الغيب: مصدر بمعنى الغيبة، وهو ما لا يدرك بالحواس ممّا أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنّه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة، وأشراط الساعة، ومما استأثر الله بعلمه، ومعنى يؤمنون بالغيب يقرُّون به، فالإيمان هنا بمعنى الإقرار. . . ﴿ويقيمون الصلاة﴾: الإقامة مصدر أقام، الذي هو معدى قام، عدي إليه بالهمزة الدالة على الجعل، والإقامة جعلها قائمة، مأخوذ من قامت السوق إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع والشراء، وأصل القيام في اللغة هو الانتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع. والصلاة اسم جامد بوزن فَعَلَوَة (صَلَوَة) تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت صلاة. وَرَدَ هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء، أمّا الصلاة المقصودة في الآية، فهي العبادة المخصوصة، فهي صلة بين الله وبين عبده. . .

﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾: الرزق يطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة في الحياة، من الأطعمة والحيوان والشجر المثمر واللباس وما يحصل به ذلك من النقود. والإنفاق: إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. . .

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾: هم الذين أسلموا من أهل الكتاب. والإنزال: جعل الشيء نازلا، والنزول الانتقال من علو إلى أسفل، ويطلق الإنزال على معان راجعة إلى تشبيه عمل بالنزول لاعتبار شرف ورفعة معنوية، والآخرة: في اصطلاح القرآن، هي الحياة الآخرة؛ فإنّ الآخرة صفة تأنيث الآخر بالمد وكسر الخاء، وهو الحاصل المتأخر عن شيء قبله في فعل أو حال، وتأنيث وصف الآخرة منظور فيه إلى أنّ المراد إجراؤه على موصوف مؤنث اللفظ حذف لكثرة استعماله وصيرورته معلوماً، وهو يقدر بالحياة الآخرة مراعاة لضده، وهو الحياة الدنيا؛ القريبة بمعنى الحاضرة، ثم صارت الآخرة علماً بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد البعث. واليقين: العلم بالشيء عن نظر واستدلال، أو بعد شك سابق أزيل بالنظر الصحيح، فهو أخص من العلم. . .

أولئك: أصل الإشارة أن تعود إلى ذات مشاهدة معينة، إلاّ أنّ العرب قد يخرجون بها عن الأصل، فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام، بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع. . . ﴿وأولئك

هم المفلحون﴾: الفلاح: الفوز وصلاح الحال، والمراد به في اصطلاح الدين، الفوز بالنجاة من عذاب الآخرة، والفعل منه أفلح، أي صار ذا فلاح...

﴿إنّ الذين كفروا﴾: الكفر بالضم إخفاء النعمة، وبالفتح الستر مطلقاً، وهو مشتق من كفر إذا ستر، والكفر في الشرع إنكار ما دلت عليه الأدلة القاطعة، ومعناه: إنكار ما علم بالضرورة مجيء النبيء ﷺ به...

﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾: سواء: اسم بمعنى الاستواء، فهو اسم مصدر دلّ على ذلك لزوم إفراده وتذكيره... **﴿ختم الله على قلوبهم﴾**: حقيقة الختم: السد على الإناء، والغلق على الكتاب بطين ونحوه، مع وضع علامة مرسومة في خاتم، ليمنع ذلك من فتح المختوم. **﴿والغشاوة﴾**: فِعالة من غشاه وتغشاه إذا حجبه، ومعناها هنا الغطاء... **﴿ولهم عذاب عظيم﴾**: العذاب الأليم، وقد قيل: إنّ أصله الإعذاب، مصدر أعذب إذا أزال العذوبة، لأنّ العذاب يزيل حلاوة العيش، فيصغ منه اسم مصدر بحذف الهمزة، والمقصود بالعذاب في الآية: إمّا عذاب النار في الآخرة، وإمّا عذاب القتل والمسغبة في الدنيا...

﴿ومن الناس﴾: الناس اسم جمع إنسي بكسر الهمزة وياء النسب، فهو عوض عن أناسيّ، الذي هو الجمع القياسي لإنس، وقد عوضوا عن أناسيّ أناسٌ، ثم حذفوا همزته تخفيفاً، ومفرد هذا الجمع إنسيّ، أو إنسان، وكلها مشتقة من أنس ضد توحّش، لأنّ الإنسان يألف ويأنس. والإيمان في الشرع: هو الاعتقاد الجازم بثبوت ما يعلم أنّه من الدين علماً ضرورياً... **﴿يخادعون الله﴾**: الخداع: مصدر خادع الدال على معنى مفاعلة الخدع، والخدْع فعل أو قول معه ما يوهم أنّ فاعله يريد بمدلوله نفع غيره، وهو إنّما يريد خلاف ذلك... **﴿وما يشعرون﴾**: الشعور: يطلق على العلم بالأشياء الخفية، ومنه سُمي الشاعر شاعراً، لعلمه بالمعاني التي لا يهتدي إليها كل أحد...

﴿في قلوبهم مرض﴾: المراد بالمرض هنا؛ ما يحدث للنفس من رديء الأخلاق فيخرجها عن كمالها، وأصل المرض ما يحدث للجسم المعتدل فيخرجه عن الاعتدال، وبقدر الخروج يشتد الألم... **﴿لا تفسدوا في الأرض﴾**: الإفساد فعل ما به الفساد، والهمزة فيه للجعل، والفساد أصله استحالة منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره، والإصلاح ضد الإفساد... **﴿السفهاء﴾**: جمع سفيه، وهو

المتصف بالسفاهة، والسفاهة خفة العقل وقلة ضبط الأمور، والعرب تطلق السفاهة على أفن الرأي وضعفه، وتطلقها على سوء التدبير للمال... ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا**﴾: اجتمعوا بهم في مجلس المؤمنين...

﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم**﴾: الشياطين جمع شيطان، وهو المتمرد من الجن، وأصل إطلاقه على إبليس، ويطلق على المفسد ومثير الشر، وأطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق. وخلوا: بمعنى انفردوا فهو فعل قاصر، ويُعدى بالباء وباللام ومن ومع، ويعدى بإلى على تضمين معنى آب أو خلص، ويعدى بنفسه على تضمين تجاوز وباعد، وقد عدِّي هنا بإلى ليشير إلى أنّ الخلوة كانت في مواضع هي مآبهم ومرجعهم... ﴿**مستهزءون**﴾: الاستهزاء: السخرية، يقال: هزأ به واستهزأ به... ﴿**ويمدّهم**﴾: فعل يَمُدُّ مشتق من المدد، وهو الزيادة، يقال: مده إذا زاده، والأصل في الاشتقاق من غير حاجة إلى الهمزة، لأنّه متعد، وقد يقولون: أمده بهمزة التعدية على تقدير جعله ذا مدد، ثم غلب استعمال مد في الزيادة في ذات المفعول، نحو مد الأرض، ومد له في عمره، وغلب استعمال أمدَّ في الزيادة للمفعول من أشياء يحتاجها، مثل أمدّه بجيش... ﴿**في طغيانهم**﴾: الطغيان: مصدر بوزن الغفران والشكران، وهو مبالغة في الطغي، وهو الإفراط في الشر والكبر، ويقال عن الذي تجاوز القدر وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم طاغٍ... ﴿**يعمهون**﴾: العمه: انطماس البصيرة، وفعله عمِه، ويطلق على من تردد في الضلال كما هنا...

﴿**اشتروا الضلالة بالهدى**﴾: الاشتراء: أخذ الشيء بثمن، ويطلق على مطلق البدل، وكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره فقد اشتراه، كما في الآية... ﴿**فما ربحت تجارتهم**﴾: الربح: نجاح التجارة، ومصادفة الرغبة في السلع بأكثر من الأثمان المشتراة بها، ويطلق الربح على المال الحاصل للتاجر زائداً على رأس ماله، والتجارة التصدي لاشتراء الأشياء، لقصد بيعها بثمن أوفر مما اشترى به... ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**﴾: المثل: النظير والمشابه، والمثل بفتحتين خُص إطلاقه على الحال الغريبة الشأن. واستوقد: بمعنى أوقد، فالسين والتاء للتأكيد، ومثلها استجاب واستبان... ﴿**أضاءت**﴾: أضاء: يجيء متعدياً وهو الأصل كما هنا، ويجيء قاصراً بمعنى ضاء فهمزته للصيرورة...

﴿**وتركهم**﴾: حقيقة الترك: مفارقة أحد شيئاً كان مقارناً له في موضع، وإبقاؤه في ذلك الموضع... ﴿**صم بكم عمي**﴾: جمع أصم وأبكم وأعمى، فالصمم: انعدام إحساس السمع عمّن من شأنه أن يكون سميعاً، والبكم: إنعدام النطق عمّن من شأنه النطق، والعمى: انعدام البصر عمّن من شأنه الإبصار... ﴿**فهم لا يرجعون**﴾: الرجوع: الإنصراف من مكان حلول ثان، إلى مكان حلول أول... ﴿**أو كصيّب**﴾: والصيّب: وزنه فَيْعَلْ من صاب يصوب صوباً، إذا نزل بشدة، وهو وصف للمطر الشديد... ﴿**من السماء**﴾: السماء: تطلق على الجو المرتفع فوقنا، الذي نخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع، وعلى السحاب وعلى المطر... ﴿**فيه ظلمات ورعد وبرق**﴾: الظلمات: جمع ظلمة والظلمة ذهاب النور، وليلة ظلماء شديدة الظلمة. الرعد: انفجار كهربي في جوّ ملبّد بالسحب، يسمع له دويّ شديد. والبرق: اللمعان الذي يرى فيه... ﴿**من الصواعق**﴾: جمع صاعقة، وهي قوة محرقة تندفع من كهربية الرعد والبرق... يخطف: الخطف: الأخذ بسرعة... ﴿**وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾: أظلم: أمسك وميضه، وقاموا وقفوا في الموضع.

مبحث الإعراب:

﴿**ألم**﴾ لا محل لها من الإعراب على بعض الأقوال(*). ﴿**ذلك**﴾ مبتدأ ثان مبني على السكون ﴿**ذا**﴾، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب. ﴿**الكتاب**﴾ خبر المبتدإ الثاني مرفوع بالضمة(**). ﴿**لا**﴾ نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**ريب**﴾ اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**فيه**﴾ جارٌّ ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا ريب فيه في محل نصب حال من الكتاب، ويصح أن يكون خبراً ثانياً، فيكون في محل رفع، أو يكون وصفاً للكتاب، وعلى كل حال فأوجه الإعراب فيه كثيرة. ﴿**هدى**﴾ خبر لمبتدإ محذوف مرفوع بضمة مقدرة على الألف المحذوفة. ﴿**للمتقين**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف، نعت لهدى. ﴿**الذين**﴾

(*) ظاهر سياق الكلام أنّ - ألم - مراد بها حروف القرآن المشار إليه بذلك، فتكون في موضع رفع مبتدأ أول.

(**) جملة ذلك الكتاب خبر المبتدإ الأول - ألم -.

اسم موصول وصف للمتقين. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿**بالغيب**﴾ جار ومجرور متعلق بيؤمنون. ﴿**ويقيمون**﴾ معطوف على يؤمنون، وهو مثله في الإعراب. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة. ﴿**وممّا**﴾ جار ومجرور متعلق بينفقون. ﴿**رزقناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**ينفقون**﴾ فعل وفاعل، وجملة رزقناهم صلة الموصول مثل يؤمنون. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الذين السابقة، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بيؤمنون. ﴿**أُنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**إليك**﴾ جار ومجرور متعلق بأنزل، وجملة أنزل صلة ما. ﴿**وما أنزل من قبلك**﴾ معطوف على ما أنزل، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**وبالآخرة**﴾ جار ومجرور متعلق بيوقنون. ﴿**هم**﴾ مبتدأ في محل رفع. ﴿**يوقنون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر هم، وجملة هم يوقنون معطوفة على يؤمنون. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**على هدى**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**من ربّهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف، نعت لهدى، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة لا محل لها من الإعراب فهي مقررة ومؤكدة. ﴿**وأولئك**﴾ مبتدأ معطوف على أولئك السابقة. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب. ﴿**المفلحون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو.

﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**سواء**﴾ خبر مقدم مرفوع بالضمة. ﴿**عليهم**﴾ جار ومجرور متعلق بسواء. ﴿**أأنذرتهم**﴾ الهمزة للاستفهام، أنذرتهم فعل وفاعل ومفعول، وجملة أأنذرتهم مبتدأ مؤخر، أي: إنذارك وعدمه سواء، والجملة خبر إنّ. ﴿**أم**﴾ حرف عطف. ﴿**لم**﴾ حرف نفي وجزم. ﴿**تنذرهم**﴾ فعل مضارع مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير «أنت»، وهم في محل نصب مفعول به. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وواو الجماعة فاعل، والجملة معطوفة على أأنذرتهم[*]. ﴿**ختم**﴾

(*) توضيح قوله «أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»: الهمزة للتسوية وأم متصلة، والجملة مبتدأ، وخبرها سواء، والجملة خبر إنّ، ولا يؤمنون هذه الجملة لا محل لها من الإعراب.

فعل ماض. ﴿**الله**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**على قلوبهم**﴾ جار ومجرور متعلق بختم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وعلى سمعهم**﴾ معطوف على قلوبهم، وهي مثلها في الإعراب. ﴿**وعلى أبصارهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**غشاوة**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة، والجملة معطوفة على ختم الله. ﴿**ولهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عذاب**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**عظيم**﴾ نعت له، والجملة معطوفة على ما قبلها مقررة له.

﴿**ومن الناس**﴾(*) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول مبتدأ مؤخر. ﴿**يقول**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على من، وجملة يقول صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿**آمنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالله**﴾ جار ومجرور متعلق بآمنا، وجملة آمنا في محل نصب مقول القول. ﴿**وباليوم**﴾ معطوف على بالله. ﴿**الآخر**﴾ نعت لليوم مجرور بالكسرة. ﴿**وما**﴾ الواو حرف عطف، وما نافية تعمل عمل ليس. ﴿**هم**﴾ اسمها في محل رفع. ﴿**بمؤمنين**﴾ جار ومجرور خبر ما، دخل عليه حرف الجر فجُرّت لفظاً ونصبت محلاً. ﴿**يُخادِعُون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الله**﴾ نصب على التعظيم. ﴿**والذين**﴾ معطوف على الله في محل نصب. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**وما يخادعون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل منفية بما معطوفة على يخادعون. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به بدل من المفعول المحذوف، إذ التقدير: وما يخادعون أحداً إلا أنفسهم. ﴿**وما يشعرون**﴾ جملة من الفعل والفاعل منفية بما، معطوفة على ما قبلها. ﴿**في قلوبهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مرض**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**فزادهم**﴾ الفاء للتعقيب، زادهم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الله**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**مرضاً**﴾ مفعول ثان منصوب بالفتحة. ﴿**ولهم**﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عذاب**﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. ﴿**أليم**﴾ نعت له. ﴿**بما**﴾ جار ومجرور متعلق بالخبر. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يكذبون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا يحتمل أن تكون صلة ما، أو تكون مصدراً منسبكاً مع ما، مجرور بالباء.

(*) ومن: تبعيضية في محل رفع مبتدأ، ومن يقول خبره.

﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا لمجرد الظرفية، وليست متضمنة معنى الشرط، وهي للماضي وليست للمستقبل. ﴿**قيل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**لهم**﴾ نائب الفاعل. ﴿**لا**﴾ ناهية. ﴿**تفسدوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وجملة لا تفسدوا في محل نصب مقول القول. ﴿**في الأرض**﴾ جار ومجرور متعلق بالفعل قبله. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل، وهو متعلق الظرف إذا، أي: قالوا عندما قيل لهم. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**نحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**مصلحون**﴾ خبره مرفوع بالواو، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**ألا**﴾ أداة استفتاح. ﴿**إنّهم**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**المفسدون**﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. ﴿**ولكن**﴾ الواو حرف عطف، لكن حرف استدراك. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**يشعرون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وإذا قيل لهم**﴾ القول فيها مثل ما سبق. ﴿**آمنوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فيه فاعل. ﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه، والمشبه به مصدر محذوف، أي: إيماناً مثل إيمان الناس، وما مصدريّة.

﴿**آمن الناس**﴾ فعل وفاعل، منسبك مع ما بمصدر مجرور مضاف إلى الكاف. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل، وهو متعلق إذا كما سبق. ﴿**أنؤمن**﴾ الهمزة للاستفهام، نؤمن فعل مضارع، والفاعل ضمير نحن، وجملة أنؤمن في محل نصب مقول القول. ﴿**كما آمن السفهاء**﴾ إعرابه مثل إعراب كما آمن الناس. ﴿**ألا إنّهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**﴾ مثل ألا إنّهم هم المفسدون. .الخ. ﴿**وإذا لقوا**﴾ معطوف مثل ما تقدم من قول: وإذا قيل لهم، والكلام في الظرفية والزمان سواء. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**آمنا**﴾ كذلك، وهو في محل نصب مقول القول. ﴿**وإذا خلوا**﴾ مثل وإذا لقوا. ﴿**إلى شياطينهم**﴾ جار ومجرور متعلق بخلوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قالوا**﴾ مثل ما سبقها. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**معكم**﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر إنّ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إنّما نحن مستهزءون**﴾ مثل إنّما نحن مصلحون في الإعراب. ﴿**الله**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**يستهزئ**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**بهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيستهزئ. ﴿**ويمدهم**﴾ معطوف على يستهزئ، والضمير فيه مفعول به، ويستهزئ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**في طغيانهم**﴾ جار ومجرور متعلق بيمدّهم. ﴿**يعمهون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب حال من مفعول يمدّهم.

﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. **﴿الذين﴾** في محل رفع خبره. **﴿اشتروا﴾** صلة الذين. **﴿الضلالة﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿بالهدى﴾** جار ومجرور متعلق باشتروا. **﴿فما﴾** الفاء للترتيب، وما للنفي. **﴿ربحت﴾** فعل ماض. **﴿تجارتهم﴾** فاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وما﴾** معطوف على فما. **﴿كانوا﴾** كان واسمها. **﴿مهتدين﴾** خبر كان منصوب بالياء. **﴿مثلهم﴾** مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿كمثل﴾** الكاف بمعنى شبه، وهو في محل رفع خبر المبتدإ، أي: مثلُهم شبه مثل. **﴿الذي﴾** مضاف إلى المضاف إلى الكاف في محل جر. **﴿استوقد﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الذي. **﴿ناراً﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿فلمّا﴾** الفاء للتفريع. **﴿لما﴾** ظرفية تضمنت معنى الشرط. **﴿أضاءت﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على النار. **﴿ما﴾** اسم موصول في محل نصب مفعول به. **﴿حوله﴾** ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ذهب الله﴾** فعل وفاعل. **﴿بنورهم﴾** جار ومجرور متعلق بذهب، والضمير فيه مضاف إليه، وأضاءت فعل الشرط، وذهب جوابه. **﴿وتركهم﴾** معطوف على ذهب. **﴿في ظلمات﴾** جار ومجرور متعلق بترك. **﴿لا يبصرون﴾** جملة من الفعل والفاعل منفية بلا بيان لما سبقها.

﴿صم﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: هم صمّ. **﴿بكم عمي﴾** كذلك. **﴿فهم﴾** الفاء للتفريع، هم في محل رفع مبتدأ. **﴿لا يرجعون﴾** جملة من الفعل والفاعل منفية بلا في محل رفع خبر المبتدإ. **﴿أو﴾** حرف عطف. **﴿كصيّب﴾** معطوف على التمثيل السابق، كمثل الذي استوقد ناراً مجرور بالكسرة. **﴿من السماء﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لصيّب. **﴿فيه﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿ظلمات﴾** مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. **﴿ورعد وبرق﴾** معطوفان على ظلمات. **﴿يجعلون﴾** فعل وفاعل. **﴿أصابعهم﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يجعلون في محل نصب حال من الهيئة المشبه بها. **﴿في آذانهم﴾** جار ومجرور متعلق بيجعلون، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من الصواعق﴾** جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول له، أي خوفاً من الصواعق. **﴿حذر﴾** مفعول لأجله منصوب بالفتحة. الموت مضاف إلى حذر مجرور بالكسرة. **﴿والله محيط﴾** جملة تذييلية من المبتدإ والخبر. **﴿بالكافرين﴾** متعلق بمحيط.

﴿**يكاد**﴾ فعل مضارع ناقص يعمل عمل كان. ﴿**البرق**﴾ اسم يكاد مرفوع بالضمة. ﴿**يخطف**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على البرق. ﴿**أبصارهم**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يخطف في محل نصب خبر يكاد، وجملة يكاد البرق حالية أو بيانية. ﴿**كلّما**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**أضاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**لهم**﴾ جار ومجرور متعلق بأضاء. ﴿**مشوا**﴾ جواب الشرط. ﴿**فيه**﴾ جار ومجرور متعلق بمشوا، وجملة كلّما في محل نصب حال من البرق، أو من الضمير في أبصارهم. ﴿**وإذا أظلم عليهم قاموا**﴾ جملة شرطية معطوفة على الجملة الشرطية قبلها، حالية مثلها. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، لو حرف امتناع لامتناع متضمنة معنى الشرط. ﴿**شاء**﴾ فعل الشرط. ﴿**الله**﴾ فاعل مرفوع بالضمة. ﴿**لذهب**﴾ جواب الشرط، ومفعول شاء محذوف دلّ عليه جواب الشرط، أي: لو شاء الله ذهابَ سمعهم. . .الخ. ﴿**بسمعهم**﴾ جار ومجرور متعلق بذهب، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**وأبصارهم**﴾ معطوف على سمعهم. ﴿**إنّ الله على كل شيء قدير**﴾ جملة تعليلية مركبة من إنّ واسمها وخبرها.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**ألم. ذلك الكتاب**﴾: ذلك إشارة إلى ما نزل من القرآن بالفعل قبل سورة البقرة، وينضم إليه ما يلحق به، وأشير إليه بالبعيد (ذلك) ولم يقل: ذا ولا هذا؛ لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، لجعله بعيد المنزلة، وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزّة المنال؛ لأنّ الشيء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صوناً له عن الدوس، وتناول كثرة الأيدي والابتذال، فالكتاب هنا لمّا ذُكر في مقام التحدي بمعارضته بما دلت عليه حروف التهجي في ألم، كان كالشيء العزيز المنال بالنسبة إلى تناولهم إيّاه بالمعارضة. وتعريف الكتاب تعريف الجنس، فتفيد الجملة قصر حقيقة الكتاب على القرآن بسبب تعريف الجزئين، فهو إذن قصر ادعائيّ، ومعناه: ذلك هو الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب، بناء على أنّ غيره من الكتب إذا نسبت إليه، كانت كالمفقود منها وصف الكتاب، لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب. وسمي القرآن كتاباً، لأنّه مكتوب في الصحف، لأنّ النبيء ﷺ أمر بكتابة

كل ما ينزل منه بمجرد نزوله، وكان له كُتّاب خاصون مختارون.

﴿**لا ريب فيه**﴾: ليس فيه ما يوجب ارتياباً في صحته، إذا تدبّر فيه المتدبّرُ وجده مُفيداً لليقين بأنّه من عند الله، وهو يفيد التعريض بما عند أهل الكتاب من الكتب، فإنّها قد اضطربت أقوالها وتخالفت، لما اعتراها من التحريف. ﴿**هدى للمتقين**﴾: أخبر بالمصدر هنا لما فيه من المبالغة في حصول الهداية به، إلى الغاية في إرشاد الناس، حتى كأنّه عين الهدى، تنبيهاً على رجحان هداه على هدى ما قبله من الكتب. وحصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعاني، ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل، فقيل: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن وتنويه به، وَتَخَلُّصٌ للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه!. وتلتئم الجمل الأربع تمام الالتئام: فإنّ جملة ألم، تسجيل لإعجاز القرآن وإنْحاءُ على عامة المشركين عجزَهم عن معارضته، وهو مؤلف من حروف كلامهم، وكفى بهذا نداء على تعنتهم. وجملة ذلك الكتاب تنويه بشأنه، وأنّه بالغ حد الكمال في أحوال الكتب، فذلك موجه إلى الخاصة من العقلاء أن يقول هذا كتاب مؤلف من حروف كلامهم، وهو بالغ حد الكمال من بين الكتب، فكان ذلك مما يُوفّر دواعيكم على اتّباعه، والافتخار بأن مُنِحْتُمُوهُ، فإنّكم تعدون أنفسكم أفضل الأمم... وقوله لا ريب فيه: تعريض بأهل الكتاب الذين تعلقوا بكلام محرّف، بما فيه من مثار الريب والشك...

﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾: الكلام متصل بقوله للمتقين، على أنّه صفة لإرداف صنعتهم الإجمالية، بتفصيل يعرف به المراد، ومع ذلك يكون مبدأ استطراد لتصنيف أصناف الناس... ﴿**وممّا رزقناهم ينفقون**﴾: تقديم المجرور المعمول على عامله لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس... ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك**﴾: يطلق الإنزال مجازاً لغوياً على معان راجعة إلى تشبيه عمل بالنزول، لاعتبار شرف ورفعة معنوية لاختصاص ذلك العمل بالله - أنزلنا عليكم لباساً - أنزلنا الحديد - أنزلنا من السماء - أنزل لكم من الأنعام. والتعبير عن الإيمان بالآخرة بمادة الإتقان، لأنّ هذه المادة تشعر بأنّه عِلْمٌ حاصل عن تأمّل. وغوص الفكر في طريق الاستدلال، لأنّ الآخرة لمّا كانت حياة غائبة عن المشاهدة، غريبة بحسب المتعارف، كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان، وفي قوله... ﴿**وبالآخرة**

هم يوقنون﴾: تقديم للمجرور الذي هو معمول يوقنوه ثناءٌ واهتمامٌ ومراعاةٌ للفواصل، وهم يوقنون تقوية للخبر. . .

﴿أولئك على هدى من ربّهم﴾: اسم الإشارة هنا لقصد التنويه، وقوله: على هدى من ربّهم استعارة تمثيلية، حيث شبه مجموع هيئة المتقين في اتصافهم بالهدى، بهيئة الراكب المتمكن، وإنّما وُصف الهدى بأنّه من ربّهم، للتنويه بذلك الهدى وتشريفه مع الإشارة بأنّهم محل العناية من الله، وإضافة الرب إليهم إضافة تعظيم لشأن المضاف إليه بالقرينة. . . **﴿وأولئك هم المفلحون﴾**: كرر الإشارة للاعتناء والتنويه، وهو ذكر اسم الإشارة وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل؛ تبصيراً بمراتبهم وترغيباً في طلب ما طلبوا، وتنشيطاً لتقديم ما قدّموا. . . **﴿إنّ الذين كفروا. . .﴾** الخ الآية: لما كان الشيء قد يُقدر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب، وجيء بإنّ للاهتمام بهذا الكلام، وقوله. . . **﴿لا يؤمنون﴾**: مسوقة لتقرير معنى الجملة التي قبلها. . .

﴿ختم الله على قلوبهم. . .﴾ الخ الآية: هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق، وبيان لسببه في الواقع، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة **﴿أولئك على هدى من ربهم﴾** فلهذه الجملة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في الثناء على أربابها. . . **﴿ومن الناس من يقول آمنا. . .﴾** الخ: هذا فريق آخر، وهو فريق له ظاهر الإيمان وباطنه الكفر، وفي هذا الأسلوب إيذان بأنّ المتحدث عنهم، ستساق في شأنهم قصة مذمومة وحالة شنيعة، إذ لا يُستر ذكرهم، إلاّ لأنّ حالهم من الشناعة، بحيث يستحي المتكلم أن يصرح بموصوفها - فهم من الناس فقط -، وفي ذلك من تحقير شأن النفاق ومذمته أجر كبير، وفي قوله. . .

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾: فذلكة للجمل السابقة الشارحة لأحوال المنافقين، وشأن الفذلكة عدم العطف، ففيها ثلاث موجبات للفصل - عدم العطف -، وموقع هذه الجملة من نظم الكلام، مقابل جملة أولئك على هدى من ربهم، ومقابل جملة ختم الله على قلوبهم، واسم الإشارة هنا غير مشابه إلى ذوات، ولكن إلى صنف اجتمعت فيهم الصفات المذكورة، فانكشفت أحوالهم حتى صاروا كالحاضرين تجاه السامع،

بحيث يشار إليهم، وهذا استعمال كثير الورود في الكلام البليغ. وإطلاق الاشتراء هنا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم؛ أُطلق الاشتراء على لازمه الثاني، وهو الحرص على شيء، والزهد في ضده... **﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾**: فيه ترشيح للاستعارة في اشتروا، ونفي الاهتداء كناية عن إضاعة القصد، وهذا نداء عليهم بسفه الرأي والخرق، وهو يجري مجرى العلة لعدم ربح التجارة، لأنّ من لم يكن مهتدياً أضاع الربح وأضاع رأس المال بسوء تصرفه... **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾**: أعقبت تفاصيل صفاتهم، بتصوير مجموعها في صورة واحدة، بتشبيه حالهم بهيئة محسوسة، وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إلحاقاً لتلك الأحوال المعقولة بالأشياء المحسوسة، والنفس إلى المحسوس أميل، والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء، لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم، والمثل قول شبه مضربه بمورده...

﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾ الخ: عطف على التمثيل السابق - كمثل الذي استوقد ناراً - أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر، وبمراعات أوصاف أخرى، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنّن في التشبيه، وهم يتنافسون فيه، لاسيما التمثيل منه، وهي طريقة تدل على التمكن من التوصيف والتوسع فيه. وفي النهاية قوله تعالى... **﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾**: وله موقع عجيب هنا، حيث جاء تذييلاً - تعليقاً -، وترشيحاً للتوجيه المقصود للتهديد، زيادة في تذكيرهم وإبلاغهم، وقطعاً لمعذرتهم في الدنيا والآخرة.

خلاصة المعنى العام وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾: يبين الله فيه للناس قيمة هذا الكتاب المنزل من عند الله، مؤلف من حروف وكلمات معروفة فاشية، ومنتشرة بين العرب جميعاً، لكنّ المعانى والتراكيب، وما فيها من أغراض وأهداف، بينها وبين كلامهم بعد شاسع، يجده الباحث عندما يقارن بين كلام بلغائهم من شعراء وخطباء ومتكلمين على مختلف طبقاتهم، وبين ما في القرآن العظيم!. هذا هو التحدي الواضح، والإعجاز الفاضح لكل من تسول له نفسه الطمع في المعارضة، أو ادعاء الغلبة والمقاومة، وذلك هو الدليل على أنّ هذا

القرآن من عند الله، ولا دخل لأحد من البشر، وهو دليل كاف وبرهان مقنع على أنّ محمداً رسول من عند الله، أنزل عليه هذا الكتاب ليهتدي به كل من له سمع وبصر.

وموقف المسلمين اليوم يدعو إلى الأسف والحسرة، من تفريطهم في أوامر هذا الكتاب، وبعدهم عن تعاليمه وإرشاداته وتوجيهاته، وتخبطهم في سيرهم واتجاهاتهم، بأخذهم تعاليم غير تعاليم دينهم، وإرشادات غير إرشادات ربّهم، وذلك كله تقليد للأمم التي لا تهتدي بدين، ولا تخضع لمنهج مستقيم. وفي هذا الكتاب من المعارف والعلوم ما يعجز عنها الوصف، ويقف المرء أمامها حائراً مبهوراً، من قوّة حجّته، وفصاحة عبارته، وبلاغة مقاصده ومراميه، ووضوح إشارته ونصوع دلالته، فكأنّه السحر الحلال، والشراب المنعش الزلال، سبحانك رب كيف يجهل المسلمون اليوم هذا الغذاء، ويغيب عن عقولهم هذا الدواء!. غذاء الروح والجسم، ودواء الأوهام والسقم، هذه الحروف التي تركبت والكلمات التي تألفت، والعبارات التي اتسقت، والآيات التي دلت وأرشدت.

ذلك هو الكتاب الحق، لا ريب فيه، ولا خلل يعتريه، فوعده حق وخبره صدق؛ هدى للمتقين الذين ينتفعون بهذا القرآن، هم المتقون الكاملون في الإيمان، العاملون بأوامر الديّان، المنتهون عن الفسوق والعصيان، أمّا الذين ارتابوا فيه، وتخوفوا منه، فهربوا يلتمسون الهداية من غيره، فلم يجدوا إلاّ الضلال، والخيبة والوبال، والحيرة والنكال ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾.

التوجيه الثاني: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون**﴾: في هذا التوجيه بيان وتوضيح بحال الصنف الأول، من أصناف الناس الذين واجههم القرآن، وهم الذين وصفهم القرآن بالمتقين. وهذه هي أوصافهم مرتبة كما جاء بها النص:

الوصف الأول: الإيمان بالغيب: وهو التصديق بما غاب عن الحواس، ولم يخضع للتجارب، ويدخل تحت تصرفات الناس. هذا التصديق غيرُ التقليد للغير بدون دليل، وغير المنقول بمجرد الوهم والخيال التي تحكيها الأقاويل، وإنّما يأتي من طريق إخبار الرسل، الذين أرسلهم الله هداة للبشر، حيث أخبروهم أنّ هناك

أشياء فوق المدركات الحسية، والتصورات العقلية. فعوالم السماوات التي أخبر عنها الأنبياء، غيب في غيب، وأحوال ما بعد الموت، وما يقع يوم القيامة، من البعث والحساب والجنّة والنار من الثواب والعقاب، وقيام الساعة وعلاماتها، وأنواع الملائكة وأشكالها، وعالم الجن وأحوالها، كل ذلك غيب في غيب، فالمؤمن يؤمن بها كما وردت عن طريق الصادق المعصوم. ولمّا كان هؤلاء المتقون الذين اهتدوا بالقرآن، عقلاء نبلاء أذكياء فطناء، تيقنوا من صحة الأخبار عن الغيب، الذي لا يدرك إلاّ بالخبر الصحيح، وأذعنوا لها إذعان العارف الباحث المجتهد، وليس المسلّم لما يقال، يذعن لكل ما قيل، إذعان الجاهل المقلّد.

الوصف الثاني: إقامة الصلاة: معنى إقامة الصلاة، الإتيان بها كاملة من جميع الوجوه؛ شروطها وأركانها وآدابها، ومراعاة أوقاتها المقررة لها. وهي عبادة من أعظم العبادات البدنية، وفوائدها لا تحصى، للعقل والنفس والجسم، للفرد والجماعة، وهي نظام في الوقت، ونظام في الأداء. هذه الصلاة، لا يستطيع أن يحافظ عليها إلاّ من كملت فيه أوصاف الإنسان الكامل، من قوة الصبر وشدة العزم، حتى تتحقق فيه ظاهرة التقوى التي عنوانها ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾، هذه الصلاة التي تكسب الإنسان قوة وجلادة، وتزيده من قوّة العزم وشدة الإرادة. أمّا تلك الحركات وما تسمع من التمتمات، دون إدارك لمقاصدها وفهم لمعانيها، وهي ظاهرة بين أكثر من يصلي من المسلمين اليوم، والأغلبية منهم تاركون للصلاة أصلاً ولا يعرفون ما هي الصلاة!.

الوصف الثالث: الإنفاق مما رزقه الله: هذا الوصف يبيّن لنا بوضوح، ما عليه المؤمن الكامل من كرم النفس، وقوة العاطفة الإنسانية، إنّه ينفق ممّا رزقه الله، يعطي منه الفقير المستحق، ليبعد عنه شبح الفقر والفاقة. فهذا هو المؤمن الكامل، أداة فعّالة وآلة شغالة في المجتمع المسلم، الذي هو كالجسد الواحد، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً.

والحكمة في تقديم هذه الصفات الثلاث، وتفسير التقوى بها، لأنّها هي الدلائل على إخلاص الإيمان؛ فالإيمان في حال الغيبة على المؤمن أدلّ على اليقين، حتى أنّه يتلقى من الشرع ما لا قِبل للرأي فيه، وشأن النفوس أن تميل إلى المحسوس، والصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها، إلاّ إذا امتلأ قلبه

بذكر الله. والزكاة أداء المال، وقد عُلم شحُّ النفوس ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾.

التوجيه الثالث: ﴿**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون**﴾: في هذا ذكر لفريق آخر من المؤمنين، وهم مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين اشتمل إيمانهم على كل وحي نزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه، من أنّه لا يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً عند اليهود، ومن كان نصارى عند النصارى، وأنّ النار لن تمسهم إلاّ أياماً معدودة كما صرح بذلك اليهود، وأنّ نعيم الجنة نعيم روحيٌّ لا حسيٌّ، كما صرح بذلك النصارى تقليداً للفلاسفة، حسب ما هو مقرر في كتبهم، فالإيقان بالآخرة لا يصح إلاّ إذا جاء حسب ما قرّر هذا القرآن، وما بيّن في وصف نعيم الجنة وأهلها، تفصيلاً وتوضيحاً دون إجمال أو إبهام.

وقد كان أهل الكتاب لا يعلمون عن الدار الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، إلاّ إشارات وتلويحات وتلميحات غامضة لا تخضع للإيقان، كما هو معلوم من هذا القرآن، ولهذا جاء مدح هؤلاء الذين آمنوا الإيمان الحق من أهل الكتاب. ومن المعلوم أنّه لا يمدح بتيقن وجود الآخرة فقط، وإنّما بالإيمان بربه، وبما تبعه من السؤال والحساب، ولإدخال المؤمنين دار الثواب، والكافرين دار العقاب، حسب ما بيّن ووضّح هذا الكتاب.

النتيجة الحاصلة من تلك الأوصاف الكاملة ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ إنّ أولئك الذين ذكرت أوصافهم من الفريقين: الفريق الذي آمن حديثاً، والفريق الذي اتصل إيمانه وسار به إلى الأمام حثيثاً، ثابتون متمكنون مستقرون على ما يوصلهم إلى غرضهم المطلوب وهدفهم المحبوب، وواصلون إليه دون شكّ ولا ريب، لأنّهم على الحق وعلى طريق الحق سائرون. ومن كانت هذه طريقه وهذا مركبه، فقد أفلح وفاز، حيث تخطى كل العقبات وجاز. فاز هؤلاء بإيمانهم بالله، وبتصديقهم بما جاء منه، فآمنوا بالغيب. فازوا بعبادتهم، وبخضوعهم لله وإخلاصهم له، من إقامة الصلاة. فازوا بكرمهم وإحسانهم بغيرهم، بإنفاقهم ممّا رزقهم الله. فازوا بإيمانهم بما أنزل من عند الله

وبما جاء به رسل الله. فازوا بإيمانهم بأنّهم سيحاسبون **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾**. في هذه الآيات وما فيها من أوصاف المؤمنين، تفصيل لما ذكر مجملاً في سورة الفاتحة تستطيع أن تقارن بينهما بسهولة ويسر.

التوجيه الرابع: ﴿إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾: في هذا التوجيه انتقال من الثناء على الكتاب ومتقلديه، ووصف هديه، وأثر ذلك الهدي في الذين اهتدوا به، إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب. وسجّل أنّ حرمانهم من الاهتداء بهديه، إنّما كان من خبث أنفسهم إذ نَبُوا بها عن ذلك، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم، ويحذرون من سوء العواقب، فلم يكونوا من المتقين.

وقد قرنت الآيات فريقين: فريقاً أضمر الكفر وأعلنه، وهم من المشركين كما هو غالب اصطلاح القرآن في لفظ الذين كفروا. وفريقاً أظهر الإيمان وهو مخادع، وهم المنافقون المشار إليهم بقوله **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾**، والفريق الأول من الفريقين، هم الذين ضلوا عن الهدى، وتاهوا في فيافي الهلاك والردى، بسبب أعمالهم السيّئة وأخلاقهم القبيحة، التي امتلأت بها قلوبهم، وخُتم عليها فانغلقت على ما فيها، فلم يدخلها خير، ولم ينفذ إليها شعاع من نور، وآذانهم لا تسمع الداعي، فهي مطموسة مختوم عليها، مغلقة بمغلاق محكم لا ينفذ منه الهواء، فلم تسمع أيّ صوت، ولم تستجب لأيّ مناد، وعلى أبصارهم غطاء فلم تر شيئاً، ولم تهتد إلى طريق الهدى، فهؤلاء لا ينفع معهم التحذير والتخويف. فالإنذار بالنسبة لهؤلاء لا يجدي نفعاً، لأنّهم مصمّمون على السير في طريق الهلاك والانقطاع والضياع.

والحكمة في عرض هؤلاء، بما هم عليه من الكفر والضلال على رسول الله ﷺ، وأنّ إنذاره إيّاهم وعدمه سواء، تسلية له وتخفيف عليه، حيث كان حريصاً على إيمان قومه، وشديد الخوف عليهم، وهو يتمنى صادقاً أن يكون جميع الناس مؤمنين، منقادين لما جاء به من الهُدى ودين الحق **﴿لعلك باخع نفسك على آثارهم، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾**. فهؤلاء ماداموا على هذه الأوصاف لا ينفع معهم شيء من التحذير والتخويف، وإنّما نهايتهم سوء المصير

والعذاب العظيم. وهذا العذاب العظيم الذي استحقوه بكفرهم وملكوه بإرادتهم واختيارهم، هو عذاب القتل والمسغبة في الدنيا، وعذاب الهون والنار في الأخرى **﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً، ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾**.

التوجيه الخامس: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. . .﴾** إلخ: في هذا التوجيه، توضيح أوصاف الفريق الثاني، من الذين لم يهتدوا بهدي هذا القرآن، وهم الذين أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر والعصيان، وهم المنافقون الذين كان بعضهم من أهل يثرب، وبعضهم من اليهود الذين أرادوا الكيد للإسلام، حيث نزل بلسان العرب، وبقيتهم من الأعراب من هنا وهناك، وممن بعُد وقرُب. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح أوصافهم توضيحاً كاملاً حتى لا تلتبس على المسلم فيحتار في أمرهم:

الوصف الأول: الكذب والإدعاء بالباطل، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم: آمنا بالله!. كيف يكون الإيمان الحق؟!. إنّه التصديق بكل ما جاء من عند الله، والعمل بما أمر به، والوقوف عند أمره ونهيه. فمن كان صادقاً فليكن هكذا، وإلاّ فهو من الكاذبين المفترين. ويقولون: آمنا باليوم الآخر!. كيف يكون هذا الإيمان؟. الإيمان باليوم الآخر لا يكون إلاّ من مؤمن صادق، يخاف نتيجة العمل السيّء فلا يعمله، ويبتعد عنه طاقة جهده، ويرجو نتيجة العمل الصالح، فيسعى ويجد في عمله طاقة وسعه وجهده، لأنّه مقرٌّ وموقن بالجزاء الأخروي. هذا هو الإيمان باليوم الآخر، فهل هؤلاء كذلك؟. فلينظر في أعمالهم، وهل هي حسب الطلب؟. أو هي مملوءة بالغش والخداع؟. فإن كانت كذلك، فقد كذبوا وافتروا على الله!. إذن فما هم بمؤمنين. إنّه النفي البت لإيمانهم، فدعواهم باطلة.

الوصف الثاني: الخداع والتضليل؛ لأنّهم أرادوا أن يضللوا ويموهوا الحقائق حسب رأيهم وادعائهم، ولكنهم خادعوا أنفسهم قبل أن يخادعوا غيرهم، لأنّ الله لا يُخادع، فهو العليم الخبير، والمؤمنون لا يُخَادعون، لأنّهم ينظرون بنور الله، والله يطلعهم على خبايا النفوس ونيات المخادعين. ولكن هؤلاء المخادعين لا يشعرون بذلك، لأنّهم بلداء بلهاء ليس فيهم إحساس، ومن فقد الإحساس، فَقَدْ فَقَدَ الفهم والتمييز.

الوصف الثالث: إصابتهم بمرض القلب: إنّ المرض إذا كان في القلب متمكناً تصعب معالجته، وتندر إزالته!. وإذا كان القلب مريضاً واستعصى العلاج في شفائه، ازداد مرضه وفسدت آلة التفكير فيه، فلا يدري صاحبه ماذا يقول؟. وماذا يفعل؟. ويتخبط في عمله، فلا يميز فيه بين ضار ونافع، وتضطرب عليه الأمور، فلا يدري أين يتجه، فيسهل اصطياد الشيطان له، ويكون ضحيتَه المنشودة، وغنيمته المفقودة، ويكون أداة طيعة في يده للتخريب والدمار، وينتهي به بعد ذلك إلى النار وبئس القرار ﴿**كُتب عليه أنّه من تولاّه فأنّه يضله ويهديه إلى عذاب السعير**﴾ نعوذ بالله من مرض القلوب وسوء المصير.

الوصف الرابع: الإفساد في الأرض مع ادعائهم الإصلاح: ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون. ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون**﴾: ما هو هذا الإفساد؟. إنّه إفساد عام في الأرض. إنّهم دائما يسعون في الأرض فسادا، حتى انتشر وعمّ، ولم ينج منه إلاّ من تمسّك بالحق، ودفع هذا الفساد. هؤلاء هم الذين قالوا لهم لا تفسدوا في الأرض، ولكنّهم تصامّوا وتعاموا، وتمادوا في إفسادهم وفسادهم، وادّعوا أنّهم هم المصلحون وحدهم دون غيرهم. ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

الوصف الخامس: الغرور والعجب بالنفس، والاستهزاء بالغير: ﴿**وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء. ألا إنّهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون**﴾: إنّ الكبر والعجب والغرور بالنفس والتنقيص والاستهزاء بالغير، صفة راسخة في هؤلاء، حتى تمادوا في غيّهم، ولم يسمعوا دعوة الإيمان، ولم يستجيبوا لداعي الرحمن، بل أنكروا على هذا الداعي، ووقفوا عثرة في سبيله، وعدوا أنفسهم أذكياء مرشدين، وسمَّوْا غيرهم سفهاء أغبياء مخدوعين... ألا إنّهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

الوصف السادس: الخيانة والتملق: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا. وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزءون**﴾: من الأوصاف القبيحة التي فيهم: التملق والنفاق؛ إنّهم منافقون، ليس لهم مبدأ واضح يقفون عنده، وإنّما هم مذبذبون مصلحيّون، لا يعرفون إلاّ أنفسهم، ولا يعملون إلاّ لمصلحتهم؛ فالنفاق والتملق واضح فيهم حينما يلقون أحدا من المؤمنين، وكلمة

الإيمان عندهم بسيطة وسهلة ورخيصة في نفس الوقت، لا نكّلفهم ثمناً، فهم يقولونها بمجرد اللقاء بغيرهم من المؤمنين، وهذا ينشأ منه وصف الخوف والجبن، والمهانة والطمع. أمّا وصف الخيانة فيظهر عليهم واضحاً، عندما يخلون برؤسائهم وساداتهم، فيُذيعون لهم الأسرار، ويُطلعونهم على كل ما رأوا من أحوال المؤمنين، ويبررون موقفهم من المؤمنين لإخوانهم الشياطين، بأنّهم لا يزالون على العهد قائمين، ودوماً على الدرب كانوا سائرين.

﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾: في هذه الآية وفيما بعدها، نتيجة الأوصاف القبيحة التي اتصف بها هؤلاء الناس، الذين استحبوا العمى على الهدى ببيعهم ما فيه نجاتهم ونجاحهم وفوزهم وفلاحهم، واشترائهم ما فيه هلاكهم وفشلهم وخسارتهم، فضاعت أرباحهم. إنّ هذه النتيجة التي تحصلوا عليها من هذه العملية الفاشلة، هي الخسارة الفادحة التي لا مثيل لها في عالم التجارة الناجحة!. إنّ التجار يشترون الشيء المفيد بالشيء القليل الذي تسمح به النفس، ليعود عليهم بالربح من جديد. أمّا هؤلاء الذين اختاروا ما يضرهم، ونبذوا وراءهم ما ينفعهم، فليسوا من التجار كما هو معروف في عالم التوريد والتصدير!. وهذا العمل هو الدليل الواضح على سفاهتهم، وطيش أحلامهم، حتى وصلوا إلى هذا المصير. فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

ثم يأتي بعد هذا التصوير الكامل، الذي يجعل أصحابه في إطار سافر شامل، ليسير سير الأمثال... **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾**: بعدما نفى الله عنهم الاهتداء، وضعهم في عماية الضلال والردى، وأظهرهم في هذه الصورة المحسوسة للعيان، حيث يراهم ويتعجب من حالهم كل إنسان!، فهم الآن في ظلمات لا يبصرون شيئا، بعدما انطفأت نارهم، فبقوا حائرين يائسين دون مغيث أو مجير، وكيف يصل إليهم المجير في هذا الظلام الحالك؟. كيف حالهم وقد انقطعوا عن العالم في هذا التيه، وكل من فيه هالك. إذ ليس هناك أحد يجيبهم، فآذانهم صم وألسنتهم بكم وأعينهم عمي، ولا يهتدون إلى ملجأ يلجئون إليه، ولا يجدون مكانا يستكنون فيه؟!. إنّها صورة تكاد تراها لولا الظلام، وتكاد

تلمسها لولا بعد المقام. هذه هي الصورة الأولى التي ظهرت مثالاً كاشفاً لحال المنافقين، ثم تأتي الصورة الثانية، وهي أكبر من أختها، وأدهى وأمر...

﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كل شيء قدير﴾: أعيد تشبيه حال المنافقين بتمثيل آخر، وبمراعاة أوصاف أخرى؛ فهو تمثيل لحالهم المختلطة بين جواذب ودوافع، حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من إعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيِّب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار، ومزعجات وأكدار، وهم على هذه الحال مثل العصافير في الليل الحالك المطير.

فليس هناك ملجأ ولا مهرب ولا منجي من شدة هذا الظلام الواجف، والرعد القاصف والبرق الخاطف!. يجعلون أصابعهم في آذانهم، لعلّه يخفف عنهم وطأة قصف الصواعق، يفتحون أعينهم لعلهم يجدون مخلِّصا من هذا الموت اللاحق. يكادِ البرق يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا: هكذا يقفون حائرين ينتظرون الهلاك، ولكن الهلاك ليس باختيارهم، بل باختيار من سلط عليهم الهول والفزع، ليكثر منه العويل والجزع، وهو الله الذي يجازي المحسنين إحساناً، ويجازي المسيئين عذاباً وهواناً؛ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل، وأراحهم من هذا الهول الذي أحاط بهم إنّ الله على كل شيء قدير والله محيط بالكافرين: فهم تحت تصرفه وفي قبضته، وهو عليم بهم فلا تخفى عليه خافية من أمرهم.

2 – تهيئة المقام لنداء جميع الأنام!

النص

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (20) الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ
أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (21) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (22) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (23)
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن
ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ
مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (24) * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا
بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ
كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (25) الَّذِينَ يَنقُضُونَ

عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿26﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿27﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿28﴾

البيـان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**الناس**﴾: اسم جمع، واحده الإنسان، ويجمع الإنسان على الأناسيّ، مأخوذ من الأنس، لاستئناس بعضهم ببعض... ﴿**اعبدوا**﴾: العبادة غاية التذلل والخضوع والطاعة، والمعبّد المذلّل من الطريق وغيره، ومن هذا أخذ معنى العبد... ﴿**ربّكم**﴾: الرب: السيد، المالك، المربي، والرب بالألف واللام، لا يطلق إلاّ على الله تعالى... ﴿**الذي خلقكم**﴾: الخلق: الإيجاد من العدم، وأصل الخلق التقدير، وهو كما هنا. والمراد به إخراج الأشياء من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر، وهو خاص باسم الخلق في اصطلاح الشرع... ﴿**لعلكم**﴾: لعلّ: حرف يدل على الرجاء، والرجاء هو الإخبار عن تَهَيّء وقوع أمر في المستقبل وقوعاً مؤكداً... ﴿**تتقون**﴾: التقوى: الحذر مما يكره... ﴿**الأرض**﴾: كل ما سفل، لأنّ الحيوان يرضها بقدمه، ولذلك سميت الأرض، التي عليها يعيش الحيوان... ﴿**فراشاً**﴾: الفراش: المكان الصالح للاستقرار عليه بسهولة ويسر، ويطلق على ما يفرش من بسط وحصر...

﴿**والسماء**﴾: المراد بالسماء هنا إطلاقها العرفي عند العرب، وهو ما يبدو

للناظر كالقبة الزرقاء، وهو المراد الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع. . . ﴿**بناء**﴾: البناء في كلام العرب: ما يُرفع سمكه على الأرض للوقاية، وفعله بنى يبني، ومصدره بنيا وبناء، وهو نقيض الهدم. . . ﴿**وأنزل من السماء ماء**﴾: أنزل الشيء إنزالاً: جعله نازلا، يقال: أنزل الله الغيث. والسماء هنا: السحاب، والماء: الغيث. . . ﴿**فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾: الثمرات: جمع ثمرة، وهي نتاج النبات من الشجر والزرع. والرزق: ما ينتفع به الحيوان من المأكل والمشرب. . . ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً**﴾: الأنداد: جمع الند بكسر النون، والند المساوي والمماثل في أمر، وفيه معنى المنافرة والمعاندة لأنّه مشتق، وفعله ندّ إذا نفر، والنديد المماثل في السنّ، وندّد به صرّح بعيوبه. . . ﴿**وأنتم تعلمون**﴾: المراد بالعلم هنا: العقل التام، وهو رجحان الرأي المقابل عندهم بالجهل، على نحو قوله تعالى ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. . .**﴾.

﴿**وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا**﴾: الريب: الشك مع التحير في أمر المشكوك فيه، فالريب أخص من الشك، والعبد هنا: محمد ﷺ. . . ﴿**فأتوا بسورة من مثله**﴾: السورة: اسم لجمع آيات من القرآن أقلها ثلاث، تشتمل على غرض تام أو عدة أغراض، وهي مشتقة من السور، الحائط المحيط بالبلد، أو بالحديقة والحظيرة، والمثل: أصله المثيل والمشابه تمام المشابهة. . . وادعوا شهداءكم من دون الله: الدعاء: يستعمل بمعنى طلب حضور المدعو، وبمعنى استعطافه وسؤاله لفعل ما. والشهداء: جمع شهيد، فعيل بمعنى فاعل، من شهد إذا حضر، والمراد هنا: الآلهة اللاتي ينتصرون بها، والنصراء الذين يفتخرون بهم. . . من دون الله: معنى دون: أدنى مكان من شيء، يقال: هذا دون ذاك، إذا كان أحط منه قليلا، ثم استعمل في التفاوت في الأحوال والرتب، فقيل: فلان دون فلان في العلم، ثم اتسع فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد، وتخطّي حكم إلى حكم، من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر، فجرى مجرى أداة الاستثناء. . . ﴿**فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة**﴾: الوقود: ما توقد به النار من الحطب وغيره. . . ﴿**أعدّت**﴾: هُيّئت وجُهّزت، وجُعلت عدة لعذابهم. . .

﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾: التبشير: الإخبار بالأمر المحبوب، فهو أخص من الخبر. والصالحات: جمع صالحة، وهي الفعلة الحسنة، فأصلها

صفة جرت مجرى الأسماء، لأنّهم يقولون: صالحة وحسنة، ولا يقدرون موصوفا محذوفا... ﴿**أنّ لهم جنّات**﴾: الجنّات: جمع جنّة، والجنّة في الأصل فَعلة من جنّه إذا ستره، نقوله للمكان الذي تكاثرت أشجاره، والتف بعضه ببعض حتى كثر ظلها... ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾: الجري: حقيقته سرعة شديدة في المشي، ويطلق على سيل الماء سيلا متكررا متعاقبا. والأنهار: جمع نهر، وهو الأخدود الجاري فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع... ﴿**كلّما رزقوا**﴾: كلّما: ظرف زمان، لأنّ كلّ أضيفت إلى ما الظرفيّة المصدرية، فصارت لاستغراق الأزمان المقيدة بصلة ما المصدرية، وقد أشربت معنى الشرط لذلك، فإنّ الشرط ليس إلاّ تعليقاً على الأزمان المقيدة بمدلول فعل الشرط، ولذلك خرجت كثير من كلمات العموم، إلى معنى الشرط عند اقترانها بما الظرفية، نحو كيفما وحيثما وأنّما وأينّما، والناصب لكلّما الجواب... ﴿**ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾: الأزواج: جمع زوج يقال للذكر والأنثى، لأنّه جعل الآخر بعد أن كان منفردا زوجا. ومطهرة: بزنة الإفراد، مطهرة مما في نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة... ﴿**وهم فيها خالدون**﴾: الخلود في الأصل: الثبات المديد، دام أو لم يدم...

﴿**إنّ الله لا يستحيي**﴾: الاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة، مثل استقدم واستأخر، وهو انقباض النفس من صدور فعل أو تلقيه، لاستشعار أنّه لا يليق أو لا يحسن في متعارف أمثاله، فهو هيئة تعرض هي من قبيل الانفعال، يظهر أثرها على الوجه وفي الإمساك عن ما من شأنه أن يُفعل، ومعناه هنا: إنّ الله لا يمتنع عن ضرب المثل، امتناع المستحيي من الفعل الذميم، لأنّ ضرب المثل عادة البلغاء من العظماء والحكماء، وضرب المثل: استعماله في مضربه وتطبيقه له. والبعوضة: حشرة تطير لها طنين تنغص على السامع... فأمّا: أمّا حرف متضمن لمعنى اسم الشرط، وفعله بمنزلة مهما يكن من شيء، ولذلك يجاب بالفاء، وفائدته توكيد ما صدر به، وتفصيل ما في نفس المتكلم من الأقسام، فقد تذكر جميعا، وقد يقتصر على واحد منها، وقولهم: أمّا زيد فذاهب، معناه مهما يكن من شيء، فهو ذاهب لا محالة، وأنّه منه عزيمة... ﴿**ماذا**﴾: اسم استفهام بمعنى أيُّ شيء؟. أو ما اسم استفهام مبتدأ، وذا اسم موصول خبر، وصلته ما بعده، وقد تكون ذا اسم إشارة...

﴿**أراد الله**﴾: الإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل، بحيث يحملها إليه، أو القوّة التي هي مبدؤه، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وكلاهما مِمّا لا يجوز في حقه تعالى، ومعناها في حقه تعالى أنّها ترجيح أحد طرفي المقدور على الآخر، وتخصيصه بوجه دون وجه، أو معنى يوجبه، وهي أعم من الاختيار، فإنّه ترجيح مع تفضيل... ﴿**وما يضل به إلاّ الفاسقين**﴾: أصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها، والفأرة من جحرها، والمراد هنا: الخروج عن طاعة الله بارتكاب الكبيرة... ﴿**الذين ينقضون**﴾: النقض: فسخ التركيب من المركبات الحسيّة كالحبل والغزل، والمعنويّة كالعهد... ﴿**عهد الله**﴾: ما أوصى برعيه وحفظه، ومعاني العهد في كلام العرب كثيرة، ومرجع معانيه إلى المعاودة والمحافظة والمراجعة والافتقاد، والعهد: اليمين، والعهد: الالتزام بشيء... ﴿**من بعد ميثاقه**﴾: الميثاق: اسم لما يقع به الوثاقة والإحكام... ﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾: القطع: الإبانة والفصل بين الشيئين، وقطع رحمه هجرها وعقَّها. والأمر: هو القول الطالب للفعل مع العلو، وبه سمي الأمر الذي هو أحد الأمور تسمية للمفعول بالمصدر، فإنّه مما يؤمر به...

﴿**كيف تكفرون بالله**﴾: كيف: اسم لا يعرف اشتقاقه يدل على حالة خاصة، وهي التي يقال لها الكيفية، نسبة إلى كيف؟! ويتضمن معنى السؤال في أكثر موارد استعماله، فلدلالته على الحالة كان في عداد الأسماء، لأنّه أفاد معنى في نفسه، إلاّ أنّ المعنى الاسمي الذي دلّ عليه لمّا كان معناً مبهما شابه معنى الحرف، فلمّا أشربوه معنى الاستفهام قوي شبهه بالحروف؛ لكنه لا يخرج عن خصائص الأسماء، فلذلك لابد له من محل إعراب، وأكثر استعماله اسم استفهام فيعرب إعراب الحال، ويستفهم بكيف عن الحال العامة. والكُفر بضم الكاف مصدر سماعي لكفر الثلاثي القاصر، وأصله جَحدُ المنعَم عليه نعمة المنعِم، اشتق من مادة الكَفر، وهو الحجب والتغطية، لأنّ جاحد النعمة قد أخفى الاعتراف بها، كما أنّ شاكرها أعلنها، ثم أطلق الكفر في القرآن على الإشراك بالله في العبادة... ﴿**وكنتم أمواتاً فأحياكم**﴾: الأموات: جمع ميت، والميت فاقد الحياة. والحياة: هي نفخ الروح في الجسم، وهي قوة ينشأ عنها الحس والحركة فيما من شأنه ذلك...

﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾: الاستواء: أصله الاستقامة وعدم الاعوجاج، يقال:

صراط مستوٍ، واستوى فلان وفلان، واستوى الشيء مطاوع سوّاه، ويطلق على القصد إلى الشيء بعزم وسرعة... ﴿وسوَّاهن﴾: خلقهن في استقامة، واستقامة الخلق هي انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا ثلم. والسماء: مشتقة من السمو.

مبحث الإعراب:

﴿يا أيّها﴾ يا حرف نداء، أيُّ مُنادى مبني على الضم في محل نصب، ها للتنبيه. **﴿الناسُ﴾** نعت لأيُّ حرِّكت بالضم على لفظ أيّ، وهو في محل نصب تبعاً لمحل أيّ. **﴿اعبدوا﴾** فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. **﴿ربّكم﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿الذي﴾** نعت لرب مبني على السكون في محل نصب. **﴿خلقكم﴾** فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على ربّكم، وجملة خلقكم صلة الموصول. **﴿والذين﴾** معطوف على الضمير المنصوب. **﴿من قبلكم﴾** متعلق بمحذوف صلة الذين والضمير فيه مضاف إليه. **﴿لعلّكم﴾** لعلّ واسمها. **﴿تتقون﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ، وجملة لعلّكم لا محل لها من الإعراب. **﴿الذي﴾** في محل نصب صفة ثانية لرب. **﴿جعل﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة الذي. **﴿لكم﴾** متعلق بجعل. **﴿الأرض﴾** مفعول أول منصوب بالفتحة. **﴿فراشا﴾** مفعول ثان. **﴿والسماء بناء﴾** مثل الأرض فراشا. **﴿وأنزل﴾** معطوف على جعل. **﴿من السماء﴾** متعلق بأنزل. **﴿ماء﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿فأخرج به﴾** مرتب على أنزل. **﴿من الثمرات﴾** متعلق بأخرج. **﴿رزقا﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿لكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لرزقا. **﴿فلا﴾** الفاء للترتيب، ولا للنهي. **﴿تجعلوا﴾** فعل مضارع مجزوم بلا، وواو الجماعة فاعل. **﴿لله﴾** متعلق بالفعل. **﴿أندادا﴾** مفعول به منصوب بالفتحة. **﴿وأنتم﴾** الواو واو الحال، وأنتم في محل رفع مبتدأ. **﴿تعلمون﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة وأنتم تعلمون في محل نصب حال من الضمير الفاعل.

﴿وإن﴾ الواو للعطف، وإن حرف شرط جازم. **﴿كنتم﴾** كان واسمها فعل الشرط. **﴿في ريب﴾** متعلق بمحذوف خبر كان. **﴿ممّا﴾** متعلق بمحذوف نعت لريب. **﴿نزّلنا﴾** فعل وفاعل صلة ما. **﴿على عبدنا﴾** متعلق بنزّلنا، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿فأتوا﴾** الفاء رابطة للجواب، وأتوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل،

والجملة في محل جزم جواب الشرط. **﴿بسورة﴾** متعلق بأتوا. **﴿من مثله﴾** متعلق بمحذوف نعت لسورة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وادعوا﴾** معطوف على أتوا. **﴿شهداءكم﴾** مفعول به منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من دون﴾** متعلق بادعوا. **﴿الله﴾** مضاف إلى دون. **﴿إن كنتم صادقين﴾** جملة شرطية، جوابها محذوف يدل عليه ما قبله. **﴿فإن﴾** الفاء للتعقيب، وإن حرف شرط جازم. **﴿لم تفعلوا﴾** لم حرف نفي وجزم وقلب، تفعلوا فعل مضارع مجزوم بلم، وواو الجماعة فاعل، وجملة لم تفعلوا فعل الشرط. **﴿ولن تفعلوا﴾** الفعل منصوب بلن، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب. **﴿فاتقوا﴾** جواب الشرط رابطه الفاء. **﴿النار﴾** مفعول به. **﴿التي﴾** في محل نصب نعت للنار. **﴿وقودها﴾** مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿الناس﴾** خبر المبتدإ. **﴿والحجارة﴾** معطوف على الناس، والجملة صلة التي. **﴿أعدت﴾** فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على النار، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. **﴿للكافرين﴾** متعلق بأعدت.

﴿وبشر﴾ الواو للعطف، بشر فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب أنت. **﴿الذين﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿آمنوا﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿وعملوا﴾** معطوف على آمنوا. **﴿الصالحات﴾** مفعول عملوا منصوب بالكسرة لأنّه جمع مؤنث سالم. **﴿أنّ﴾** حرف مصدر ونصب وتوكيد. **﴿لهم﴾** متعلق بمحذوف خبر أنّ. **﴿جنّات﴾** اسم أنّ منصوب بالكسرة. **﴿تجري﴾** فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. **﴿من تحتها﴾** متعلق بتجري، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿الأنهار﴾** فاعل تجري، وجملة تجري في محل نصب نعت لجنّات، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بتملكهم جنات. .الخ. **﴿كلّما﴾** ظرف متضمن معنى الشرط. **﴿رزقوا﴾** فعل ماض مبنيّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. **﴿منها من ثمرة﴾** متعلقان بمحذوف حال. **﴿رزقا﴾** مفعول به. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل جواب كلّما. **﴿هذا﴾** مبتدأ في محل رفع. **﴿الذي﴾** في محل رفع خبر هذا. **﴿رزقنا﴾** فعل ماض مبنيّ للمجهول، وضمير المتكلمين نائب الفاعل، والجملة صلة الذي. **﴿من قبلُ﴾** مبني على الضم في محل جر بمِن، وجملة كلما رزقوا. .الخ في محل نصب نعت آخر لجنّات. **﴿وأتوا﴾** فعل ماض مبنيّ

للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿به﴾ متعلق بأتوا. ﴿متشابها﴾ حال من الضمير المجرور، والجملة اعتراضيّة. ﴿ولهم﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدّم. ﴿فيها﴾ متعلق به كذلك. ﴿أزواج﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مطهرة﴾ نعت لأزواج. ﴿وهم فيها خالدون﴾ مبتدأ وخبر، وفيها متعلق بالخبر بعده، والجملتان تذييل مقرر لما ذكر.

﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿لا يستحيي﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة لا يستحيي في محل رفع خبر إنّ. ﴿أن يضرب﴾ فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿مثلا﴾ مفعول به. ﴿ما﴾ نكرة مبهمة. ﴿بعوضة﴾ بدل من مثلا منصوب بالفتحة. ﴿فما فوقها﴾ معطوفة على بعوضة، وما موصولة، صلتها متعلق بالظرف. ﴿فأمّا﴾ الفاء للتعقيب، وأمّا للتفصيل. ﴿الذين﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿آمنوا﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿فيعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر الذين، والفاء رابطة لما تضمنته أمّا من الشرط. ﴿أنّه﴾ أنّ واسمها. الحق خبر أنّ. ﴿من ربّهم﴾ متعلق بمحذوف حال من الحق، والضمير فيه مضاف إليه، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر سدّ مسدّ مفعولي يعلمون. ﴿وأمّا الذين كفروا فيقولون﴾ إعرابها مثل إعراب المعطوف عليه. ﴿ماذا﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿أراد الله﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿بهذا﴾ متعلق بأراد. ﴿مثلا﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿يضلّ﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿به﴾ متعلق بيضلّ. ﴿كثيرا﴾ مفعول به. ﴿ويهدي به كثيرا﴾ معطوف على يضلّ، وهو مثله في الإعراب. ﴿وما﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿يضل به﴾ مثل يضل به الأولى. ﴿إلاّ الفاسقين﴾ إلاّ أداة استثناء، والفاسقين بدل من المفعول المقدر، والتقدير: وما يضل به أحداً إلاّ الفاسقين.

﴿الذين﴾ في محل نصب نعت للفاسقين. ﴿ينقضون﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. ﴿عهد﴾ مفعول به. ﴿الله﴾ مضاف إلى عهد. ﴿من بعد﴾ متعلق بينقضون. ﴿ميثاقه﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ويقطعون﴾ معطوف على ينقضون. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿أمر الله﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿به﴾ متعلق بأمر. ﴿أن يوصل﴾ فعل

مضارع مبنيّ للمجهول منصوب بأن، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بدل من الضمير في به. ﴿**ويفسدون**﴾ فعل وفاعل. في الأرض متعلق بيفسدون، والجملة معطوفة على ينقضون. ﴿**أولئك**﴾ مبتدأ. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**الخاسرون**﴾ خبر المبتدإ، والجملة جوابيّة لا محل لها من الإعراب. ﴿**كيف**﴾ اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من الضمير واو الجماعة في تكفرون. ﴿**تكفرون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالله**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**وكنتم أمواتا**﴾ الواو للحال، وضمير المخاطبين اسم كان، وأمواتا خبرها، والجملة في محل نصب حال من الواو في تكفرون. ﴿**فأحياكم**﴾ الفاء للتعقيب، أحياكم فعل ماض، والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ثمّ يميتكم**﴾ معطوف على أحياكم. ﴿**ثمّ يحييكم**﴾ معطوفة على يميتكم. ﴿**ثمّ إليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تُرجعون**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل.

﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**خلق**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة الذي. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخلق. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول بخلق. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**جميعا**﴾ حال من ما. ثمّ حرف عطف. ﴿**استوى**﴾ فعل ماض. ﴿**إلى السماء**﴾ متعلق باستوى. ﴿**فسوّاهن**﴾ مرتب على استوى، والضمير فيه مفعول به. ﴿**سبع**﴾ بدل من الضمير المنصوب. ﴿**سماوات**﴾ مضاف إلى سبع. ﴿**وهو**﴾ مبتدأ. ﴿**بكل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**عليم**﴾ خبر المبتدإ، والجملة تذييل لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**يا أيّها الناس**﴾: ربَطَ الكلام بما قبله. لمّا استوفى وصف كل فريق من المؤمنين وغيرهم، تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشادا لهم. والمقصود بالنداء هنا الإقبال على موعظة نبذ الشرك. يا حرف وُضع لنداء البعيد، وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد، إمّا إجلالاً، كقول الداعي: يا الله، وإمّا تنبيها من غفلة وسوء فهم، وقد يقصد به التنبيه على الأمر الخطير، وفي هذا التركيب ضروب من المبالغة والتأكيد، يقصد منها التيقظ والتنبه لما يرد فيه من

الأحكام. . . ﴿**اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾: تعليل للأمر باعبدوا، فلذلك فصلت، ولمّا كانت التقوى نتيجة العبادة، جُعل رجاؤها أثرا للأمر بالعبادة. . .

﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشا**﴾: هذا سبب آخر لاستحقاق العبادة؛ لأنّ الله مكن لهم سبل العيش، وأولها المكان الصالح للاستقرار. . . ﴿**والسماء بناء**﴾: زيادة في حفظ الاستقرار، والبناء يراد به الوقاية من الأضرار النازلة. . . ﴿**وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم**﴾: هذا زيادة في الامتنان على نَوْعِ بني الإنسان، بما يلحق الإيجاد، ممّا يحفظه من الاختلال لتبقى حياته مستقرة على مدى الأزمان. . . ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾: أتت الفاء لترتيب هذه الجملة على الكلام السابق، وهو مترتب على الأمر بالعبادة، وقوله: وأنتم تعلمون: فيه إيماء إلى أنّهم يعلمون أنّ الله لا ندّ له، ولكنهم تعامَوْا وتناسَوْا اتباعا لتقليد الآباء وعادات الجهلاء، فأثبت لهم العلم ورجاحة الرأي، ليثير همتهم، ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوحدانية. ونهاهم عن اتخاذ الآلهة، وهذا منزع تهذيبي عظيم. . .

﴿**وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾: انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزئي الإيمان، بعد أن تمّ إثبات الجزء الأول من ذلك، بما قدمه من قوله: يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم. وهي المناسبة التي اقتضت العطف، وأتى بإنْ في تعليق هذا الشرط، وهو كونهم في ريب، وقد علم في فن المعاني اختصاص إنْ بمقام عدم الجزم بوقوع الشرط، لأنّ مدلول هذا الشرط قد حفّ به من الدلائل ما شأنه أن يُقلَعَ الشرط من أصله، بحيث يكون وقوعه مفروضا، فيكون الإتيان بإنْ مع تحقق المخاطب، علم المتكلم بتحقق الشرط توبيخا على تحقق ذلك الشرط، كأنّ ريبهم في القرآن مستضعف الوقوع. ووجه الإتيان بفي الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنّهم قد امتلكهم الريب، وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف. واستعارة في لمعنى الملابسة شائعة في كلام العرب، والضمير في قوله: من مثله: أي من مثل القرآن، أو من مثل محمد في الأميّة، والاحتمالات التي احتملها قوله: من مثله، كلها مرادة لردّ دعاوى المكذّبين في اختلاف دعاويهم؛ فإنّ منهم من قال: القرآن

كلام بشر، ومنهم من قال: هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال: إنّما يعلّمه بشر، وهذه الوجوه في معنى الآية، تفند جميع الدعاوى، وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة، وتسجيل للإعجاز عند عدمها، وفي قوله: إن كنتم صادقين: تكرير للتحدي، وفي هذه إثارة لحماسهم إذ عُرّض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة. . .

﴿**فإن لم تفعلوا**﴾: تفريع على الشرط وجوابه، وجيء بإنْ الشرطية - التي الأصل فيها عدم القطع - مع أنّ عدم فعلهم هو الأرجح، بقرينة مقام التحدي والتعجيز؛ لأنّ القصد إظهار هذا الشرط في صورة النادر مبالغة في توفير دواعيهم على المعارضة، بطريق الملاينة والتحريض. . . ﴿**ولن تفعلوا**﴾: النفي بلن آكد من النفي بلا، لأنّ لن يؤتى بها لنفي المستقبل المؤبد أو المؤكد، وقوله: ولن تفعلوا من أكبر معجزات القرآن؛ فإنّها معجزة من جهتين: الأولى أنّها أثبتت أنّهم لم يعارضوا، لأنّ ذلك أبعث لهم على المعارضة لو كانوا قادرين عليها، وقد تأكد ذلك كله بقوله - قبل -: إن كنتم صادقين، وذلك دليل العجز عن الإتيان بمثله، فيدل على أنّه كلام من قدرته فوق البشر. الثانية أنّه أخبر بأنّهم لا يأتون بذلك في المستقبل، فما أتى أحد منهم ولا ممّن خلَفهم بما يعارض القرآن، فكانت هذه الآية معجزة من نوع الإعجاز بالإخبار عن الغيب، مستمرة على تعاقب السنين. . . ﴿**فاتقوا النار**﴾: هذا واقع موقع الجواب، لدلالته عليه وإيذانه به، وهو إيجاز بديع. . . ﴿**التي وقودها الناس والحجارة**﴾: زيادة في التهويل والتفظيع، والمراد بالحجارة الأصنام، وبالناس الكافرون أنفسهم. . . ﴿**أعدت للكافرين**﴾: استئناف لم يُعطف لقصد التنبيه على أنّه مقصود بالخبرية، لأنّه لو عطف لأوهم العطف أنّه صفة ثانية أو صلة أخرى، وجعله خبراً أهولُ وأفخمُ وأدخلُ للروع في قلوب المخاطبين، وهو تعريض بأنّها أعدت ابتداء لأنّ المحاورة معهم. . .

﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾: مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة بما فيها من المقابلة الآتية: مقابلة الإنذار بالتبشير، ومقابلة الكافرين بالمؤمنين، ومقابلة النار بالجنة. . . ﴿**كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل**﴾: هذا بيانُ شأنٍ آخَرَ من شؤون الذين آمنوا، ولكمال الاتصال بينها وبين جملة أنّ لهم جنّات فصلت عنها، كما

تفصل الأخبار المتعددة. . . ﴿**وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**﴾: أطنب هنا في بيان أوصاف الجنات، وما فيها من النعيم المقيم تنويها وتحريضا عليها. . .

﴿**إنّ الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها**﴾: شروع في تنزيه ساحة التنزيل، عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال، وبيانُ حكمته، وتحقيق للحق إثر تنزيهها عمّا اعتراهم من مطلق الريب بالتحدي، وإفحام كافة البلغاء. بدئت الجملة بإنّ المؤكدة لرد إنكار المنكر، وجاء المسند إليه علما ﴿**الله**﴾ دون غيره من الصفات، لأنّ اسم الله جامع لجميع صفات الكمال، فذِكْرهُ أوقع في الإقناع، بأنّ كلامه هو أعلى كلام في مراعاة ما هو حقيق بالمراعاة، وفي ذلك أيضا إبطال لتمويههم بأنّ اشتمال القرآن على مثل هذا المثل، دليل على أنّه ليس من عند الله، ولهذا أيضا اختير أن يكون المسند ﴿**لا يستحيى**﴾ خصوصَ فعْلِ الاستحياء زيادة في الرد عليهم، لأنّهم أنكروا التمثيل بهذه الأشياء لمراعاة كراهة الناس. وما إبهاميّة تتصل بالنكرة، فتؤكد معناها من تنويع أو تفخيم أو تحقير، نحو: لأمر ما، أو أعطاه شيئا ما. . . بعوضة فما فوقها: وضعُ الفاء في مثل هذا التركيب مجازٌ مرسلٌ، علاقته الإطلاق عن القيد، لأنّ الفاء موضوعة أصلا للتعقيب، والمعنى: أن يضرب البعوضة مثلا، فيضرب ما فوقها، أي: ما هو درجة أخرى، بما هو أحقر من البعوضة مثل الذرة، أو أعظم مثل العنكبوت والحمار. . .

﴿**فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحق من ربّهم**﴾: شروع في تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم، إثر تحقيق حقّيّة صدوره عنه تعالى، وأمّا حرف موضوع لتفصيل مجمل ملفوظ أو مقدر. ولما كان الإجمال يقتضي استشراف السامع لتفصيله، كان التصدي لتفصيله بمنزلة سؤال مفروض، كأنّ المتكلم يقول: إن شئتَ تفصيلَهُ؛ فتفصيله كيت وكيت، فلذلك كانت أمّا متضمنة معنى الشرط، ولذلك لزمتها الفاء في الجملة التي بعدها، لأنّها كجواب شرط. وجعل تفصيل الناس في هذه الآية قسمين، لأنّ الناس بالنسبة إلى التشريع والتنزيل، قسمان ابتداء: مؤمن وكافر، وإنّما عبر في جانب المؤمنين بيعلمون، تعريضاً بأنّ الكافرين إنّما قالوا ما قالوا عناداً ومكابرةً. . .

﴿**وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا**﴾: الاستفهام هنا انكاري، والإشارة بهذا يريدون بها التحقير..! ﴿**يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا**﴾: بيان وتفسير للجملتين المصدرتين بأمّا على طريقة النشر المعكوس، اللف والنشر المشوّش، لأنّ معنى هاتين الجملتين قد اشتمل عليهما معنى الجملتين السالفتين إجمالا، فإنّ علم المؤمنين أنّه الحق من ربهم هدى، وقول الكافرين ماذا أراد الله بهذا مثلا ضلال... ﴿**وما يضل به إلاّ الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. أولئك هم الخاسرون**﴾: مجيء الموصول هنا للتعريف بالمراد من الفاسقين، فالفاسقون الذين عُرفوا بهذه الخصال الثلاث. وقد استعمل النقض هنا مجازاً في إبطال العهد، بطريقة إضافته إلى عهد الله، وهي استعارة من مخترعات القرآن، بنيت على ما شاع من كلام العرب في تشبيه العهد، وكل ما فيه من وصل بالحبل، وهو تشبيه شائع في كلامهم. واعلم أنّ نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين، هو وعيد وتوبيخ للمشركين وأهل الكتاب، وهو أيضا موعظة وذكرى للمؤمنين، ليعلم سامعوه أنّ كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمهم وسبب في وعيدهم، هو آخذ بحظ فيما نالهم من ذلك، على حسب مقدار المشاركة في الموجب...

﴿**كيف تكفرون بالله**﴾: التفات إلى خطاب المذكورين، مبنيّ على إيراد ما عدد من قبائحهم السابقة، لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع، والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الكفر، بأن يقال: أتكفرون؛ لأنّ كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا، فإذا انتفى جميع أحوال وجوده، فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني...

﴿**وكنتم أمواتا فأحياكم**﴾: هذه الجمل مؤكدة للإنكار والاستبعاد، مما عدّد فيها من الشؤون العظيمة الداعية إلى الإيمان، الرادعة عن الكفر، من حيث كونها نعمةً عامّةً، ومن حيث دلالتها على قدرةٍ تامّةٍ، ونظم ما ينكرونه من الإحياء الأخير، والمرجع في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة، تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة، منزلة العلم بذلك بالفعل في

إزالة العلل والأعذار، وقوله... ﴿ثم إليه ترجعون﴾: شُبّه الحضور للحساب، برجوع المسافر إلى منزله، باعتبار أنّ الله خلق الخلق، فكأنّهم صدروا من حضرته، فإذا أحياهم بعد الموت، فكأنّهم أرجعهم إليه، وهذا إثبات للحشر والجزاء. وتقدم المتعلق على عامله مفيد للقصر، وهو قصر حقيقيّ سيق للمخاطبين، لإفادتهم ذلك إذا كانوا منكرين، وفيه تأييس لهم من نفع أصنامهم إيّاهم، إذ كان المشركون يُحاجّون المسلمين، بأنّه إن كان بعث وحشر فسيجدون هذه الأصنام تنصرهم!..

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾: تقرير لقوله: كيف تكفرون، وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين، غُيّر سبْكُه عن سبْك ما قبله، مع اتحادهما في المقصود إبانة لما بينهما من التفاوت؛ فإنّ ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر، أدخل في الحث على الإيمان والكف عن الكفر، ممّا يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها. وتقديم لكم على ما في الأرض، لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين، وللتشويق إليه، أيّ: خلق لأجلكم جميع ما في الأرض من الموجودات، لتنتفعوا بها في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة، وأمور دينكم بالاستدلال بها على شؤون الصانع تعالى شأنُه، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها، وما يعم جميع ما في الأرض، فإنّ كل فرد من أفراد ما في الأرض، بل كل جزء من أجزاء العالم، له مدخل في استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق، الذي عليه يدور انتظام مصالح الناس، أمّا من جهة المعاش فظاهر، وأمّا من جهة الدين، فلمّا أنّه ليس في العالم شيء مما يتعلق به النظر، وما لا يتعلق به، إلاّ وهو دليل على القادر الحكيم... ﴿ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾: انتقال من الاستدلال بخلق الأرض وما فيها - وهو مما عِلْمُه ضروري للناس -، إلى الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الأرض، وهو أيضا قد يُغفل عن النظر بالاستدلال به على وجود الله، وذلك خلق السماوات... وهو بكل شيء عليم: تذييل مقرّر لما قبله من خلق السماوات والأرض وما فيها على هذا النمط البديع، المنطوي على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾: في هذا التوجيه النداء إلى الناس كافة، والأمر للبشرية جمعاء أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة، الصورة النقيّة العاملة النافعة، الصورة المهتدية المفلحة الناجحة، صورة المتقين العابدين المخلصين. والأمر هنا يفيد الوجوب، وهو عام لجميع من وجد في عصر التنزيل، ولمن سيوجد بعدهم لعموم الدليل. والحكمة في طلب العبادة رجاء التقوى، وهي الثمرة المرجوّة من العبادة عند الله، وهو القصد من خلق الإنسان **﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون، ما أريد من رزق وما أريد أن يطعمون﴾**.

واعلم أنّ الآية الكريمة، مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وحتم عبادته على كافة الناس، مرشدة لهم بإشارتها إلى أنّ مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة في الأنفس والآفاق مما يقضي بذلك قضاء متقناً، وقد بيّن فيها أولاً من تلك الآيات ما يتعلق بأنفسهم؛ من خلقهم وخلق أسلافهم، لِما أنّه أقوى شهادة وأظهر دلالة، ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم... **﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾**: فإنّه لما أوجب عبادته أنّه خالق الناس كلهم، أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إيّاه وحده، وهي نعمته المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته، فإنّه مكّن لهم سبيل العيش، وأوّلُها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون مشقّة أو تعب، فجعله كالفراش لهم، ومن إحاطة هذا القرار بالهواء النافع لحياتهم، والذي هو غذاء الروح الحيواني، وذلك ما أشير إليه بقوله... **﴿والسماء بناءً﴾**: وبِكوْن تلك الكرة الهوائيّة واقية للناس من أضرار طبقات ما فوقها متناهية في العلو؛ من زمهرير أو عناصر غريبة قاتلة أو خانقة **﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾**.

وقد امتن الله وضرب العبرة، بأقرب الأشياء وأظهرها لسائر الناس حاضِرهم وبادِيهم، وبأول الأشياء في شروط هذه الحياة، وفيهما أنفع الأشياء، وهما الهواء والماء النابع من الأرض، وفيهما كانت أول منافع البشر... **﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾**: هذا امتنان آخر بما يلحق الإيجاد، وهي نعمة الإمداد مما يحفظه من الاختلال، وهو خلفة لما تُتْلِفُهُ الحرارة الغريزية،

والعمل الجسمي والعصبي من القوة البدنية، ليدوم قوام البدن بالغذاء، وأصل الغذاء هو ما يخرج من الأرض، وإنّما تُخرج الأرض النباتَ بنزول الماء عليها من السماء، وهذه الأسرار لا يطّلع عليها إلاّ العالمون بسرّ الكون **﴿إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ. . .﴾** **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**: هذا النهي **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾**، مقابل الأمر في قوله: اعبدوا ربّكم، ولما كان الأمر واجباً كان النهي محرماً، وحرمة الإشراك من أشد المحرّمات **﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾**. والأصنام التي اتخذها العرب وجعلوها أنداداً لله، حيث أشركوا بعبادتها عبادة الله، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقالوا ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى، فهم يعلمون أنّ الله هو الخالق **﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾**، **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون﴾** ولهذا عقب بالتقرير في قوله الدال على الحالة التي هم عليها في واقع الأمر: وأنتم تعلمون!

التوجيه الثاني: **﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**: في هذا التوجيه يطلب الله من كل من يجد، أو يوهم في نفسه ريباً في صحة هذا القرآن المنزل على محمد ﷺ فليأت بسورة واحدة من مثل القرآن أو مثل محمد - أُمّي لم يتلق علماً من أحد من البشر، ولم يعش بين علماء البشر - ومن لم يستطع بنفسه، فليدع من يستطيع دعاءه ليكون له ظهيراً ومساعداً، حتَى يَظهَر ريبُه واضحاً للناس دون تزييف وتشكيك في الناس. . . **﴿فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾**: هذه الآية قد أثبتت إعجاز القرآن إثباتاً متواتراً، امتاز به القرآن عن بقية المعجزات، فأظهر تحديه للإنس والجن **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**، حيث تحدى الإنس والجن على أن يأتوا بكتاب مثل القرآن، ثم تنازل فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**، ثم تنازل فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**.

والسورة التي يعنيها القرآن هي أقصر سورة منه - وهي ثلاث آيات - هي سورة الكوثر، فعجزوا جميعاً فلم يأتوا بشيء. وقد تحدى العالم أجمع في كل عصر ومصر، بقوله... ولن تفعلوا: فقد اشتملت هاتان الآيتان على كيفية الإعجاز، وعلى أصناف من الإعجاز، إذ نقلت الإعجاز بالتواتر، وكانت الآية الأخيرة ببلاغتها معجزة، وكانت معجزة من حيث الإخبار عن المستقبل كله بما تحقّق صدقه. فسبحان منزّلها ومؤتيها!، وصلى الله وسلم على من أتى بها، وعلى آله وأصحابه الذين عملوا بما جاء فيها!.

التوجيه الثالث: ﴿وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾: في هذا التوجيه الأمر للرسول ﷺ بأنّ يبشّر الذين آمنوا بما أعدّ لهم من النعيم المقيم مقابل إيمانهم بما جاء في هذا الكتاب الكريم. وهذا وعد يقابل الوعيد الذي حذر منه من تحداهم بهذا الإعجاز العظيم، لأنّهم إذا عجزوا عن المعارضة فقد ظهر صدق الدعوة التي جاء بها القرآن بلسان محمد ﷺ، فحق الإنذار لمن دام على كفره، وحقت البشارة للذين آمنوا.

وقد جمع الله في هذه البشارة جوامع اللذات من المسكن، وهو الجنّات، ومن المطعم، وهو الثمرات، ومن المنكح، وهو الأزواج المطهرات، مع أمن الزوال ونفي الانتقال، بقوله... **﴿وهم فيها خالدون﴾**: إتماماً للنعمة والحبور، وتكميلاً للبهجة والسرور. والمراد بالصالحات جملة الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين، على حسب حال المؤمن في موجبات التكليف؛ أنّ لهم جنات: جمع جنّة لتنوع ثمارها واختلاف أشكالها؛ من الغرف والقصور والخيام المقصورات فيها الحور، وأنواع أنهارها **﴿فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات﴾**، وهذه الكثرة من الأنواع والأوصاف، لا تعيق المؤمن عن التلذذ بها، بل كلّما جاءه نوع منها، وجد فيه وصفاً لا يخطر له على بال... **﴿كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل. وأتوا به متشابهاً﴾**: نوعاً أو لوناً أو طعماً أو ريحاً أو ملمساً، ولكنّه يختلف ذوقاً وطعماً وشهوة ولذة **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾**.

ولا يظن المؤمن أنّه في هذه الجنات وحيدٌ، وفي هذه المناظر والمباهج

واللذات فريد، بل معه الأخلاء والأصحاب، والأهل والأصدقاء والأحباب، والذريات والأزواج المطهرات **﴿إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾**. **﴿جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. . .﴾** **﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾**: اعلم أنّ معظم اللذات الحسيّة لـمّا كان الغالب فيها مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضي به الاستقراء، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات؛ إذ كُلُّ نعمة وإن جلّت حيث كانت في متناول الزوال ومعرض الاضمحلال، فإنّها منغصة غير صافية من شوائب الألم. بشر المؤمنين بها وبدوامها، تكميلاً للبهجة والسرور وإتماماً للنعمة والحبور!

التوجيه الرابع: **﴿إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾**: في هذا التوجيه ردٌّ على ما أشيع من المنكرين لدعوة الإسلام والمشكّكين في نزاهة القرآن، يقولون: لو كان هذا الكلام من عند الله حقاً - كما يدّعي محمد - لما كان فيه ذكر العنكبوت والنمل والذباب والضفادع إلى غير ذلك من أسماء الدواب والحشرات، ويقولون: إنّ الذي يذكر هذا بعيد عن التقديس والتعظيم؛ تعريضاً بالقرآن وتشنيعاً على دعوة الإسلام، فردّ الله عليهم دعواهم المغرضة، وأباطيلهم الكاذبة، وشنّع بهم وفضح أغراضهم الخبيثة ونياتهم المريضة، أنّ الله لا يستحيي من ذكر هذه الأشياء، لأنّها من خلقه وصُنعه، وجيشه وجنده الجبار الذي يقهر الجبابرة، ويبطش بالكفرة الطغاة الفراعنة والأكاسرة، فسلط على الفراعنة الجراد والقمل والضفادع، وعلى أصحاب الفيل طيراً أبابيل، وكم لمخلوقات الله الضعيفة من الأفاعيل!.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون. . .﴾ **﴿فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربّهم﴾**: بيّن الله هنا موقف المؤمنين بالله، المصدقين لرسوله، الموقنين حق اليقين بما جاء من عند الله، لأنّهم أهل العقول الراجحة والتفكير السليم، فعلموا أنّ هذا الكلام الصادق في دعوته، الدال على صدقه، بما فيه من تحدٍّ وتعجيز لجميع البشر في كل زمان ومكان، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً!. وتأكدوا بأن لا يكون هذا إلاّ مِنَ الخالق القادر، الذي أوجد العالم وأمده وأسعده بكل نعمة ومكرُمة، فهو رب العالمين. . .

﴿**وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا**﴾؟! : بيّن هنا موقف الكافرين الشاكين المشكّكين الضالين المُضلين، الذين أخذوا يتقوّلون ويُشيعون الأراجيف حول القرآن وما فيه من الأمثال؛ ماذا أراد الله بهذا مثلا؟!. يتساءلون هكذا: أيّ شيء يريده الله من هذه الأمثال التي تثير العجب والسخرية؟!. أالله يقول هذا الكلام الذي يستحيى منه أكابرُ الناس أن يقولوه ويتحدّثوا به؟!. إنّ هذا لا يكون من الله!..

﴿**يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا**﴾: بيّن هنا الغرض من ضرب الأمثال: إنّ ضرب المثل اختبار للنوايا الكامنة في النفوس، فتُظهرها على حقيقتها من خير أو شر، من هداية أو ضلال، وقد ظهر من هذا الكثير، وهم الذين هداهم الله لما في نفوسهم من الإيمان الصادق، والعقيدة الصحيحة الناشئة عن النظر الثاقب والتفكير السليم، وظهر من هذا أيضا الكثير، وهم الذين أضلّهم الله ممّن ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة. وهذه أوصافهم عددها بقوله...

﴿**وما يضلّ به إلاّ الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**﴾: منها الفسق والخروج والتعدي عن طاعة الله وحدوده التي رسمها للناس وبيّنها على ألسنة رسله عليهم السلام، فهؤلاء ليس لهم حدود يقفون عندها، ولا يخشون الله، ولا يستحون من الناس. ومنها نقض العهد الذي أخذه الله على بني آدم يوم أخذ العهد، بخلقهم على الفطرة السليمة النقية الخالصة؛ ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم**﴾. وفي الحديث الصحيح «كل مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، فاليهود والنصارى داخلون في جملة الذين ينقضون عهد الله، ومن باب أولى المشركون والملحدون على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم. ومنها قطعهم الصلة التي تربطهم بالله وبالرسل وبالإنسانية الحقة، التي تمسّكت بالمنهج الصحيح وسارت على الطريق المستقيم، وربطوا أنفسهم برباط الشيطان ﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾. ومنها الإفساد في الأرض بأنواع المعاصي والآثام والشرور، فنشروا جراثيم الكفر والفجور وملؤوها ظلما وعدوانا وكفرا وطغيانا تجاوبا مع الشيطان وتمشيا مع خططه وخطواته المهلكة الفاجرة الخاسرة، وهو تصريح ما في نهاية الآية... أولئك هم الخاسرون.

التوجيه الخامس: ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون**﴾: في هذا التوجيه يلفت الأنظار إلى ما في هذا الاستفهام من الاعتبار. فالآية مسوقة لبيان التعجب من حال الكفرة، الذين ذكرت أوصافهم على اختلاف طبقاتهم ونحلهم وأهدافهم، وذلك أنّ الاستفهام إذا كان من عالم - ومن باب أولى من علام الغيوب - يمتنع إجراؤه على أصله، فيتولد بمعونة قرائن الأحوال، ما ذكر من قصد التعجب والاستغراب، ووجهه أنّ الكفار حين صدور الكفر منهم، لابدّ أنّ يكونوا على أحد أمرين: إمّا عالمين بالله، وإمّا جاهلين به، لكنّ الجهل بعيد عن العاقل، لأنّ الحال حال علم بهذه القصة، وهي أنّهم كانوا أمواتاً فصاروا أحياء، وسيكون كذا والحال كذا من الإماتة ثمّ الإحياء ثمّ الرجوع إليه، فبقي أن يكون الحال حال العلم بالصانع، الموجبة للصرف عن الكفر، فصدور الفعل عموماً له صورة اختيار في الترك مع الصارف القوي، مظنّة تعجب وتعجيب وإنكار وتوبيخ، فكأنّه قيل ما أعجب كفركم والحال أنّكم عالمون بهذه القصة؛ وهي أن كنتم أمواتاً فجعلكم أحياء في هذه الحياة الدنيا، ثمّ يحييكم عند انتهاء آجالكم فيها، وهذه حقيقة لا يشك فيها أحد لمشاهدتها عياناً، ومعرفتها إحساساً، ثم يحييكم يوم البعث، ثم إليه ترجعون للحساب والمجازاة، وهذه القضايا مما لا يشك فيها لِنصْبِ الأدلّةِ وإزاحة العلّة.

واعلم أنّ هذه الآية دالة على أمور: منها اشتمالها على وجوب ما يدل على الصانع القادر العالم الحي السميع البصير الغني عمّا سواه، ومنها الدالة على أنّه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلاّ الله، ومنها الدالة على صحة الحشر والنشر، مع التنبيه على الدليل القاطع الدال عليه، لأنّ الإعادة أهون من الإبداء، ومنه الدلالة على التكليف والترغيب والترهيب... ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾: لازال الخطاب موجهاً إلى الذين كفروا بالله، وجحدوا نعمة الله، وأشركوا مع الله غيره، فالله الذي أوجد ما في الأرض جميعاً لكم أيّها الناس، ابحثوا، هل هناك غيركم على الأرض انتفع بما فيها أكثر منكم؟. لمن هذه الخيرات؟. لمن هذه المناظر والمنتزهات؟. لمن هذه النباتات وما فيها من ثمرات؟. لمن هذه المخلوقات في البر والبحر من أنواع وأجناس الحيوانات؟..

﴿**ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات**﴾: إنّه يلفت النظر مرة أخرى ليرى من يرى، ويعلم من يعلم زيادة على ما عرف وعلم ممّا في الأرض، هذه

الأرض التي خلقها الله، وخلق ما فيها لمنفعة الإنسان، لا تفيده شيئا ولا يمكن أن تكون دون غيرها، وأي شيء غير الأرض؛ إنّها السماوات التي تحيط بالأرض، والتي يراها الإنسان وكأنّها الفضاء الذي لا نهاية له، هل هكذا وجدت دون موجد؟!. من الذي استوى إلى السماء؟!. وما معنى استوى؟!. إنّه التدبير والقصد إلى فعل الشيء، هل هناك سماء عندما قصد؟!. لم تكن هناك سماء، ولكن توضيح الصورة يحتاج إلى هذا التعبير؛ تعبير اللغة وعادة البشر عند إرادة الفعل المهم والأمر الخطير العظيم، إنّه الاستعداد الكامل لإيجاد السماوات السبع. لم تكن سماء واحدة، ولكنها سبع سماوات. هل أدرك الإنسان من هذه السبع السماوات شيئا؟. لا أعتقد أنّه أدرك شيئا منها، اللهم إلاّ ما شاهده ليلا من النجوم المتلألئة، والكواكب السائرة والمجرة الهائلة، والقمر المنير الذي يراه تارة صغيراً دقيقاً، وتارة أخرى بدراً كاملاً منيراً، والشمس المضيئة التي كانت سبب حياة الأرض وما على الأرض وفيها، كل هذه الأشياء يراها الإنسان وينظر إليها متعجباً، ولكنّه لم يدرك حقيقتها، ولن يستطيع ذلك مهما حاول وناضل وكدح وتعب. فلم يحصل إلا على شيء قليل جدا بالنسبة لما خفي عنه من حقيقة السماوات السبع، لأنّه لم ير إلاّ زينتها، ولم يشاهد إلاّ الفضاء الشاسع الذي تسبح فيه هذه الأجرام العظيمة الهائلة ﴿**ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾.

إنّ السماوات وما فيها عالمٌ من عوالم الغيب التي لا يعلم كُنْهها وما فيها إلاّ خالقها ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾. ﴿**عالم الغيب فلا يُظهر على غيْبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا**﴾. ويكثر المفسرون هنا من كلام عن خلق الأرض والسماء؛ يتحدثون عن القَبْلِيّة والبَعْدِيّة، ويتحدثون عن الاستواء والتسوية، وينسون أنّ قَبْلُ وبَعْدُ اصطلاحان بشريّان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى، وينسون أنّ الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يُقرّبان إلى التصور البشري المحدود صورة غير المحدود ولا يزيدان. وما كان الجدل الكلامي الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات إلاّ آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي، عند مخالطتهما للعقلية العربية الصافية، والعقلية الإسلامية الناصعة. وما كان للمسلمين اليوم أن يَقِفُوا في هذه الآفة التي أفسدت جمال العقيدة وغطّت على حقيقة القرآن!.

3 ـ دور الكلام القادم
في توضيح موقف الخليفة آدم!

النص

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (29) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (30) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (31) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (32) * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (33) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (34) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (35) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (36)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (37) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (38)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾: إذْ: من أسماء الزمان المبهمة تدل على زمان نسبة ماضية، وقعت فيه نسبة أخرى ماضية قارنتها، فإذ تحتاج إلى جملتين، جملة أصلية، وهي الدالة إلى المظروف، وتلك هي التي تكون مع جميع الظروف، وجملة تبين الظرف ما هو، لأنّ إذ لما كانت مبهمة احتاجت لما يبيّن زمانها عن بقية الأزمنة، فلذلك لزمت إضافتها إلى الجمل أبداً. والأكثر في الكلام أن تكون إذ في محل ظرف لزمن الفعل، فتكون في محل نصب على المفعول فيه، وقد تخرج إذ عن النصب على الظرفيّة إلى المفعوليّة، كأسماء الزمان المتصرفة، فتصير ظرفاً مبهماً متصرفاً، وقد يضاف إليها اسم زمان نحو (يومئذ، وحينئذ) فتجر بإضافة صورية، ليكون ذكرها وسيلة إلى حذف الجملة المضافة هي إليها، وذلك أن إذ ملازمة للإضافة، فإذا حذفت جملتها علم السامع أنّ هناك حذفاً؛ فإذا أرادوا أن يحذفوا جملة مع اسم زمان غير إذ، خافوا أن لا يهتدي السامع لشيء محذوف حتى يتطلب دليله، فجعلوا إذ قرينة على إضافة، وحذفوا الجملة لينبهوا السامع، فيتطلب دليل المحذوف. فإذ في الآية هنا اسم زمان مفعول بفعل مقدر، وهو اذكر، ونظيره في القرآن كثير.

والملائكة: جمع ملك، وأصل صيغة الجمع ملائكة، والتاء لتأكيد الجمعية لما في التاء من الإيذان بمعنى الجماعة، وكثر الكلام في اشتقاق هذا الاسم؛ قيل من الرسالة، وقيل من القوة. والملائكة خلق من خلق الله، وصفهم الله في كتابه بقوله: (عباد مكرمون) **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**.

﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. **﴿يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا﴾** إلى غير ذلك من الأوصاف التي ذكرها الله في كتابه، وذكرت جماعات وأفراداً. والخليفة في الأصل: الذي يخلف غيره، أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله، فهو فعيل بمعنى فاعل، والتاء فيه للمبالغة في الوصف... **﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**: الإفساد: تقدم معناه، والسفك: الإراقة، وقد غلب في كلامهم تعديته إلى الدماء، وأمّا إراقة غير الدم فهي سفح بالحاء... **﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**: التسبيح: قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه. والتقديس: التنزيه والتطهير...

﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾: آدم: على وزن فاعل، وهو اسم أول إنسان وجد على الأرض، وهو أبو البشر خلقه الله من طين، والكلام على اشتقاقه وأصل معناه وتركيب حروفه كثير، ولكن لا جدوى فيه. والأسماء: جمع اسم، وهو في اللغة لفظ يدل على معنى يفهمه ذهن السامع، فيختص بالألفاظ سواء كان مدلولها ذاتاً، وهو الأصل، والأظهر أنّه مشتق من السموّ. وكل اسم دال على الشمول والإحاطة فيما أضيف هو إليه، وأكثر ما يجيء مضافاً إلى ضمير ما قبله، فيعرب توكيداً تابعاً لما قبله، ويكون أيضاً مستقلاً بالإعراب، إذا لم يُقصد التأكيدُ بل قُصدت الإحاطةُ، وهو ملازم للإضافة لفظاً أو تقديراً، فإذا لم يذكر المضاف إليه عوض عنه التنوين، ولكونه ملازماً للإضافة يعتبر معرفة بالإضافة، فلا تدخل عليه لام التعريف... **﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾**: العرض: في الأصل إظهار الذات بعد خفائها، ومنه عرض الشيء للبيع، ويوم العرض، وقد يكون العرض في المعاني فقط. والإنباء: الإخبار بالنبإ، وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة والأهمية، بحيث يحرص السامعون على اكتسابه، ولذلك تضمن الإنباء معنى الإعلام؛ لأنّ المخبر به يُعد مما يُعلم ويعتقد بوجه أخص من اعتقاد مطلق الخبر، فهو أخص من الخبر... **﴿إنّك أنت العليم الحكيم﴾**: العليم: الكثير العلم، وهو من أمثلة المبالغة. والحكيم: فعيل من أحكم إذا أتقن الصنع، بأن حاطه من الخلل، وأصل مادة حكم في كلام العرب، المنع من الفساد والخلل، ومنه حكَمَةُ الدابة للحديدة التي توضع في فم الفرس، لتمنعه من اختلال السير، والحِكمة ضبط العلم وكماله، والحكيم المتقن للشيء مما عنده من العلم الكامل...

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾: حقيقة السجود: طأطأة الجسد وإيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهد بالعيان، كالسجود للملِك والسيد، والسجود للكواكب، والقصد منه الخضوع والتذلل، والسجود في الشرع: وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة، وهو خاصية من خواص الصلاة. . . ﴿إلاّ إبليس أبى واستكبر﴾: إبليس: اسم الشيطان الأول الذي هو مولد الشياطين، فكان إبليس لنوع الشياطين والجن، بمنزلة آدم لنوع الإنسان، واختلف في اشتقاقه كما اختلف في اسم آدم. ﴿والإباء﴾: الامتناع عن فعل أو تلقيه. والاستكبار: شدة الكبر. . .

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾: الزوج: كل شيء ثان مع شيء آخر بينهما تقارن في حال ما، فكل واحد من اثنين مقترنين في حال ما يسمى زوجاً للآخر. والسكنى: اتخاذ المكان مقراً لغالب أحوال الإنسان. فالجنة: قطعة من الأرض فيها الأشجار المثمرة والمياه، وهي أحسن مقام للإنسان تجمع ما تطمح إليه طبيعة الإنسان من اللذات. . . ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾: والرغد: الهنيء الذي لا عناء فيه ولا تقتير. . . ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾: أشهر معاني الظلم في استعمال العرب: هو الاعتداء. . . ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾: الإزلال: جعل الغير زالاً، والزلل سير الرجلين على الأرض بدون اختيار. . . ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾: الهبوط: النزول من المكان، والانحطاط من المكانة. والعدو: ضد الصديق، للواحد والجمع والذكر والأنثى. . . ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾: المستقر: الاستقرار أو مكانه. والمتاع: ما يتمتع به من لذائذ الدنيا. والحين: الأجل المحدد لكل فرد، أو الوقت المحدد للنوع الإنساني والشيطاني، وينتهي بانتهاء الدنيا. . .

﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات﴾: التلقي: استقبال إكرام ومسرة، ووجه دلالته على ذلك، أنّه صيغة تَفَعَّل من لَقِيَه، وهي دالة على التكلف لحصوله وتطلبه، وإنّما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب بخلاف لاقى، فلا يدل على كون الملاقي محبوباً، بل يقال: لاقى العدو. واللقاء: الحضور نحو الغير بقصد أو بغير قصد، وفي خير أو شر. . ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً. .﴾ الخ الآية: جميعاً: اسم للمجتمعين مثل لفظ جمع، فلذلك التزموا فيها حالة واحدة. إمّا: شرط مركب من إن الشرطية وما الزائدة. الهدى الذي أتى من الله: دين الإسلام الذي

جاء به الأنبياء جميعاً. والآيات: آيات القرآن، وأصل الآية العلامة، وهي الشيء الدال على أمر من شأنه أن يخفى، ولذلك قيل لأعلام الطريق آيات، لأنّهم وضعوها للإرشاد إلى الطرق الخفية في الرمال.

مبحث الإعراب:

﴿**وإذ**﴾ الواو للعطف، إذ ظرف زمان معمول لفعل محذوف، وهو اذكر. ﴿**قال ربّك**﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه. ﴿**للملائكة**﴾ متعلق بقال. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**جاعل**﴾ خبرها. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بجاعل. ﴿**خليفة**﴾ مفعول به منصوب بالفتحة، وجملة إنّي جاعل في محل نصب مقول القول. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أتجعل**﴾ الهمزة للاستفهام، تجعل فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود إلى الرب. ﴿**فيها**﴾ متعلق بتجعل. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**يفسد**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بيفسد. ﴿**ويسفك**﴾ معطوف على يفسد. ﴿**الدماء**﴾ مفعول به، وجملة أتجعل فيها في محل نصب مقول القول وجملة يفسد فيها صلة من. ﴿**ونحن**﴾ الواو واو الحال، نحن في محل رفع مبتدأ. ﴿**نسبِّح**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**بحمدك**﴾ متعلق بنسبِّح، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة نسبِّح بحمدك في محل رفع خبر نحن، وجملة ونحن نسبِّح بحمدك في محل نصب حال من ضمير الرفع في قالوا. ﴿**ونقدس**﴾ معطوفة على نسبح. ﴿**لك**﴾ متعلق بنقدس. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى الرب. ﴿**إنّي**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أعلم**﴾ فعل مضارع والفاعل أنا، وجملة أعلم في محل رفع خبر إنّ. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**لا**﴾ حرف نفي. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل صلة ما، وجملة إنّي في محل نصب مقول القول.

﴿**وعلّم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى الرب. ﴿**آدم**﴾ مفعول به أول. ﴿**الأسماء**﴾ المفعول الثاني. ﴿**كلها**﴾ توكيد للأسماء منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف. ﴿**عرضهم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الرب، والضمير فيه مفعول به. ﴿**على الملائكة**﴾ متعلق بعرض. ﴿**فقال**﴾ الفاء للتعقيب، قال فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى الرب. ﴿**أنبئوني**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون فيه للوقاية، وياء المتكلم في

محل نصب مفعول به. ﴿**بأسماء**﴾ متعلق بأنبئوني. ﴿**هؤلاء**﴾ في محل جر مضاف إلى أسماء. ﴿**إنْ**﴾ حرف شرط جازم. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**صادقين**﴾ خبر كان منصوب بالياء، والجواب محذوف يدل عليه ما سبقه، أي: إن كنتم صادقين فأنبئوني، وجملة أنبئوني في محل نصب مقول القول. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**سبحانك**﴾ مفعول مطلق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس. ﴿**علم**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مستثنى بإلاّ. ﴿**علمتنا**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما، وجملة لا علم لنا في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**العليم**﴾ خبر إنّ. ﴿**الحكيم**﴾ خبر ثان، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**قال**﴾ مثل ما سبق. ﴿**يا آدم**﴾ منادى مبني على الضم في محل نصب. ﴿**أنبئهم**﴾ فعل أمر، والفاعل أنت، والضمير فيه مفعول، وجملة أنبئهم منصوب بالنداء، وجملة النداء مقول القول. ﴿**بأسمائهم**﴾ متعلق بأنبئهم. ﴿**فلما**﴾ الفاء للتعقيب، لمّا ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب. ﴿**أنبأهم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود إلى آدم، والضمير فيه مفعول به. ﴿**بأسمائهم**﴾ متعلق بأنبأهم، والضمير فيه مضاف إليه، ولمّا متضمنة لمعنى الشرط ففعل الشرط أنبأهم. ﴿**قال**﴾ جواب الشرط. ﴿**ألم**﴾ الهمزة للاستفهام، لم حرف نفي وجزم. ﴿**أقل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، والفاعل ضمير أنا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بأقل. إنّي إنّ واسمها. ﴿**أعلم**﴾ فعل مضارع، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**غيب**﴾ مفعول به. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى غيب. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**وأعلم**﴾ معطوف على أعلم غيب. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**تبدون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**وما**﴾ معطوف على ما قبلها. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تكتمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كنتم تكتمون صلة ما.

﴿**وإذ**﴾ معطوف على إذ قال ربّك. ﴿**قلنا**﴾ فعل وفاعل، وهو في محل جر مضاف إلى إذ. ﴿**للملائكة**﴾ متعلق بقلنا. ﴿**اسجدوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**لآدم**﴾ متعلق باسجدوا، وجملة اسجدوا في محل نصب مقول القول. ﴿**فسجدوا**﴾ الفاء للتعقيب، سجدوا فعل وفاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**إبليس**﴾ مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿**أبى**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على إبليس.

﴿**واستكبر**﴾ معطوف على أبى. ﴿**وكان من الكافرين**﴾ معطوف كذلك، وخبر كان متعلق من الكافرين، والجمل بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿**وقلنا**﴾ معطوف على قلنا للملائكة. ﴿**يا آدم**﴾ منادى. ﴿**اسكن**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير يعود إلى آدم. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**وزوجك**﴾ معطوف على فاعل اسكن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الجنة**﴾ مفعول به. ﴿**وكلا**﴾ معطوف على اسكن، والألف للتثنية فيه فاعل. ﴿**منها**﴾ متعلق بكلا. ﴿**رغدا**﴾ نعت لمصدر محذوف، منصوب على أنّه مفعول مطلق. ﴿**حيث**﴾ متعلق بكلا، وهو ظرف مبني على الضم في محل نصب. ﴿**شئتما**﴾ فعل وفاعل، والميم هنا عمدة لأجل ألف المثنى، وجملة شئتما في محل جر مضاف إلى حيث. ﴿**ولا تقربا**﴾ معطوف على كلا. ﴿**هذه**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**الشجرة**﴾ عطف بيان لهذه منصوب بالفتحة. ﴿**فتكونا**﴾ الفاء للتعقيب، تكونا كان واسمها، والفعل مجزوم بعطفه على الفعل المجزوم قبله. ﴿**من الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون. ﴿**فأزلهما**﴾ الفاء للتعقيب، أزلَّ فعل ماض، وضمير المثنى مفعول به.

﴿**الشيطان**﴾ فاعل أزلَّ. ﴿**عنها**﴾ متعلق بأزل. ﴿**فأخرجهما**﴾ معطوف على أزلهما. ﴿**ممّا**﴾ متعلق بأخرج. ﴿**كانا**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كانا فيه صلة ما. ﴿**وقلنا**﴾ فعل وفاعل معطوف على ما قبله. ﴿**اهبطوا**﴾ فعل أمر، والواو فاعل، وجملة اهبطوا في محل نصب مقول القول. ﴿**بعضكم**﴾ مبتدأ. ﴿**عدو**﴾ خبره. ﴿**لبعض**﴾ متعلق بعدو، والجملة لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بما بعدها. ﴿**مستقر**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ومتاع**﴾ معطوف على مستقر. ﴿**إلى حين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمتاع.

﴿**فتلقى**﴾ الفاء للتعقيب، تلقى فعل ماض. ﴿**آدمُ**﴾ فاعل. ﴿**من ربّه**﴾ متعلق بتلقى، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**كلمات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**فتاب**﴾ مرتب على تلقى، وفاعل تاب يعود إلى ربّه. ﴿**عليه**﴾ متعلق بتاب. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**التوّاب**﴾ خبر إنّ. ﴿**الرحيم**﴾ خبر ثان، وجملة إنّه هو تعليلية. ﴿**قلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**اهبطوا**﴾ مثل ما قبلها. ﴿**منها**﴾ متعلق باهبطوا. ﴿**جميعا**﴾ حال من الواو، وجملة اهبطوا في محل نصب

مقول القول. ﴿**فإمّا**﴾ الفاء للتفريع، إمّا شرطيّة. ﴿**يأتينكم**﴾ فعل الشرط مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والضمير فيه مفعول به. ﴿**مني**﴾ متعلق بيأتين. ﴿**هدى**﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على الألف المحذوفة. ﴿**فمن**﴾ الفاء رابطة للجواب، ومن شرطية. ﴿**تبع**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود إلى من. ﴿**هداي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على الألف، وياء المتكلم مضافة إلى هدىً. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لا حرف نفي. ﴿**خوف**﴾ مبتدأ. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ معطوف على لا خوف عليهم، وجملة فلا خوف عليهم جواب فمن تبع هداي، وجملة فمن تبع هداي جواب فإمّا يأتينكم. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿**وكذبوا**﴾ معطوف على كفروا. ﴿**بآياتنا**﴾ متعلق بكذبوا. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أصحاب**﴾ خبر. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**هم**﴾ مبتدأ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بالخبر بعدها. ﴿**خالدون**﴾ خبر، وجملة أولئك أصحاب النار خبر الذين كفروا.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة**﴾: مناسبة الاتصال بما قبله، عطف قصة على قصة؛ فقصة خلق السماوات والأرض تأتي بعدها قصة خلق أول بشر على هذه الأرض، ليجمع بين تعدد الأدلة وبين مختلف حوادث تكوين العوالم وأصلها، ليعلم المسلمون ما علمه اليهود من العلم الذي كانوا يباهون به العرب، لأنّهم يعلمون قصة خلق السماوات والأرض، وقصة خلق آدم كما هي مذكورة عندهم في التوراة. وكلام الله للملائكة أطلق على ما يفهمون منه ما يريد سبحانه من خلق الإنسان، وكلام الناس فيه، هل هو حقيقة أو مجاز غير مجد؟. وكلام الله موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار، ليسوقهم إلى معرفة فضل الإنسان. وأسندت حكاية هذا القول إلى الله تعالى بعنوان الرب؛ لأنّه قول منبئ عن تدبير عظيم في جعل الخليفة في الأرض. ولمّا كانت هذه النعمة شاملة لجميع النوع، أضيف وصف الرب إلى ضمير أشرف أفراد النوع، وهو النبيء محمد ﷺ مع تكريمه بشرف حضور المخاطبة. . .

﴿**قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾: فصل الجواب ولم

يعطف، جرياً به على طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات، وهي طريقة عربية، والاستفهام محمول على حقيقته متضمن معنى التعجب والاستبعاد. وقولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها دليل على أنّهم علموا أنّ مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، وإلاّ لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع. وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه وتعالى، أو من مقتضى حقيقة الخلافة. . . **﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**: أُوثرت الجملة الاسمية لإفادة الدلالة على الثبات. . . **﴿قال إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾**: جواب لكلامهم، فهو جار على أسلوب المحاورة. وهذا إجمال في التذكير بأنّ علم الله تعالى أوسع مما علموه، وقد كان قول الله تعالى هذا تنهية للمحاورة، وإجمالاً للحجة على الملائكة، بأنّ سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم. وتأكيد الجملة بإنّ لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المترددين. . .

﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾: عطف حكاية الدليل التفصيلي على حكاية الاستدلال الإجمالي، وعطف ذكر آدم بعد ذكر مقالة الله للملائكة وذكر محاورتهم، يدل على أنّ هذا الخليفة هو آدم، وأنّ آدم اسم لذلك الخليفة. وهذا الأسلوب من بديع الإجمال والتفصيل والإيجاز. والتعريف في الأسماء تعريف الجنس أريد منه الاستغراق، للدلالة على أنّه علّمه جميع أسماء الأشياء المعروفة يومئذ في ذلك العالم، فهو استغراق عرفي. وتعريف الأسماء يفيد أنّ الله علم آدم كل اسم ما هو مسماه ومدلوله. . . **﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾**: جيء العطف بثمّ هنا لقصد معرفة الفرق بين مجرد تعليم الأسماء، وبين عرضها على الملائكة وما ظهر من مزية آدم، وعبّر بالاسم دون المسميات إيجاز بالحذف. وإعادة ضمير المذكر العاقل على المسميات في قوله: عرضهم، للتغليب، وهي طريقة عربية تجد مثلها في آيات أخرى. . . **﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**: تفريع على العرض وقرن بالفاء لذلك، والأمر أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أنّ الآمر عالم بذلك، فليس هذا من التكليف بالمحال. واستعمال صيغة الأمر في التعجيز مجاز. وقوله: إن كنتم صادقين؛ إمّا أراد به إن كنتم صادقين أنّكم أفضل من هذا المخلوق، إن كان قولهم: ونحن نسبّح، تعريضاً بأنّهم أحقاء بذلك، أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جدارة آدم بالخلافة، كما دلّ عليه قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. . .

﴿**قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا**﴾: جرد قالوا من الفاء، لأنّه محاورة فيقتضي الفصل. وافتتاح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والاعتراف بالعجز، وفيه إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم في قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها؟، فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار. والاعتذار وإن كان يحصل بقولهم: لاعلم لنا إلاّ ما علمتنا، لكن حصول ذلك منه بطريق الكناية دون التصريح، ويحصل آخر الابتداء، فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلاً بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم. . . ﴿**إنّك أنت العليم الحكيم**﴾: ساقوه مساق التعليل لقولهم: لاعلم لنا إلاّ ما علمتنا؛ لأنّ المحيط علمه بكل شيء المُحكم لكل خلق، إذا لم يجعل لبعض مخلوقاته سبيلاً إلى علم شيء لم يكن لهم قبل بعلمه، إذ الحصول بقدر القبول والاستعداد، والذي دل على أنّ هذا القول مسوق للتعليل وليس مجرد ثناء، هو تصديره بإنّ في غير مقام رد إنكار ولا تردد، وتوسطت أنت بين اسم إنّ وخبرها، وهي ضمير فصل، يجاء بها لقصد قصر الخبر على المخبر عنه. . .

﴿**قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم**﴾: فذكر الجمل مفصولة على طريقة المحاورة، وابتداء خطاب آدم بندائه - مع أنّه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي - للتنويه بشأنه، ومع ما فيه من التكريم عند الآمِر. . . ﴿**فلما أنبأهم بأسمائهم**﴾: الضمير في أنبأ لآدم، وفي قال المتقدم ضمير اسم الله. ولم يؤت اسما ظاهراً مع أنّه جاء عقب ضمائر آدم، لأنّ السياق قرينة على أنّ هذا القول لا يصدر من مثل آدم. . . ﴿**قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾: جواب لمّا. والقائل هو الله تعالى، وهو المذكور في قوله: وإذ قال ربّك، وعادت إليه ضمائر قال إنّي أعلم، وعلّم، وعرضهم، وما قبله من الضمائر، وهو تذكير لهم بقوله لهم في أول المحاورة: إنّي أعلم ما لا تعلمون، وذلك القول - وإن لم يكن فيه أعلم غيب السماوات والأرض صراحة - إلاّ أنّه يتضمنه، لأنّ عموم ما لا تعلمون يشمل جميع ذلك، فيكون قوله هنا: إنّي أعلم غيب السماوات والأرض، بياناً لما أجمل في القول الأول، لأنّه يساويه ما صدقا، لأنّ مالا تعلمون هو غيب السماوات والأرض. وقد زاد البيان هنا على المبين بقوله: وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. . .

﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا**﴾: عطف على وإذ قال ربّك

للملائكة عطف القصة على القصة. وإعادة إذ بعد حرف العطف المغني عن إعادة ظرفه، تنبيه على أنّ الجملة مقصودة بذاتها؛ لأنّها متميزة بهذه القصة العجيبة، فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام. وعطف فسجدوا بفاء التعقيب يفيد إلى مبادرة الملائكة بالامتثال إلا إبليس. واستثناء إبليس من ضمير الملائكة استثناء منقطع، لأنّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة، بل كان من الجن كما نصّت عليه آية الكهف. وجمل ﴿**أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ استئناف بياني... ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة**﴾: عطف على قلنا للملائكة اسجدوا. وقوله... ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾: النهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل، لأنّ القرب من الشيء ينشئ داعية وميلاً إليه. والإشارة بهذه؛ شجرة مرئية لآدم وزوجه... ﴿**فأزلّهما الشيطان عنها**﴾: الفاء عاطفة على قوله: ولا تقربا، وحقها إفادة التعقيب فيكون التعقيب عرفياً، والأحسن جعل الفاء للتفريع. والضمير في قوله: عنها يعود إلى الشجرة، ومعناه إنّ الإزلال نشأ عن سبب الأكل من الشجرة. وقوله: ﴿**فأخرجهما**﴾ تفريع عن الإزلال... ﴿**وقلنا اهبطوا**﴾: عطف بالواو دون الفاء، لأنّه ليس متفرعاً عن الإخراج بل هو متقدم عليه. وجمع الضمير في اهبطوا ليشمل آدم وحواء وإبليس... ﴿**بعضكم لبعض عدوّ**﴾: يدلّ عليه... ﴿**ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾: ضميره راجع إلى ضمير اهبطوا، والمراد بالحين وقت انقراض النوع الإنساني والشيطاني...

﴿**فتلقى آدم من ربّه كلمات**﴾: جاء بالفاء إيذاناً بمبادرة آدم بطلب العفو، والكلمات التي تلقاها آدم هي قوله: ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين... ﴿**فتاب عليه**﴾: بمجرد التوبة والندم على ما حصل... ﴿**إنّه هو التواب الرحيم**﴾: تعليل لسرعة قبول التوبة، لأنّها جاءت على شرطها... ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً**﴾: كررت جملة قلنا اهبطوا فاحتمل تكرارها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية، من غير أن يكون دالاً على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب به آدم، فيكون هذا التكرير لمجرد اتصال ما تعلق بمدلول وقلنا اهبطوا، وذلك قوله: بعضكم لبعض عدوّ.

وقوله... ﴿**فإمّا يأتينكم مني هدى**﴾: إذ قد فصل بين هذين المتعلقين ما

اعترض بينهما من قوله: فتلقى آدم من ربّه كلمات. .الخ، فإنّه لو عقب ذلك بقوله: فإمّا يأتينكم مني هدى لم يرتبط تمام الارتباط، ولتوهم السامع أنّه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن، فلدفع ذلك أعيد قوله: قلنا اهبطوا منها جميعاً، فهو قول واحد كرر مرتين لربط الكلام، ولذلك لم يعطف قلنا، لأنّ بينهما شبه كمال الاتصال، لتنزل قوله: قلنا اهبطوا منها جميعا، من قوله: وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ منزلة التوكيد اللفظي، ثم بنى عليه قوله: فإمّا يأتينكم مني هدى. .الخ، وهو مغاير لما بني على قوله: وقلنا اهبطوا، ليحصل شيء من تجدد فائدة في الكلام، لكي لا يكون إعادة اهبطوا مجرد توكيد، ويسمى هذا الأسلوب بالترديد، وقيل هو أمر ثان لآدم بالهبوط كيلا يظن أنّ توبة الله عليه ورضاه قد عفى عنه الهبوط من الجنة. وقوله. . . **﴿فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي. إلى قوله. . . هم فيها خالدون﴾**: هو في معنى العهد، أخذه الله على آدم فلزم ذريته أن يتبعوا كل عهد يأتيهم من الله، وأنّ من أعرض عنه فقد استوجب العقاب.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾: فيه توجيه للرسول محمد ﷺ بأن يذكر للناس حين قال الله للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة يعمرها ويقوم بما يجب عليه فيها، والمراد به آدم. وخلافته هي خلافة الرسالة التي يبلغها أولاده كما يأتي. وخلافة آدم كخلافة داوود **﴿يا داوود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾**. إنّه خليفة في الأرض، فلا يبقى عليها خالدا وسيخلفه غيره، وتتعاقب الأجيال خلف الأجيال، هذا هو حكمي وهذا قضائي. ماذا ترون في هذا؟. فتجيب الملائكة وتستفسر عن طبيعة هذا الخليفة، بعد ما علمت من الله ما سيكون عليه هذا الإنسان. . . **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك﴾**؟: سؤال الملائكة هذا، سؤال استغراب واستبعاد لما سيقع من هذا المخلوق من الإفساد وسفك الدماء. هل هناك أحد يعصي الله سبحانه وتعالى ويخالف أوامره، ويتعدى حدوده؟. نعم هذا الإنسان الذي خلقه الله على كيفية تكون خيراً، وهذه طبيعته وفطرته الأصلية، وتؤثر فيه عوامل الشر من الخارج بسبب ما فيه من الضعف؛

ضعف الخوف وضعف الطمع وضعف الوهم مما سيصادفه من صاحب الشر الطبيعي، وهو إبليس الذي خلقه الله ومكنه من أن يتسلط على آدم وذريته، وهذا ما قضاه الله تعالى لهذا المخلوق الذي جعل خليفة في الأرض، وهو ما ردّ به على الملائكة في استيضاحهم الأمر... ﴿**قال: إنّي أعلم ما لا تعلمون**﴾.

التوجيه الثاني: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلها**﴾: في هذا التوجيه إعلام الله الملائكة بجدارة آدم بالخلافة في الأرض. والأسماء التي علمها الله آدم لم ينص على تفصيلها، وإنّما جاءت مجملة في كمها وكيفها. ومن هذا تجد الكلام كثيرا في كتب التفسير؛ الكلام في اللغة: هل هي موهوبة أو مكتسبة؟. ما هي الأسماء التي علمها الله آدم؟. هل معانيها المجردة أم مسمياتها المشخصة؟. هل ما وجد منها في عصر آدم فقط أم ما سيوجد إلى آخر حياة الإنسان على هذه الأرض؟. وأيّا ما كانت كيفية التعليم، وماهية الاسم والمسمى فقد كان سبباً لتفضيل نوع الإنسان على بقية أنواع جنسه من الحيوان، وهو ما له من وسائل المعرفة من إحساس وإدراك، وربط الفكر، وقوة النظر، حتى استطاع أن يأخذ النتيجة من مقدماتها، ويعلم الأسباب ومسبباتها، ومبادئ العلوم وأولياتها، ويسمى هذا قوة النطق في الإنسان، فهو وحده الحيوان الناطق. وهذه القوة الناطقة في الإنسان جعلته يتفاضل في نوعه، بما ينشأ عن النطق من استفادة المجهول من المعلوم، وهو مبدأ العلوم.

وأفراد الإنسان متفاوتون في العلم بما لهم من قوة الإدراك وضعفه. فالإنسان لمّا خلق ناطقاً معبراً عمّا في ضميره، فقد خلق عالما بالقوة أو بالفعل، وهو ما حرمه بقية أنواع الحيوان، فلذلك لم تتفاضل أفراده إلاّ تفاضلاً ضعيفاً. وبهذا نعلم أنّ العبرة في تعليم الله آدم الأسماء حاصلة سواء كان الذي علمه إيّاه أسماء الموجودات يومئذ، أو أسماء كل ما سيوجد. وسواء كان ذلك بلغة واحدة، هي التي ابتدأ بها نطق البشر منذ ذلك التعليم، أم كان بجميع اللغات التي ستنطق بها ذرياته من الأمم، وسواء كانت الأسماء أسماء الذوات فقط، أو أسماء المعاني والصفات. وسواء كان المراد من الأسماء الألفاظ الدالة على المعاني، أو كل دال على شيء لفظا كان أو غيره من خصائص الأشياء وصفاتها وأفعالها؛ إذ محاولة تحقيق ذلك لا طائل تحته في تفسير القرآن...

﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾: وجه الملازمة بين الإنباء بالأسماء وبين صدقهم فيما ادعوه التي اقتضاها ربط الجزاء بالشرط، أنّ العلم بالأسماء عبارة عن القوة الناطقة الصالحة لاستفادة المعلومات وإفادتها، أو عبارة عن معرفة حقائقها وخصائصها، أو عبارة عن معرفة أسماء الذوات والمعاني، وكل ذلك يستلزم ثبوت العالمية بالفعل أو بالقوة، وصاحب هذا الوصف هو الجدير بالاستخلاف في العالم، لأنّ وظيفة هذا الاستخلاف تدبير وإرشاد وهدى ووضع الأشياء مواضعها، دون احتياج إلى التوقيف في غالب التصرفات، وكل ذلك محتاج إلى القوة الناطقة، أو فروعها. والقوى الملكية على شرفها إنّما تصلح لأعمال معينة قد سُخرت لها لا تعدوها، ولا تتصرف فيها بالتحليل والتركيب، وما يذكر من تنوع تصرفها وصواب أعمالها، إنّما هو من توجيه الله تعالى إيّاها، وتلقينه المعبر عنه بالتسخير، وبذلك ظهر وجه ارتباط الأمر بالإنباء بهذا الشرط. وإذا انتفى الإنباء انتفى كونهم صادقين في إنكارهم خلافة آدم، فإن كان محل الصدق هو دعواهم أنّهم أجدر، فقد ثبت عدمها، وإن كان محل التصديق هو دعواهم أنّ البشر غير صالح للاستخلاف، فانتفاء الإنباء يدل على انتفاء دعواهم، ولكنه تمهيد لأنّ بعده إنباء آدم بالأسماء، لأنّ المقام مؤذن بأنّهم لما أمروا أمر تعجيز، وجعل المأمورية دلالة على الصدق، كان وراء ذلك إنباء آخر مرتقباً من الذي طعنوا في جدارته، ويدلّ لذلك أيضا قوله تعالى لهم: إنّي أعلم ما لا تعلمون...

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾: هذا تسليم كامل وانقياد لما قضى الله وحكم، وهذه هي طبيعة الملائكة تظهر واضحة في هذا الميدان؛ ميدان الامتحان والاختبار الذي ظهرت فيه حقيقة الإنسان أمام الملائكة الكرام. هنا يظهر آدم واقفاً أمام الله وأمام الملائكة، بعد ما أُمر بإظهار ما لديه من العلم والمعرفة التي زوده بها ربّه... **﴿قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**: في هذا الامتحان ينجح آدم نجاحاً باهراً؛ إنّه ينبئ الملائكة بجميع ما لديه من علم الأسماء، وهذا العلم جاءه من عند الله وليس له مصدر آخر؛ علّمه العلم تعليماً وإرشاداً وتوجيهاً كاملاً في هذه الحياة على هذه الأرض.

من هذا العلم أنّ آدم كان أوّل رسول من المرسلين وأوّل مخلوق من البشر،

ومنه نعلم أنّ دين الإنسان وعلم الإنسان وحضارة الإنسان كلها جاءت من الله كما جاءت منه كل المخلوقات جميعاً. وما يخالف هذا من الآراء والنظريات التي تقول إنّ الإنسان وحده هو الذي بنى حضارته ومجتمعه المدني ونظرياته الدينية والفلسفية قول لا يستند إلى حجة من نقل أو عقل، إنّما هي استنتاجات ونظريات وآراء يعوزها المنطق السليم والنقل الصادق القويم، وإنّما اعتمدوا فيه على ما وجدوا من مخلفات الإنسان الأثرية، والتنقيبات التي أظهرت في العصور المتأخرة تاريخ هذه الآثار، واستنتجوا منها ما قالوا: إنّ الإنسان كان يعيش في الغابات وعلى ضفاف الأنهار وسفوح الجبال وشواطئ البحار مدة طويلة عيشة بدائيّة، تشبه ما يعيش عليه بقية الحيوان، وسموه الإنسان القديم، والإنسان الأول، ونسوا أو تناسوا ما نصت عليه الديانات المتابعة في جميع العصور، بأنّ الإنسان خلقه الله على صفة كاملة ومختلفة تماماً على ما خلق عليه الحيوان، وأنّ الإنسان الأول هو آدم الذي علّمه الله الأسماء كلها، وأوحى إليه الشرائع وبين له الأحكام.

من هنا نعلم علماً صحيحاً، ونقول قولاً صادقاً: إنّ نص القرآن في هذا الموضوع هو النص الذي يُعتمد عليه ويوثق به وثوقا كاملاً، ويجب على جميع الباحثين والدارسين لتاريخ الإنسان أن يعتمدوا على نص القرآن، ولا يسلموا لقول الغير إلاّ بعد التمحيص والاختيار الدقيق، من مطابقته ومسايرته لطريقة القرآن، وأن يتركوا ما جاء في بعض التفاسير من الخرافات التي جاءت إليها من عادات وتقاليد الشعوب التي لا يسندها عقل ولا نقل!. مثل ما جاء في الإسرائيليّات وغيرها من حكايات الأمم، وهذه الخرافات والحكايات كثيرة جداً في كتب التفسير القديمة، كما ظهر لكثير من الباحثين والعلماء المخلصين الراسخين. وكذلك ما جاء في كتب التفسير الحديثة من آراء ونظريات المستشرقين والمبشرين من أعداء الإسلام الحاقدين على المسلمين، اغتر بها بعض مثقفي المسلمين واعتبروها حقائق علمية ثابتة لا يعتريها شك ولا يلحقها زيف ولا بطلان!. ولكن بالنظر إلى نصوص القرآن الواضحة يظهر للمنصف بأدنى تأمل خطأ هذا الزعم، وإبطال ما يقال عنها من الحقائق. ومع هذا نجد كثير ممن كتب في القرآن يعتقدون أنّهم يفسرون القرآن تفسيراً علميا على مصطلح منطق هذا العصر، وأخذوا يؤوّلون الآيات تأويلاً بعيداً عن مرمى اللغة وأهداف الدين ومنطق العلم الصحيح، مثل ما قالوا في

تحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي، وتخريج معاني من الحروف التي ذكرت في أوائل السور، وسر الأرقام الأبجديّة وغير هذا كثير.

التوجيه الثالث: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا**﴾: في هذا التوجيه مثل ما في التوجيه الأول، فهو يأمر فيه الرسول ﷺ أن يذكر للناس قصة ما حصل نتيجة ما تقدم من الحوار الذي كانت نتيجته أمر الله الملائكة بالسجود لآدم اعترافاً بفضله لظهور مزيته عليهم؛ إذ علم ما لم يعلموه، وذلك ما اقتضاه ترتيب ذكر القصص بعضها بعد بعض، ابتداء من خلق السماوات والأرض، وما طرأ بعده من أطوار أصول العامرين الأرض، وقد أريد من هذه القصة إظهار مزية نوع الإنسان، وأنّ الله يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا، لئلا يخلُوَ شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم وإظهار فضيلة العلم، وبيان العالم حقيق بتعظيم من خوَّله إيّاه، وإظهار ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد، وبيان أنّ الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأنّ الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول!..

﴿**إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾: استثناء إبليس من الملائكة استثناء منقطعاً، لأنّ إبليس لم يكن من الملائكة كما هو منصوص عليه في سورة الكهف ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾. ومن هذا نعلم أنّ طبيعة إبليس مخالفة تماماً لطبيعة الملائكة بالأدلة الآتية: إنّ طبيعة إبليس المعصية والاستكبار، وهو معنى الأنانية والاستعداد بالنفس وعدم الاعتراف بالغير، وإنّ طبيعة الملائكة الطاعة والخشية والانقياد ومعرفة الفضل لأهل الفضل، وهذا هو معنى سجود الملائكة لآدم، حيث صاروا له أعواناً في الدنيا والآخرة. والشيطان برفضه لأمر الله لعن وطرد، وسبب هذا الرفض أنّ في طبيعته الإباء والعصيان...

﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾: هذه تكرمة أكرم الله بها آدم بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة. وزوج آدم خلقت منه بنص القرآن. والجنة التي أسكنها آدم لم يعين مكانها، وهل هي جنة الآخرة أو هي في الدنيا جعلها الله مثالاً لما في الآخرة ﴿**إنّك لا تجوع فيها ولا تعرى، وإنّك لا تضمأُ فيها ولا**

تضحى﴾. هذا هو الوصف الثابت للجنة التي سكنها آدم أول حياته مع زوجه حياة السعادة والهناء والطمأنينة والرضى في العيش الواسع الرغد، مباح له فيها كل شيء ما عدا شيئاً واحداً معيناً، وهو هذه الشجرة المعينة المعلومة لهما، فإنّهما منعا منها على مقتضى الحكمة التي علم الله حقيقتها، فنهى آدم وزوجه عنها: ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين.

التوجيه الرابع: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم﴾: في هذا توضيح وبيان سبب خروج آدم وزوجه من دار التشريف إلى دار التكليف، وذلك كله كان سببه وسوسة الشيطان لهما **﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور...﴾ ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾**: وهبط آدم وزوجه إلى الأرض ومعهما إبليس بعداوته الكامنة في طبيعته؛ ليكون للإنسان العدو والخصم اللدود **﴿فقلنا يا آدم إنّ هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى، وإنّك لا تضمأ فيها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة...﴾**.

﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾: فنظر آدم إلى نفسه وزوجه وتذكر عهد الله ونعمته السابقة ورحمته الواسعة، وألهمه الله التوبة فتاب وأناب **﴿وعصى آدم ربّه فغوى ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى...﴾ ﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم﴾**: وهذه الكلمات هي قولهما: **﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾**. وهكذا استقر آدم وزوجه على الأرض التي خلق منها وجعل خليفة فيها، أمّا إسكانه الجنة فهو اختبار وامتحان، ليكون على معرفة تامة بحقيقته الإنسانية التي فيها القوة والضعف؛ جسماً ونفساً وعزيمةً وإرادة، ويعرف كذلك حقيقة حياة الجنة وحقيقة حياة الأرض، ليميز بين الحقيقتين، ويشعر بالفرق بين الحياتين، فشتان بين السمو والهبوط...

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: وهكذا تظهر الحكمة واضحة فيما حصل لآدم في دوري حياته السابقة واللاحقة، وأنّ المقصود من وجود آدم على الأرض واستخلافه فيها هو دوره الخطير؛ دور الرسالة التي جاءته من الله، ليكون رسولاً من الله تعالى إلى أولاده وأحفاده. ثم جاء من بعده الرسل تترى، فانتشر بين الناس الإيمان كما انتشر بينهم الكفر والعصيان، حتى ختمت الرسالة برسالة محمد ﷺ؛ رسالة هذا الكتاب الذي بيّن لنا حقيقة الإنسان ومسؤوليته على الأرض واضحة جليّة لا غموض فيها.

4 ـ قصة بني إسرائيل، ودورهم في تاريخهم الطويل!

النص

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (39) وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ (40) وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (41) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (42) * أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (43) وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ (44) ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (45) يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (46) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (47) وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (48) وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ

فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿49﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿50﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿51﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿52﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**يا بني اسرائيل**﴾: بنو: جمع ابن، وهو مما ألحق بجمع المذكر السالم وليس منه، لأنّه دخله التكسير بحذف لامه وزيادة همزة الوصل في أوله، فحقه أن يجمع على أبناء. و﴿**اسرائيل**﴾: لقب يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام... ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾: اذكروا: أمر من الذِّكر، وهو خطور شيء بالبال بعد نسيانه. والنعمة هنا: جميع ما أنعم الله به على المخاطبين مباشرة، أو بواسطة الإنعام على أسلافهم... ﴿**وأوفوا بعهدي**﴾: أوفى: فعل مهموز مأخوذ من وفَى المجرد، وأصل معنى وفَى أتمّ الأمر، تقول وفيته حقه، ولمّا كان المجرد متعديا للمفعول ولم يكن في المهموز زيادة تعدية، للتساوي بين قولك: وفيته حقه، وأوفيته حقه، تعيّنت الزيادة لمجرد المبالغة في التوفية. والعهد الالتزام للغير بمعاملةٍ، التزاماً لا يفرط فيه المعاهِد حتى يفسخاه بينهما... ﴿**وإيّاي فارهبون**﴾: الرهبة: خوف معه تحرّز...

﴿**وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم**﴾: صدقوا بالقرآن الذي أنزله الله، محققاً لما معكم من كتب الله التي أنزلها الله على رسله... ﴿**ولا تكونوا أوّل**﴾: أفعل لا فعل له... ﴿**كافر به**﴾: بالقرآن... ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا**﴾: الاشتراء: اعتياض أعيان بغيرها، مثلها أو ثمنها من النقدين أو نحوهما. والآيات: جمع آية، وأصلها في اللغة العلامة على المنزل أو على الطريق، أطلقت على

الحجة والمعجزة، وعلى الجملة التامة من القرآن... **﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾**: اللبس: خلط بين متشابهات في الصفات، يعسر معها التمييز أو يتعذر، ويطلق على اختلاط المعاني، يقال: في الأمر لُبسة، أي: اشتباه...

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾: البر: الخير في الأعمال في أمور الدنيا، وأمور الآخرة، والمعاملة. والنسيان: ذهاب الأمر المعلوم من حافظة الإنسان لضعف الذهن أو الغفلة والسهو أخف منه... **﴿وتنسون أنفسكم﴾**: الأنفس: جمع نفس، وهي مجموع ذات الإنسان من الهيكل والروح... **﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾**: تلاوة الكتاب: تكرير قراءته. والعقل: في أصل اللغة المنع والإمساك، ومنه العقال الذي يشد به، وسمي به النور الروحاني الذي به تدرك النفس العلومَ الضروريةَ والنظريّةَ... **﴿واستعينوا بالصبر﴾**: الصبر: احتمال النفس وتثبتها على ما لا يلائمها... **﴿وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين﴾**: الكبيرة هنا: الصعبة التي تشق على النفوس. والخشوع: في الأصل الانزواء والانخفاض، والمراد بالخاشع هنا، الذي ذلّل نفسَه وكسر سؤرتها وعوّدها أن تطمئن إلى أمر الله... **﴿الذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم وأنّهم إليه راجعون﴾**: المراد من الظنّ هنا: الاعتقاد الجازم، وإطلاق الظنّ في كلام العرب على معنى اليقين كثير، فهو مشترك بين الاعتقاد الجازم، وبين الاعتقاد الراجح. وحقيقة اللقاء في الأصل تقارب الجسمين، وحقيقة الرجوع، الانتهاء إلى مكان خرج منه المنتهي. والملاقاة: مفاعلة من لقي، واللقاء الحضور... **﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا. ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾**: المراد بالتقوى: المعنى اللغوي، وهو الوقاية من المخوف. وتجزي: مضارع جزى، بمعنى قضى حقاً عن غيره. والشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر، ويقال لطالب الشفاعة مستشفع، وهي مشتقة من الشفع، لأنّ طالب الشفاعة يأتي وحده، فإذا لم يجد قبولا ذهب فأتى بمن يتوسل به. والعدل: العوض والفداء، سمي بالمصدر لأنّ الفادي يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسويه به، يقال: عدل كذا بكذا، أي: سواه به. والنصر: إعانة الخصم في الحرب وغيره، بقوة الناصر وغلبته... **﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾**: نجّاه الله: خلّصه من أمر خطير. والآل: الأهل قلبت الهاء همزة تخفيفا، ليتوصل بذلك إلى تسهيل الهمزة مدا، والدليل على أنّ أصله أهل رجوع الهاء في التصغير، والآل يراد به الأقارب

والعشيرة والموالي، وخاصة الإنسان وأتباعه. وآل فرعون: قومه من المصريين، أمّا الأجانب من بقية الرعيّة، فلا يدخلون في آل فرعون... ﴿**يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾: يسومونكم: يعاملونكم معاملة المحقوق بما عومل به، يقال: سامه خسفاً إذا أذله واحتقره، فاستعمل سام في معنى أذل، وحقيقة سام عرض السوم. وسوء العذاب: الشديد الفظيع.

والأبناء: الذكور من الأطفال. والاستحياء: استفعال، بمعنى طلب الحياة رغبة في بقائهن... ﴿**وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم**﴾: البلاء: الْمِحْنَةُ والبليّةُ، وأصل البلاء الاختبار في المحنة وفي المنحة ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾، وأصل حقيقة البلاء بلاء الثوب، ولمّا كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء؛ كأنّه يُخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر، لأنّه أكثر إعناتاً للنفس، فيطلق غالباً على المصيبة التي تحل بالعبد، لأنّ بها يختبر مقدار الصبر والأناة، والمراد هنا المصيبة، بدليل قوله (عظيم)... ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر**﴾: الفرق: الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء. والبحر: المعهود في مصر، وهو بحر القلزم؛ الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة سيناء.

مبحث الإعراب:

﴿**يابني**﴾ الياء حرف نداء، بني منادى منصوب بالياء، لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة، لمنعه من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿**اذكروا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**نعمتي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ونعمتي مضاف وياء المتكلم مضاف إليه، مبني على السكون في محل جر، وحركت بالفتحة للتخفيف. ﴿**التي**﴾ نعت لنعمتي، مبني على الياء الساكنة في محل نصب. ﴿**أنعمت عليكم**﴾ صلة التي، وعليكم متعلق بأنعمت. ﴿**وأوفوا**﴾ معطوف على اذكروا، وهو مثله في الإعراب. ﴿**بعهدي**﴾ متعلق بأوفوا، وعهد مضاف وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**أوف**﴾ مجزوم في جواب الأمر بحذف الياء وهو فعل مضارع، وفاعله ضمير المتكلم (أنا). ﴿**بعهدكم**﴾ متعلق بأوف، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وإيّاي**﴾ الواو حرف عطف، إيّا ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب، وضمير المتكلم مضاف إليه في محل جر، وحرّك

بالفتحة تخفيفاً. ﴿**فارهبون**﴾ الفاء مقدر لها جزاء، ارهبوني فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به في محل نصب.

﴿**وآمنوا**﴾ مثل اذكروا. ﴿**بما**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**أنزلت**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**مصدقاً**﴾ حال من الضمير العائد إلى ما. ﴿**لما**﴾ متعلق بمصدقا. ﴿**معكم**﴾ ظرف متعلق بصلة ما مقدر. ﴿**ولا تكونوا**﴾ الواو للعطف، ولا للنهي، تكونوا واو الجماعة اسم تكون، والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**أوّل**﴾ خبر تكون. ﴿**كافر**﴾ مضاف إلى أول. ﴿**به**﴾ متعلق بكافر. ﴿**ولا تشتروا**﴾ معطوف على ولا تكونوا. ﴿**بآياتي**﴾ متعلق بتشتروا، وياء المتكلم مضاف إليه. ﴿**ثمناً**﴾ مفعول به. ﴿**قليلاً**﴾ نعت له. ﴿**وإيّاي فاتقون**﴾ مثل وإيّاي فارهبون. ﴿**ولا تلبسوا**﴾ مثل ولا تكونوا. ﴿**الحق**﴾ مفعول به. ﴿**بالباطل**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**وتكتموا**﴾ معطوف على تلبسوا. ﴿**الحق**﴾ مفعول به. ﴿**وأنتم**﴾ الواو للحال، أنتم في محل رفع مبتدأ. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من واو الجماعة. ﴿**وأقيموا**﴾ معطوف على اذكروا. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**وءاتوا الزكاة**﴾ معطوف على أقيموا. ﴿**واركعوا**﴾ كذلك. ﴿**مع**﴾ متعلق باركعوا. ﴿**الراكعين**﴾ مضاف إلى مع مجرور بالياء. ﴿**أتأمرون**﴾ فعل وفاعل، دخلت عليه همزة الاستفهام. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**بالبر**﴾ متعلق بتأمرون. ﴿**وتنسون**﴾ معطوف على تأمرون. ﴿**أنفسكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأنتم**﴾ الواو للحال، أنتم في محل رفع مبتدأ. ﴿**تتلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ، وجملة وأنتم تتلون في محل نصب حال من ضمير الجماعة. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للتعقيب، ولا للنفي. ﴿**تعقلون**﴾ فعل وفاعل.

﴿**واستعينوا**﴾ معطوف على ما قبله من الأمر. ﴿**بالصبر**﴾ متعلق باستعينوا. ﴿**والصلاة**﴾ معطوف على الصبر. ﴿**وإنّها**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لكبيرة**﴾ خبرها. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**على الخاشعين**﴾ متعلق بكبيرة. ﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت للخاشعين. ﴿**يظنّون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**ملاقوا**﴾ خبرها مرفوع بالواو. ﴿**ربّهم**﴾ مضاف إلى ملاقوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وأنّهم إليه راجعون**﴾ معطوف على أنّهم ملاقوا، وإليه متعلق براجعون. ﴿**يابني**

إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. **﴿وأنّي﴾** أنّ واسمها. **﴿فضلتكم﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر أنّ. **﴿على العالمين﴾** جار ومجرور متعلق بفضلتكم.

﴿واتقوا﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. **﴿يوماً﴾** مفعول به، وهو معطوف على اذكروا، وأمّا وأنّي فضلتكم فهو معطوف على نعمتي. **﴿لا تجزي﴾** فعل مضارع منفي بلا. **﴿نفس﴾** فاعل. **﴿عن نفس﴾** متعلق بتجزي، وجملة لا تجزي في محل نصب نعت ليوم. **﴿شيئاً﴾** مفعول به. **﴿ولا يقبل﴾** فعل مضارع مبنيّ للمجهول منفيّ بلا معطوف على لا تجزي. **﴿منها﴾** متعلق بيقبل. **﴿شفاعة﴾** نائب الفاعل. **﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾** معطوف على قوله: ولا يقبل، وهو مثله في الإعراب. **﴿ولا هم﴾** الواو للعطف، ولا للنفي، هم في محل رفع مبتدأ. **﴿ينصرون﴾** فعل مضارع مبنيّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة خبر المبتدإ. **﴿وإذ﴾** الواو للعطف، إذ ظرف متعلق بمحذوف، يدلّ عليه قوله: اذكروا. **﴿نجّيناكم﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. **﴿من آل﴾** متعلق بنجينا. **﴿فرعون﴾** مضاف إلى آل مجرور بالفتحة، لمنعه من الصرف للعلمية والعجمة. **﴿يسومونكم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿سوء﴾** مفعول ثان. **﴿العذاب﴾** مضاف إلى سوء، وجملة يسومونكم حال من آل فرعون. **﴿يذبحون أبناءكم﴾** الجملة من الفعل والفاعل والمفعول. **﴿ويستحيون نساءكم﴾** معطوف على يذبحون، وهما بيان لقوله يسومونكم. **﴿وفي ذلكم﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿بلاء﴾** مبتدأ مؤخر. **﴿من ربّكم﴾** متعلق بالخبر المتقدم. **﴿عظيم﴾** نعت لبلاء. **﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾** معطوف على وإذ نجيناكم، وهو فعل وفاعل ومفعول. **﴿فأنجيناكم﴾** مثله معطوف بالفاء. **﴿وأغرقنا آل فرعون﴾** معطوف على فرقنا. **﴿وأنتم تنظرون﴾** الجملة حال من الضمير المنصوب في نجيناكم.

﴿وإذ واعدنا موسى﴾ من جملة المعطوفات. **﴿أربعين﴾** منصوب بالياء. **﴿ليلة﴾** تمييز لأربعين. **﴿ثم اتخذتم العجل﴾** معطوف على واعدنا، والعجل مفعول اتخذتم. **﴿من بعده﴾** متعلق باتخذتم. **﴿وأنتم ظالمون﴾** الجملة حال من الفاعل. **﴿ثم عفونا﴾** معطوف على الجملة قبله. **﴿عنكم﴾** متعلق بعفونا. **﴿من**

بعد﴾ مثله. **﴿ذلك﴾** في محل جر مضاف إلى بعد. **﴿لعلكم﴾** لعل واسمها. **﴿تشكرون﴾** الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر. **﴿وإذ آتينا﴾** من جملة المعطوفات. **﴿موسى﴾** مفعول أول. **﴿الكتاب﴾** مفعول ثان لآتينا. **﴿والفرقان﴾** معطوف على الكتاب. **﴿لعلكم تهتدون﴾** مثل لعل السابقة.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿يا بني إسرئيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم. وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم. وإيّاي فارهبون﴾: انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب، وبذلك تتم موعظة الفرق المتقدم ذكرها، لأنّ فريق المنافقين لا يعدو أن يكون من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود. ووجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل، وهم أشهر الأمم المتدينة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة، وذلك لأنّ هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم، فكانت هاته السورة - التي هي فسطاطه - مشتملة على الغرض الذي جاء لأجله، وقد جاء الوفاء بهذا الغرض على أبدع الأساليب وأكمل وجوه البلاغة، فكانت فاتحتها في التنويه بشأن هذا الكتاب وآثار هديه، وما يكتسب متبعوه من الفلاح دنيا وأخرى، وبالتحذير من سوء مغبة من يعرض عن هديه ويتنكّب طريقه، ووصف في خلال ذلك أحوال الناس تجاه تلقي هذا الكتاب من مؤمن وكافر ومنافق.

بعد ذلك أقبل بالدعوة على أصناف أولئك إلى المقصود، وقد انحصرت الأصناف الثلاثة من الناس، بالنسبة لتلقي الدعوة الإسلامية إلى صنفين، مشرك وكتابي، فدعا المشركين إلى عبادة الله بقوله: **﴿ياأيّها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم﴾**، وذكّرهم بنعمة عظيمة، وهي نعمة تكريم أصلهم وتوبته على أبيهم. ولمّا قضى ذلك كله حقه، أقبل بالخطاب على الصنف الثاني، وهم أهل الشرائع والكتاب، وخص من بينهم بني إسرائيل، لأنّهم أمثل أمة ذات كتاب مشهور في العالم كله، وهم الأوحداء بهذا الوصف من المتكلمين باللغة العربية، الساكنين جوارالعرب في المدينة وغيرها من مناطق أخرى من الجزيرة العربية، وهم الذين ظهر منهم العناد والعداء لهذا الدين، ومن أجل ذلك لم يدْع اليهود إلى التوحيد والاعتراف بالخالق، ولكنّه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم، وإلى ما كانت تلاقيه أنبياؤهم من مكذبيهم. ولتوجيه الخطاب إليهم طريقة أخرى، وهو أنّهم جادلهم

بالأدلة الدينية والعلمية، وإثبات صدق الرسالة بما تعارفوه من أحوال الرسل، ولم يعرج لهم على إثبات الصدق بدلالة معجزة القرآن، إذ لم يكونوا من فرسان هذا الميدان، وقد أفاض القرآن في ذلك وتدرج فيه من درجة إلى أختها في أسلوب بديع. وقد شرح القرآن من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلاّ أحبارهم وخاصتهم، مع حرصهم على كتمانه خشية المزاحمة في الجاه والمنافع، فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم، صادعاً بما لا يعلمه إلاّ خاصتهم، فكانت هذه معجزة للكتابيين، قائمة مقام المعجزة البلاغية للأميين. . .

يابني إسرائيل: خطاب لذرية يعقوب، وسمي الابن ابنا، لأنّه بناء أبيه، وهو تذكير لهم بالنعم التي كانت لأسلافهم وتعريض بالحاضرين. ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا، تكليف الله إيّاهم أنّ ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم، وهذا من طرق الإعجاز العلمي، الذي لا يعرفه إلاّ علماؤهم، وهم أشحّ به منهم في كل شيء، فمجيئه على لسان النبيء العربي الأمي، دليل على أنّه وحي. وتقديم المعمول في قوله: وإيّاي فارهبون، متعين للاختصاص، ليحصل من الجملة إثبات ونفي، واختير من طرق الحصر طريق التقديم دون ما وإلاّ، ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله، ويكون النهي عن رهبة غيره حاصلاً بالمفهوم، وتقديم المعمول مع اشتغال فعله بضميره، آكد في إفادة التقديم - الحصر -، والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة، لأنّ الفاء هنا مؤذنة بشرط مقدر، وفي الجملة تأكيدات جمّة. . .

﴿**وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم**﴾: هذا هو المقصود من خطاب اليهود، فالأول مقدمة، وهذا هو الغرض، وهي من باب التخلية قبل التحلية، وفي الأمر بالإيمان بالمنزّل دون غيره من الأسماء، إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به، وهو أنّه منزّل من عند الله، وأتى بالحال التي هي علة الصلة - مصدقاً لما معكم - علامة على أنّه من عند الله، وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على أنّه من عند الله لأهل الفصاحة من العرب، جعل الإعجاز المعنوي علامة على أنّه من عنده تعالى لأهل الدين والعلم بالشرائع. . . ﴿**ولا تكونوا أول كافر به**﴾: هذا ارتقاء في الدعوة واستجلاب القلوب، فإنّه لمّا أمرهم بالإيمان بالقرآن، وكانت صيغة الأمر محتملة للفور

والتأخير، وكانوا معروفين بالعداوة للإسلام، نهاهم عن أن يكونوا أول كافر به، وذلك يصدق بمعان، بعضها يستفاد من حق التركيب، وبعضها من لوازمه، وبعضها من مستتبعاته، وكلها تحتملها الآية. والمقصود من النهي توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام... ﴿**ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾: استعيرالاشتراء هنا لاستبدال شيء بآخر دون تبايع، وفيه تعريض بهم في أنّهم مغبونو الصفقة. وجمع الآيات وإضافتها إلى الله تعظيم لها، وتنكير ثمن وقلته تحقير له، وقد أجمل العوض فلم يفصل؛ أهو الرئاسة، أو الطمع؟!. ليشمل ذلك اختلاف أحوالهم على حسب اختلاف مقاصدهم... ﴿**وإيّاي فاتقون**﴾: سرّ التعبير في الأول بالرهبة وفي هذا بالتقوى، فالآية الأولى تأمر بالوفاء بالعهد، فتناسبها الأمر بالرهبة، وهذه الآية تأمر بالإيمان الذي منعهم منه بقية دهمائهم، فتناسبها الأمر بأن لا يتقوا إلاّ الله...

﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾: عطفت هذه الجمل بعضها على بعض، لتكون كل جملة مطلوبة بحدّ ذاتها، باعتبار الوسيلة والمقصد والغاية، فالوسيلة اذكروا نعمتي، والمقصد وآمنوا بما أنزلت مصدقاً، والغاية وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة... ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾: هذا اعتراض بين قوله: وأقيموا الصلاة، وقوله: واستعينوا بالصبر والصلاة، ووجه المناسبة في وقوعه هنا، أنّه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ودليل ذلك بقوله: واركعوا مع الراكعين، ليشير إلى أنّ صلاتهم التي يفعلونها أصبحت لا تغني عنهم. ناسب أن يزاد لذلك أنّ ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي، فجيء بهذا الاعتراض، وللتنبيه على كونه اعتراضاً لم يقرن بالواو، لئلا يتوهم أن المقصود الأصلي التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم، ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه، حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم، كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته، لا يقصدون إلاّ إيفاء وظائفهم الدينية حقها، ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب، والاستفهام هنا للتوبيخ، لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي، ويتولد منه معنى التعجب. وقوله: وتنسون أنفسكم، هو المقصود بالتوبيخ والتعجب، وقوله: وأنتم تتلون الكتاب:

جملة حالية قيد بها التوبيخ والتعجب، وقوله: أفلا تعقلون؟!. هو استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهاماً مستعملاً في الإنكار والتوبيخ، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون، أنّ من يستمر به التغفل عن نفسه، وإهمال التفكير في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه، قارب أن يكون منفياً عنه التعقل...

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين. الذين يظنون أنّهم ملاقوا ربهم وأنّهم إليه راجعون﴾: خطاب لبني إسرائيل، بالإرشاد إلى ما يعنيهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المذمات، له أحسن وقع من البلاغة؛ فإنّهم لما خوطبوا بالترغيب والترهيب والتنزيه والتشويه، ظنّ بهم أنّهم لم يبق في نفوسهم مسلك الشيطان، ولا مجال للخذلان، وأنّهم أنشأوا للامتثال والائتساء، إلاّ أنّ ذلك الإلف القديم يثقل أرجلهم في الخطو إلى هذا الطريق القويم، فوصف لهم الدواء الذي به الصلاح، وريش بقادمتي الصبر والصلاة منهم الجناح، فأمر بالاستعانة بالصبر، لأنّ الصبر ملاك الهدى، وأمّا الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها، وهذا إظهار لحسن الظنّ بهم، وهو طريق بديع من طرق الترغيب، وقوله: وإنّها لكبيرة راجع إلى المأمورات المتقدمة، والمراد بالكبيرة الصعبة، وإطلاق الكبر على الأمر الصعب والشاق مجاز مشهور في كلام العرب، والخشوع هنا مجاز في تذلل النفس وخضوعها، وإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير، والملاقاة والرجوع هنا مجازان عن الحساب والحشر...

﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين﴾: أعيد خطاب بني إسرائيل بطريق النداء مماثلا لما وقع في خطابهم الأول، لمقصد التكرير للاهتمام بهذا الخطاب وما يترتب عليه؛ فإنّ الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى، ليكون ذلك التذكير داعية لامتثال ما يرد إليهم من الله من أمر ونهي على لسان نبيه ﷺ، غير أنّه لمّا كان الغرض المقصود من ذلك هو الامتثال، كان حق البلاغة أن يفضي البليغ إلى المقصود ولا يطيل في المقدمة، وإنّما يلمّ بها إلماماً ويشير إليها إجمالاً، تنبيهاً بالمبادرة إلى المقصود على شدة الاهتمام به، فكان الإجمال في المقدمة قضاء لحق صدارتها بالتقديم، وكان الإفضاء إلى المقصود قضاء لحقه في العناية، والرجوع إلى تفصيل النعم

قضاء لحقها من التعداد، فإنّ ذكر النعم تمجيد للمُنعِم، وتكريم للمُنعَم عليه، وعظة له ولمن يبلغهم خبر ذلك لتبعث على الشكر، فالتكرير هنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما، ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة، والنعمة هنا مراد بها جميع النعم؛ لأنّه جنس مضاف فله حكم الجمع، وقوله: وأنّي فضلتكم على العالمين عطف على نعمتي، فهي نعمة خاصة، وعطفه على نعمتي عطف خاص على عام...

﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾: هذا عطف التحذير على التذكير، والمراد باتقاء اليوم معناه المتعارف في اللغة، وهو اتقاء ما يحدث فيه من الأهوال، فهو من إطلاق اسم الزمان على ما يقع فيه، وتنكير نفسٌ عن نفسٍ يفيد عموم النفوس، هذا وما بعده تأييس، وفيه تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء، وإبطال ما زعموه مغنياً عنهم من عذاب الله. وقد كانت اليهود تتوهم أنّ نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله، مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد، كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها...

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾: جملة نجيناكم بمعنى المصدر، وعدل به عن المصدر الصريح استحضاراً للتكوين العجيب المستفاد من هيئة الفعل؛ لأنّ الذهن إذا تصور المصدر لم يتصور إلاّ معنى الحدث، وإذا سمع الجملة الدالة عليه، تصور حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلقاته دفعة واحدة، فنشأت من ذلك صورة عجيبة، وهذه نعمة من النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل عندما كانوا عبيداً مضطهدين في مصر، وقد أبدع القرآن في إجمالها إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلق غرض التذكير ببيانها، وجملة **﴿يُذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾**: بيان وتفصيل، وذيّلها بقوله وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم: وهي مصائب عظيمة أحيطت باليهود في مصر!، ومن أعظمها تذبيح الأبناء واستحياء النساء، لترى ما يحل بفلذة أكبادها. وهنا ملاحظة عظيمة لم يذكرها المفسرون إلاّ بالإشارة الخفية الضعيفة، وهي أين الرجال؟!. نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال، بما يؤخذ من الجو العام، والحالة السيئة التي ألمت ببني إسرائيل، فنقول: الرجال موجودون ولكنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أمام

الكارثة التي يرونها، فهم عبيد مُسخَرون فقدوا الرجولة والشهامة، وتجردوا عن كل ما يثير الانفعال والاشمئزاز، حتى أصبحوا أمام نسائهم شيئاً تافهاً لا يُعتَدُّ به، وهو ما يزيد الحسرة والكآبة واليأس في نفوس النساء اللاتي أصبحن ملعبة في أيدي الأعداء، وهنا يحصل الاستسلام لكل شيء يريده الأعداء منهن. وليس هناك عبارة أشمل وأعظم من قوله: **﴿وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾**!..

﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾: هذا زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة، بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون، وفيها بيان مقدار إكرام الله لهم، ومعجزة لموسى عليه السلام، وقوله: فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون، هو محل المنة وذكر النعمة، وقوله: وأنتم تنظرون، زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها. فإنّ مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة، وكذلك مشاهدة إغراق العدو، ومثلهما مشاهدة فرق البحر. وإسناد النظر إلى الحاضرين وقت نزول هذه الآيات، باعتبار أنّ أسلافهم كانوا ناظرين ذلك، لأنّ النعمة على السلف نعمة على الخلف لا محالة، فضمير الخطاب مجاز. واعلم أنّ هذه الواقعة كما أنّها لموسى معجزة عظيمة، فهي كذلك لأوائل بني إسرائيل؛ موجبة عليهم شكرها، وكذلك اقتصاصها على ما هي عليه من محمد ﷺ معجزة جليلة، تطمئن بها القلوب الأبيّة، وتنقاد لها النفوس الغبيّة؛ موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان، فلا تأثرت أوائلُهم بمشاهدتها، ولا تذكّرت أواخرُهم بروايتها، فيالها من عصابة ما أعصاها! وطائفة ما أطغاها!..

﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾: هذا تذكير لهم بنعمة أخرى، وهي نعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره، وذلك مما فعله سلفهم. وإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين باعتبار ما عطف عليه من قوله: ثم عفونا عنكم، فإنّ العفو عن الآباء عفو منه على الأبناء، وقوله: ثم اتخذتم العجل من بعده هو المقصود، وأمّا ما ذكر قبله فهو تمهيد وتأسيس لبنائه، وتهويل ذلك الجرم إظهار لسعة عفو الله وحلمه عنهم، وتوسيط التذكير بالعفو عن هذه السيئة، بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها في الوجود، ليحصل غرضان: غرض التذكير، وغرض تاريخ الشريعة، وعطفت جملة واتخذتم العجل من بعده

بحرف ثُمَّ الذي هو في عطف الجمل للتراخي الترتيبي للإشارة إلى ترتيب في درجات عِظَم هذه الأحوال، وعطف ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك أيضاً لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظم جرمهم، فروعي في هذا التراخي، أنّ ما تضمنته هذه الجمل عظائم الأمور في الخير وضده، تنبيهاً على عظم سِعَةِ رحمة الله بهم قبل المعصية وبعدها!. وحذف المفعول الثاني لاتخذتم لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره، وتقديره معبوداً وإلها، وبه تظهر فائدة (من بعده)، لزيادة التشنيع بأنّهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تزيدهم كمالاً، لا بالنكوص على أعقابهم عمّا كانوا عليه من التوحيد والانغماس في نعم الله، وبأنّهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى، فلا يُحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزاته. وفائدة ذكر (مِنْ) للإشارة إلى أنّ الاتخاذ ابتدأ من أول مغيب موسى، وهذه حالة غريبة؛ لأنّ شأن التغير عن العهد يكون بعد طول المغيب!، ففي قوله: من بعده تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى!..

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾: هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم، والمراد من الكتاب التوراة، والفرقان الحجة، وهو استعارة تمييز الحق من الباطل. وقوله: لعلكم تهتدون هو محل المنة. وذكر حرف الرجاء هنا وفيما قبله من بديع البلاغة، لأنّ تقواهم وشكرهم أمر يتطرقه احتمال التخلُّف!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإيّاي فارهبون﴾: في هذا التوجيه يُذكّر اللهُ بني إسرائيل بما أنعم على أسلافهم من نعم كثيرة، ونعمة الآباء نعمة للأبناء. ولما كان الإسلام يواجه في المدينة - وهذه سورة مدنية - بني إسرائيل، وكانوا أهل كتاب، وقد تفضل الله عليهم بنعم كثيرة، يتجلى فيها تكريم الله لهم، وللإنسان ممثلاً فيهم، وكانوا هم بعد ذلك نموذجاً للكفر بنعمة الله، ونموذجاً لأتباع الشيطان والحيدة عن الهدى؛ في ماضيهم مع أنبئائهم وفي حاضرهم مع النبيء الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، مبشرا برسالته التي تصدق ما بين أيديهم من الكتاب وتكمّله، وتجعله في قالبه الأخير، لمّا كان الأمر كذلك جرى السياق هنا

بتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وتذكيرهم في الوقت ذاته بمواقفهم من تلك النعم. وكانت هناك صلة خفية بين استعراض تكريم آدم وتكريم بني إسرائيل، وبين استسلامهم للشيطان بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق وتجربة أبي البشر الأولى واستهواء الشيطان.

إنّ القرآن لا يعرض هنا قصة بني إسرائيل، إنّما يشير إليها باختصار؛ يشير إلى النعم التي وهبها الله لهم واحدة واحدة - لا على سبيل الاستقصاء -، ويعقبهم بموقفهم من هذه النعمة وبعاقبة هذا الموقف في كل مرّة. أمّا القصة ذاتها فهي مذكورة في سورة أخرى، متفقة هنالك مع السياق الذي تعرض فيه. وهي هنا كذلك متفقة مع السياق قبلها، سياق تكريم الإنسان والعهد إليه والنسيان، متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية، ووحدة دين الله إليها، ووحدة رسالته؛ مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها، وإلى عواقب انحرافها عن هذه المقومات التي نيطت بها خلافة الإنسان في الأرض، فمن كفر بها فقد كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته، وارتكس مع الشيطان في عالم الهوان!.

العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل هو الإيمان بدين الله، دين الإسلام الذي جاءت به جميع الرسل، ومن جملة هذا الإيمان ما جاء به محمد من عند الله ﴿**وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به**﴾ وهو امتداد لرسالة الله ولعهد الله منذ البشرية الأولى؛ يضم جناحيه على ما مضى، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي، كما يوحد بين البشرية كلها في أجيالها جميعا وفي أهدافها جميعاً، ويجمع بين البشر إخوة متعارفين، يلتقون على عهد الله ودين الله، ولا يتفرقون شيعاً وأحزابا، والكل عبادُ الله، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدّل منذ فجر الحياة. ولقد كان اليهود من بني إسرائيل هم الذين يجاورون الإسلام في المدينة، وقد كان أحبارهم وربانيهم في ذلك الحين هم الحفظة على ما بين أيديهم من الكتاب، ما شاءوا أطلعوا الناس عليه وما شاءوا كتموه، وكانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلبسون الحق بالباطل فيخلطونه ويزوّرونه، كلُّ هذا ليشتروا به ثمناً قليلاً - والثمن والمال شنشنة اليهود من قديم -، فنهاهم عن هذا كله، وأمرهم بتقوى الله ورهبته، وذكرهم بعهد الله ونعمته. وتوحيداً للدين كله ودخولاً في الإسلام في صورته الأخيرة، جاء الأمر إليهم هنا بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة

ويركعوا مع الراكعين، توحيداً لهيئة العبادة، بعد النص على وحدة العهد ووحدة الرسالة. . . **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّاي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾**.

التوجيه الثاني: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾: في هذا التوجيه يوجه السؤال إلى المسؤولين من اليهود عن إقامة دين الحق كما جاء به رسول الحق، وهم بحكم قيامهم على الدين كانوا يقومون بالوعظ والإرشاد - كما هو عبارة اليوم - والدعوة إلى الدين، وهم في الوقت ذاته يصدون عنه بالفعل، ويلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق الذي بحكم معرفته بما عندهم من علم. وهذه آفة من آفات من ينتسب إلى العلم بدين الله، ويقول به قولاً، وينسخ عنه فعلاً في كل العصور. إنّهم يتخذون الدين حرفة، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص خدمة لأغراضهم وأغراض ذوي السلطان، ويجدون فتاوى تتفق في ظاهرها مع النصوص، وتختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، يبررون بها الأخطاء والخطايا، وينالون بها ثمناً مهما عظم فهو قليل بجانب الأمانة التي في أعناقهم، والعهد الذي أخذه الله عليهم لَيُبيِّنُنَّ الدين ولا يكتمونه.

ومصيبة هذا السلوك أنّ الدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في كل الدعوات، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنّهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين، بعدما فقدوا ثقتهم بعلماء الدين. إنّ الكلمة لتنبعث ميتة وتصلُ هامدةً، مهما تكن طنّانةً رنّانةً مستحمسةً، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً، إلاّ أن يستحيل هو ترجمة حيّةً لما يقول، وتجسيماً حيّاً لما ينطق. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنينٌ ولا بريقٌ، إنّها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمدّ جمالَها من بساطتها لا من بريقها، إنّها تستحيل يومئذ دفعةَ حياةٍ لأنّها منبثقة من حياة. والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمرا

هيناً ولا طريقاً معبداً، إنّها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله، واستمداد منه واستعانة بهديه؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراباتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عمّا يعتقد في ضميره، أو عمّا يدعو غيرَه إليه. والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأنّ قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه، وقد يغلبها مرة ومرة، ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فأمّا وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد، فهو قوي قوي؛ أقوى من كل قوي؛ قوي على شهوته وضعفه، قوي على ضروراته واضطراراته، قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه.

ومن هنا تلك الدعوة الموحية **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين، الذين يظنون أنّهم ملاقوا ربّهم وأنّهم إليه راجعون﴾**. والاستعانة بالصبر معروفة ومألوفة، فما الاستعانة بالصلاة؟. إنّ الصلاة صلة ولقاء بين القلب والرب، صلة يستمد منها القلبُ قوةً، وتحس فيها الروح صلة، ويستهين فيها الفرد بقوى الأرض وهو على اتصال بقوة الأزل والأبد، وقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وهو الوثيق الصلة بالله، الموصول القلب والروح بالإلهام وعالم الملإ الأعلى، وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن، يستقي منه حيثما يشاء، ويستعين به على رحلة الحياة وما فيها من جهد ومعاناة. . . **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين﴾**: مرة أخرى يرجع بالنداء إلى بني إسرائيل، لتذكيرهم بالنعمة والتفضيل، قبل الإشارات إلى مواضع هذه النعمة على وجه التفصيل. وقبل أن يخلص من هذا إلى بيان تلك النعم وتفصيلها يحذرهم يوم الحساب الأخير، ويقرر ذلك المبدأ الإسلامي العظيم؛ مبدإ التبعة الفردية والعدل المطلق، ويشير إلى الفرصة التي لن تتاح بعد ذلك ولن تعود. والتبعة الفردية فرع من تكريم الإنسان؛ الإنسان الذي وهب المعرفة، ووهب الإرادة فحقت عليه التبعة، والذي منح الفرصة ليذهب بنفسه إلى المصير الذي يريد. . . **﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾**.

التوجيه الثالث: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾: في هذا التوجيه يذكر الله بني إسرائيل بنعم الله التي أنعمها عليهم بالتفصيل، وأكبر

نعمة هي أن نجاهم من آل فرعون عندما كانوا يسومونهم سوء العذاب، عندما كانوا في مصر أذلاّء مستضعفين مسخّرين تحت العسف والقهر. ومن أفظع ما ساموهم سوء: تذبيح الأبناء واستحياء النساء!، فهو أسوأ حال يمر بالإنسان عندما يكون تحت تصرف أعدائه، لا يبدئ ولا يعيد مع أقرب الأقربين إليه. وهذا هو البلاء العظيم الذي يعجز الإنسان فيه عن التصرف في نفسه، والتصرف في أهله وذويه، والقرآن هنا يُهوّل ولا يُفصّل...

﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**﴾: هذه نعمة أخرى لهم بنجاتهم من الهلاك وهلاك عدوهم، والحادثة هنا جاءت مختصرة، لأنّ المقصود من ذكرها منة الله على بني إسرائيل، ليتذكروا النعمة التي كانت من الله لأسلافهم؛ لأنّ النعمة على السلف نعمة على الخلف... ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون**﴾: هذا تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غير الله، وذلك مما فعله سلف اليهود المعاصرين المخاطبين. ذكرت هذه المواعدة، واتخاذ بني إسرائيل العجل المعبود إلههم من دون الله، ثم حصول العفو عنهم مجملة دون تفصيل، لأنّ القصد منها تذكيرهم ما حصل، وقد تُفصل في مواضع من آيات القرآن بما يقتضيه المقام...

﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون**﴾: هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم، مع الإشارة إلى تمام النعمة، وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم، حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب. والمراد من الكتاب التوراة التي أوتيها موسى عليه السلام، والفرقان الحجة التي تكون مع الكتاب دليلاً على صحته وصحة ما يحويه، وصحة دعوة من يأتي به.

5 ـ موقف اليهود اللئام مع رسول الله موسى عليه السلام!

النص

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿53﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿54﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿55﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿56﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿57﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿58﴾ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (59) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (60) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (62) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (63) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (64) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (65)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿إنّكم ظلمتم أنفسكم﴾: ظلم النفس هنا: الجناية والمعصية باتخاذ العجل معبودا... **﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾**: إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت، وميز بعضكم من بعض بصور وهيآت مختلفة، وأصل التركيب الخلوص عن الغير، إمّا بطريق التقصي كما في برئ المريض، أو بطريق الإنشاء كما في برأ الله آدم من الطين، والبارئ أخص من الخالق... **﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾**: الجهْرَة: مصدر بوزن فعلة من الجهر وهو الظهور الواضح، فيستعمل في ظهور الذوات والأصوات، ومنه جهر البئر إذا أظهر ماءها... **﴿فأخذتكم الصاعقة﴾**: الصاعقة: الموت وكل عذاب مهلك، وصيحة العذاب، ونار تسقط من السماء، والصّعق شدة الصوت، والصعِق الشديد الصوت، والصاعقة تنشأ من قوة اشتداد الرعد والبرق... **﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾**: البعث: الإرسال والإثارة والإيقاظ والنشر. والموت: عدم الحياة ممن شأنه أن يكون حيّاً، ويطلق على توقف حركة القلب، وتعطيل وظائف الدورة الدموية...

﴿وظلّلنا عليكم الغمام﴾: جعلنا السحاب يقيكم من ضح الشمس... **﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾**: المن: مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول، فيه حلاوة إلى الحموضة، ولونه يميل إلى الصفرة. والسلوى: العسل، والطائر المعروف بالسماني... **﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾**: القرية: البلدة المشتملة على المساكن صغيرة كانت أو كبيرة، مشتقة من القرى وهو الجمع، يقال: قَرَى الشيء يَقْرِيه إذا جمعه، وجمع القرية قُرَى، والباب المنفذ والحاجز في المنفذ... **﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾**: الرغد العيش الطيب الواسع... **﴿وادخلوا الباب سجّداً﴾**: سجّد: جمع ساجد، والساجد الخاضع المتذلل المتواطئ... **﴿وقولوا حطة﴾**: الحط: الوضع، والحدر من عُلْو إلى سُفْل، والاسم الحطة، وقولوا حطة: حطّ عنا ذنوبنا... **﴿يغفر لكم خطاياكم﴾**: الخطايا: جمع خطيئة، فعيلة بمعنى مفعولة، فهي مخطوء بها، والخطيئة الذنب والمعصية... **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما**

كانوا يفسقون﴾: الرجز في الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس، والمراد به هنا الطاعون، والرجز القذر وعبادة الأوثان والعذاب والشرك. . .

﴿**وإذ استسقى موسى لقومه**﴾: استسقى: طلب السقي، وهو الماء الذي يشربه الإنسان. . . ﴿**فقلنا اضرب بعصاك الحجر**﴾: عصا موسى معروفة ﴿**قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى**﴾ وهي ما يحمله الراعي والمسافر في يده، تؤخذ من عيدان الشجر. والحجر: الصخرة، وجمعه أحجار وحجارة، وأرض متحجرة كثيرة الحجر. . . ﴿**فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا**﴾: انفجر الماء وتفجر سال، وتفجرت العين تدفقت وفارت، وأصل الفجر بروز ضوء النهار آخر الليل، ثم أطلق على كل شيء يخرج واضحاً دون خفاء ومنه الفجور، وهو إظهار الفسوق. والعين: ينبوع الماء، جمعه عيون. . . ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾: كل أناس: كل جماعة من الناس. والمشرب: مكان الشرب، وهي هنا العين التي تخص أحد الأسباط الإثني عشر. . . ﴿**كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾: ولا تعثوا: مضارع عثِيَ - كرَضِيَ - وهذه لغة أهل الحجاز، والعثو أشد الفساد والتمادي فيه، وهو المقصود هنا. . . ﴿**يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾: الإخراج: الإبراز من الأرض. والبقل: ما نبت في بزره لا في أرومة ثابتة، يقال: بقلت الأرض أنبتت، وبقل وجه الغلام خرج شعره. والقثاء: ثمر نبات يشبه الخيار (يعرف بالفقوس والجريش). والفوم: الثوم، والحنطة، والحمّص، وسائر الحبوب التي تخبز، والعدس والبصل معروفان عند جميع العرب. . .

﴿**قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾: فعل استبدل مشتق من البدَل ويقال: بِدْل وبديل، وقد سمع في مشتقاته استبْدَل وبدّل وتبدّل، وجميع أفعال مادة البدل تدل على جعل شيء مكان شيء آخر من الذوات أو الصفات. . . ﴿**اهبطوا مصرا فإنّ لكم ما سألتم**﴾: الهبوط: النزول من المكان أو المنزلة. ومصرٌ: مكان مأهول بالسكان، وأصل المصر الحجز. . . ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**﴾: الضرب: في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة، يقال: ضرب بعصا وبيده وبالسيف، وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان ترجع إلى شدة

اللصوق؛ فمنه ضرب في الأرض سار طويلاً، وضرب قبة وبيتاً في موضع كذا، بمعنى شدها ووثقها من الأرض، وضرب الطين على الحائط ألصقه. الذلة: الصغار والهوان. والمسكنة: الفقر، مشتقة من السكون، لأنّ الفقر يقلل حركة صاحبه، وتطلق على الضعف في الجسم وفي النفس... **﴿إنّ الذين آمنوا﴾**: هم الناس الذين بقوا على الإيمان الصحيح؛ على أصل دين رسولهم مثل الحنفاء من العرب، والبقية الباقية على دين عيسى، ومن بقي على الإيمان الفطري مثل: **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم...﴾** **﴿والذين هادوا﴾**: اليهود... **﴿والنصارى والصابين﴾**: قوم يعبدون الكواكب، يبنون لها الهياكل في الأرض ويجعلونها رمزاً لها... **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾**: الطور: علم على جبل في برية سيناء...

﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾: الاعتداء: وزنه افتعال من العدو، وهو تجاوز حد السير والحد والغاية. والسبت: مصدر سبَتَ اليهوديُّ من باب ضرب، بمعنى احترم السبت وعظّمه، ويوم السبت يوم من أيام الأسبوع بعد يوم الجمعة... **﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**: القردة: جمع قرد، والقرد حيوان معروف يضرب به المثل في الخسة، والخاسئ المُبعَد لا يترك أن يدنو من الناس، والخسأ البعد والطرد... **﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾**: النكال: العقاب الشديد الذي يردع المعاقَب عن العود للجناية، ويردع غيره عن ارتكاب مثلها، وهو مشتق من نكل إذا امتنع، ويقال: نكّل به تنكيلاً ونكالاً، بمعنى عاقبه بما يمنعه عن العود. والموعظة الترهيب من الشر والترغيب في الخير، والمراد هنا تحذير الناس من الوقوع فيما وقعوا فيه.

مبحث الإعراب:

﴿وإذ قال موسى﴾ إذ ظرف عامله مقدّر، قال فعل ماض، وموسى فاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف، والجملة معطوفة على قوله: وإذ نجيناكم. **﴿لقومه﴾** متعلق بقال. **﴿ياقوم﴾** منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، قوم مضاف وياء المتكلم مضاف إليه. **﴿إنّكم﴾** إنّ واسمها. **﴿ظلمتم﴾** فعل وفاعل

في محل رفع خبر إنّ. ﴿**أنفسكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**باتخاذكم**﴾ متعلق بظلمتم. ﴿**العجل**﴾ مفعول بالمصدر، وجملة إنّكم ظلمتم في محل نصب مقول القول. ﴿**فتوبوا**﴾ أمر بالتوبة معقب بفاء التعقيب. ﴿**إلى بارئكم**﴾ متعلق بتوبوا. ﴿**فاقتلوا أمر**﴾ بقتل النفس معقب بفاء التعقيب. ﴿**أنفسكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ذلكم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخير. ﴿**عند**﴾ متعلق به أيضاً. ﴿**بارئكم**﴾ مضاف إلى عند، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فتاب**﴾ تعقيب على ما قبله، وفاعل تاب ضمير يعود على بارئكم. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بتاب. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**التواب**﴾ خبر إنّ. ﴿**الرحيم**﴾ خبر ثان، والجملة تعليلية.

﴿**وإذ قلتم**﴾ مثل وإذ قال موسى. ﴿**ياموسى**﴾ منادى مبني على ضم مقدر على الألف في محل نصب. ﴿**لنْ**﴾ حرف نفي ونصب. ﴿**نؤمن**﴾ فعل مضارع منصوب بلن، والفاعل نحن. ﴿**لك**﴾ متعلق بلن نؤمن. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**نرى**﴾ فعل مضارع منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وعامل النصب أن مضمرة بعد حتى، والفاعل نحن. ﴿**الله**﴾ معمول نرى. ﴿**جهرة**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**فأخذتكم**﴾ الفاء للتعقيب، وضمير المخاطبين مفعول أخذت. ﴿**الصاعقة**﴾ فاعل أخذت. ﴿**وأنتم**﴾ الواو للحال، أنتم في محل رفع مبتدأ. ﴿**تنظرون**﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من الضمير المنصوب في أخذتكم. ﴿**ثم**﴾ حرف عطف وترتيب. ﴿**بعثناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**موتكم**﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تشكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ، وجملة لعلّ تعليلية. ﴿**وظلّلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بظلّلنا. ﴿**الغمام**﴾ مفعول به. ﴿**وأنزلنا**﴾ معطوف على ظلّلنا. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**المن**﴾ مفعول به. ﴿**والسلوى**﴾ معطوف عليه منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**من طيبات**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل جر مضاف إلى طيبات. ﴿**رزقناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**ظلمونا**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، لكن حرف استدراك. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول

يظلمون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يظلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان.

﴿**وإذ**﴾ ظرف عامله مقدر. ﴿**قلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**هذه**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**القرية**﴾ عطف بيان لهذه منصوب بالفتحة، وجملة ادخلوا في محل نصب مقول القول، وجملة قلنا في محل جر مضافة إلى الظرف (إذْ). ﴿**فكلوا**﴾ الفاء للتعقيب، كلوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**منها**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**حيث**﴾ ظرف مبني على الضم في محل نصب، متعلق بكلوا. ﴿**شئتم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**رغداً**﴾ نعت لمصدر منصوب على أنّه مفعول مطلق. ﴿**وادخلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**الباب**﴾ معطوف على ادخلوا. ﴿**سجّداً**﴾ حال من واو الجماعة. ﴿**وقولوا**﴾ مفعول. ﴿**حطة**﴾ خبر لمبتدإ محذوف. ﴿**يُغفر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم في جواب الأمر. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيُغفر. ﴿**خطاياكم**﴾ نائب الفاعل مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وسنزيد**﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿**المحسنين**﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة قلنا ادخلوا.

﴿**فبدّل الذين**﴾ الفاء للتعقيب، بدل الذين فعل وفاعل. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**قولاً**﴾ مفعول به، ﴿**غير**﴾ نعت له. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى غير. ﴿**قيل لهم**﴾ صلة الذي. ﴿**فأنزلنا**﴾ الفاء للتعقيب، أنزلنا فعل وفاعل. ﴿**على الذين**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**رجزاً**﴾ مفعول به. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرجز. ﴿**بما**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يفسقون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر كان، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء، والتقدير: بسبب كونهم فاسقين. ﴿**وإذ استسقى موسى**﴾ جملة الفعل والفاعل في محل جر مضاف إلى الظرف، وعامل الظرف مقدر وهو معطوف على ما تقدم من قوله: اذكروا نعمتي. ﴿**لقومه**﴾ متعلق باستسقى، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فقلنا**﴾ فعل وفاعل مرتب على ما قبله. ﴿**اضرب**﴾ الجملة مقول القول. ﴿**بعصاك**﴾ متعلق باضرب، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**الحجر**﴾ مفعول به. ﴿**فانفجرت**﴾ مرتب على اضرب. ﴿**منه**﴾ متعلق بانفجرت. ﴿**اثنتا**﴾ فاعل انفجرت مرفوع بالألف لأنّه مثنى. ﴿**عشرة**﴾ مضاف إلى المثنى.

﴿**عينا**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**قد علم كل**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**أناس**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**مشربهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر. ﴿**واشربوا**﴾ معطوف عليه. ﴿**من رزق**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رزق. ﴿**ولا تعثوا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه النهي معطوف على ما قبله من الأمر. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بتعثوا. ﴿**مفسدين**﴾ حال من واو الجماعة في تعثوا.

﴿**وإذ قلتم يا موسى**﴾ مثل وإذ قلتم يا موسى السابقة. ﴿**لن نصبر**﴾ مثل لن نؤمن. ﴿**على طعام**﴾ متعلق بلن نصبر. ﴿**واحد**﴾ نعت لطعام. ﴿**فادع**﴾ فعل أمر مرتب على ما قبله. ﴿**لنا**﴾ متعلق بادع. ﴿**ربّك**﴾ معمول ادع، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يخرج**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**لنا ممّا**﴾ متعلقان بيخرج. ﴿**تنبت الأرض**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**من بقلها**﴾ بيان لما. ﴿**وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**﴾ وكلها معطوفة على بقلها، والضمير في الكل مضاف إليه. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على موسى. ﴿**أتستبدلون**﴾ الهمزة للاستفهام، تستبدلون فعل وفاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**الذي**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أدنى**﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة هو أدنى صلة الذي. ﴿**بالذي**﴾ متعلق بأتستبدلون. ﴿**هو خير**﴾ مثل هو أدنى. ﴿**اهبطوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**مصراً**﴾ مفعول به. ﴿**فإنّ**﴾ الفاء للتعقيب، إنّ حرف توكيد ونصب. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم. ﴿**ما اسم**﴾ موصول في محل نصب اسم إنّ. ﴿**سألتم**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**وضربت عليهم الذلة**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل معطوفة على الجمل المتقدمة بدون إذ. ﴿**والمسكنة**﴾ معطوف على الذلة. ﴿**وباءوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بغضب**﴾ متعلق بباءوا. ﴿**من الله**﴾ متعلق بمحذوف نعت لغضب، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بأنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يكفرون**﴾ الجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كانوا في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدإ (ذلك)، والتقدير ذلك الأمر حاصل بسبب تحقق كفرهم. ﴿**بآيات الله**﴾ متعلق بيكفرون، والله مضاف إليه.

﴿ويقتلون﴾ معطوف على يكفرون. **﴿النبيئين﴾** مفعول به منصوب بالياء. **﴿بغير﴾** متعلق بيقتلون. **﴿الحق﴾** مضاف إلى غير. **﴿ذلك بما عصوا﴾** مثل ذلك بأنّهم. **﴿وكانوا يعتدون﴾** معطوف على عصوا، وتقدير الكلام: ذلك حاصل بسبب تحقق عصيانهم واعتدائهم.

﴿إنّ الذين﴾ إنّ واسمها. **﴿آمنوا﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة الذين. **﴿والذين هادوا﴾** معطوف على الذين آمنوا. **﴿والنصارى والصابين﴾** معطوف على الذين آمنوا. **﴿مَنْ﴾** اسم شرط جازم. **﴿آمن﴾** فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على مَنْ. **﴿بالله﴾** متعلق بآمن. **﴿وعمل﴾** معطوف على آمن. **﴿صالحاً﴾** مفعول به. **﴿فلهم﴾** الفاء واقعة في جواب الشرط، لهم متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿أجرهم﴾** مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فلهم أجرهم في محل جزم جواب الشرط، وجملة الشرط في محل رفع خبر إنّ. **﴿عند﴾** متعلق بما تعلق به لهم. **﴿ربّهم﴾** مضاف إلى عند، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** معطوفان على قوله: فلهم أجرهم.

﴿وإذ أخذنا﴾ معطوف على قوله وإذ نجيناكم كما عطف عليه سابقه. **﴿ميثاقكم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ورفعنا﴾** معطوف على أخذنا. **﴿فوقكم﴾** متعلق برفعنا، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿الطور﴾** مفعول به. **﴿خذوا﴾** جملة طلبية. **﴿ما﴾** اسم موصول في محل نصب مفعول به. **﴿آتيناكم﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. **﴿بقوة﴾** متعلق بخذوا. **﴿واذكروا﴾** معطوف على خذوا. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿فيه﴾** متعلق بمحذوف صلة ما. **﴿لعلكم﴾** لعلّ واسمها. **﴿تتقون﴾** فعل وفاعل في محل رفع خبر لعل. **﴿ثم توليتم﴾** معطوف على قوله خذوا ما آتيناكم. **﴿من بعد﴾** متعلق بتوليتم. **﴿ذلك﴾** في محل جر مضاف إلى بعد. **﴿فلولا﴾** الفاء للتعقيب، لولا حرف امتناع لوجود، متضمنة معنى الشرط. **﴿فضل﴾** مبتدأ. **﴿الله﴾** مضاف إلى فضل. **﴿عليكم﴾** متعلق بفضل، وخبر المبتدإ مقدر، أي: موجود. **﴿ورحمته﴾** معطوف على فضل، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿لكنتم﴾** اللام واقعة في جواب لولا، كنتم كان واسمها. **﴿من الخاسرين﴾** متعلق بمحذوف خبر كان. **﴿ولقد﴾** الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. **﴿علمتم﴾** فعل وفاعل. **﴿الذين﴾** في محل نصب

مفعول به. ﴿**اعتدوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين، ﴿**منكم في السبت**﴾ متعلقان باعتدوا. ﴿**فقلنا**﴾ مرتب على قوله: اعتدوا. ﴿**لهم**﴾ متعلق بقلنا. ﴿**كونوا**﴾ كان واسمها. ﴿**قردة**﴾ خبر كان. ﴿**خاسئين**﴾ حال من اسم كان، وجملة كونوا في محل نصب مقول القول. ﴿**فجعلناها**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**نكالاً**﴾ مفعول ثان لجعلنا. ﴿**لما**﴾ متعلق بمحذوف نعت له. ﴿**بين**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**يديها**﴾ مضاف إلى بين منصوب بالياء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما خلفها**﴾ معطوف على ما بين يديها. ﴿**وموعظة**﴾ معطوف على نكالا. ﴿**للمتقين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لموعظة.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل**﴾: في هذه الآية تفصيل لما حدث من العفو، وتذكير للمخاطبين بتلك النعمة. والتعبير ببارئكم دون خالقكم، للإشعار بأنّهم بلغوا من الغباوة أقصاها، ومن الغواية منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمته بريئاً من التفاوت والتنافر، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة، وأنّ من لا يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تُستَردّ هي منه، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب، وقوله: ﴿**فتاب عليكم**﴾: عطف على محذوف على أنّه خطاب من الله تعالى على نهج الالتفات، والتقدير: فعلتم ما أُمرتم به فتاب عليكم، والقصد من الالتفات تذكير المخاطبين بما حصل لأسلافهم، وقوله: ﴿**إنّه هو التواب الرحيم**﴾: تعليل لما قبله، وفيه ثناء على كلام الله. وتأكيده بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم. وإنّما جمع التوّاب مع الرحيم لأنّ توبة الله عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل، وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلاّ الغفّار، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة، فكان للرحيم موقع عظيم هنا...

﴿**وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**﴾: فبنو إسرائيل هم بنو إسرائيل؛ إنّهم هم غلظ حس ومادية فكر، يطلبون رؤية الله جهرة؛ فالحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة، والآيات العقلية والنعم الإلهية والتوبة والمغفرة، كلها لا تغيّر من تلك الطبيعة القاسية التي لا تؤمن إلاّ

بالمحسوس، ولا تخضع إلاّ للعذاب العنيف... **﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾**: ولكنهم لم يشكروا ولم يعرفوا حق النعمة، ولم تفتح قلوبهم للطاعة ولم تستقم فطرتهم على الهدى، بدليل أنّهم لم يعترفوا بما حصل لهم من النعم عندما أنعم الله عليهم بالتوبة والبعث...

﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: وصلت بما قبلها لما تضمنته بعض الجمل من أنّ ظلماً قد حصل منهم، وعذاباً قد وقع عليهم جروه هم إلى أنفسهم، فأتى بهذه الجملة كالفذلكة لما تضمنته الجمل السابقة، وغيّر الأسلوب في هذه الجملة إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة، لقصد الاتعاظ بحالهم، وتعريضاً بأنّهم متمادون في غيهم، وليسوا مستفيقين من ضلالهم، فهم بحيث لا يقرون بأنّهم ظلموا أنفسهم. وهذا الظلم الذي قدر في نظم الآية، هو ضجرهم من مداومة أكل المن والسلوى الذي سيأتي ذكره فيما بعد، فكان قوله: وما ظلمونا تمهيداً له، وتعجيلا بتسجيل قلة شكرهم على نعم الله وعنايته بهم، إذ كانت شكيمتهم لا تلينها الزواجر ولا المكارم. وقدم فيه المفعول للحصر، وقد حصل القصر: أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإثبات، ثم أكد بالتقديم، لأنّ حالهم كحال من ينكي غيره، كما قيل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه. وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفي السابق وفيه ضرب تهكم بهم. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر...

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾: هذا تذكير بنعمة أخرى من جانبه تعالى، وكفرة أخرى لأسلافهم، عندما أمروا أن يدخلوا هذه القرية، ولم يرد اسمها هنا؛ لأنّه ليس المقصود تفصيل الحوادث، وإنّما المقصود هو الإشارة فقط إلى مواقف معينة في حياة بني إسرائيل؛ فهم لم يستمعوا للأمر ولم يستقيموا على الهدى. لقد قيل لهم: ادخلوا الباب سجدا، وقولوا: حطة: دعوة لله أن يحط عنهم أوزارهم، وأن يعفُوَ عنهم ويغفر لهم،

وقد وعدوا المغفرة لو أطاعوا، ولكن التواء الطبع نأى بهم عن استقامة القول والفعل، فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون. ولا يعرف ماذا قالوا بالتفصيل، والمفسرون سرحوا مع الخيال، وفيما قيل من الإسرائيليات والأوهام في هذا المجال. وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم، لأنّ النعمة نعمة وإن لم يقبلها المُنعَمُ عليه، وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم، وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم، وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون، فقد علموا أنّهم كلما صدفوا عن قدر حق المنعم نالتهم المصائب. ولعلم المخاطبين بما عنته هذه الآية اختصر فيها الكلام اختصاراً، وترك كثيراً من المفسرين فيها حيارى...

﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾: في هذه الآية تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم: وهي الري من العطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام، وكون السقي في مظنة عدم تحصيله، وتلك معجزة لموسى وكرامة لقومه؛ لأنّ في ذلك فضلاً لهم، وكون العيون اثنتي عشرة، ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا. وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود أخبرهم بها شخص أُمّيّ يعيش في بلدٍ أهلُه أميّون **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا...﴾**

﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم﴾: في هذه الآية انتقال من تعداد النعم، إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف، لينتقل من ذلك إلى ذكر انقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم. والتعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية، لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده. ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين: المن والسلوى، لأنّ المراد أنّه متكرر كل يوم. والمقصود من الاستفهام التعجيب والتوبيخ، وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم. وأفعال مادة البدل

تدل على جعل شيء مكان شيء آخر من الذوات أو من الصفات، أو عن تعويض شيء بشيء آخر من الذوات أو الصفات، فإن تعدى الفعل إلى مفعولين كان المفعول الأول هو المزال والثاني هو الذي يخلفه مثل ﴿**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**﴾، وإذا تعدت إلى مفعول واحد وتعدت إلى الآخر بالباء، فالمنصوب هو المأخوذ والمجرور هو المبذول مثل: ما هُنَا، ومثل ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾، وقد يعدل عن تعدية الفعل إلى الشيء المعوض ويعدى إلى آخر العوض، فيصير من باب أعطى فينصب مفعولين، وينبّه على المتروك بما يدل على ذلك، مثل ﴿**وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**﴾ أي: ليبدلن خوفهم أمنا. والأمر في قوله: اهبطوا للإباحة المشوبة بالتوبيخ. هذه هي صورة البنية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية تأبى على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها خرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء.

لقد أخرجهم موسى من الذل والهوان ليورثهم الله الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن وللعزة تكاليف، ولكنهم لا يريدون أن ينهضوا بهذه التكاليف، ولا يريدون أن يؤدّوا ذلك الثمن، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الهينة الرتيبة، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة في طريقهم إلى العزة والمجد والكرامة. إنّهم يريدون من الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء وما إليها. وفي المشهد نرى موسى يصرخ ويستنكر ويسأل ويتعجب ويستفسر ويصرح ويهدد: عودوا إلى هوانكم عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة...

﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**﴾: هذه الجملة لها مزيد ارتباط بالجمل التي قبلها، إذ كانت في معنى النتيجة، فإنّ مضمون تلك الجمل ذكر ما منّ الله به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إيّاهم، وسوقهم إلى الأرض التي وعدهم، فتضمن ذلك نعمتي التحرير والتمكين في الأرض، وتقاعسوا عن دخول القرية وجبنوا عن لقاء أهلها. وهنا نقف وقفة تعجب من هذا الجبن الهالع، إنّها قرية فلم تكن مدينة ولا قطراً ولا إقليماً!. وإنّما هي قرية قريبة يرونها ويشاهدون ما فيها وما حولها، فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها حق قدرها، أن تنزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها،

وهو الذلة المقابلة للشجاعة - إذ لم يثقوا بنصر الله إيّاهم - والمسكنة وهي العبودية، فتكون الآية مسوقة مساق المجاز للكلام السابق فهذا وجه العطف. وأمّا كونه بالواو دون الفاء، فليكون خبراً مقصوداً بذاته وليس متفرعاً على قول موسى لهم: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولو عطف بغير الواو لكان ذكره تبعاً لذكر سببه، فلم يكن له من الاستقلال ما ينبّه البالَ. والضمير في قوله: وضربت عليهم، وباءوا عائدة إلى جميع بني إسرائيل، لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا لن نصبر على طعام واحد، بدليل قوله: ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق. وقوله: وضربت عليهم الذلة والمسكنة استعارة مكنية، إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها، وذكر الضرب تخييل، لأنّه ليس له شبيه في علائق المشبه. وقوله: وباءوا استعارة لانقلاب ما يرضي الله إلى غضبه. . .

﴿**ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾: الإشارة إلى ما تقدم من قوله: وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، فهي بيان لسبب ما حصل لهم من سوء المصير. وأفرد اسم الإشارة لتأويل المشار إليه بالمذكور. والباء في قوله: بأنّهم كانوا سببية وفيه تحذير من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه. وقوله: ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كرر الإشارة مرة أخرى لزيادة المشار إليه حرصاً على معرفته، ويكون العصيان والاعتداء سببين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله عليهم. . .

﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾: توسطت هذه الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم، وبما قابلوا به تلك النعم من الكفر وقلة الاكتراث، فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدركها البليغ، وهي أنّ ما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرّت عليهم ضرب الذلة والمسكنة، ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، ولمّا كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم لطلب الخلاص من غضب الله تعالى، لم يترك الله عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم، فبين لهم في هذه الآية أنّ باب الله مفتوح لهم وأنّ اللجأ إلى الله أمر هين عليهم، وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات. ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذِكرُ بقية الأمم، ليكون ذلك

تأنيساً لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية، وإنصافاً للصالحين منهم، واعترافاً بفضلهم وتبشيراً لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم، الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومثل الحواريين والموحدين في زمن نزول الآية، الذين بقوا على الفطرة لم يلبسوا إيمانهم بظلم الشرك.

وهنا يقرر السياق قاعدة من القواعد الكلية التي تتخلل القصص في القرآن أو تسبقه أو تتلوه، لأنّ القصص يرشح لها أو يسوق إليها أو يؤيدها؛ يقرر قاعدةَ وحدةِ الإيمانِ، ووحدةِ العقيدة مهما تعددت الأسماء والسمات في الماضي، ووصل بها الآن إلى إسلام النفس والوجه. لله إيمان ينبثق عنه العمل الصالح في الحياة، كما جاءت بها دعوة محمد رسول الله. ومجيء إنّ هنا لمجرد الاهتمام بالخبر وتحقيقه، لدفع توهم أنّ ما سبق من المذمات شامل لجميع اليهود، فإنّ كثيراً من الناس تتوهم أنّ سلف الأمم التي ضلت كانوا مثلهم في الضلال. وقوله: فلهم أجرهم عند ربهم: أطلق الأجر على الثواب مجازاً، لأنّه في مقابلة العمل الصالح، والمراد به نعيم الآخرة، والعندية هنا مجازية مستعملة في تحقيق الوعد، كما تستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم: لك عندي كذا.

ووجه دلالة عند في نحو هذا على التحقق، أنّ عند دالة على المكان، فإذا أطلقت في غير ما من شأنه أن يحل في مكان كانت مستعملة في لازم المكان، وهو وجود ما من شأنه أن يكون في مكان، على إنّ إضافة عند لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققاً، لأنّ المضاف إليه أكرم الكرماء، فلا يفوت الأجر الكائن عنده، وإنّما جمع الضمير في قوله: فلهم أجرهم عند ربهم، مراعاة لمعنى مَنْ، وأفرد صلتها من آمن بالله وعمل مراعاة للفظها. وممّا حسن ذلك هنا وجعله في الموقع الأعلى من البلاغة أنّ هذين الوجهين الجائزين عربية في معاد الموصولات وأسماء الشروط، قد جمع بينهما على وجه أنبأ على قصد العموم في الموصول أو الشرط، فلذلك أتى الضمير الذي في صلته أو فعله مناسباً للفظه لقصد العموم، ثم لمّا جيء بالضمير مع الخبر أو الجواب جمع ليكون عوداً على بدء، فيرتبط باسم إنّ الذي جيء بالموصول أو الشرط بدلاً منه أو خبراً عنه، حتى يعلم أنّ هذا الحكم العام مراد به ذلك الخاص أولاً، فهو من العام الوارد على سبب خاص.

وقوله: ولا خوف عليهم نفيُ خوفٍ مخصوصٍ، وهو خوف الآخرة، والتعبير

في نفي الخوف بالخبر الاسمي، لإفادة نفي جنس الخوف نفياً قارّاً، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات، والتعبير في نفي الحزن بالخبر الفعلي، لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخرة. ولمّا كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية بنفي الحزن عن الآخر، وقوله: فلهم أجرهم مقابل لقوله: فباءوا بغضب من الله، وقوله: ولا خوف عليهم مقابل لقوله: وضربت عليهم الذلة، وقوله: ولا هم يحزنون مقابل لقوله: والمسكنة...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾: تذكير بقصة أرى اللهُ تعالى أسلافَهم فيها بطشَه ورحمتَه فلم يرتدعوا ولم يشكروا. وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف. والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم. والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به. وجملة لعلكم تتقون علة للأمر، وهو سر الفصل. وقوله: فلولا فضل الله عليكم... الخ تعقيب على قوله: ثم توليتم من بعد ذلك، وكلمة لولا حرف يدل على امتناع الشيء لوجود غيره، كما أنّ لو يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، والاسم الواقع بعد لولا مبتدأ خبره محذوف وجوباً...

﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾: هذه من جملة الأخبار التي ذكرها الله تعالى، تذكيراً لليهود بما أتاه سلفهم من الاستخفاف بأوامر الله. ولم يذكر في هذا الخبر **﴿إذ﴾** كما ذكر في السابق، وكما يذكر في اللاحق؛ لأنّ هذا الخبر لم يكن منصوصاً عليه في أسفار التوراة القديمة، وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم، فأطلع الله عليها نبيّه فكانت معجزة غيبيّة. وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأنّ العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى، فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال: ولقد علمتم الذين، جاء به لمعنى بديع هو من وجوه إعجاز القرآن، وقصة السبت ومخالفتهم أمر الله فيه ذكرت في الأعراف.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم

العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التواب الرحيم﴾: في هذا التوجيه تذكير بالحكم الصادر على من ظلم نفسه باتخاذ العجل معبوداً من دون الله الخالق البارئ المصوّر، وهو وجوب التوبة من هذا الظلم العظيم بقتل النفس، ليتطهر المجتمع من رجس الشرك. ولمّا كان هذا الحكم خاصاً ببني إسرائيل الذين عاصروا موسى، وكان هذا الحكم صادراً بواسطة موسى رسول الله عليه السلام، فقد كلفهم بقتل أنفسهم قتلاً حقيقياً؛ إمّا أن يقتل كل من عبد العجل نفسه، فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام، وإمّا أن يقتل من لم يعبد العجل عابديه، فالأنفس مراد بها الأشخاص.

ويؤخذ من هاذين حكمان: حكم القول الأول شرط قبول التوبة من ذنب عبادة العجل، قتل العابد نفسه بنفسه، وعلى هذا القول فالحكم منسوخ في شريعة الإسلام. حكم القول الثاني إنّه حدّ الردة التي سببتها عبادة العجل، وعندما تم تنفيذ هذا الحد حصلت التوبة على بقية بني إسرائيل بعدما طهّروا مجتمعهم من دنس الشرك والمشركين، وعلى كل حال فقد حصل العفو عن بني إسرائيل تكريماً لموسى عليه السلام.

التوجيه الثاني: ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾: في هذا التوجيه لفت نظر اليهود المعاصرين إلى ما حصل من أسلافهم من سوء الأدب وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات، حتى راموا أن يروا الله جهرة، وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى عليه السلام. وهذا القول يدل دلالة قاطعة على أنّ اليهود لم يكونوا في يوم من الأيام مستعدين حقاً لقبول أي دين جاء به أي رسول ولو كان موسى الذي يدّعون أنّه رسولهم. فهذا المشهد الذي نشاهده الآن والمشاهد التي سبقت والمشاهد التي ستأتي تباعاً، يدل على أنّ بني إسرائيل هم بنو إسرائيل: إنّهم غلظ حس، ومادية فكر، واحتجاب عن مطالع الإيمان بالغيب، إنّهم يطلبون رؤية الله جهرة، وإلاّ فما هم بمؤمنين، هذا كلامهم لموسى. ولمّا وجه هذا الكلام إلى اليهود المعاصرين للرسول ﷺ لم يكترثوا به، ولم يرفعوا رأسا، بل استمروا كما استمر من قبلهم من اليهود في العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون: هذه العقوبة عقوبة دنيوية

حصلت بسبب مطلبهم السخيف، ولكن الله مَنَّ عليهم بأن بعثهم من بعد الموت الذي حصل بسبب الصاعقة القاتلة. . .

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾: ونستنتج من هذه الآية فوائد: لمّا كان الخطابُ يشمل المعاصرين لنزول القرآن من اليهود، نعلم منه أنّه تحذير لهم عن فعل ما يستحق بسببه أن يفعل ما فعل بأولئك، ومنها تشبيه جحودهم معجزات النبيء ﷺ بجحود أسلافهم نبوة موسى عليه السلام، مع مشاهدتهم لعظم تلك الآيات، ليتنبهوا أنّه إنّما لا يظهر على النبيء مثلها، لعلمه بأنّه لو أظهرها لجحدوها، ولو جحدوها لاستحقوا العقاب كما استحقه أسلافهم، ومنها التسلية للنبيء وتثبيت فؤاده كي يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ومنها إزالة شبهة من يقول: إنّ نبوة محمد لو صحت لكان أولى الناس بالإيمان به أهل الكتاب، حيث إنّهم عرفوا خبره، وذلك أنّ الله بيّن أنّ أسلافهم بعد مشاهدة تلك الآيات كانوا يرتدّون كل وقت ويتحكمون عليه، فكيف تعجب من مخالفتهم محمداً وإن وجدوا في كتبهم أخبار نبوّته. ومنها لما أخبر محمد عن هذه القصة مع كونه أميّاً تبيّن أنّ ذلك من الوحي، ومنها تنبيه اليهود المعاصرين للرسول ﷺ أنّ الفرصة أمامهم سانحة بدخولهم في الإسلام الذي يدعو الناس إلى ما يحييهم. واليهود ميتون بكفرهم، فليحيوا أنفسهم بالإيمان الصحيح، ليدخلوا تحت قول الله تعالى: ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون.

التوجيه الثالث: ﴿وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: هذا التوجيه يلفت فيه نظر السامع والقارئ إلى ما حصل من اليهود، عندما كانوا أحوج ما يكونون إلى الغطاء والغذاء والسقاء؛ لأنّهم في صحراء قاحلة لا شجر فيها ولا ماء، فأنعم الله عليهم بالغمام يظلهم، وأنعم عليهم بالطعام والشراب يمن عليهم به، ويسليهم عما كانوا فيه من ظل مصر وطعامها وشرابها، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم دون تعب ومشقة سعي، ودون منّة من أحد من البشر، ومع هذا فبمجرد ما رأوا أنفسهم في مأمن من خوف وكفاية من رزق، اتجهوا إلى العبث بما عندهم من حُليّ فصنعوا منه إلهاً على شكل العجل اتخذوه إلها من دون الله، وهذا ظلم ما بعده ظلم، وما ظلمونا بتركهم عبادتنا وتوجههم إلى العجل الذهبي يعبدونه،

ولكن كانوا أنفسهم يظلمون عندما وضعوا الأمور في غير مواضعها، حيث لم يقيموا للنعم التي أنعم الله بها عليهم من إنجائهم من عدوهم وإغراق عدوهم وهم ينظرون، ومن إنزالهم الشريعة على موسى فيها الهدى والفرقان لعلهم يهتدون، ومن تظليل الغمام عليهم وإنزال المن والسلوى لعلهم يشكرون. كل هذه النعم لم يلتفتوا إليها ولم يقدروها، بل كفروا بها وأنكروها بعبادة العجل، وبقولهم أرنا الله جهرة. حتى عندما قيل لهم - وهم في حال أمن ورخاء، وقوة ونماء - ادخلوا هذه القرية، وهي أمامهم ينظرون إليها - قرية لا مدينة كبيرة ولا قطراً واسعاً ولا إقليماً مختلف السكان والأجناس - ويرون ما فيها من خيرات ومتع. ادخلوا هذه القرية لتكون لكم دار هجرة، ومقراً تنشرون فيها دين الله، وتندفعون منها تبلغون الناس كتاب التوراة. . .

﴿وإذ قيل لهم ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾: إنّ هذه القرية التي أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوها، هي أول دار هجرة لبني إسرائيل يستقرون فيها مكتفين بكل شيء، وما عليهم إلاّ أن يقيموا دينهم الذي جاءهم به موسى من عند الله؛ لتكون لهم منطلقاً إلى نشر الدين بين الناس، بما لهم من علم وخلق وحسن أدب وسلوك. وهذا الوصف الذي أمر الله به بني إسرائيل، ظهر على محمد وأصحابه عندما هاجروا إلى دار الهجرة المدينة، التي كانت أول منطلق إلى نشر الإسلام في كل بقاع العالم، حيث دخلوا القرية كما أمرهم الله خاضعين مبتهلين متواضعين، كما وصفهم القرآن الكريم. أمّا بنو إسرائيل فلم يمتثلوا أمر الله عندما جبنوا وخافوا، ولم يخضعوا لأمر الله عندما انتصروا على أعدائهم، فقتلوا وخربوا العباد والبلاد. . .

﴿فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾: لقد فسق اليهود في تاريخهم الطويل من عهد موسى وهارون، إلى عهد داود وسليمان، إلى عهد يحيى وعيسى عليهم السلام، إلى عهد محمد ﷺ فأنزل الله عليهم الرجز على اختلاف الأشكال والألوان، من الأمراض الخطيرة، إلى الأسر والتشريد والتقتيل في كل بلد وجيل عرف هذه الفئةَ الشريرةَ.

التوجيه الرابع: **﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر**

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾: في هذا التوجيه تذكير بنعمة أخرى حدثت لبني إسرائيل عندما استسقى موسى لقومه، فأجابه ربّه وأمره بأن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه لكل سبط من أسباطهم عين يشرب منها دون تعب أو مشقة، وبذلك حصل لهم الطعام الهنيء والماء الروي، وليس بعد هذا مطلب لشيء؛ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين، ولكن البنية النفسية المفككة والجبلة الهابطة المتداعية تطلب شيئاً آخر وكأنّ الحياة طوعُ أمرهم، وموسى عليه السلام عبد من عبيدهم، يأمرونه بما يريدون فيستجيب لهم بكل ما يطلبون، إنّهم يريدون الآن الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر؛ يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء. . .

﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾: ولم يتماسك موسى نفسه من العجب والاستنكار. . . **﴿قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾**؟. : عودوا إلى ما كنتم فيه من الذلة والجهالة. . . **﴿اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم﴾**: وفي هذا إشارة إلى جبنهم ووقاحتهم وعدم مروءتهم، وأنّهم لا يستحقون التكريم لأنّهم لا ينفع فيهم التوجيه والتعليم!. . **﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾**: هذا بيان ما وصلوا إليه في النهاية، وما آل إليه حالهم بسبب الجناية؛ ليكون عبرة للنظار، وتبصرة لأولي الأبصار، وتحذيراً للإنسان من الجحود والكفران، المستتبعين للخزي والهوان، فأحاطت بهم الذلة والمسكنة من كل جانب، فضربت عليهم وألصقت بهم ضربة لازب، ورجعوا مغضوباً عليهم ملعونين مكروهين مثل الأفاعي والعقارب!. وهذا من جملة الإخبار عن الغيب، الدال على كون القرآن وحياً من عند الله. وهذه الحقيقة التي وصمت اليهود وجعلت لهم علامة مميزة مدى الحياة!؛ فهم دائماً صاغرون أو متصاغرون فقراء ومتفاقرون، ونحن الآن نعلم حقيقتهم رغم ما يملكون من الأموال، وما لهم من سيطرة على الدول والشركات في جميع الأحوال، ونراهم ونسمع عنهم يتكالبون ويندبون حظهم أنّهم ضحية الحروب والقتال!. . **﴿ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾**: لمّا بيّن الله تعالى إنزال العقوبة بهم، بيّن سبب ذلك. أولا: بما فعلوه في حق الله، وهو جهلهم به

وجحدهم لنعمه. ثانيا: وهو ما يتلو ما قبله في العظم - قتل الأنبياء -. ثالثا: بما كان ويكون منهم من المعاصي المتعدية إلى الغير، مثل الاعتداء والظلم، وذلك في نهاية الترتيب. ويدخل تحت هذا الحكم اليهود السابقون واللاحقون، فالله تعالى يبيّن ما لحق بالفريقين من البلاء والمحنة ليظهر للناس أنّ ذلك على قانون العدالة وقضية الحكمة (ذلك بما عصوا وكانون يعتدون)...

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾: جاءت هذه الآية هنا معترضة بين مواقف بني إسرائيل في السابق واللاحق، لتضع القاعدة التي وضعها الإسلام وبنى عليها تعاليمه كلها، وهي الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، ونتيجته الأجر العظيم والأمن في المستقبل والتخلص من مسؤولية الماضي. ولمّا ذكر وعيد أهل الكتاب ذكر هنا ما يتضمن المؤمنين الإيمان الحق الذي جاء به القرآن؛ فالمراد بالذين آمنوا هنا، الذين آمنوا قبل مبعث محمد بعيسى، والبراءة من أباطيل اليهود والنصارى، ومن بقي على الفطرة من العرب **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾**، ومن لم تبلغه دعوة الرسل السابقين وبقي على الفطرة الأولى «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» الحديث، مثل ورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل. أمّا الذين كانوا على الدين الباطل مثل اليهود والنصارى والصابين، فلا يقبل منهم دينهم الباطل إلاّ بالتبرئ منه ودخولهم في دين الإسلام...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾: ثم يعود إلى الميدان الأصيل، لاستعراض مواقف بني إسرائيل؛ لقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعملوا بما جاء به موسى، ولكنهم تقاعسوا ونكصوا على أعقابهم فجاءهم الإنذار برفع الجبل فوقهم **﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة وظنّوا أنّه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون...﴾** خذوا ما آتيناكم بقوة: ليتم التناسق في المشهد بين قوة رفع الصخرة وقوة أخذ العهد، ثم بين رفع الصخرة في الفضاء ورفع الجبال الذليلة إلى سماء الاستعلاء، ولكن هيهات!. لقد أدركت إسرائيل نحيزتها وغلبت عليها طبيعتها...

﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من

الخاسرين﴾: وهو مظهر من مظاهر الارتكاس في حياة هؤلاء الناس، مظاهر التحلل من العهد والعجزعن الاستمساك به والضعف عن احتمال تكاليفه والسير مع الهوى أو المنفعة القريبة التي لا تكلف جهداً ولا ترتفع عن مهابط الشهوات. . .
﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾: الاعتداء الواقع من اليهود في السبت، هو اعتداء أمر الله إيّاهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت، بترك العمل ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا، فكانت طائفة من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر، رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ فقالوا: لو حفرنا لها حياضا وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة، فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك فغضب الله عليهم لهذا الحرص على الرزق. وقد يكون تعديهم في حكم السبت أكبر من ذلك بالتحيل والتنصل من هذه التكاليف التي لم يروها في صالحهم، فجعل لهم علماؤهم مخرجاً من هذا بالفتوى، وتخريج الأحكام على مقتضى الأوهام. عندئذ حق عليهم جزاء النكول عن التكليف، فانتكسوا إلى عالم الحيوان الذي لا إرادة له، فلا تكليف عليه؛ بمجرد تخليهم عن المزية الأولى التي تجعل الإنسان إنسانا، مزية الإرادة المستعلية على الضرورة. وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، ذلك فضلاً على ما تثبته المشاهدات من أنّ طريقة التفكير والشعور، تؤثر في السحنة وتلوّن الملامح، وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترأوا من الاستخفاف بالأمر التشريعي حتى تحيلوا عليه!. وفي ذلك دليل على أنّ الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإنّ شرائع الله مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة، مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءةٌ على الله تعالى. . .

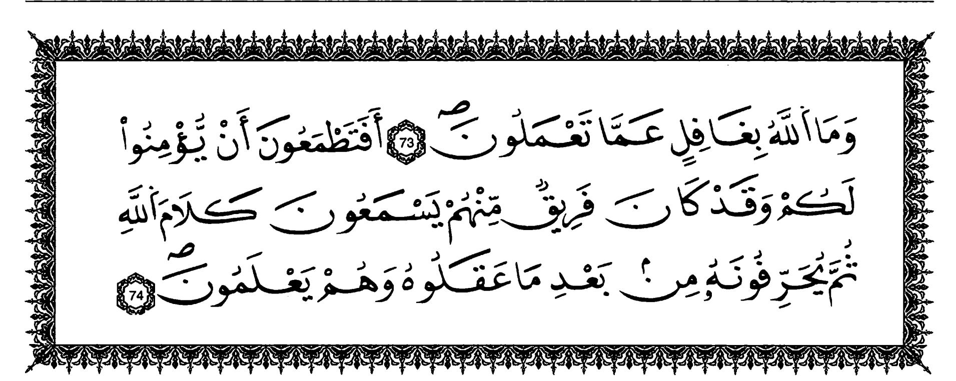
﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾: جعلنا هذه العقوبة عن تلك الحادثة زاجرة غيرهم عن مثل فعلهم من البعيد والقريب، ومن يسمع عنهم ممن عاصرهم وممن يأتي بعدهم، مع أنّها موعظة رادعة للمخالفين ونافعة للمتقين. فالموعظة فيها الترهيب والترغيب ولكنها أنفع للمتقين، لأنّهم هم الذين يدركون الموعظة وينتفعون بها ويؤمنون.

6 ـ قصة البقرة، وما فيها من الآيات المعتبرة

النص

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿66﴾ قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿67﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿68﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿69﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ
قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿70﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ
نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿71﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿72﴾
ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ
وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ


وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿73﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿74﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾: الأمر: ضد النهي، والأمر هنا أمر شرعي، وهو طلب الفعل بالقول من الأعلى إلى الأدنى، وهو طلب الله بني إسرائيل بذبح بقرة. وأصل الذبح: الشق والفتق والنحر، والذبح هنا المراد به الشرعي، وهو قطع الحلقوم والودجين بآلة حادة من مأكول حيوان البر... ﴿**قالوا أتتخذنا هزؤا**﴾: تتخذ: مضارع اتخذ، وهو افتعال من الأخذ، فصيغة الافتعال فيه دالة على التكلف للمبالغة في تحصيل الفعل؛ قلبت الهمزة الأصلية تاء لقصد الإدغام تخفيفاً، ولينوا الهمزة، ثم اعتبروا التاء كالأصلية، فربما قالوا: تخذ بمعنى اتخذ، وقد قرئ بالوجهين قوله: ﴿**لو شئت لاتخذت - لتخذت -عليه أجرا**﴾، وأصل معنى الأخذ التناول. هزؤاً: سخرية، يقال: هزأ هُزْؤاً وهُزُؤاً واستهزأ سخر... ﴿**قال أعوذ بالله**﴾: نبرؤ من الاستهزاء والسخرية؛ لأنّه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فالهزء أخص من المزح؛ لأنّ في الهزء مزحاً مع استخفاف واحتقار للممزوح معه. وأصل العوذ: الالتجاء والتحصن، كالعياذ، والمعاذ، والمعاذة، والتعوذ، والاستعاذة... ﴿**أن أكون من الجاهلين**﴾: الجاهلون: اسم فاعل مفرده جاهل، وهو الخالي من العلم، ويطلق الجاهل على الخالي من الحلم، بمعنى الطائش خفيف العقل...

﴿**قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي**﴾: الدعاء: طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب، ويطلق على النداء من الأدنى إلى الأعلى، ويطلق على رفع الصوت لقصد الإسماع والتبيين والتوضيح. ما هي؟!: ما يسأل بها عن الصفة كما

هنا، كما يسأل بها عن جنس الشيء... ﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر**﴾: الفارض: المسنة، لأنّها فرضت سنها، والفرض القطع، ويقال للقديم فارض، وفرضت البقرة فروضاً طعنت في السن. ﴿**والبكر**﴾: الفتية، مشتقة من البُكرة، وهي أول النهار، فالبكر لازال في أول العمر... ﴿**عوان بين ذلك**﴾: العوان: متوسطة السن، ويقصد بالعوان الشدة والعظمة، ويطلق على البقرة التي نتجت بعد بطنها البكر، وجمع عوان عُونٌ. وبين ذلك: بين الفرض والبكر... ﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾: اللون الأصفر معروف. ﴿**والفقوع**﴾: خاص بالصفرة، يقال: أصفر فاقع، كما يقال: أسود حالك، واللون هيئة في الشيء كالسواد والبياض. والألوان كثيرة، وأصلها الأطياف السبعة التي ترى في قوس السحاب. والمسرة: لذة نفسية تنشأ عن الإحساس بالملائم يظهر أثره على أسارير الوجه... ﴿**إنّ البقر تشابه علينا**﴾: تشابه: التبس واختلط...

﴿**قال: إنّه يقول إنّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها**﴾: الذلول: اللين السهل المنقاد. وإثارة الأرض: حرثها وقلب تربتها واختلاطه. وسقي الحرث: ريّه بالماء بواسطة البقر. والمسلَّمة: السليمة من عيوب العمل. والشية: العلامة التي تكون في الشيء تخالف لونه الأصلي، والثوب الموشى الذي فيه ألوان مختلفة... ﴿**قالوا الآن جئت بالحق**﴾: الحق هنا: الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه، كما يقال: جاء بالأمر على وجهه، ولم يريدوا من الحق ضد الباطل... ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون**﴾: ما كاد يفعل: يقال لمن صعب عليه الفعل لأسباب يراها مانعة، وأصل الكلمة كاد ما يفعل؛ لأنّ الأمر فيه عائق... ﴿**وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها**﴾: النفس: الواحد من الناس لأنّه صاحب نفس، وهي مأخوذة من التنفس. وتطلق على ذات الإنسان روحاً وجسداً، وتطلق على الروح التي بها الشعور والإدراك. وادارأتم: أصله تدارأتم، تفاعل من الدرء وهو الدفع، لأنّ كل فريق يدفع التهمة عن نفسه، فلما أريد إدغام التاء في الدال على قاعدة تاء الافتعال مع الدال، جلبت همزة الوصل لتيسير التسكين للإدغام...

﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك**﴾: القسوة والقساوة: توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبر عنها بالقلوب، والقسوة قوة التصلب والشدة

والغلظة... **﴿وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾**: تفجّر: سال متدفقاً من عدة جهات فيصير نهراً جارياً... **﴿وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾**: يشقق: يتصدع ويحصل فيه خُلل ينبع الماء من خلالها... **﴿وإنّ منها لما يهبط من خشية الله﴾**: يهبط: ينزل وينحط. والخشية: الخوف الباعث على تقوى الخائف غيرَهُ، وهي حقيقة شرعية في امتثال الأمر التكليفي، لأنّها الباعث على الامتثال... **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾**: الطمع: ترقب حصول شيء مرغوب فيه محبوب يُحرص على تحصيله... **﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾**: فريق من اليهود المعاصرين والسابقين يسمعون كلام الله المنزل على الرسول عند تبليغهم إيّاه. والتحريف: أصله مصدر حرف الشيء، إذا مال به إلى الحرف، وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق، والمراد بالتحريف هنا إخراج الشريعة عمّا جاءت به.

مبحث الإعراب:

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ تقدم إعراب مثلها. **﴿إنّ﴾** حرف توكيد ونصب. **﴿الله﴾** اسمها. **﴿يأمركم﴾** فعل مضارع والضمير فيه مفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يأمركم في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله يأمركم في محل نصب مقول القول. **﴿أن تذبحوا﴾** فعل مضارع منصوب بأن، وواو الجماعة فاعل. **﴿بقرة﴾** مفعول به، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدر متعلق بيأمركم، والتقدير: إنّ الله يأمركم بذبح بقرة. **﴿قالوا﴾** فعل وفاعل، جملة مستأنفة. **﴿أتتخذنا﴾** الهمزة للاستفهام، تتخذ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على موسى، وضمير المتكلمين مفعول به. **﴿هزؤاً﴾** مفعول ثان لتتخذ وجملة أتتخذنا هزؤاً في محل نصب مقول القول. **﴿قال﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على موسى.

﴿أعوذ﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على موسى. **﴿بالله﴾** متعلق بأعوذ، وجملة أعوذ في محل نصب مقول القول. **﴿أن﴾** حرف مصدر ونصب. **﴿أكون﴾** فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل ضمير المتكلم «أنا»، ويجوز كونه اسم أكون. **﴿من الجاهلين﴾** متعلق بأكون، ويجوز أن يتعلق بمحذوف خبر أكون، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بمن متعلق بأعوذ، والتقدير:

أعوذ بالله من كوني من الجاهلين. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**ادع**﴾ فعل أمر مبني على حذف الواو. ﴿**لنا**﴾ متعلق بادع. ﴿**ربّك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يبيّن**﴾ فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب، والفاعل ضمير يعود على ربّك. ﴿**لنا**﴾ متعلق ببيّن. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**هي**﴾ في محل رفع خبره، وجملة ادع لنا ربّك في محل نصب مقول القول. ﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على موسى. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يقول**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على ربّك، وجملة يقول في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّه يقول في محل نصب مقول القول. ﴿**إنّها بقرة**﴾ إنّ واسمها وخبرها، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**لا فارض ولا بكر**﴾ خبران لمبتدإ محذوف، أي: هي لا فارض ولا بكر، والجملة نعت لبقرة. ﴿**عوان**﴾ خبر لمبتدإ محذوف بيان لبقرة. ﴿**بين**﴾ متعلق بعوان. ﴿**ذلك**﴾ مضاف إلى بين في محل جر. ﴿**فافعلوا**﴾ الفاء للتفريع، افعلوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**تؤمرون**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، وجملة تؤمرون صلة ما.

﴿**قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها**﴾ مثل ما سبق في قوله: ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي؟. ﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة**﴾ إعرابها مثل إعراب قوله: إنّه يقول إنّها بقرة لا فارض. ﴿**صفراء**﴾ نعت لبقرة. ﴿**فاقع**﴾ نعت سببي لبقرة. ﴿**لونها**﴾ فاعل باسم الفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**تسرّ**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على البقرة. ﴿**الناظرين**﴾ مفعول به منصوب بالياء، وجملة تسر الناظرين نعت لبقرة. ﴿**قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي**﴾ سبق إعراب مثلها. ﴿**إنّ البقر**﴾ إنّ واسمها. ﴿**تشابه**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على البقر. ﴿**علينا**﴾ متعلق بتشابه، وجملة تشابه في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ البقر تعليليّة. ﴿**وإنّا**﴾ الواو للعطف، إنّا إنّ واسمها. ﴿**إن شاء الله**﴾ فعل وفاعل فعل شرط إن، والجواب مقدر، والتقدير إن شاء الله هدايتنا هدانا، وهي جملة اعتراضيّة. ﴿**لمهتدون**﴾ اللام مؤكدة للخبر، ومهتدون مرفوع بالواو خبر إنّ.

﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة لا ذلول**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**تثير**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير ﴿**هي**﴾ يعود على البقرة. ﴿**الأرض**﴾ مفعول به، والجملة حال من

ذلول. ﴿**ولا**﴾ معطوف على تثير. ﴿**تسقي**﴾ فعل مضارع منفي بلا مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل. ﴿**الحرث**﴾ مفعول به. ﴿**مسلَّمة**﴾ صفة لبقرة. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس. ﴿**شية**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**فيها**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة لا شية فيها نعت آخر لبقرة. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**الآن**﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة متعلق بجئت. ﴿**جئت**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بجئت، وجملة جئت بالحق في محل نصب مقول القول. ﴿**فذبحوها**﴾ الفاء متفرع عمّا قبله، ذبحوها فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وما**﴾ الواو للحال، وما للنفي. ﴿**كادوا**﴾ كاد واسمها. ﴿**يفعلون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب خبر كاد.

﴿**وإذ**﴾ الواو للعطف، إذ ظرف معمول لفعل مقدر. ﴿**قتلتم**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**نفساً**﴾ مفعول به. ﴿**فادارأتم**﴾ مرتب على قتلتم. ﴿**فيها**﴾ متعلق بادارأتم. ﴿**والله مخرج**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من الضمير المرفوع في ادارأتم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول مفعول باسم الفاعل. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**تكتمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كنتم صلة ما. ﴿**فقلنا**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**اضربوه**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والضمير بعده مفعول به. ﴿**ببعضها**﴾ متعلق باضربوه، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة اضربوه في محل نصب مقول القول. ﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر، وذلك في محل جر بالكاف. ﴿**يحي**﴾ فعل مضارع. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**الموتى**﴾ مفعول به. ﴿**ويريكم**﴾ معطوف على يحي. ﴿**آياته**﴾ مفعول ثان ليُري، والمفعول الأول الضمير المتصل به، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تعقلون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر لعل. ﴿**ثم قست**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**قلوبكم**﴾ فاعل قست، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بقست. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**فهي كالحجارة**﴾ الفاء للتفريع، وهي مبتدأ، وكاف التشبيه بمعنى مثل خبر المبتدإ، والحجارة مجرور بالكاف. ﴿**أو أشد**﴾ معطوف على الخبر. ﴿**قسوة**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**وإنّ**﴾ حرف توكيد ونصب. ﴿**من الحجارة**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم على اسمها. ﴿**لما**﴾ اللام لام التوكيد دخلت على اسم إنّ لتأخره عن الخبر، ما في محل نصب اسم إنّ. ﴿**يتفجر**﴾

فعل مضارع. ﴿**منه**﴾ متعلق به. ﴿**الأنهار**﴾ فاعل يتفجر، والجملة صلة ما، وجملة وإنّ من الحجارة اعتراضية. ﴿**وإنّ منها لما يشقق**﴾ مثل ما قبلها. ﴿**فيخرج**﴾ مرتب على يشقق. ﴿**منه**﴾ متعلق بيخرج. ﴿**الماء**﴾ فاعل يخرج. ﴿**وإنّ منها لما يهبط**﴾ كذلك. ﴿**من خشية الله**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل يهبط، والله مضاف إلى خشية. ﴿**وما الله بغافل**﴾ الجملة من اسم ما وخبرها تذييل. ﴿**عمّا**﴾ متعلق بغافل. ﴿**تعملون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿**أفتطمعون**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام. ﴿**أن يؤمنوا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيؤمنوا، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بفي، والتقدير: أفتطمعون في استجابتهم لكم. وقد الواو للحال، وقد للتحقيق. ﴿**كان فريق**﴾ كان واسمها. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفريق. ﴿**يسمعون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان. ﴿**كلام**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى كلام. ﴿**ثم يحرفونه**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بيحرفون. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**عقلوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة وقد كان في محل نصب حال من الضمير المرفوع في أن يؤمنوا. ﴿**وهم**﴾ الواو للحال، وهم في محل رفع مبتدأ. ﴿**يعلمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، والجملة من المبتدإ والخبر حال من صاحب الحال الأولى.

مبحث الأسلوب البلاغي:

﴿**وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾: ارتباط هذه الآيات بما قبلها من زيادة بيان السمات الرئيسية لطبيعة اليهود التي ذكرت في هذه القصة؛ انقطاع الصلة بين قلوبهم وبين الإيمان بالغيب، وليست لهم ثقة بالله، وليسوا مستعدين لتصديق ما يأتيهم به الرسل من عند الله، وبما ظهر منهم من التلكؤِ في الاستجابة للتكاليف، وتشبثهم بتلمس الحجج والمعاذير، وما ظهر عليهم من السخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان، والتأكيد في قوله: إنّ الله يأمركم حكاية لما عبّر به موسى من الاهتمام بهذا الخبر الذي لو وقع في العربية لوقع مؤكداً بإنّ. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للطاعة والتنفيذ؛ فنبيئهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين برحمة من الله ورعاية وتعليم، وهو ينبئهم أنّ هذا ليس أمرَه وليس دأبه، إنّما هو أمر الله الذي يسير بهم على هداه،

فماذا كان الجواب؟. لقد كان جوابُهم سفاهةً وسوءَ أدب، واتهاماً لنبيئهم بأنّه يهزأُ بهم ويسخرُ، كأنّما يجوز لإنسان يعرف الله - فضلاً على أن يكون رسول الله - أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وفكاهة بين الناس...

﴿**قالوا أتتخذنا هزؤاً**﴾؟!: وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق عن طريق التعريض والتلميح إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جل جلاله، وأن يبيّن لهم أنّ ما ظنوه به لا يليق إلاّ بجاهل بقدر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه... ﴿**قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾: وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، وليرجعوا إلى ربهم وينفذوا أمر نبيئهم، ولكنّهم من اليهود، واليهود تلك سماتها فيما تقدم من السياق. نعم! لقد كان في وسعهم - وهم في سعة من الأمر- أن يمدوا أيديهم إلى أي بقرة فيذبحوها؛ فإذا هم مطيعون لأمر الله منفذون لإشارة رسوله، ولكن طبيعة اليهود المتلكئة الملتوية تدركهم، فإذا هم يسألون...

﴿**قالوا: ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي**﴾؟. والسؤال بهذه الصيغة يلوّح بشيء، بأنّهم لايزالون في شكهم أن يكون موسى جاداً فيما أَنْهى إليهم!. فهم أولاً: يقولون ادع لنا ربّك، فكأنّما هو رب موسى وحده لا ربّهم كذلك!، وكأن المسألة لا تعنيهم هم، إنّما تعني موسى وربّه!. وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم ما هي؟. والسؤال عن الماهية في هذا المقام إنكار واستهزاء، ما هي؟. إنّها بقرة، وقد قال لهم هذا من أوّل الأمر؛ بقرة ما، لا صفة لها ولا سمة، وليتهم سألوا عن الصفة والسمة؛ ولكنهم سألوا عن الحقيقة والماهية هنا. كذلك أراد موسى أن يردهم إلى الجادة، بأن يسلك في الإجابة طريقاً غير طريق السؤال. إنّه لا يجيبهم عن الماهية، وإلاّ كان ساخراً من نفسه وربّه، متابعاً لهم في هذا الطريق المرذول. وهو كذلك لا يجيبهم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جدل شكلي خارج عن الموضوع، إنّه يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المهذب المربي، من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين الزائغين؛ يجيبهم عن صفة هذه البقرة التي كان يجب أن يسألوا عنها، إذا كانوا لابد سائلين... ﴿**قال: إنّه يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك**﴾: إنّها بقرة لا كبيرة هرمة ولا شابة فتية، وإنّما هي وسط بين هذا وذاك. ثم يعقب على هذا البيان المجمل

بصيغة آمرة حازمة. . . ﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾: ولقد كان في هذا كفاية كذلك لمن يريد الكفاية، وكان حسْبُهم وقد ردهم نبيُّهم إلى الجادّة مرتين، ولمّح لهم بالأدب الواجب في السؤال والتلقي أن يعمدوا إلى أيّة بقرة من أبقارهم، لا كبيرة ولا صغيرة متوسطة السن بين هذا وذاك، فيُخلّصوا بها ذمّتَهم وينفذوا بذبحها أمرَ ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق، ولكن اليهود هي اليهود!. لقد راحوا يسألون. . .

﴿**قالوا: ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها**﴾؟: هكذا مرة أخرى؛ ادع لنا ربّك!. ولم يكن بد - وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل - أن يأتيهم الجواب بالتفصيل. . . ﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين**﴾: وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار - وكانوا من الأمر في سعة - فأصبحوا مكلّفين أن يبحثوا لا عن بقرة - مجرد بقرة - بل عن بقرة متوسطة السن، وهي بعد هذا صفراءُ لونها فاقع، وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء؛ بل تسر الناظرين، وسرور الناظرين لا يتم إلاّ أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع وامتلاء في تلك البقرة المطلوبة، فهذا هو الشائع في طباع الناس؛ أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسرّوا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا. ولقد كان فيما تلكأوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يُعقّدون الأمور ويُشدّدون على أنفسهم، فيُشدّد اللهُ عليهم، لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية. . . ﴿**قالوا: ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي**﴾؟!: ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ، بأنّ الأمر مشكل. . . ﴿**إنّ البقر تشابه علينا**﴾: وكأنّما استشعروا لجاجتهم هذه المرة، فهم يقولون. . . ﴿**وإنّا إن شاء الله لمهتدون**﴾: ولم يكن بدّ كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيداً، وأن تزيد دائرةُ الاختيار المتاحةُ لهم حصْراً وضيقاً، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في سعة منها وفي غنى عنها. . .

﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمة لا شية فيها**﴾: وهكذا لم تكن بقرة متوسطة العمر صفراء فاقع لونها فحسب، بل لم يعد بد أن تكون كذلك بقرة غير مذللة، ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامةٌ. هنا فقط، وبعد أن تعقد الأمرُ،

وتضاعفت الشروطُ وضاق مجالُ الاختيار. . . ﴿**قالوا الآن جئت بالحق**﴾! : الآن! . كأنّما كل ما مضى ليس حقاً، أو كأنّهم لم يستيقنوا أنّ ما جاءهم به هو الحق إلاّ اللحظة. . . ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون!. وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون**﴾: تصدير الكلام بإذ على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والإلطاف، ومقابلتهم إيّاها بالكفران والاستخفاف، يومئ إلى أنّ هذه قصة غير قصة الذبح، وأشار قوله قتلتم إلى وقوع قتل فيهم، وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع، جرياً على طريقة العرب في قولهم: قتلت بنو فلان فلانا. والخطاب هنا على نحو الخطاب في الآيات السابقة المنبي على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم، لحمل تبعتهم عليهم بناء على ما تقرر من أن خُلُقَ السلف يسري إلى الخلف، خصوصا في اليهود!. . .

﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك**﴾: ثم هنا للترتيب الرتبي الذي تتهيأ له ثم إذا عطفت الجمل، والمعنى: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم ولم تنفعكم الآيات، فقست قلوبكم وكان من البعيد قسوتها. وقوله: من بعد ذلك، زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بذلك، ووجه استعمال بعد في هذا المعنى أنّها مجاز في معنى مع؛ لأنّ شأن المسبب أن يتأخر عن السبب، ولما لم يكن المقصد التنبيه على تأخره للعلم بذلك، وأريد التنبيه على أنّه معه إثباتاً أو نفياً عبّر ببعد عن معنى مع!، مع الإشارة إلى التأخر الرتبي. واستعملت القساوة للقلوب مجازاً، وهو هنا مساوٍ للحقيقة. وقوله: ﴿**فهي كالحجارة**﴾ تشبيهٌ فُرّع بالفاء لإرادة ظهور التشبيه، بعد حكاية الحالة المعبّر عنها بقست؛ لأنّ القسوة هي وجه الشبه، ولأنّ أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجرُ، فإذا ذكرت القسوة فقد تهيأ التشبيه بالحجر ولذا عطف بالفاء، وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، لأنّها محسوسة وخصوصاً عند عرب الصحراء، فلذلك شبّه بها. وهذا الأسلوب يسمى تهيئة التشبيه، وهو من محاسنه. وقوله: ﴿**أو أشد قسوة**﴾: هذا المعنى متولد من معنى التخيير الموضوعة له أوْ؛ لأنّ الانتقال ينشأ عن التخيير؛ فإنّ القلوب بعد أن شبهت بالحجارة، وكان الشأن أن يكون المشبه أضعف في الوصف من المشبه به، ينبي على ذلك ابتداء التشبيه بما هو أشهر. ثم عقب التشبيه بالترقي إلى التفضيل في وجه الشبه، فأوْ ليست للتخير. وقوله. . .

﴿**وإنّ من الحجارة لما يتفجر**﴾. . الخ: تعليل لوجه التفضيل، والتوكيد بإنّ للاهتمام بالخبر، ومن بديع التخلص تأخر قوله: ﴿**وإنّ منها لما يهبط من خشية الله**﴾. والتعبير عن التسخر لأمر التكوين بالخشية، ليتم ظهور تفضيل الحجارة على قلوبهم في أحوالها التي نهايتها الامتثال للأمر التكويني مع تعاصي قلوبهم عن الامتثال للأمر التكليفي، والتشبيه بالحجارة تشبيه منتزع من البيئة، ومن جو السياق العام، وكأنّما جاء ليكمل رسم المشهد المصاحب لعرض القصة، وللمشاكلة بين الطبيعة التي يعيشون فيها من الظاهر، والقلوب التي يعيشون بها من الباطن، مع زيادة القسوة التي في القلوب عن القسوة التي في الصخور!، وذلك تحقيقاً لسمة التصوير الفني، والسمة البارزة في التعبير القرآني. وهكذا يلتقي جمال التعبير بجمال التصوير، ويتسقان مع سمو الأهداف في ذلك الجو القرآني العجيب!. وقوله: ﴿**وما الله بغافل عمّا تعملون**﴾، تذييل في محل الحال. . .

﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾: كانت صورة الجفاف والقسوة والغلظة التي صور الله بها قلوب بني إسرائيل، صورة الحجارة الصلدة التي لا تنضّ منها قطرة، ولا يلين لها ممس، ولا تنبض فيها حياة. وقد ختم بها تذكيرهم بأنعمه عليهم، وتسجيله مواقفهم من هذه النعم، وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة القاسية الجامدة الخاوية. وفي ظل هذا التصوير وظل هذا الإيحاء، يلتفت السياق من الماضي إلى الحاضر، يلتفت من الإخبار عن بني إسرائيل، إلى خطاب المؤمنين الذين يطمعون في إيمان بني إسرائيل؛ ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليهم النور، وأن يلينوا من قساوتها وغلظتها؛ يلتفت السياق إلى هؤلاء المؤمنين، وقد عرض عليهم ماضي بني إسرائيل، فعرفوا أيّة طبيعة هي طبيعة هؤلاء القوم، وأيّة قلوب هي قلوب ذلك الجنس؛ يلتفت إليهم بسؤال يوحي باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الرجاء!. ألا إنّه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء، فللإيمان طبيعة أخرى واستعداد آخر، أمّا هؤلاء فلا رجاء فيهم ولا مطمع في إيمانهم!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة**﴾: في

هذا التوجيه تذكير المخاطبين المعاصرين نزول التنزيل من اليهود؛ يوبخهم الله فيه من نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه. وفي هذا بيان لما دار بين موسى عليه السلام وقومه من المحاورة التي بيّنت حقيقة أمرهم، وما هم عليه من قلة التوقير لنبيهم، ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها؛ إمّا للتقصّي من الامتثال والهروب من مسؤولية التكليف، وإمّا لبعد أفهامهم عن مقصد الشارع، وورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه. الأدوار التي دارت فيها المحاورة. الدور الأول: إنّ موسى عليه السلام يقول لقومه: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، وهذا الأمر صادر إليهم من الله، ولم يكن لموسى عليه السلام دور فيه إلاّ دور التبليغ فقط؛ لأنّه رسول من عند الله ثبتت رسالته بالمعجزات المتعددة التي سبق ذكر بعضها، وكان موقفهم من هذا الأمر التردد والتشكيك، وهو موقف سيّء لا يدل على القبول والرضى، حيث ردوا على موسى مستغربين مستنكرين... ﴿**أتتخذنا هزؤاً**﴾؟!. فردّ موسى عليهم مستنكراً معرضاً لهم بالجهل غاضباً ومعنفاً... ﴿**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾. الدور الثاني: يطلبون من موسى أن يدعو لهم ربّه أن يبيّن لهم ما هي؟!...

﴿**قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي**﴾؟. فلم يكفهم ما سمعوا من موسى بأنّه لم يكن من الجاهلين، والأمر الذي أمرهم به إنّما هو صادر من الله تعالى فلا يسع أحدا إلاّ أخذه والعمل على مقتضاه دون توان أو تأجيل، ولكنهم بجهلهم وسوء تصرفهم مع الله ومع رسوله استمروا في المحاورة والنقاش، وقالوا جميعاً على لسان واحد: ادع لنا ربّك الذي عوّدك أن يجيب مطلبك، يبيّن لنا بياناً شافياً ما هي هذه البقرة التي تأمرنا بذبحها؟. والقصد من هذا التشكيك والتلبيس على موسى وزيادة في إحراجه وإيذائه، وهو دليل على تعنتهم وإعراضهم عن أوامر الله تعالى، ومع هذا التعنت وهذا الإحراج المقصود يجيبهم موسى بعد ما طلب من الله البيان... ﴿**قال إنّه يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك**﴾: وحذار من زيادة السؤال فيكفيكم هذا البيان الذي جاءكم في صيغة الأمر... ﴿**فافعلوا ما تؤمرون**﴾: إن كنتم مسترشدين حقاً. ولكن اليهود هم اليهود؛ زيادة في التعنت ورسوخ في العناد والضلال. الدور الثالث: لم يكفهم ما سمعوا من البيان بل أخذوا يبحثون عن مطلب آخر، وقد رأوا تعدد الألوان في البقر فاحتاروا...

﴿قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها﴾؟: ويجيب موسى ذو العزم الصبور الحنون!.. **﴿قال إنّه يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين﴾**: وهل بعد هذا البيان بيان؟. إنّها بقرة شديدة الصفرة، جميلة الطلعة، تسر من رآها لجمالها ونشاطها وحيويتها. الدور الرابع: لم يكفهم هذا البيان، فاستمروا متجاهلين حائرين يسألون سؤالاً مبهماً لم يحددوه... **﴿قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي؟! إنّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون﴾**: إنّ هذا السؤال قالوه سابقاً، ولكنهم لا يريدون الجواب السابق، بل يريدون جواباً آخر، فياللحيرة وسوء التفكير!. انطمست بصيرتُهم فلم يدروا كيف يسألون!. ولكنهم اعتذروا فقالوا: إنّ البقر تشابه علينا، وإنّا إن شاء الله لمهتدون. وما وجه هذا التشابه؟. هل في اللون، أو في الحجم، أو الوصف، أو السن؟. أو هل في شيء آخر في نفوسهم؟. لعلّه العجل المعبود، ولد البقر المصنوع من الذهب الأصفر الفاقع الرنان العزيز الغالي عند اليهود؟!. والمراد بذلك قتله في نفوسهم، وإخراج حبه من قلوبهم، حتى يتعودوا الكرم وسماحة النفس، ويزيلوا الطمع والشح من نفوسهم. ويأتيهم الجواب الواضح المفصل مع ما سبقه من الأوصاف...

﴿قال إنّه يقول إنّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شية فيها﴾: إنّها بقرة لم يسبق لها عمل من حرث وسقي، سالمة من العيوب، خالصة من كل شائبة من الألوان المختلفة. الآن استسلموا لهذا الجواب ولم يجدوا مجالاً لإلقاء التشكيك والتزييف، وسلّموا بالأمر الواقع... **﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾**!. عجيب هذا الكلام ألآن فقط! يجيئهم موسى بالحق؟. وهل قبل هذا لم يأتهم بالحق؟!. كلام محيّر ورد من معتوه لا يدري ما يقول!. والآن سنفعل ما تأمرنا به... **﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾**: ذبحوها بعد جهد مرير، وبعد أخذ وردّ وإقدام وإحجام كبير، ولا زال في نفوسهم منه شيء كثير. إنّهم لم يذبحوها خالصة لله، وإنّما فعلوا ذلك مكرهين مضطرين خوفاً من أن ينزل بهم غضب الله، إنّهم لم يكادوا يفعلون بإخلاص وحسن طويّة، وهذا دليل على سوء النية، وعدم الاكتراث بالأوامر الإلهية. هذه قصة البقرة التي سميت السورة باسمها لتكون عنواناً واضحاً عليها، ولم تذكر هذه القصة في مكان آخر من القرآن لغرابتها وأهميتها هنا!.

التوجيه الثاني: **﴿وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾**:

في هذا التوجيه يبيّن الله موقفاً آخر من مواقف اليهود المخزية، حيث خالفوا أوامر الله التي جاءتهم في شريعة موسى عليه السلام، وفعلوا ما نهت عنه من قتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق؛ فارتكبوا الفعل المحظور، وقتلوا النفس ظلماً وعدواناً. و الخطاب موجه لبني إسرائيل الحاضرين زمن نزول القرآن، والمراد منه أسلافهم السابقون. ولما كانوا مخالفين لما أنزله الله من الشرائع السابقة واللاحقة مثلهم، دخلوا في هذا التعنيف والتقريع. وعندما يثبت القتل على القاتل بعد إظهار التهمة على حقيقتها نتيجة للبحث والتنقيب عن صاحب الجريمة، ويدان أمام الأشهاد - يضرب ببعض حق النفس - وهو القصاص إن كان القتل عمداً، أو الدية إن كان خطأً، وبهذا تحيا الأمة التي يعمل فيها بإقامة حدود الله. وهذا التشريع جاء به القرآن واضحاً؛ لأنّه لم يغير ولم يبدل، أمّا شريعة موسى فقد دخلها التبديل والتزييف والتغيير والتحريف، كما وضح ذلك القرآن بالنسبة لليهود حيث قال: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إنّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾. وقال ﴿**وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس...**﴾ الخ، ووضح القرآن للمسلمين حيث قال: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾. وقال: ﴿**ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنّه كان منصورا**﴾.

وشرائع الله كلُها فيها الحياة والأمن والاستقرار والطمأنينة، لما فيها من النور والهدى والعدل والنظام، وشريعة موسى عليه السلام إحدى شرائع الله التي أنزلها الله على رسله ليبينوها للناس، وليهتدوا بها إلى الصراط المستقيم: ﴿**صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾. وهذا هو سياق الآية، وهذا ما يظهر من توجيهات القرآن بصرف النظر عمّا يذكر المفسرون مما يرويه بعضهم عن ابن عباس وغيره من قصة البقرة المنقولة عن الروايات الإسرائيلية التي لا يطمئن إليها الباحث المنصف، خصوصاً والرواية عن ابن عباس رواية آحاد لا تفيد اليقين، مع ما قال كثير من العلماء: إنّ أكثر روايات التفسير عن ابن عباس مكذوبة عنه، ولقد قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: إنّ أكثر التفسير المنقول لا يصح!. ويقصد بذلك المنقول عن الضعفاء أو المجهولين، والمنقول عن اليهود من القصص الشعبية والخيالات الخرافية التي خلط بها التفسير

وأخذ بها بعض المفسرين بحسن نية، ورووها منقولة دون تمحيص وبحث في صحتها وعدم صحتها. غير أنّ العلماء المخلصين المجدين الذين هالتهم هذه الروايات وغرابتها وكثرتها، وفي مقدمتهم الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهم من السلف الصالحين، وكذلك من سار على نهجهم مثل الإمام ابن العربي والشاطبي وابن كثير وابن خلدون، وغيرهم من بقية العلماء الراشدين المهديين استبعدوها لضعفها.

خلاصة ما تقدم من جرائم اليهود بمخالفتهم شريعة الله: أولا: أمرهم الله بالتوحيد وإخلاص العبادة لله فخالفوه وعبدوا العجل جهلاً وشركاً وكفراً. ثانيا: أمرهم بالإيمان بالله فقالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾. ثالثا: أمرهم بحفظ الشريعة والدفاع عنها بالجهاد فخالفوه وقالوا: ﴿**لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون**﴾. رابعا: أمرهم الله بتعظيمه وعبادته يوم السبت وترك العمل فيه فخالفوه واعتدوا فيه. خامسا: أمرهم الله بذبح بقرة تقرباً إلى الله وامتثالاً لأمره على لسان رسوله موسى فخالفوه وشددوا معه في السؤال حتى خافوا على أنفسهم الهلاك، فخضعوا خائفين لا طائعين. سادسا: نهاهم الله في التوراة عن قتل النفس، وأمرهم بإقامة الحدود فخالفوه وقتلوا النفس، وتهربوا من إقامة الحدود بكل ما استطاعوا من حيل وتمويه. هذه هي بعض جرائمهم التي ذكرت هنا باختصار، وسيأتي مزيد من جرائمهم، ولهذا جاء التعقيب عليها فقال. . .

﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإنّ منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون**﴾: هذا ما أخبر به القرآن وقد ظهر صدقه على مدى الأزمان، ونحن نعلم ما عليه اليهود الآن بعد ألف وأربعمائة سنة من نزول القرآن. واليهود هم اليهود كفرا وإلحادا، وضلالا وفسادا وإفسادا!. فقد ظهروا على مسرح التاريخ من جديد، يعبثون في الأرض رافعين رايات التخويف والتهديد، ناشرين الذعر في قلوب الآمنين، من شن الحروب، وزرع العيوب، وإفساد القلوب، وإضلال الشعوب بجميع ما لديهم من وسائل التدمير والتخريب، فهم في هذا الزمان عنصر الفساد، ومصيبة العباد، وتحطيم البلاد دون رادع

يردعهم، أو قوة تقف في وجوههم، بل سيّروا جميع الدول في ركابهم، وسخّروا جميع الشعوب في طلابهم، وهم السادة المطاعون والقادة المسخِّرون، إذا قالوا قولاً لبّوا منصتين، وإذا أمروا بشيء استجابوا لهم طائعين، فوسائل الإعلام تحت أيديهم، ورءوس الأموال في مصارفهم. هذا ما سجله في سجله الخالد القرآن، وعلم منه ما عليه هؤلاء اليهود فتنة الأرض وورثة الشيطان.

التوجيه الثالث: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾: في هذا التوجيه يخاطب المؤمنين الذين يطمعون في إيمان اليهود، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور، وأن يلينوا من قساوتها وغلظتها. ويلتفت السياق إلى هؤلاء المؤمنين، وقد عرض عليهم ماضي اليهود فعرفوا أيّة طبيعة هي طبيعة هؤلاء القوم، وأيّة قلوب هي قلوب ذلك الجنس؛ يلتفت إليهم بسؤال يوحي باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الرجاء، وأنّ قوماً توارثوا هذه الصفات لا يُطمع في إيمانهم؛ لأنّ الذين فعلوا هذا إمّا أن يكونوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو بني عمهم، فالغالب أن يكون خلقهم واحداً وطباعهم متقاربة، كما قال نوح عليه السلام: **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً﴾**. وللعرب والحكماء والمربين في هذا المعنى أقوال كثيرة مرجعها إلى أنّ الطباع تورث، ولذلك كانوا يصفون القبيلة بصفات جمهورها. واليوم نقرأ هذه الآية وكأنّها نزلت هذه الساعة وهي تخاطبنا أبناء الجيل الحاضر، وتقول لنا: أفتطمعون أن يخضعوا لطلبكم وما تدعون إليه من نشر الأمن والسلام والطمأنينة التي تشمل جميع الأنام؟!. وهم يعلمون ذلك علم اليقين بأنّ هذا هو المطلوب لبث الوفاق والوئام، ولكن هذا لا يخدم مصالحهم الشخصية، وشهوتهم البهيمية، ونزواتهم الشيطانية. وحديث القرآن عن اليهود هنا صادق يؤيده الواقع، يظهر لكل من نظر في آيات القرآن نظر الباحث الحرّ المدافع.

7 ـ تفنّن اليهود
في أنواع الكفر والجحود

النص

* وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (75)
أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76) وَمِنْهُمْ
أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (77)
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم
مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (78)
وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥ
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (79) بَلَىٰ مَن كَسَبَ
سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (80) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ
أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (81) وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ

إِحْسَٰناً وَذِے الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ
وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ
ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُۥٓ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (82)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (83)
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ
فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَّٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَٰنِ * وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهْوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمُۥٓ إِخْرَاجُهُمُۥٓ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمُۥٓ
إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ
الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (84) أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوُاْ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (85)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا**﴾: اللقاء: الاجتماع في المكان، ويطلق على استقبال الشيء بشيء آخر، ولقيه صادفه في مكان ما، ولقيه وجده وأدركه. الذين آمنوا: المسلمون. قالوا: بألسنتهم فقط. آمنا: مثل إيمانكم. . . ﴿**وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون**﴾: خلا: وقع في موضع خال لا يزاحم فيه، وخلا بعضهم إلى بعض: اجتمعوا في مكان خاص بهم لا يزاحمهم فيه غيرهم. وبعض: كل شيء طائفة منه، وبعضهم إلى بعض: انضمام طائفة من اليهود المنافقين إلى اليهود الباقين على كفرهم. أتحدثونهم: التحديث إخبار الغير بالقول المغلوط. بما فتح الله عليكم: الفتح ضد الغلق، والمراد به هنا الإعلام بما كان مجهولاً عن غير اليهود، ويطلق الفتح على القضاء وعلى البيان والتعليم، وهي أشياء يعتقد اليهود أنّها خاصة بهم. ليحاجوكم به عند ربّكم: المحاجّة المخاصمة والغلبة فيها، والمعنى هنا: يجعلون ذلك حجة عليكم أمام الله على صدق رسولهم. . .

﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني**﴾: الأمّي: من لا يعرف القراءة والكتابة، ونسبته إلى الأمّة، بمعنى عامة الناس، فهو يرادف العامي، ونسبته إلى الأم، وهي الوالدة؛ لأنّه باق على الحالة التي كان عليها مدة حضانة أمه إيّاه، فلم يكتسب علماً جديدا. ومعناه هنا ومنهم أميون لا يعلمون التوراة إلاّ علماً مختلطاً حاصلاً مما يسمعونه ولا يتقنونه؛ فالأماني هنا الأعاجيب والأضاحيك والأكاذيب والأغاليط التي يسمعونها من رجال الدين، وهي مشتقة من منى كرمى بمعنى قدر الأمر، ولذلك قيل: تمنّى، بمعنى تكلف تقدير حصول شيء متعذر أو متعسر، فالأماني هي التقادير النفسية التي يحسبها صاحبها حقاً وليست بحق، والفعال التي يحسبها العامة من الدين وليست منه، بل ينسون الدين ويحفظونها. . . ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾: الويل: لفظ دال على الشر، ويطلق على الهلاك، ويطلق على الفضيحة فيقال: ويلة، ويطلق على العذاب، وأصله صوت المعذّب وَيْ!. ومعنى يكتبون الكتاب بأيديهم: أنّهم

يكتبون شيئا لم يأتهم من رسلهم بل يضعونه ويبتكرونه. والثمن المقصود هنا: هو إرضاء العامة بأن غيروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم، وفيه فضيحتان: التزوير وكسب الحرام...

﴿**وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة**﴾: حقيقة المس: اتصال اليد بجسم من الأجسام، ويطلق على ملاقاة شيء بشيء، وعلى التقارب الممازج. والأيام المعدودة: المحدودة بالزمن المعدود... ﴿**قل أتخذتم عند الله عهداً**﴾: العهد هنا: الوعد الموثق بالأيْمَان، وإخلاف العهد نقضه. بلى: حرف إيجاب مختص بجواب النفي خبراً واستفهاماً توجب ما يقال جواباً أو خبراً... ﴿**من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته**﴾: الكسب: استجلاب النفع. والسيئة: الذنب والإثم والفاحشة والخطيئة. والإحاطة بالشيء: الاستيلاء عليه من جميع جوانبه. والخطيئة: اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم... ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل**﴾: الأخذ: التناول. وميثاق بني إسرائيل: ما أعطوه من الوعد بالإيمان بالرسل والكتب التي فيها تفاصيل الشريعة؛ من التوحيد والإحسان بالوالدين والقول للناس بالحسنى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة... ﴿**ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون**﴾: التولي: الإعراض وإبطال ما التزموه...

﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون**﴾: سفك الدم: إهراقه وصبه على الأرض، والمراد به القتل الحرام... ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان**﴾: التظاهر: التعاون، فهو تفاعل من الظهر لتقوية بعضهم ظهر بعض. والإثم: الفعل الذي يستحق فاعله الذم واللوم، وما تنفر عنه النفس ولا يطمئن إليه القلب. والعدوان: مأخوذ من التعدي، يقال: عدا فلان في كذا عدوا وعدوانا، واعتدى يعتدي اعتداء، وهو تجاوز الحد في الظلم والبغي...

﴿**وإن يأتوكم أسارى تفادوهم**﴾: الأسارى: جمع أسرى، والأسرى جمع أسير، والأسير فعيل بمعنى مفعول، من أسره إذا أوثقه، وهو فعل مشتق من الاسم الجامد؛ فإن الإسار هو السير من الجلد الذي يوثق به المجنون والمسجون والموثوق. والمفادة والفدية: ما يعطى من المال مقابل تخليص الأسير. والمحرم:

الممنوع، ومادة حرم في كلام العرب للمنع، واستعمله الإسلام للممنوع منعاً قاطعاً، وهو معنى قوله: ﴿**وهو محرم عليكم إخراجهم... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا**﴾: الخِزْيُ: ذلٌّ في النفس طارئ عليها فجأة لإهانة لَحِقَتْها أو معرّة صدرت منها أو حيلة أو غلبة تمشت عليها، وهو اسم مما يحصل من ذلك ومصدره الخَزْيُ.

مبحث الإعراب

﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، إذا ظرف للزمان المستقبل متضمن معنى الشرط. ﴿**لقوا**﴾ فعل الشرط، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آمنوا**﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الموصول. ﴿**قالوا**﴾ جواب الشرط، وهو عامل في الظرف النصب. ﴿**آمنا**﴾ فعل وفاعل والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وإذا**﴾ معطوف على إذا التي قبلها. ﴿**خلا**﴾ فعل ماض. ﴿**بعضهم**﴾ فاعل والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إلى بعض**﴾ متعلق بخلا. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أتحدثونهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه همزة الاستفهام، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**بما**﴾ متعلق بتحدثونهم. ﴿**فتح الله**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بفتح، والكلام على إذا وفعل الشرط وجوابه كما تقدم في سابقه. ﴿**ليحاجوكم**﴾ اللام للتعليل، ويحاجوكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل، وضمير المخاطبين في محل نصب مفعول به. ﴿**به**﴾ متعلق بيحاجوكم. ﴿**عند**﴾ كذلك. ﴿**ربّكم**﴾ مضاف إلى عند، والضمير فيه مضاف إليه، وأن المضمرة وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل. ﴿**أفلا**﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للعطف المرتب على مقدر، ولا للنفي. ﴿**تعقلون**﴾ فعل وفاعل.

﴿**أولا**﴾ مثل أفلا. ﴿**يعلمون**﴾ مثل تعقلون. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**يعلم**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر أنّ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يسرّون**﴾ جملة من الفعل والفاعل مصدر مؤول مع ما. ﴿**وما يعلنون**﴾ معطوف على ما يسرون وهو مثلها في الإعراب،

وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة، والتقدير: أولا يعلمون بعِلْمِ الله سرّهم وعلانيتَهم. ﴿ومنهم﴾ الواو للعطف، منهم متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿أميّون﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بالواو. ﴿لا يعلمون﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل. ﴿الكتاب﴾ مفعول به، وجملة لا يعلمون الكتاب في محل رفع نعت لأميّون. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء منقطع. ﴿أمانيَّ﴾ مستثنى بإلاّ. ﴿وإن﴾ الواو للعطف، إن للنفي. ﴿هم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿يظنون﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ. ﴿فويل﴾ الفاء للترتيب والتسبب، ويل مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿للذين﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿يكتبون﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الموصول. ﴿الكتاب﴾ مفعول به. ﴿بأيديهم﴾ متعلق بيكتبون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ثم﴾ حرف عطف. ﴿يقولون﴾ معطوف على يكتبون.

﴿هذا﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿من عند﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿الله﴾ مضاف إلى عند، وجملة هذا من عند الله في محل نصب مقول القول. ﴿ليشتروا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة فاعل، وهو مؤول بمصدر مجرور بلام التعليل متعلق بمضمون الكتابة والقول: يعملون هذا العمل لاشترائهم الدنيا. ﴿به﴾ متعلق بيشتروا. ﴿ثمناً﴾ مفعول به. ﴿قليلاً﴾ نعت لثمن. ﴿فويل لهم﴾ مرتب على ما قبله وهو مبتدأ، وخبره متعلق بالجار والمجرور. ﴿مما﴾ متعلق بالخبر. ﴿كتبت أيديهم﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ معطوف على قوله: فويل، وهي مثلها في الإعراب. ﴿وقالوا﴾ معطوف على قوله: يكتبون. ﴿لن تمسنا﴾ فعل مضارع منصوب بلن النافية، والضمير فيه مفعول به. ﴿النار﴾ فاعل تمس. ﴿إلاّ أياما﴾ منصوب على الظرفية، وأداة الاستثناء مفرغة لا عمل لها. ﴿معدودة﴾ نعت للظرف.

﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿أتخذتم﴾ الهمزة للاستفهام، اتخذتم فعل وفاعل. ﴿عند﴾ متعلق باتخذتم. ﴿الله﴾ مضاف إلى عند. ﴿عهداً﴾ مفعول به، وجملة اتخذتم في محل نصب مقول القول. ﴿فلن﴾ الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه، لن حرف نفي ونصب. ﴿يخلف الله﴾ فعل وفاعل. ﴿عهده﴾ مفعول به، والضمير فيه

مضاف إليه. ﴿أم﴾ حرف اتصال، وهي من حروف العطف. ﴿تقولون﴾ فعل وفاعل. ﴿على الله﴾ متعلق بتقولون. ﴿ما﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿لا تعلمون﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل، والجملة صلة ما. ﴿بلى﴾ حرف جواب يبطل قولهم لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة. ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم. ﴿كسب﴾ فعل الشرط، وهو في محل جزم، وفاعله ضمير يعود على مَن. ﴿سيئة﴾ مفعول به. ﴿وأحاطت﴾ معطوف على كسب. ﴿به﴾ متعلق بأحاطت. ﴿خطيئاته﴾ فاعل أحاطت، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿فأولئك﴾ الفاء رابطة للجواب، أولئك في محل رفع مبتدأ. ﴿أصحاب﴾ خبره. ﴿النار﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿هم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿فيها خالدون﴾ خالدون خبر، وفيها متعلق بالخبر.

﴿والذين﴾ مبتدأ، والواو للعطف. ﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿وعملوا﴾ معطوف على آمنوا. ﴿الصالحات﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿أولئك﴾ مبتدأ ثان. ﴿أصحاب﴾ خبره. ﴿الجنة﴾ مضاف إلى أصحاب، والمبتدأ الثاني وخبره خبر الذين. ﴿هم فيها خالدون﴾ مثل ما سبقها في الإعراب. ﴿وإذ أخذنا﴾ فعل وفاعل مضاف إلى الظرف، والظرف معمول لفعل مقدر، والجملة معطوفة على ما قبلها مما يتعلق ببني إسرائيل. ﴿ميثاق﴾ مفعول به. ﴿بني﴾ مضاف إلى ميثاق منصوب بالياء. ﴿إسرائيل﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿لا تعبدون﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل. ﴿إلاّ﴾ أداة إستثناء. ﴿الله﴾ بدل من المفعول المقدر. ﴿وبالوالدين﴾ متعلق بفعل مقدر يدل عليه مصدره إحساناً. ﴿إحساناً﴾ مفعول مطلق. ﴿وذي﴾ معطوف على الوالدين. ﴿القربى﴾ مضاف إلى ذي. ﴿واليتامى﴾ معطوف عليه أيضاً. ﴿والمساكين﴾ كذلك. ﴿وقولوا﴾ معطوف على أحسنوا المقدر. ﴿للناس﴾ متعلق بقولوا. ﴿حسناً﴾ مفعول به.

﴿وأقيموا﴾ معطوف كذلك. ﴿الصلاة﴾ مفعول به. ﴿وآتوا الزكاة﴾ مثلها. ﴿ثم﴾ حرف عطف للترتيب والتراخي. ﴿توليتم﴾ فعل وفاعل. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء. ﴿قليلاً﴾ مستثنى منصوب بالفتحة. ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف نعت لقليلاً. ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة من المبتدإ والخبر حالية من فاعل توليتم. ﴿وإذ

أخذنا ميثاقكم﴾ مثل وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل. **﴿لا تسفكون﴾** فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل. **﴿دماءكم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ولا تخرجون أنفسكم﴾** معطوف على قوله لا تسفكون وهو مثله في الإعراب. **﴿من دياركم﴾** متعلق بتخرجون، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ثم أقررتم﴾** معطوف على قوله: أخذنا ميثاقكم. **﴿وأنتم تشهدون﴾** الجملة حالية من فاعل أقررتم. **﴿ثم أنتم هؤلاء﴾** جملة من مبتدإ وخبر معطوفة بثم مرتبة على ما قبلها. **﴿تقتلون﴾** فعل وفاعل بيان للجملة قبلها. **﴿أنفسكم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وتخرجون﴾** معطوف على تقتلون. **﴿فريقاً﴾** مفعول به. **﴿منكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لفريقاً. **﴿من ديارهم﴾** متعلق بتخرجون. **﴿تظاهرون﴾** فعل وفاعل. **﴿عليهم﴾** متعلق بتظاهرون. **﴿بالإثم﴾** متعلق بتظاهرون. **﴿والعدوان﴾** معطوف على الإثم.

﴿وإن يأتوكم﴾ فعل الشرط معطوف على قوله: تقتلون أنفسكم. **﴿أسارى﴾** حال من الضمير المرفوع في يأتوكم، منصوب بفتحة مقدرة على الألف للتعذر. **﴿تفادوهم﴾** فعل وفاعل ومفعول جواب الشرط مجزوم بحذف النون. **﴿وهو محرّم﴾** جملة حالية من الفاعل في تخرجون. **﴿عليكم﴾** متعلق بمحرم. **﴿إخراجهم﴾** نائب فاعل لاسم المفعول – محرّم –، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿أفتؤمنون﴾** فعل وفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام، وفاء العطف. **﴿ببعض﴾** متعلق بتؤمنون. **﴿الكتاب﴾** مضاف إلى بعض. **﴿وتكفرون ببعض﴾** معطوف على تؤمنون. **﴿فما﴾** الفاء للتعقيب، وما للنفي. **﴿جزاء﴾** مبتدأ. **﴿مَنْ﴾** اسم موصول في محل جر مضاف إلى جزاء. **﴿يفعل﴾** فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة الموصول. **﴿ذلك﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿منكم﴾** متعلق بمحذوف حال من فاعل يفعل. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء مفرغ. **﴿خزي﴾** بدل من الخبر المقدر. **﴿في الحياة﴾** متعلق بمحذوف نعت لخزي. **﴿الدنيا﴾** نعت للحياة. **﴿ويوم﴾** ظرف متعلق بالفعل بعده. **﴿القيامة﴾** مضاف إلى يوم. **﴿يُردون﴾** فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. **﴿إلى أشد﴾** متعلق بيردون. **﴿العذاب﴾** مضاف إلى أشد. **﴿وما﴾** الواو للعطف، ما بمعنى ليس. **﴿الله﴾** اسمها. **﴿بغافل﴾** خبر ليس دخل عليه حرف الجر الزائد فجر لفظها ومحلها النصب. **﴿عمّا﴾** متعلق بغافل. **﴿يعملون﴾** فعل وفاعل صلة ما.

﴿أولئك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿الذين﴾ في محل رفع خبره. ﴿اشتروا﴾ الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين. ﴿الحياة﴾ مفعول به. ﴿الدنيا﴾ نعت للحياة. ﴿بالآخرة﴾ متعلق باشتروا. ﴿فلا﴾ الفاء للترتيب، ولا للنفي. ﴿يخفف﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿عنهم﴾ متعلق بيخفف. ﴿العذاب﴾ نائب فاعل يخفف. ﴿ولا هم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿ينصرون﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة ولا هم ينصرون معطوفة على قوله: فلا يُخفّف عنهم.

مبحث الأسلوب البلاغي

• **﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾**: هذا الكلام متصل بما قبله بالواو العاطفة، مسوق بعد بيان ما صدر عن أشباههم، لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيّسة عن إيمانهم، من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم، والضمير لليهود. والذين آمنوا: المؤمنون من أصحاب الرسول ﷺ. . . **﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون﴾**: هذا ما كان يجري بينهم من حديث فيما ينزل من القرآن، فاضحاً لأحوال اليهود ومثالبهم مع أنبيائهم وشريعتهم. ظنّوا أنّ ذلك خلص للمؤمنين من بعض الذين أظهروا الإيمان من أتباعهم، وأنّ نفاقهم كان قد بلغ بهم إلى أن أخبروا المسلمين ببعض قصص قومهم ستراً لكفرهم الباطن، فوبخوهم على ذلك توبيخ إنكار، فحكى الله ذلك عنهم حكاية لحيرتهم واضطراب أمرهم. والمراد بما فتح الله عليكم في التوراة من بعث النبي محمد ﷺ. والتعبير عنه بالفتح للإيذان بأنّه سر مكتوم وباب مغلق لا يقف عليه أحد. وقوله: ليحاجوكم به متعلق بالتحديث، والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ. ومعنى عند ربكم في حكمه وكتابه. والاستفهام في قوله: أفلا تعقلون؟ من تمام التوبيخ والعتاب. وقوله. . .

﴿أولا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾: تجهيل لهم. والهمزة للإنكار والتوبيخ. وتقديم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في شمول علمه المحيط بجميع المعلومات. . . **﴿ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون﴾**: الكلام متصل بما قبله بالواو العاطفة، ومنهم خبر مقدم، وتقديمه للتشويق إلى المسند إليه، والجملة

مسوقة لبيان قبائحهم إثر بيان شنائع الطوائف السالفة. ولمّا بيّن حال هؤلاء في تمسكهم بحبال الأماني واتباع الظن، عقب بيان حال الذين أوقعوهم في تلك الورطة، وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع لكل بالآخر، فقيل على وجه الدعاء عليهم. . .

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾: والفاء للترتيب والتسبب الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد، فرتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحال، وثم للترتيب الرتبي، لأنّ هذا القول أدخل في استحقاقهم الويل من كتابة الكتاب بأيديهم إذ هو المقصود، وليس هذا القول متراخياً عن كتابة ما كتبوه في الزمان بل هما متقارنان. والويل يستعمل دعاء وتعجباً وزجراً، والويل هنا دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والزجر، وذكر بأيديهم تأكيد، مثل: نظرته بعيني. ويقولون بأفواههم: القصد منه تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها، وأنّهم في ذلك عامدون قاصدون. والثمن المقصود هنا هو إرضاء العامة، وقوله. . . **﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**: تفصيل لجنس الويل إلى ويلين: ويل لهم ممّا عملوا، وويل لهم ممّا حصلوا عليه منه، وهو العمل الحرام والكسب الحرام، فهو جزاء بالشر على الوسيلة وعلى المقصد. . .

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة﴾: الكلام متصل بما قبله بالواو العاطفة، والمعنى فعلوا ما فعلوا، وقالوا: لن تمسنا النار، ووجه المناسبة أنّ قولهم: لن تمسنا النار دلّ على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بألسنتهم، قد أنبأ بغرور من شأنه أن يقدمهم على تلك الجريمة وغيرها إذ هم قد أمِنوا من المؤاخذة، فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك، فبالعطف على أخبارهم حصلت فائدة الإخبار عن عقيدة من ضلالتهم، ولِوَقْعِ هذا العطف حصلت فائدة الاستئناف البياني، إذ يعجب السامع من جرأتهم على هذا الإجرام. وعبّر عن نفيهم بحرف لن الدال على دوام النفي تأكيداً لانتفاء العذاب عنهم بعد تأكيد. ولدلالة لن على استغراق الأزمان يأتي الاستثناء من عموم الأزمنة بقوله: إلاّ أياماً معدودة. والوصف بمعدودة مؤذن بالقلة. . .

﴿قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا

تعلمون﴾: هذا جواب لكلامهم، ولذلك فصل على طريق المحاورات، والاستفهام تقريري للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين. والمراد بالعهد الوعد المؤكد فهو استعارة، وعبّر باتخذتم لما في الاتخاذ من توكيد العهد، وعند لزيادة التوكيد، وكأنّه يقول لهم علام يعتمدون في هذه الأمنية؟. علام يحددون الوقت كأنّهم مستوثقون بما يقولون؟. وكأنّها معاهدة أو اتفاقية محدودة الأجل معلومة الميقات؛ لا شيء إلاّ أماني الجهلاء وتضليل الأدعياء... **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: هنا يأتي الجواب الحاسم في صورة كلية من كليات الإسلام، وحكم جازم ينبع من صميم فكرته عن الحياة والإنسان؛ إنّه لا جزاء إلاّ على العمل ووفق هذا العمل.

وفي هذا الأسلوب تصوير فني معجز لحالة معنوية خاصة، والتعبير يشير إلى حالة نفسية معروفة: إنّ الذي يجترح الخطيئة إنّما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ويحسبها كسباً له على معنى من المعاني، ولو أنّها كانت كريهة في حسه ما اجترمها، ولو اجترمها مكرهاً أو كارها مَا تركها تَمْلأ عالَمَه وتحيط به، لأنّه خليق في هذه الحالة أن يهرب من ظلها ويستغفر منها ويلوذ إلى كنف غير كنفها، وعندئذ لا تحيط به أبداً، ولا تملأ عليه جوّه، ولا تغلق عليه المنافذ جميعاً. وفي التعبير في قوله: وأحاطت به خطيئاته تجسيم لهذا المعنى، وتلك خاصية من خواص التعبير القرآني وسمة واضحة من سماته، تهيئ له وقعاً في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا صورة، وأي تعبير ذهني عن اللجاج في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس الخطيئة أسيرها؛ يعيش في محيطها ويتنفس في جوها ويَحْيَا معها ولها. عندئذ، عندما تغلق النفس عليها في سجن الخطيئة كل منافذ التوبة، وتحجب عنها كل أشعة الرحمة، عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل...

﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: والقصر المستفاد من التعريف في قوله: **﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** قصر إضافي لقلب اعتقادهم، وقوله... **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾**: تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على عادة القرآن، والمراد بالخلود هنا حقيقته...

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾: هذا شروع في تعداد نوع آخر من قبائح اليهود ممّا ينادي بعدم إيمان أسلافهم وأخلافهم. وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبيء ﷺ والمؤمنون، ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الأمل في إيمانهم، وقوله: لا تعبدون إخبار في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أنّ المنهي حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نُهي عنه، فكأنّه انتهى عنه فيخبر به الناهي. وقوله لا تعبدون إلاّ الله جملة مفصولة عمّا قبلها، لأنّها مبدأ بيان للميثاق، وعطف ما بعدها عليها ليكون مشاركاً لها في معنى البيانية. وقوله: وبالوالدين إحساناً هو مما أخذ عليهم الميثاق به، وهو أمر مؤكّد لما دل عليه تقديم المتعلق على متعلقه، وفي هذه الأوامر إشارة واضحة إلى وحدة الدين الذي أرسل الله به الرسل: وحدته في اتجاهه، ووحدته في الكثير من تكاليفه، وهذا هو المعنى الذي يستهدفه السياق هنا بعد ما سبق من إيماءات له في قول بني إسرائيل بعضهم لبعض...

أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم: هنا تفصيل للميثاق الذي أشير إليه من قبل إشارة مجملة، حيث لم يكن مطلوباً إلاّ تسجيل نقض الميثاق، أمّا هنا فيراد أن يكشف عن تعنت اليهود تجاه دعوة الإسلام، وهو يدعوهم لمثل ما أخذ عليهم من ميثاق. وهنا في ذلك الموقف المخجل يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب، فيوجه القول إلى بني إسرائيل، وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى خطاب المسلمين، ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أنكى وأخزى: ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون. وهكذا تكشف بعض أسرار التفصيل والإجمال، وأسرار الالتفات من صيغة إلى صيغة، في التعبير في سياق القصص وغيره في هذا الكتاب العجيب، وقوله: إلاّ قليلاً منكم: إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم، وإعلان بفضل من حافظ على العهد، وقوله: وأنتم معرضون جملة اسميّة أفادت أنّ الإعراض وصف ثابت لهم، وعادة معروفة منهم...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾: تفنّن الخطاب هنا فجاء على نسق ما قبل الآية السابقة،

إذ عبر هنا عن جميع بني إسرائيل بضمير الخطاب على طريق التغليب، لأنّ المخاطبين حين نزول القرآن هم المقصودون من هذه الموعظة، والقول في لا تسفكون دماءكم، كالقول في لا تعبدون إلاّ الله، والمراد به النهي الشديد عند تعرض بعض بني إسرائيل لبعض بالقتل والإجلاء، والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم وإخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم، لما بينهم من الاتصال القوي نسباً وديناً، للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق، بتصوير المنهي عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة وقوله: ثم أقررتم وأنتم تشهدون: توكيد للإقرار، كما يقال: أقر فلان شاهداً على نفسه، وهو مرتب ترتيباً رُتْبِيّاً. . .

﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان**﴾: الخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن، بقرينة قوله: هؤلاء، وفيه تعجيب وتوبيخ شديدٌ واستبعاد قوي لما ارتكبوه، بعد ما كان من الميثاق والإقرار به والشهادة عليه!. وقوله: تقتلون أنفسكم بيان وتفصيل لأحوالهم المنكرة. وقوله: تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان جملة مبيّنة لكيفية الإخراج. . . ﴿**وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم**﴾: هذه الجملة متصلة بما قبلها بواو العطف، وهو من جملة ما وقع التوبيخ عليه مما نُكث فيه العهد. وقوله: وهو محرم عليكم إخراجهم تشنيع وتبليد لهم إذ توهموا القربة فيما هو من آثار المعصية، وقوله. . . ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾: استفهام إنكاري توبيخي، وسمي الاتباع والإعراض إيماناً وكفراً على طريقة الاستعارة لتشويه المشبه، وللإنذار بأنّ تعمد المخالفة للكتاب قد تقضي بصاحبها إلى الكفر به، وإنّما وقع - تؤمنون - في حيز الإنكار تنبيهاً على أنّ الجمع بين الأمرين عجيب. . .

﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عمّا يعملون**﴾: الفاء فاء الفصيحة عاطفة على فعل مقدر، وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض، ولعلّ بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر، لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار أنّه لا أثر له أصلاً مع الكفر ببعض. وقد دلّت هذه الآية

على أنّ الله يعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة، وقوله. . . **﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾**: تعقيب على ما تقدم بوصف مصور لحقيقة ما يعملون، وحكم يحمل سببه بما سيلاقون. ويا لها من صفقة خاسرة شراء الحياة الدنيا القصيرة الفانية، بالحياة الآخرة الباقية الخالدة!. وموقع الفاء في قوله. . . **﴿فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾**: هو الترتب؛ لأنّ المجرم بمثل هذا الجرم العظيم يناسبه العذاب العظيم ولا يجد نصيراً يدفع عنه أو يخفف!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿وإذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون﴾؟!:
أخبر الله في هذا التوجيه عن منافقي اليهود؛ كانوا إذا لقوا المؤمنين من أصحاب الرسول قالوا آمنا بمحمد وبما صدقتم به وأقررنا بذلك، ونشهد أنّه صادق ونجده بصفته ونعته في كتابنا، وإذا خلا الذين بقوا على يهوديتهم إلى الذين آمنوا منهم نفاقاً وخداعاً، لاَمُوهُمْ على ما قالوا، وعاتبوهم على ما أظهروا. قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم: بما بيّن لكم في التوراة من نعت محمد وصفته. ليحاجوكم به عند ربكم: ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، وبما أخذ عليهم من عهد بأن يؤمنوا به، ويصدقوه فيما جاء به.

وقد كان اليهود يعرفون ذلك من كتابهم ويعرفون وصف محمد كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم تلاعبوا بكتاب الله، وتَفَنّنُوا في الكفر والتمويه إلاّ القليل الذين صدقوا في إيمانهم **﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** والأكثر من اليهود تنوّعوا في الكفر، فبعضهم نافق وبعضهم قال **﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾** والكثرة بقيت على يهوديتها فحصل لهم ما حصل من الإجلاء والقتل والتشريد، حتى دخلوا أخيراً تحت حكم المسلمين واستسلموا للأمر الواقع يتربصون بالمسلمين الدوائر، فلما تهيأت لهم الفرص وسيطروا على العالم بالمال والخداع، أعلنوا عداوتهم للمسلمين ورفعوا شراع العصيان جهاراً، وأصبحوا حرباً على المسلمين في جميع البقاع. . .

﴿**أولا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون**﴾: عندما يعلنون الإيمان للمؤمنين حين لقائهم بهم، ويعلنون الكفر لإخوانهم الكافرين حين يختلي بعضهم إلى بعض ويُبَكِّتُ ويَلُومُ الكفرة منافقيهم؛ وهذا دليل على جهلهم أو على كفرهم وتمردهم على الله!.. ﴿**ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾: في هذين الآيتين يقص الله على المؤمنين من أحوال بني إسرائيل؛ إنّهم فريقان: فريق أُمّيّ جاهل لا يدري شيئا من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلاّ أوهاماً وظنوناً وأماني في النصر والجنة، بأنّهم شعب الله المختار المغفور له المفضل على الناس مهما يقترف من آثام. وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأميّة، فيزوّر على كتاب الله، ويزيد فيه وينقص، ويخرج ما كتبه بيده مُحرّفاً مُزوّرا فيقول: هذا من عند الله، ليكسب ويربح من ورائه شيئاً من عرض الحياة الدنيا، وهذا مرتبط بما قبله وهو تفصيل له، والمعنى: كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم محرفين، وفريق جهلة، وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم والمضلون به تطلُّب الحق المنجي، والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل، فكانوا يحرفون ويكابرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسراره بينهم، فكيف تطمعون أيضا في إيمان الفريق الأميّ الذين هم أبعد عن معرفة الحق، وألهى عن تَطلُّبه، وأضل في التفرقة بين الحق والباطل، وأجدر بالاقتداء بأئمتهم وعلمائهم؟.

والأماني هنا هي التقادير والاعتقادات التي يحسبها صاحبها حقاً وليست بحق، ومنها الفعال التي يحسبها العامة من الدين وليست منه، بل ينسون الدين ويحفظونها، وهذا ظاهر في الأمم الضالة عن شرعها؛ أن تعتقد مالها من العوائد والرسوم والمواسم شرعاً، ومنها التقادير التي يضعها الأحبار ومن يقلدهم من زعماء السوء موضع الوحي الإلهي: إمّا زيادة عليه حتى أنستهم الأصل، وإمّا تضليلاً وتمويهاً وخداعاً للعامة، ومنه الأكاذيب التي يروجها لهم الذين يحرفون الدين، ومنها ما يدعيه الجهلاء من العلم والمعرفة باطلاً، والجاهل يتمنى أن يكون عالماً في قرارة نفسه، ويظهر العلم عندما تُتَاحُ له الفرص. وتأتي نتيجة هذا العمل الشنيع بذلك الويل والعذاب الفظيع: فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون...

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة. قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾: نوع آخر من قبائح أفعال اليهود، وهو جزمهم أنّ الله لا يعذبهم إلاّ أياماً قليلة معدودة، وهذا الجزم مما لا سبيل إليه بالعقل البتّة، ولا دليل عليه من شرع قط. فلا يجزم به عاقل، ولا يقول به مؤمن، لأنّ القول بغير دليل باطل، وأنّ كل ما جاز وجوده عقلاً لم يجُز المصير إليه بالإثبات أو النفي إلاّ بدليل سمعيّ... **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: هذه هي القاعدة التي جاءت بها شريعة الله، ولكن أعداء الله حرفوها وأوّلوها حسب أهوائهم وشهواتهم، وهي أنّ كل من يشتري الحياة الدنيا بالآخرة، فارتكب جرائم الأعمال واسْتَهَان بشرائع الأحكام، فهو في نار جهنم خالداً فيها على الدوام. ولتكُن للمسلمين عبرة بما قصّ الله عليهم في كتابه من تاريخ بني إسرائيل، وأوضح لهم جزاء ما كسبت أيديهم من العذاب المهين والخزي العظيم، فليس ذلك لمجرد التقريع، وإنّما هو للتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه، لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك من المصرع الوخيم. ومن المسلمين اليوم من يتبع سنن اليهود خطوة بخطوة وذراعاً بذراع، ودخلوا في جحور مخيفة كان قد دخلها اليهود من قبلهم في الحديث والقديم، فقد ابتدع بعضهم عبادات ما أنزل الله بها من سلطان، واخترع آخرون شرائع ومعاملات تزلفاً للعامة وإرضاء لطغاة الحكام والأعيان، وسلكوا مسالك أحبار اليهود عندما يدّعون أنّ لهم دالّة على الله، وأنّهم من أوليائه وأقرباء رسوله، فهو لا يعذبهم بما يجترحون من السيآت؛ لأنّهم مغفور لهم بالأصالة، أو مشفوع لهم بما عندهم من الخصوصية والنبالة!، فلم يهتموا بما شرط الله عليهم في القرآن. ولو أنهم درسوا قرآنهم وتعرفوا تاريخ نبيئهم، وتتبعوا سياسته وسياسة الخلفاء الراشدين من بعدُ، لما نكبهم الزمان ولما حلّت بهم هذه المصائب التي تحيط بهم من كل مكان.

التوجيه الثاني: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل!. لا تعبدون إلاّ الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلاّ قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾: في هذا التوجيه لفت النظر إلى موقف اليهود من رفضهم ميثاق الله جملة وتفصيلا، حيث إنّ الله أخذ عليهم الميثاق، وكلفهم بتكاليف كالتي يدعوهم الإسلام إليها؛ كلّفوا عبادة الله وحده،

والإحسان بالوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يحسنوا القول للناس، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وهذه إشارة واضحة إلى وحدة الدين الذي جاء به جميع الأنبياء من رب العالمين...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾: بعدما بيّن إعراض اليهود المعاصرين عن دين الله جملة وتفصيلا، ومن أهمها الوصايا التي تضمنت ذلك الميثاق بيّن لهم ما كتب عليهم فيما يتعلق بنفوسهم من المحافظة عليها وأن لا يعتدي أحد على أحد، لأنّ ذلك مكتوب عليهم في كتابهم مأخوذ منهم في ميثاقهم، وأقروا به وهم يشهدون على ذلك، ومع ذلك فقد نقضوا العهد وغدروا بالميثاق وأنكروا شهادتهم على الإطلاق... **﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾**: قد أشارت هذه الآية إلى ما حدث بين اليهود من التخاذل والتلاعب، وإهمال ما أمرتهم به شريعة موسى ومن بعده من الأنبياء، وقد كان يهود المدينة ومن حولها يتحيز كل فريق إلى حِلْفِه من العرب الساكنين المدينة وما حولها، وعندما يحصل بين العرب حرب يدخل كل فريق من اليهود مع حلفه من العرب، وآخر حرب حصلت بين عرب المدينة حرب يوم بُعاث، التي وقعت بين الأوس والخزرج، وتحالفت قريظة والنضير مع الأوس، وبني قينقاع مع الخزرج، وبذلك نشأ قتال بين فريق اليهود، فكانت اليهود تتقاتل، وتجلي المغلوبين من ديارهم وتأسرهم، وهو ما توضحه الآية الآتية وتحكم فيه الحكم النهائي...

﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عمّا يعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾: قد كان هذا واقعاً يواجههم القرآن به عندما كان اليهود فريقين، والمشركون في المدينة فريقين، وكل فريق من اليهود يحالف فريقاً من المشركين، فإذا وقعت الحرب حارب اليهود في هذا الصف وذاك، وظاهروا المشركين على إيذاء فريق من أنفسهم بالإثم والعدوان، وذلك رغبة في الحصول على بعض مغانم الحرب من

هذا الفريق وذاك، وإمساكاً للعصا من وسطها على طريقة اليهود التقليدية - كما هم اليوم بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي تبعاً لسياستهم الخالدة - حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، فدى اليهود أسراهم من هنا ومن هناك، لأنّ كتابهم يحتم عليهم فداء أسراهم، ولقد كان هذا الكتاب هو الذي يمنعهم أن يقاتل بعضهم بعضاً، أو أن يظاهروا أحداً على قتال فريق منهم وإخراجه من دياره. ولكنه التناقض الدائم الذي تمليه المطامع وتبرره المخاوف، فهم يؤمنون ببعض كتابهم في فداء الأسرى، ويهملون بعضه في تحريم القتال والإخراج من الديار، وهو موقف يسجله الله عليهم هنا في مواجهة المسلمين، ويسجل عليهم ما لحق بهم بعد تلك الحروب من المذلة، بإجلائهم وتشريدهم وقتلهم وسبي نسائهم وفتح حصونهم وقراهم، وما قُدّر لهم من الذل بين الأمم حتى يومنا هذا رغم ما عندهم من أموال، وما لهم من تصرف في الدول والمؤسسات والشركات!. هذا عقاب الدنيا. . . ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون: وسبب هذا كله ما أشارت إليه الآية التالية. . . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

8 ـ زيادة التوضيح والتفصيل فيما حصل للرسل من بني إسرائيل!

النص

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (86) وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (87) وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (88) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (89) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (90) * وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (91)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا
يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (92)
قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْأٓخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةٗ
مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (93)
وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ
بِالظَّٰلِمِينَ (94) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٖ
وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرُۢ
بِمَا يَعْمَلُونَ (95) قُلْ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ
عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدٗى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (96) مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰٓئِلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوّٞ لِّلْكَٰفِرِينَ (97)
وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ
إِلَّا الْفَٰسِقُونَ (98) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنْهُم
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (99) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٞ مِّنْ عِندِ اللَّهِ
مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَٰبَ

كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿100﴾
* وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ
وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ
وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ
مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ
أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿101﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟
لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿102﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا
وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿103﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ
عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿104﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل**﴾: قفّى: مضاعف قفا، تقول قفوت فلانا إذا جئت في أثره، وهو مشتق من القفا؛ فهو مشتق من الجوامد مثل جابهته... ﴿**وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾: البينات: وصف لمحذوف يعلم من المقام، وهي الآيات والمعجزات الواضحات. والتأييد: التقوية والإقدار على العمل النفسي، وهو مشتق من الأيْد وهو القوة، والأيد مشتق من اليد، والمراد هنا قوة معنويّة، وهي قوة الرسالة التي يمنحها الله لمن يصطفيه. والروح: جوهر نوراني لطيف لا يدرك بالحواس، ويطلق الروح على جبريل عليه السلام، ويطلق على ما في الإنسان من القوة التي فيها سرّ الحياة، وكلها من عالم الغيب الذي لا مطمع للإنسان في الإحاطة بكنهها ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا**﴾، وروح القدس هنا روح مضاف إلى النزاهة، وهو جبريل الذي جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، وأيّد عيسى في المهد فتكلم على لسانه، وأيّده بعد ذلك فانتصر على أعدائه...

﴿**أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم**﴾: كلما: ظرف زمان متضمنة معنى الشرط. وتهوى: مضارع هوى إذا أحب، والمراد به ما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعيّة، والانغماس في أنواع اللّذات، والتصميم على العقائد الضالة. والاستكبار: الاتصاف بالكبر، وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل... ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾: القلوب: مستعملة هنا في معنى الأذهان على طريقة كلام العرب في إطلاق القلب على العقل. والغُلْف: جمعُ أغلف، وهو الشديد الغلاف؛ مشتق من غلّفه إذا جعل له غلافاً، وهو الوعاء الحافظ للشيء والساتر له من وصول ما يُكره له... ﴿**ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا**﴾: يستفتحون: يطلبون الفتح على الذين كفروا بسؤال الله أن يبعث إليهم الرسول الموعود به في التوراة، والمراد: كان اليهود يخبرون المشركين بأنّ رسولاً سيبعث، فيَوَدُّ المؤمنين ويعاقبُ المشركين... ﴿**فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾: ما عرفوا: ما كانوا يستفتحون به...

﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾: بئسما: مركب من بئس وما الزائدة، ومعناه بئس الشيء. والاشتراء: الابتياع والتبادل، والمراد هنا باعوا أنفسهم بالكفر بما أنزل الله. **﴿بغياً﴾**: مصدر بغى، والبغي العلوّ والظلم والعدول عن الحق... **﴿فباءوا بغضب على غضب﴾**: رجعوا بغضب عظيم دائم، والمراد به هنا ما يترتب على الغضب الشديد، وهو العذاب العظيم الدائم، وأصل البواء اللزوم، ومعنى باءوا بغضب على غضب التزموه ورجعوا به... **﴿وللكافرين عذاب مهين﴾**: المهين: المُذِلّ، والمعنى في العذاب كيفية احتقارهم... **﴿ويكفرون بما وراءه﴾**: الوراء في الأصل: اسم مكان للجهة التي خلف الشيء، وهو عريق في الظرفيّة، ويطلق على المجاوزة والتباعد، ويستعمل بمعنى الطلب والتعقب، ويطلق على الغير، ومعنى الوراء في أصل اللغة كل ما توارى عنك واستَتَر، والمراد بما وراءه في الآية بما عداه وتجاوزه إلى غيره، والمقصود بهذا الغير هنا خصوص القرآن بقرينة السياق، لتقدم قوله: وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، ولتعقيبه بقوله: **﴿وهو الحق مصدقا...﴾** **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم: الإشراب﴾**: جعل الشيء شارباً، ومنه قولهم: أشرب الثوب الصبغ...

﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾: الوجدان هنا: الوجدان العقلي، وهو جاري مجرى العلم، غير أنّه مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها، وأحرص: أجشع الناس... **﴿يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾**: يودّ: يحبّ. وعمّره: أبقاه فأطال عمره، ومصدر عمّر التعمير، والزحْزحة الإبعاد، وزحزحه باعده... **﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنّه نزّله على قلبك﴾**: العدو: المبغض، وهو مشتق من عدا عليه يعدو بمعنى وثب. وجبريل: اسم للملك المرسل من عند الله بالوحي لرسله، وجبريل بهذه اللفظة لغة أهل الحجاز. والقلب هنا: بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم، والعرب تطلق القلب على هذا الأمر المعنوي **﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾**، كما يطلقونه على العضو المادي الذي يحمل الدم ليوزعه على أنحاء الجسم (كأنّ قلوب الطير رطبا ويابسا)...

﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾: ميكائيل: اسم ملك من الملائكة المذكورين في القرآن، وفيه لغات: إحداها ميكائيل، والثانية ميكائل،

والثالثة ميكال. والمراد بالكافرين في قوله: ﴿**فإنّ الله عدو للكافرين**﴾: جميع الكافرين... ﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون**﴾: الآيات البينات: الواضحات الدلائل على معانيها، وعلى كونها من عند الله تعالى. والفاسقون: المتمردون في الكفر الخارجون عن حدوده، مأخوذ من فسقت النواة إذا خرجت من الرطبة، وقد شاع إطلاقه على الخروج عن طريق الخير، لأنّ ذلك الوصف في الثمرة وصف مذموم، وقد شاع في القرآن وصف اليهود به... ﴿**أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم**﴾: النبذ: إلقاء الشيء من اليد...

﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾: الاتّباع هنا: التوغّل والتمحّص فيه، والتمسك به والإقبال عليه بالكلّيّة. وملك سليمان: عهد حكم سليمان. والشياطين: يطلق على شياطين الجن، ويطلق على شياطين الإنس من المتمردين الذين يأتون بالفظائع الخفية التي لا يستطيعها الناس العاديُون... ﴿**وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر**﴾: السحر: الشعوذة، وهي تمويه الحيل بإخفائها تحت حركات وأحوال يظن الرائي أنّها هي المؤثرة مع أنّ المؤثر خفيّ، ويطلق السحر على الخديعة، ويطلق على ما علم ظاهره وخفي سببه، وهو التمويه والتلبيس وتخييل غير الواقع واقعاً، ويطلق على ترويج المحال. وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأنّ الساحر لمّا أرى الباطل في صورة الحق، وخيّل الشيء على غير حقيقته قد صرف الشيء عن وجهه... ﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾: الملكين: تثنية ملك، ومعناه في اللغة المرسل، مأخوذ من الألوكة والمألكة والمألك. وبابل: موضع بالعراق، إليه ينسب السحر والخمر. وهاروت وماروت: اسمان للملكين...

﴿**إنّما نحن فتنة**﴾: الفتنة: لفظ يجمع معنى مرَج واضطراب أحوال أحد، وتشتت حاله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام، وقد تُخصّص وتُعمّم بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام، يقال: فتنة المال، وفتنة الدين... ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله**﴾: أصل الإذن في اللغة: هو إباحة العمل، واستعمله القرآن مجازاً في معنى التمكين بالمعجزة، أو بالأسباب المودعة في طبائع الأشياء، ومعناه هنا: إلاّ بما أعدّ الله في قابل السحر

من استعداد لأن يضرّه، فإنّ هذا الاستعداد وإمكان التأثر مخلوق في صاحبه فهو بإذن الله ومشيئته... ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾: الاشتراء هو اكتساب شيء ببذل غيره. والخلاق: الحظ من الخير خاصة، وهو النصيب الوافر منه...

﴿**ولو أنّهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون**﴾: المثوبة: اسم مصدر أثاب، إذا أعطى الثواب، فالمثوبة على وزن المفعولة، والمثوبة هنا جزاء العمل الصالح المعترف به شرعاً. راعنا: أمر من راعاه يراعيه، وهو مبالغة في رعاه يرعاه إذا حرسه بنظره من الهلاك والتلف، ثم أطلق على حفظ مصلحة الشخص والرفق به ومراقبة نفعه، ومنه قولهم: رعاك الله. وانظرنا: من النظر وليس من الانتظار... ﴿**ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم**﴾: الودّ: المحبة. والخير: النعمة والفضل، وأراد به هنا النبوءة وما أيّدها من الوحي والقرآن والنصر، وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: ﴿**والله يختص برحمته من يشاء**﴾.

مبحث الإعراب

﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**آتينا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**موسى**﴾ المفعول الأول منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**الكتاب**﴾ المفعول الثاني منصوب بالفتحة. ﴿**وقفّينا**﴾ معطوف على آتينا. ﴿**من بعده**﴾ متعلق بقفينا، والضمير فيه مضاف إليه. بالرسل متعلق بقفينا. ﴿**وآتينا عيسى**﴾ مثل آتينا موسى وهو معطوف عليه. ﴿**ابن**﴾ نعت لعيسى منصوب بالفتحة. ﴿**مريم**﴾ مضاف إلى ابن مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث. ﴿**البيّنات**﴾ المفعول الثاني منصوب بكسرة، لأنّه جمع مؤنث سالم.

﴿**وأيدناه**﴾ معطوف على آتينا عيسى، وهو فعل وفاعل ومفعول. ﴿**بروح**﴾ متعلق بأيدناه. ﴿**القدس**﴾ مضاف إلى روح. ﴿**أفكلما**﴾ الهمزة للاستفهام داخلة على جملة مقدرة، والتقدير: أتكذبونهم فكلما جاءكم رسول، فالفاء هنا للتعقيب، وكلما ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**جاءكم**﴾ فعل الشرط، والضمير فيه مفعول به. ﴿**رسول**﴾ فاعل. ﴿**بما**﴾ متعلق بجاء. ﴿**لا تهوى**﴾ فعل مضارع منفي بلا.

﴿**أنفسكم**﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**استكبرتم**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**ففريقاً**﴾ مفعول مقدم دخلت عليه فاء التفصيل. ﴿**كذبتم**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وفريقاً تقتلون**﴾ معطوف على قوله: فريقاً كذبتم. ﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على كذبتم. ﴿**قلوبنا**﴾ مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**غلف**﴾ خبر. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**لعنهم**﴾ فعل ماض، والضمير فيه مفعول به. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**بكفرهم**﴾ متعلق بلعنهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فقليلاً**﴾ الفاء للتفريع، قليلاً نعت لمصدر مقدر. ﴿**ما**﴾ صلة. ﴿**يؤمنون**﴾ فعل وفاعل.

﴿**ولمّا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط معطوف على قوله: وقالوا قلوبنا غلف. ﴿**جاءهم كتاب**﴾ فعل الشرط، وكتاب فاعل جاء، والضمير في جاءهم مفعول به. ﴿**من عند**﴾ متعلق بجاء. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**مصدق**﴾ نعت لكتاب. ﴿**لما**﴾ متعلق بمصدق. ﴿**معهم**﴾ ظرف متعلق بفعل مقدر صلة ما. ﴿**وكانوا**﴾ الواو للحال، والواو في كانوا اسمها. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بالفعل بعده. ﴿**يستفتحون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان. ﴿**على الذين**﴾ متعلق بيستفتح أيضا. ﴿**كفروا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين، وجملة وكانوا من قبل في محل نصب حال من الضمير في قوله معهم. ﴿**فلمّا جاءهم ما عرفوا**﴾ معطوف بالفاء مرتب ومعقب على ما قبله، فهو فعل الشرط مثله. ﴿**كفروا**﴾ جواب الشرط. ﴿**به**﴾ متعلق بكفروا. ﴿**فلعنة**﴾ الفاء للسببية، لعنة مبتدأ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى لعنة. ﴿**على الكافرين**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ.

﴿**بئسما**﴾ ما فاعل بئس. ﴿**اشتروا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق باشتروا. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أن يكفروا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر هو المقصود بالذم، وهو خبر لمبتدإ محذوف. ﴿**بما**﴾ متعلق بكفروا. ﴿**أنزل الله**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**بغياً**﴾ مفعول لأجله. ﴿**أن ينزّل**﴾ فعل مضارع منصوب بأن. ﴿**الله**﴾ فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور متعلق ببغيا. ﴿**من فضله**﴾ متعلق بينزل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**على من**﴾ كذلك. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة من. ﴿**من عباده**﴾ بيان لمن، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فباءوا**﴾ فعل وفاعل معقب على ما

قبله. ﴿بغضب﴾ متعلق بباءوا. ﴿على غضب﴾ متعلق بمحذوف نعت لغضب. ﴿وللكافرين﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عذاب﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مهين﴾ نعت لعذاب، والجملة معطوفة على باءوا. ﴿وإذا قيل﴾ فعل ماض مبني للمجهول مضاف إلى الظرف، وهو معطوف على قوله: ولما جاءهم. ﴿لهم﴾ متعلق بقيل. ﴿آمنوا﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿بما﴾ متعلق بآمنوا. ﴿أنزل الله﴾ فعل وفاعل صلة ما.

﴿قالوا﴾ فعل وفاعل جواب إذا. ﴿نؤمن﴾ فعل مضارع، والفاعل نحن. ﴿بما﴾ متعلق بنؤمن. ﴿أنزل﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿علينا﴾ متعلق بأنزل، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما، والجملة صلة ما، وجملة نؤمن في محل نصب مقول القول. ﴿ويكفرون﴾ فعل وفاعل في محل نصب حال من ضمير اليهود، فالواو واو الحال. ﴿بما﴾ متعلق بيكفرون. ﴿وراءه﴾ ظرف متعلق بجملة فعليّة صلة ما، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿وهو الحق﴾ جملة حالية من مدلول ما. ﴿مصدقاً﴾ منصوب على الحال من الحق توكيداً له. ﴿لما﴾ متعلق بمصدقا. ﴿معهم﴾ ظرف متعلق بجملة فعلية صلة ما. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿فلم﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، لم حرف جر دخل على ما الاستفهامية، حذفت ألفها تخفيفاً. ﴿تقتلون﴾ فعل وفاعل. ﴿أنبئاء﴾ مفعول به. ﴿الله﴾ مضاف إلى أنبئاء. ﴿من قبل﴾ متعلق بتقتلون، وقبل ظرف مبني على الضم لنية معنى الإضافة، وهو في محل جر بمن. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ جملة من كان واسمها وخبرها، وهي في محل جزم فعل إن الشرطية، وجوابها قوله: فلم تقتلون.

﴿ولقد﴾ مثل ولقد السابقة. ﴿جاءكم﴾ الضمير في جاء مفعول به. ﴿موسى﴾ فاعل مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿بالبينات﴾ متعلق بجاء. ﴿ثم اتخذتم﴾ معطوف على جاءكم. ﴿العجل﴾ مفعول به. ﴿من بعده﴾ متعلق باتخذتم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿وأنتم ظالمون﴾ جملة من مبتدإ وخبر في محل نصب حال من الضمير الفاعل. ﴿وإذ﴾ الواو للعطف، إذ ظرف زمان معمول لعامل مقدر. ﴿أخذنا﴾ فعل وفاعل. ﴿ميثاقكم﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿ورفعنا﴾ معطوف على أخذنا. ﴿فوقكم﴾ ظرف متعلق برفعنا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿الطور﴾ مفعول

به. ﴿**خذوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آتيناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. خذوا الجملة من الفعل والفاعل في محل نصب مقول القول مقدر. ﴿**بقوة**﴾ متعلق بخذوا. ﴿**واسمعوا**﴾ معطوف على خذوا. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل لا محلّ له من الإعراب جواب لسؤال مقدر. ﴿**سمعنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**وعصينا**﴾ معطوف على سمعنا، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**وأشربوا**﴾ الواو للحال، وجملة الفعل ونائب الفاعل في محل نصب حال من الضمير المرفوع العائد على اليهود. ﴿**في قلوبهم**﴾ متعلق بأشربوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**العجل**﴾ المفعول الثاني. ﴿**بكفرهم**﴾ متعلق بأشربوا.

﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**بئسما**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يأمركم**﴾ فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به. ﴿**به**﴾ متعلق بيأمركم. ﴿**إيمانكم**﴾ فاعل يأمر، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يأمركم صلة ما. ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ كان واسمها وخبرها فعل الشرط إن، وجوابها بئسما يأمركم، والجملة كلها مقولة لقل. ﴿**قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ**﴾ الجملة فعل الشرط، ولكم متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**خالصة**﴾ حال من اسم كان. ﴿**من دون**﴾ الناس متعلق بخبر كان، والناس مضاف إلى دون. ﴿**فتمنوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، وهو في محل جزم جواب الشرط لوجود الفاء فيه.

﴿**الموت**﴾ مفعول به. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ مثل إن كنتم مؤمنين في الإعراب. ﴿**ولن يتمنوه**﴾ فعل وفاعل ومفعول، نُصب الفعل بلن، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب. ﴿**أبداً**﴾ ظرف زمان متعلق بلن يتمنوه. ﴿**بما**﴾ كذلك. ﴿**قدمت أيديهم**﴾ فعل وفاعل صلة ما، والضمير في أيديهم مضاف إليه. ﴿**والله عليم**﴾ مبتدأ وخبر، تذييل لا محل لها من الإعراب. ﴿**بالظالمين**﴾ متعلق بعليم. ﴿**ولتجدنهم**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، تجدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل أنت، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**أحرص**﴾ المفعول الثاني. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أحرص. ﴿**على حياة**﴾ متعلق بأحرص. ﴿**ومن الذين**﴾ معطوف على الناس. ﴿**أشركوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**يودّ**﴾ فعل مضارع. ﴿**أحدهم**﴾ فاعل، والضمير المتصل به مضاف إليه،

وجملة يود بيانية لا محل لها من الإعراب. ﴿**لو يعمّر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل هو، ولو حرف مصدر. ﴿**ألف**﴾ منصوب على الظرفية. ﴿**سنة**﴾ مضاف إلى ألف، ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول بيودّ. ﴿**وما**﴾ الواو واو الحال، وما حجازية. ﴿**هو**﴾ اسمها. ﴿**بمزحزحه**﴾ خبرها دخلت عليه الباء الزائدة، فجُرّ لفظاً ونصب محلاً. ﴿**من العذاب**﴾ متعلق بمزحزحه. ﴿**أن يعمر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل باسم الفاعل مزحزحه، وجملة وما هو حال. ﴿**والله بصير بما يعملون**﴾ جملة من مبتدإ وخبر جاءت للتهديد، وبما متعلق ببصير، وجملة يعملون صلة ما.

﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**من**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**كان**﴾ في محل جزم فعل الشرط، واسم كان ضمير يعود على مَن. ﴿**عدواً**﴾ خبر كان. ﴿**لجبريل**﴾ متعلق بعدوا. ﴿**فإنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**نزّله**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل به مفعول به، والفاعل ضمير يعود على جبريل. ﴿**على قلبك**﴾ متعلق بنزل، والضمير المتصل به مضاف إليه، وجملة فإنّه نزله قائمة مقام جواب الشرط. ﴿**بإذن الله**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل نزله، والله مضاف إلى إذن. ﴿**مصدقاً**﴾ حال من الضمير المنصوب في نزله. ﴿**لما**﴾ متعلق بمصدقا. ﴿**بين**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**يديه**﴾ مضاف إلى بين مجرور بالياء، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**وهدى**﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة. ﴿**وبشرى**﴾ معطوف عليه. ﴿**للمؤمنين**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ المبتدإ. ﴿**من كان عدواً لله**﴾ مثل من كان عدواً لجبريل في الإعراب. ﴿**وملائكته**﴾ معطوف على الله. ﴿**ورسلِهِ وجبريل وميكائيل**﴾ كذلك. ﴿**فإنّ الله عدو للكافرين**﴾ جملة من إن واسمها وخبرها مرتبطة بالفاء واقعة موقع جواب الشرط.

﴿**ولقد**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿**أنزلنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إليك**﴾ متعلق بأنزلنا. ﴿**آيات**﴾ مفعول به. ﴿**بينات**﴾ نعت لآيات. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**يكفر بها إلاّ الفاسقون**﴾ بدل من فاعل يكفر، والتقدير ما يكفر بها أحد إلاّ الفاسقون. ﴿**أو كلما**﴾ الهمزة للاستفهام قدمت على واو العطف لقصد صدارتها، كلما ظرفية شرطية. ﴿**عاهدوا**﴾ فعلها. ﴿**عهداً**﴾ مفعول مطلق.

﴿**نبذه**﴾ جواب الشرط، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**فريق**﴾ فاعل نبذ. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفريق. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**أكثرهم**﴾ مبتدأ، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**لا يؤمنون**﴾ الجملة خبر المبتدإ. ﴿**ولما جاءهم رسول شرط وفعله**﴾. ﴿**من عند**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسول. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**مصدق**﴾ نعت ثان. ﴿**لما**﴾ متعلق بمصدق. ﴿**معهم**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**نبذ**﴾ جواب لما. ﴿**فريق**﴾ فاعل نبذ. ﴿**من الذين**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفريق. ﴿**أوتوا**﴾ الواو المتصل بالفعل نائب الفاعل، وهو في منزلة المفعول الأول. ﴿**الكتاب**﴾ المفعول الثاني. ﴿**كتابَ**﴾ مفعول نبذ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى كتاب. ﴿**وراء**﴾ ظرف مكان متعلق بنبذ. ﴿**ظهورهم**﴾ مضاف إلى وراء، والضمير المتصل به مضاف إليه. ﴿**كأنّهم**﴾ الضمير المتصل اسم كأنّ. ﴿**لا يعلمون**﴾ الجملة خبر كأنّ، وهي في محل نصب حال من الذين أوتوا الكتاب.

﴿**واتبعوا**﴾ الجملة معطوفة على نبذ. ما اسم موصول في محل نصب مفعول اتبعوا. ﴿**تتلو**﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو منع من ظهورها الثقل. ﴿**الشياطين**﴾ فاعل. ﴿**على ملك**﴾ متعلق بتتلو. ﴿**سليمان**﴾ مضاف إلى ملك مجرور بالفتحة للعلمية وزيادة الألف والنون. ﴿**وما كفر سليمان**﴾ جملة اعتراضية. ﴿**ولكن الشياطين**﴾ استدراك للجملة قبلها، والشياطين اسم لكنّ. ﴿**كفروا**﴾ الجملة في محل رفع خبر لكنّ. ﴿**يعلّمون الناس السحر**﴾ فعل وفاعل ومفعولان، وجملة يعلّمون حال من الضمير في كفروا. ﴿**وما**﴾ اسم موصول معطوف على السحر. ﴿**أنزل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على ما. ﴿**على الملكين**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**ببابل**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**هاروت**﴾ عطف بيان. ﴿**وماروت**﴾ معطوف على هاروت، جُرا بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**وما يعلّمان**﴾ الواو للحال، وما للنفي، والجملة من الفعل والفاعل المنفي في محل نصب حال لدخول واو الحال عليه. ﴿**من أحد**﴾ مفعول به جُر لفظا ونصب محلا، ومن زائدة. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**يقولا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وألف المثنى فاعل وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى وهي بمعنى إلى.

﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**نحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**فتنة**﴾ خبر، وجملة

إنّما نحن فتنة في محل نصب مقول القول. ﴿**فلا**﴾ الفاء للتعقيب، ولا للنهي. ﴿**تكفر**﴾ مجزوم بلا، والفاعل أنت. ﴿**فيتعلمون**﴾ الفاء للتفريع، يتعلمون فعل وفاعل. ﴿**منهما**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**يُفرقون**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**به بين**﴾ متعلقان بيفرقون. ﴿**المرء**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**وزوجه**﴾ معطوف على المرء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما نافية تعمل عمل ليس. ﴿**هم**﴾ في محل رفع اسم ليس. ﴿**بضارين**﴾ خبرها دخل عليه حرف الجر الزائد، فجُرّ لفظا ونصب محلا. ﴿**به**﴾ متعلق بضارين. ﴿**من أحد**﴾ مفعول باسم الفاعل، دخل عليه حرف الجر الزائد فجُر لفظا ونصب محلا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**بإذن**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير ضارين. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى إذن. ﴿**ويتعلمون ما يضرهم**﴾ ما مفعول يتعلمون، وجملة يضرهم صلة ما. ﴿**ولا ينفعهم**﴾ معطوف على يضرهم، وجملة يتعلمون معطوفة على قوله: فيتعلمون منهما. ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ﴿**ولقد علموا. . .**﴾ ولقد تكرر لفظها وإعرابها مرارا. علموا فعل وفاعل. ﴿**لَمَن**﴾ اللام لام الإبتداء، ومن في محل رفع مبتدأ. ﴿**اشتراه**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ، والضمير المتصل به مفعول، والجملة صلة مَنْ. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**في الآخرة**﴾ متعلق بمحذوف حال. ﴿**من خلاق**﴾ مبتدأ مؤخر جُرّ بحرف الجر الزائد، وجملة ما له في محل رفع خبر مَنْ، وجملة مَنْ وخبرها في محل نصب سدت مسد مفعولي علموا لتعليقها باللام. ﴿**ولبئس**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وبئس فعل ماض. ﴿**ما**﴾ في محل رفع فاعل بئس. ﴿**شروا**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بشروا. ﴿**أنفسهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لو**﴾ شرطية. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**يعلمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجواب الشرط مقدر، والتقدير: لو كانوا يعلمون ما فعلوا ما فعلوا.

﴿**ولو**﴾ شرطية دخل عليها حرف العطف. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**آمنوا**﴾ الجملة خبر أنّ. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على آمنوا. ﴿**لمثوبة**﴾ جواب لو وهي مبتدأ. ﴿**من عند الله**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمثوبة. ﴿**خير**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ جملة شرطية مثل سابقتها. ﴿**يا أيّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها ظاهر لأنّه تكرر كثيرا. ﴿**لا تقولوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وواو الجماعة فاعل. ﴿**راعنا**﴾

مقصود لفظها على الحكاية، وأصلها فعل أمر، وفاعله أنت، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**وقولوا انظرنا**﴾ مثلها. ﴿**واسمعوا**﴾ معطوف على ما تقدمه من الأمر والنهي. ﴿**وللكافرين عذاب أليم**﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدإ مؤخر معطوفة على ما قبلها. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**يودّ**﴾ فعل مضارع. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع فاعل يودّ. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**من أهل الكتاب**﴾ بيان للذين كفروا. ﴿**ولا المشركين**﴾ معطوف على أهل الكتاب. ﴿**أن ينزّل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بينزل. ﴿**من خير**﴾ نائب الفاعل جر بحرف الجر الزائد لفظاً وهو مرفوع محلاً، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بيودّ.

﴿**من ربّكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لخير، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**والله**﴾ الواو للعطف، الله مبتدأ. ﴿**يختص**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿**برحمته**﴾ متعلق بيختص، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**مَنْ**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَنْ. ﴿**والله ذو الفضلِ العظيم**﴾ جملة من مبتدإ وخبر تذييلية لا محل لها من الإعراب.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب**﴾: انتقال من الإنحاء على اليهود في فعالهم مع الرسول موسى - عليه السلام - بما قابلوه به من العصيان والتبرم والتعلل في قبول الشريعة، وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام، إلى الإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى من بني إسرائيل مؤيدين لشريعته ومفسرين، وباعثين للأمة على تجديد العمل بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة لذلك المقصد من لين وشدة، ومن رغبة ورهبة، ثم جاء عيسى مؤيداً وناسخاً ومصلحاً ومبشراً، فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار وسوء الصنيع. وتلك إمارة على أنّهم إنّما يعرضون عن الحق لأجل مخالفة الحقِّ أهواءَهم!. وإلاّ فكيف لم يجدوا في خلال هاته العصور ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحص للنصح؟. وإنّ قوما هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف، لجديرون بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجّةً عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد، حتى تنقطع حجتهم؛ إذ لو كانت

معاندتهم للإسلام هي أُولى فعالاتهم لأوهموا أنّهم ما أعرضوا إلاّ لِما تبين لهم من بطلان، فكان هذا مرتبطاً بقوله: وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، ومقدمة للإنحاء عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى: وقالوا قلوبنا غلف.

والغرض من عرض هذا الكلام: هو وحدة الدين، ووحدة الرسالات، وهو الهدف الملحوظ بجانب مجابهة اليهود بما كان منهم وما هم فيه، ووحدة الدين، ووحدة الرسالات معنى ملحوظ في جو هذه السورة منذ ابتدائها؛ فالآن شيئا فشيئا تذكر تفصيلات لهذه الوحدة على نحو ما مر في ميثاق بني إسرائيل، ولأول مرة في هذه السورة ترد إشارة إلى عيسى ورسالته، فقد كان الكلام كله من قبلُ منصباً على موسى وقومه - وعلى اليهود منهم بصفة خاصة - فهنا إشارة إلى الأنبياء من بعد موسى، وإشارة إلى عيسى ابن مريم وتأييده بروح القدس، وإلى تعنت اليهود مع هؤلاء الرسل، مع استنكار هذا التعنت الذي ينبع من الهوى، والذي يريد أن يخضع الرسل ويخضع الرسالات لذلك الهوى المتقلب الذي لا ضابط له ولا حدود. . .

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾: ومحاولة إخضاع الشرائع وقوانينها للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة ظاهرة، تبدو كلما فسدت الفطرة وانطمست فيها عدالة المنطق؛ المنطق الذي يوجب أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت لا تميل مع الهوى، وأن ينبع التشريع من غاية واضحة لا تتقلب مع النزوات، وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام ولتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، وإيثار صيغة الإستقبال في القتل للإيماء إلى أنّهم لايزالون على تلك النية، حيث همّوا كثيراً بما لم ينالوه من محاولة قتل الرسول ﷺ، ويمكن أن تكون استحضاراً لحالة الصورة الفظيعة، وهي حالة قتلهم رسلهم، مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل، فاكتمل بذلك بلاغةُ المعنى وحسنُ النظم. . .

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾: هذا بيان لفن آخر من قبائح اليهود على طريق الإلتفات إلى الغيبة، إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب لما فصّل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم، وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل

الحق، والقائلون هم الموجودون في عصر النبيء ﷺ وقد حسّن الالتفات أنّه مؤذن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية، وهو غرض جديد؛ فإنّهم لمّا تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجّه الخطاب إليهم، ولمّا أريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبيء ﷺ صار الخطاب جاريا مع المؤمنين، وأجرى على اليهود ضمير الغيبة. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبيء ﷺ حين يدعوهم للإسلام، قصدوا به التّهكم وقطع طمعه في إسلامهم. وفي الكلام توجيه، لأنّ أصل الأغلف أن يكون محجوبا عمّا لا يلائمه، فإنّ ذلك معنى الغلاف، فهم يخيلون أنّ قلوبهم مستورة عن الفهم، ويريدون أنّها محفوظة من فهم الضلالات، بمعنى أنّها لا تعي ما تقول، ولو كان حقاً لوعته. وهذان المعنيان اللذان تضمنهما التوجيه، يلاقيهما الرد بقوله تعالى...

﴿**بل لعنهم الله بكفرهم**﴾: بمعنى: ليس عدم إيمانهم لقصور في أفهامهم، ولا لربوّها عن قبول مثل ما دعوا إليه، ولكن لأنّهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه. وقوله: بل لعنهم الله بكفرهم: ردٌّ لما قالوه وتكذيب لهم في ذلك، فهو تسجيل عليهم وفضح لهم بأنّهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفات لحجة النبيء ﷺ وقوله... ﴿**فقليلا ما يؤمنون**﴾: تفريع على لعنهم، وقليلا هنا مستعمل في معنى العدم، فإنّ القلة تستعمل في العدم في كلام العرب، فيقولون: فلان قليل الحياء، وهذا كناية؛ لأنّ الشيء إذا قَلَّ آل إلى الاضمحلال...

﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾: هذه الآية سجلت على اليهود زيادة في الإنحاء بالتوبيخ والتقريع، فإنّهم لو أعرضوا عن الدعوة إعراضاً مجرداً عن الأدلّة لكان فى إعراضهم معذرة ما، ولكنهم أعرضوا وكفروا بالكتاب الذي جاء مصدقا لما معهم، والذي كانوا من قبل يستفتحون به على المشركين. وقوله: فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به: فيه عدة كنايات بلاغية: أوّلها اقتران الجملة بالفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة مُنسيَة له. ثانيتها وصف الكتاب بأنّه مصدق لما معهم، قصد به زيادة التسجيل عليهم بالمذمّة في هذا الكفر. ثالثتها أفادت الجملة من قوله:

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا زيادة لكمال مكابرتهم وعنادهم. رابعتها العبارة في قوله: فلمّا جاءهم ما عرفوا أشمل من أن لو قال: فلما جاءهم الكتاب، لأنّ العبارة الأولى تشمل الكتاب والنبيء الذي أنزل عليه الكتاب. خامستها التعبير بما الموصولة دون مَنْ لأجل هذا الشمول. سادستها إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتتحتين بلمّا، وزيادة الربط بين المعنيين حيث انفصل بالجملة الحالية واتصل بالجواب الواحد وهو ﴿**كفروا به**﴾، فحصل بذلك نظم عجيب وإيجاز بديع. وطريقة تكرير العامل مع كون المعمول واحد طريقة عربية فصحى، ومنه قوله تعالى ﴿**لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب**﴾ وقوله: فلعنة الله على الكافرين: جملة دعاء عليهم، واللام في الكافرين للاستغراق بقرينة مقام الدعاء، يشمل المتحدث عنهم؛ لأنّهم من جملة أفراد هذا العموم، بل هم أول أفراده سبقا للذهن؛ لأنّ سبب ورود العام قطعي الدخول ابتداء في العموم، وهذه طريقة عربية فصيحة في إسناد الحكم إلى العموم، والمراد ابتداء بعض أفراده؛ لأنّ دخول المراد حينئذ يكون بطريقة برهانية، كما تدخل النتيجة في القياس...

﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده**﴾: استئناف لذمهم وتسفيه رأيهم، وهو تمثيل لحالهم بحال من حاول تجارة ليربح فأصابه خسران، وهو تمثيل يقبل بعض أجزائه أن يكون استعارة، وذلك من محاسن التمثيلية. وجيء بصيغة المضارع في قوله: أن يكفروا، ولم يؤت به على ما يناسب المبيّن: وهو ما اشتروا، المقتضي أنّ الاشتراء قد مضى؛ للدلالة على أنّهم صرحوا بالكفر بالقرآن من قبل نزول الآية، فقد تبيّن أنّ اشتراء أنفسهم بالكفر عمل استقر ومضى. ثم لما أريد بيان ما اشتروا به أنفسهم نبه على أنّهم لم يزالوا يكفرون، ويعلم أنّهم كفروا فيما مضى أيضا. وإيثار صيغة التفعيل في قوله: أن ينزّل الله، للإيذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الإنزال، وتكثره حسب تكثره... ﴿**فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين**﴾: هذا مترتب على قوله: بئسما اشتروا به أنفسهم، حيث رجعوا بغضب عظيم، فالتكرير هنا بمعنى القوة والشدة. وأظهر في قوله: وللكافرين للإشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم، والعذاب المهين في مقابل إهانتهم للدعوة وللداعي وكتابه...

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبئاء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾: اتصل الكلام بما قبله بواو العطف، وهذا وما قبله كله من عطف حكايات أحوال اليهود في معاذيرهم عن الإعراض عن الدعوة الإسلاميّة، فإذا دعوا قالوا قلوبنا غلف، وإذا سمعوا الكتاب أعرضوا عنه بعد أن كانوا منتظريه، حسداً أن نزل على رجل من غيرهم، وإذا وُعظوا وأُنذروا ودُعوا إلى الإيمان بالقرآن وبأنّه أنزله الله، وأن ينظروا في دلائل كونه منزلا من عند الله أعرضوا وقالوا نؤمن بما أنزل علينا، وهذا هو مجمع ضلالاتهم ومنبع عنادهم، فلذلك تصدى القرآن لتطويل المحاجة فيه بما هنا وبما بعده تمهيداً لقوله الآتي: **﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾**. والتعبير بالمضارع في نؤمن لقصد دوامهم على ما كانوا عليه، والتعريض بأنّهم لا يؤمنون بغيره. وقوله: ويكفرون بما وراءه تصريح بما لوّحوا إليه من قبل. وفي قوله: وهو الحق مصدقا حال بعد حال، وهو زيادة في استحضار شؤونهم وهيئاتهم. وقوله: قل فلم تقتلون أنبئاء الله من قبل إن كنتم مؤمنين، فصله عما قبله لأنّه اعتراض في أثناء ذكر أحوالهم قصد به الرد عليهم في معذرتهم هذه، لإظهار أنّ معاداة الأنبئاء دأب لهم، وأنّ قولهم: نؤمن بما أنزل علينا كذب، وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم. والإتيان بالمضارع في قوله: تقتلون مع أنّ القتل قد مضى لاستحضار الحالة الفظيعة. . .

﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾: الكلام متصل بما قبله بواو العطف، والقصد منه تعليم الانتقال في المجادلة مع اليهود إلى ما يزيد إبطال دعواهم - الإيمان بما أنزل اليهم خاصة -، والقصد منه المزيد من تمام التبكيت والتوبيخ، وهو داخل تحت الأمر السابق، وفيه تأكيد بالقسم وقد المفيدة للتحقيق. . . **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾**: هذا توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم في ادعائهم الإيمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم. . .

﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾: هذا جواب مبني على سؤال سائل. . . **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾**: استعير الإشراب لجعل الشيء متصلا بشيء وداخلاً فيه، ووجه الشبه هو شدة الإتصال والسريان، وهو استعارة تبعية لجريانها في

الفعل. وفي قولهم سمعنا وعصينا التصوير الحي للواقع الصامت، كأنّه واقع ناطق، لقد قالوا بأفواههم: سمعنا، ولكنّهم قالوا بأعمالهم: عصينا، والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفهي دلالته، وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق، وهذا التصوير الحي للواقع يومئ إلى مبدإ كلي من مبادئ الإسلام: إنّه لا قيمة لقول بلا فعل، إنّ الفعل هو المعتبر، أو هو الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة المحسوسة، وهي مناط الحكم والتقدير في الأفعال والأقوال. أمّا الصورة التي ترسمها، وأشربوا في قلوبهم العجل: فهي صورة فريدة، لقد أشربوا؛ أشربوا بفعل فاعل سواهم!. أشربوا ماذا؟. أشربوا العجل. وأين أشربوه؟. أشربوه في قلوبهم!. ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة الساخرة الهازئة؛ صورة العجل يدخل في القلوب إدخالاً ويحشر فيها حشراً، حتى يكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه المجسمة لتؤديه وهو حبهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أشربوه في القلوب!. هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور بالقياس الى التعبير الذهني المفسر: إنّه التصوير!. السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.

وقوله... ﴿**قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين**﴾: تذييل ناشئ عن قولهم: سمعنا وعصينا، وهو خلاصة لإبطال قولهم: نؤمن بما أنزل علينا، بعد أن أبطل ذلك بشواهد التاريخ، وهي قوله: قل فلم تقتلون أنبئاء الله، ولقد جاءكم موسى بالبينات، قالوا: سمعنا وعصينا: ولذلك فصله عن قوله: قل فلم تقتلون أنبئاء الله، لأنّه يجري من الأول مجرى التقرير والبيان لحاصله، والمعنى: قل لهم إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم كما زعمتم فبئسما أمركم به هذا الإيمان إذ فعلتم ما فعلتم من الشنائع، من قتل الأنبئاء، ومن الإشراك بالله في حين قيام التوراة فيكم، فكيف وأنتم اليوم لا تعرفون من الشريعة إلاّ قليلا؟. وخاصة إذ كان هذا الإيمان بزعمهم يصدهم عن الإيمان بمحمد ﷺ؛ فالجملة الشرطية كلها مقول قل، والأمر هنا مستعمل مجازا في التسبب، وإنّما جعل هذا مما أمرهم به إيمانهم مع أنّهم لم يدّعوا ذلك؛ لأنّهم لمّا فعلوه وهم يزعمون أنّهم مُتصلّبون في التمسّك بما أنزل عليهم – حتى أنّهم لا يخالفونه ولا يستمعون لكتاب جاء من بعده – فلا شك أنّ لسان حالهم ينادي بأنّهم لا يفعلون فعلا إلاّ وهو مأذون فيه من كتابهم، هذا وجه الملازمة...

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾: هذا إبطال لدعوى قارة في نفوسهم اقتضاها قولهم: نؤمن بما أنزل علينا، الذي أرادوا به الاعتذار عن إعراضهم عن دعوة محمد ﷺ بعذر أنّهم متصلبون في التمسك بالتوراة لا يعدُونها، وأنّهم بذلك استحقوا محبة الله إيّاهم، وتكون الآخرة لهم. فلمّا أُبطلت دعوى إيمانهم بما أنزل عليهم - بإلزامهم الكذب في دعواهم - بسند ما أتاه سلفهم من الفظائع مع أنبئائهم، والخروج عن أوامر التوراة بالإشراك بالله تعالى بعبادة العجل، عقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنّهم أهل الإنفراد برحمة الله ما داموا متمسكين بالتوراة، وأنّ من خالفها لا يكون له حظ في الآخرة. وارتكب في إبطال اعتقادهم هذا طريقة الإحالة على ما عقدوا عليه اعتقادهم من الثقة بحسن المصير، أو على شكهم في ذلك، فإذا ثبت لديهم شكهم في ذلك، علموا أنّ إيمانهم بالتوراة غير ثابت على حقه. وذلك أشد ما يفتّ في أعضادهم ويُسقط في أيديهم، لأنّ ترقب حظ الأخروي أهم ما يتعلق به المُعتقِد المتديّن. فإنّ تلك هي الحياة الدائمة والنعيم المقيم، وإنّما فصلت هذه الجملة عمّا قبلها لاختلاف السياق؛ لأنّ هذه الآية إلقاءُ حجة عليهم، والآياتُ السابقةُ تفظيع لأحوالهم وإن كان في كل من ذلك احتجاج، لكن الانتقال من أسلوب إلى أسلوب كان محسّنا للفصل دون العطف، لاسيما مع افتتاح الاحتجاج بقل. وقوله: من دون الناس توكيد لمعنى الاختصاص المستفاد من تقديم الخبر، ومن قوله: خالصة لدفع احتمال أن يكون المراد من الخلوص الصفاء من المشارك في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم. فمن كانت هذه ثقته وهذه دعواه في الإستئثار وحده بفضل الله، لا في الدنيا وحدها ولكن كذلك في الآخرة، ومن كانت هذه ثقته فليطلب الموت لينال ذلك النعيم المقيم الذي لا شك فيه ولا ريب، والذي لا منافس فيه ولا شريك. ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنّهم لن يتمنوا الموت، لن يتمنوه لأنّ ما قدمته أيديهم للآخرة لا يطعمهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب. . .

﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾: وقد عدت هذه الآية من دلائل نبوّة النبيء ﷺ لأنّها نفت صدور تمني الموت مع حرصهم على أن يُظهروا تكذيب هذه الآية، ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال، كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأنّ القرآن معجز، وأنّه من عند

الله. وقوله: والله عليم بالظالمين زيادة في تسجيل امتناعهم من تمني الموت، والمراد بالظالمين اليهود، فهو من وضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالظلم. . . ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا**﴾: هذه خصلة أخرى في اليهود يصورها القرآن، ويظهرها في صورة تفيض بالزراية وتتضح بالتحقير والمهانة. ونكّر حياةً قصدا للتنويع: أيّة حياة!. لا يعني أن تكون حياة كريمة ولا يهم أن تكون حياة مميزة، أيّة حياة!. بهذا التنكير والتحقير. إنّهم طلاب حياة مهما اتشحت بالذل، ومهما اتسمت بالعار، حياة ديدان أو حياة وحوش. كلها حياة!. إنّها اليهود في ماضيها وفي حاضرها وفي مستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلاّ حين تغيب المطرقة!. وقوله: ومن الذين أشركوا: عطف على الناس. وقوله: ﴿**يود أحدهم لو يعمر ألف سنة**﴾: بيان لأحرصيتهم على الحياة، وتحقيق لعموم النوعية في الحياة المنكّرة، لدفع توهم أنّ الحرص لا يبلغ بهم مبلغ الطمع في الحياة البالغة لألف سنة، فإنّها مع تعذرها لو تمت كانت حياة خسف وأرذل عيش، يظن بهم أن لا يبلغ حبهم الحياة إلى تمنيها. . . ﴿**وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون**﴾: هذا خبر مستعمل في التهديد والتوبيخ. . .

﴿**قل من كان عدواً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه**﴾: هذه سمة أخرى من سمات اليهود، سمة عجيبة حقاً!. لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ، أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في أيّ عقل، لقد سمعوا أنّ جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد، ولمّا كان عداؤهم لمحمد ﷺ قد بلغ مرتبة الحقد والغيظ أن ينزّل الله عليه قرآنا، وأن يكلفه رسالة، فقد لجّ بهم الحنق، فأعلنوا عداءهم لجبريل أيضا!. إنّها الحماقة المضحكة؛ ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة، وإلاّ فماذا أذنب جبريل؟ ولم يكن جبريل بشراً يعمل معهم أو يعمل ضدهم، بل إنّهم لا يعلمون من جبريل؟ ما حقيقته؟ كيف ينزل بالوحي؟. فكل أولئك - بالقياس إلى الناس - غيب، من الغيب الذي لا يدرك كنهه إلاّ عالم الغيب والشهادة؛ وليس على البشر إلاّ أن يؤمنوا ما داموا قد سلموا بالبديهة العقلية الأولى، وهي أنّهم لا يمكن أن يدركوا إلاّ ما تهيأت عقولهم لإدراكه، وما يخضع لوسائلهم البشرية في الإدراك، وهي وسائل محدودة وقاصرة

عن كثير؛ ولكنّهم - مع هذا كله - ما يكادون يسمعون اسم جبريل، ويعلمون أنّه ينزل بالوحي من عند الله، حتى يهيج هائجهم، وحتى يغلي غيظهم، وحتى يعلنوا عداوة جاهرة لجبريل. . .

﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإنّ الله عدو للكافرين﴾: ذكر هنا لفظ الله باسمه الظاهر بدلاً من ضميره، لما يشعر به هذا الاسم من القوة والقدرة. والمراد بالكافرين جميع الكافرين، وجيء بالعام ليكون دخول اليهود فيه كإثبات الحكم بالدليل، وليدل أنّ الله عاداهم لكفرهم، وأنّ تلك العداوة كفرٌ، ولتكون الجملة تذييلا لما قبلها. . . **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾**: اتصلت بما قبلها بواو العطف، وهذه الجملة جواب لقسم محذوف، وفيه زيادة إبطال لقولهم: نؤمن بما أنزل علينا. وفي الانتقال إلى خطاب النبيء ﷺ إقبال عليه وتسلية له عمّا لقي منهم. وقوله: وما يكفر بها إلاّ الفاسقون: عطف على لقد أنزلنا، فهو جواب للقسم أيضا. والتعبير بالمضارع يفيد التجدد. والتوصيف بالاسم المعرف بلام الجنس لثبوت هذا الوصف في اليهود بالدليل. . .

﴿أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾: هذا استفهام مستعمل في التوبيخ معطوف على جملة القسم. والنبذ هنا استعارة لنقض العهد؛ شبه إبطال العهد وعدم الوفاء به بطرح شيء كان ممسوكاً باليد، وأسند النبذ إلى فريق منهم احتراساً من شمول الذم إلى الذين آمنوا منهم، وليس المراد أنّ ذلك الفريق قليل منهم، فنبّه على أنّه أكثرهم بقوله: بل أكثرهم لا يؤمنون، وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنّه يوفي حق خصمه في الجدال، فلا ينسب له المذمة إلاّ بتدرج وتدبر قبل الإبطال. . . **﴿ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون﴾**: اتصلت هذه الآية بما قبلها لبيان غرابة هذه الشؤون التي جاء بها اليهود قولاً وفعلاً مع كل رسل الله وكتبه. والنبذ هنا تمثيل لحال قلة اكتراث المعرض بالشيء. وقوله وراء ظهورهم: تمثيل للإعراض؛ لأنّ من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره، وإضافة الوراء إلى الظهور لتأكيد بعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك. وقوله: كأنّهم لا يعلمون: تسجيل عليهم بأنّهم عالمون

بأنّ القرآن كتاب الله، أو كأنّهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل.

وفي الآية ما فيها من سخرية خفيّة، يجملها ذلك النص على أنّ الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فلو كانوا هم المشركين لكان لهم في نبذ كتاب الله وراء ظهورهم شيء من المعذرة، ولكنّهم هم الذين أوتوا الكتاب، هم الذين عرفوا الرسالات والرسل، وهم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور، وماذا صنعوا؟. إنّهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، والمقصود طبعا أنّهم جحدوه بعنف، وأنّهم أبعدوه من مجال تفكيرهم بشدة. ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً، يتضح بالجحود والكنود ويتسم بالغلظة والحماقة، ويدع الخيال يتملّى هذه الحركة العنيفة، والأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور. ثم ماذا؟!. ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم؟. ألعلهم قد لاذوا بما هو خير منه؟. ألعلهم قد لجأوا إلى حق لا شبهة فيه؟. ألعلهم قد استمسكوا بكتابهم الذي جاء القرآن ليكمله ويمنحه الامتداد والحياة؟. كلا!. ولا شيء من هذا كله. إنّهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة ومحاولات شريرة، لقد تركوا ما أنزل الله وراء ظهورهم...

﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾: ترك الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، وجروا وراء تلك الأساطير من السحر والكفر والتمويهات والخزعبلات، وتلك سمة أخرى من سمات الطبع المنحرف يسجلها القرآن على اليهود. والشياطين هنا يراد بها ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفيّة، وأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه. والإتّباع هنا مجاز لوقوع مفعوله ممّا لا يصح إتباعه حقيقة، وتتلو جاء بصيغة المضارع ليدلّ على تجدده... ﴿**وما كفر سليمان**﴾: رد لما كان يعتقده اليهود في سليمان... ﴿**ولكن الشياطين كفروا**﴾: شياطين اليهود، وهم الأحبار المتمردون منهم... ﴿**يعلّمون الناس السحر**﴾: توضيح وبيان لسبب كفر الشياطين...

﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**﴾: ما أنزل معطوف على السحر، فهما شيآن متغايران، والذي أنزل على الملكين لم يفصّله القرآن، وإنّما

أجمله وذكر أنّه شيء أخذه شياطين اليهود، كما أخذوا السحر من المصريين والكلدانيين، والملكان اسمان لرجلين صالحين - هاروت وماروت - ولعلّهما كانا يعالجان الناس بالرقى المشروعة، غير أنّ اليهود أخذوا بالسحر ومزجوه بكلام الصالحين من دعاء ورقيا ومزجوهما ترويجاً لسحرهم. . . **﴿ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾**: مناسبة نزول هذه الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ من ذمّه، أنّ السحر راجع إلى التمويه، وأنّ من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ، وما مبناه على اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور بحَسَب نية الساحر وتوجهه النفسي إلى المسحور، وقد تأصّل هذا عند اليهود، واقتنعوا به في مقاومة أعدائهم، كان هذا شبيهاً ببعض ضروب السحر، ولذلك كان من شعار من استهواهم السحر واشتروه. ناسب ذكر هذه الحالة من أحوالهم عقب الكلام على افتنانهم بالسحر وحبّه دون بقية ما تقدم من أحوالهم، وهذه المناسبة هو موجب التعقيب في الذكر، وإنّما فصلت هذه الآية عمّا قبلها لاختلاف الغرضين؛ لأنّ هذه في تأديب المؤمنين. ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم، والإشعار بأنّ كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه، وقد كانوا يعدون تفطن المسحور للسحر يبطل أثره، فأشبهه التفَطُّن للنوايا الخبيثة. . .

﴿وقالوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾: المراد بالكافرين اليهود خاصة، والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمهم. . . **﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾**: فصله بحذف العطف عمّا قبله لاختلاف الغرضين؛ لأنّ الآية قبله في تأديب المؤمنين مع التعريض باليهود، وهذه الآية لبيان حسد اليهود وغيرهم للمسلمين. ووجه المناسبة بين الآيتين ظاهر، لاتحاد المآل، ولأنّ الداعي للسبب والأذى هو الحسد. وهذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن، لمّا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، فليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم، بل هو الحسد على ما أنزل على النبيء والمسلمين من الخير. وقوله: الذين كفروا من أهل الكتاب، ليشمل النصارى واليهود. وقوله: ولا المشركين احتراس، وليكون جمعاً للحكم بين الجميع. . . **﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾**: سيقت هذه الجملة لتقرير ما سبق من تنزيل الخير، والتنبيه على حكمته، وإرغام الكارهين له. . . **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾**: هو تذييل لما

سبق مقرر لمضمونه، وفيه إيذان بأنّ إيتاء النبوة من فضل الله العظيم.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾: في هذا التوجيه الإنحاء على بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن، حيث يأتي بسلسلة طويلة من أفعال أسلافهم مع موسى، بما قابلوه به من العصيان والتبرُم والتعلّل في قبول الشريعة، وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته إلى قرب مجيء الإسلام، والإنحاء عليهم بسوء مقابلتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى مؤيدين لشريعته ومفسرين، وباعثين في الأمة على تجديد العمل بالشريعة مع تعدد هؤلاء الرسل واختلاف مشاربهم في الدعوة إلى ذلك المقصد من لين وشدّة، ومن رغبة ورهبة. ثم جاء عيسى مؤيدا وناسخا ومبشرا، فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم الإعراض والاستكبار وسوء الصنيع، وتلك إمارة على أنّهم إنّما يعرضون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءهم، وإلاّ كيف لم يجدوا في خلال تلك العصور، ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق ويتمحص للنصح؟!.

وإنّ قوما هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ والتقريع، ليكون هذا حجة عليهم في أنّ تكذيبهم للدعوة المحمدية مكابرة وحسد، وفي هذا التوبيخ والتقريع بيان الخصال المزرية التي ارتكبها اليهود في تاريخهم الطويل. أولاً: تكذيبهم لجميع الرسل، حتى الرسل الذين كانوا يتبجحون باتباعهم. ثانيا: محاولتهم دائما قتل من لا يكونون تابعين لشهواتهم من الرسل ومن الذين يأمرون بالقسط، وقد قتلوا بعض الأنبياء فعلا، والسبب في هذا هو استكبارهم وتمردهم على شرائع الله. ثالثا: ما كان اليهود المعاصرون للدعوة يقولونه للنبيء ﷺ حين يدعوهم إلى الإسلام قاصدين به التهكم، وقطع الطمع في إسلامهم: قلوبنا غلف. وهو قول المشركين ﴿**قلوبنا في أكنة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾. رابعا: ما كانوا يقولونه للعرب ويتبجحون به قبل بعثة الرسول وإنزال القرآن عليه، لقد كانوا يطلبون من الله أن ينصرهم على المشركين من حولهم، ويفتح عليهم بالنبيء الموعود الذي تتحدث عنه كتبهم، ويتوعدون

المشركين بهذا النصر المرتقب على يدي النبيء المنتظر، فلما جاءهم هذا النبيء ومعه كتاب مصدق لما معهم - لما جاءهم بما يعرفونه من المبادئ والأحكام - لا يجهلونه كفروا به؛ كفروا به؛ لأنّه لم يوافق هواهم أن يُبعث هذا النبيء من غيرهم، وذلك هو البغي الذي ترتب عليه اللعن والطرد، وحرموا الإيمان إلى الأبد. اللهم إلاّ قليلا منهم؛ فقد آمن قليل من اليهود في زمن التنزيل وبعده إلى هذا العهد. . .

﴿ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾: هذا زيادة على ما تقدم من التوبيخ والتقريع.! وختم هذا الكلام بقوله: فلعنة الله على الكافرين: وهو دعاء عليهم وعلى أمثالهم، والدعاء من الله تعالى تقدير وقضاء؛ لأنّه تعالى لا يعجزه شيء، ومثله في القرآن كثير **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾**. **﴿قاتلهم الله﴾**. **﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾**. **﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾**. ثم زاد في ذمهم وتسفيه رأيهم إذ رضوا لأنفسهم الكفر بالقرآن وبمحمد ﷺ وأعرضوا عن النظر فيما اشتملت عليه كتبهم من الوعد بمجيء رسول بعد موسى إرضاء لداعية الحسد، وهم يحسبون أنّهم مع ذلك قد استبقوا أنفسهم على الحق، إذ كفروا بالقرآن، فهذا إيقاظ لهم نحو معرفة داعيهم إلى الكفر، وإشهار لما ينطوي عليه عند المسلمين. . .

﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾: هذه الطبيعة التي تبدو هنا في اليهود هي طبيعة الكنود؛ طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنّما اقتطع منها، ولا تحس بالوشيجة الإنسانية الكبرى التي تربط البشرية جميعا. وهكذا عاش اليهود في عزلة يحسّون أنّهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنّون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروبا يثيرونها ليجرّوا من ورائها الغنائم لأنفسهم والغرائم على غيرهم، هلاكاً يسلطونه على الناس ويسلطه عليهم الناس. وهذا الشر كله إنّما نشأ من تلك الأثرة

البغيضة، ولهذا لم يستجيبوا عندما أُمِرُوا وقيل لهم آمنوا بما أنزل الله، وردوا هذا الأمر بقساوة وجفاء. . .

﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم﴾: وهو ردّ عليهم في دعواهم هذه، لإظهار أنّ معاداة الأنبياء دأب لهم وعادة أصيلة فيهم، وأنّ قولهم: نؤمن بما أنزل علينا كذب، إذ لو كان حقا لما قتل أسلافهم الأنبياء الذين هم من قومهم، ودعوهم إلى تأييد التوراة والأمر بالعمل بها، ولكنهم يعرضون عن كل ما لا يوافق أهواءهم، وهذا إلزام للحاضرين بما فعله أسلافهم، لأنّهم يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل الأنبياء. . . **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾**: لقد تقدم معنى هذا الكلام في مناسبات ومقامات تقتضي ذكره، وإن ذكره هنا في محاجة أخرى وغرض جديد.

وطريقة القرآن في العرض يخالف عادة الناس في تأليف علم أو مادة معينة، يحيل فيها المؤلف على ما قدمه في كتابه أو في موضوعه، بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة، فلذلك تتكرر فيه لاقتضاء المقام ذكْرَها. والكلام هنا مع اليهود المعاصرين للتنزيل يجبههم جبها شديدا، ويأخذهم بما وقع منهم ومن أسلافهم في تاريخهم الطويل، بل يأخذهم بما جابهوا به موسى نبيئهم المنقذ؛ إنّه يجردهم من تلك الحجة الواهية التي يسترون بها أثرتهم البغيضة وعزلتهم النافرة، لقد أرادوا أن يقولوا: إنّهم مؤمنون بديانتهم، فلا حاجة بهم إلى دين جديد. فها هو ذا يجبههم بأنّهم قتلوا أنبياءهم من قبل، وأنّهم اتخذوا العجل بعد أن جاءهم موسى بالهدى، وأنّهم عصوا الله بعد أن أخذ عليهم ميثاقهم في الطور، فهل كان هذا من وحي الإيمان؟. وهل كان هذا من أمر الإيمان؟!. قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

التوجيه الثاني: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾: في هذا التوجيه أمر للنبيء محمد ﷺ بأن

يواجه اليهود بهذا التحدي المزيل لكل لون من ألوان تديّنهم، والقاضي على نهاية كل تبجح من تبجحهم بأنّهم شعب الله المختار ومن أحبائه المقربين، وأنّ الجنة لهم خالصة من دون العالمين. إن كان ما تقولونه صحيحاً فما الفائدة في بقائكم في الدنيا وأمامكم بعد الموت هذا الخير العظيم؟!. هيا فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم، وقد عُدت هذه الآية من دلائل نبوءة النبيء ﷺ؛ لأنّها نفت صدور تمني الموت مع حرصهم على أن يظهروا تكذيب هذه الآية، وهذا بالنسبة لليهود المخاطبين زمن النزول ظاهر إذ لم ينقل عن أحد منهم أنّه تمنى الموت كما أخبرت الآية، وهي أيضاً من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول ﷺ فإنّهم قد أيقن كل واحد منهم أنّه لا يتمنى الموت، وأيقن أنّ بقية قومه لا يتمنونه لأنّه لو تمناه أحد لأعلن بذلك، لعلمهم بحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية. ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال، كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأنّ القرآن معجز، وأنّه من عند الله؛ إذ لا يُعرَف أنّ يهودياً تمنى الموت إلى اليوم، فهذا ارتقاء في دلائل النبوءة. وقوله تعالى: ﴿**والله عليم بالظالمين**﴾: زيادة في تسجيل امتناعهم عن تمني الموت. ثم بيّن سبب عدم تمني اليهود الموتَ...

﴿**ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة. ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة**﴾: إنّهم أحرص الناس على حياة حتى من الذين أشركوا، يتمنى أحدهم لو يعمر ألف سنة، مع أنّ هذا الود لا يفيدهم شيئاً، وهذا التمني لا يغني عنهم من عذاب الله الذي ينتظرهم... ﴿**وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون**﴾: وفي هذا من الوعيد والتهديد، وأنّ العقاب نازل بهم لا محالة فلا مجال للهروب من هذا العذاب الشديد. إنّهم اليهود في كل تصرفاتهم، في أفعالهم وفي أقوالهم، مع كل لفتة ومع كل همسة نطلع على سمة من سماتهم حتى مع الملائكة الذين لم يروهم، ولم يعلموا حقيقتهم، قالوا في حقهم ما قالوا، ما يكادون يسمعون اسم جبريل، ويعلمون أنّه ينزل بالوحي من عند الله، حتى يهيج هائجهم، وحتى يغلي غيظهم، وحتى يُعلِنُوها عداوة جاهرة لجبريل، ففيم هذه الحماقة من بني إسرائيل؟!. وعداوة اليهود لجبريل نشأت من وقت نزوله بالقرآن على محمد ﷺ وهو من عجيب تفاهة اعتقاد اليهود، لأنّهم يثبتون أنّه ملك مرسل من الله ويبغضونه!. وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل

والعقيدة، ولا شك أنّ اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة؛ لأنّه ينبئ عن تظافر آرائهم على الخطإ والأوهام. . .

﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإنّ الله عدو للكافرين. ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾: ولقد أثبت الله لليهود في هذا الرد المفحم المسكت عداوة الملائكة والرسل مع أنّهم إنّما عادوا جبريل ومحمداً؛ لأنّهم لما عادوهما كانت عداوتهم لجبريل عداوة لجنس الملائكة، وعداوتهم لمحمد عداوة لجميع الرسل. وكذلك أثبت القرآن الكريم أوصافاً خمسة: أنّه منزل من عند الله بإذن الله، وأنّه منزل على قلب الرسول محمد، وأنّه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنّه جاء هادياً أبلغ هدى، وأنّه بشرى للمؤمنين. وفي هذا أعظم الثناء على القرآن؛ بكرم الأصل، وكرم المقر، وكرم الفئة، ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيراً عاجلاً، وواعداً لهم بعاقبة الخير. ثم يمضي السياق منددأ باليهود كاشفاً عن سمة أخرى من سماتهم الوبيئة: أنّهم جماعة مفككة، لا يجتمعون على رأي، ولا يستمسكون بعروة، ولا يحافظون على عهد، ومع أنّهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلاّ أنّهم لا يستمسكون بكل سمات العصبية، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ولا يتكافلون في الخير ولا يفيئون إلى نظام، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندّ منهم فرقة تنقض ما أبرموا وتخرج على ما أجمعوا. . .

﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لايؤمنون﴾: ثم بين موقف اليهود من الرسول محمد وكتابه القرآن بقوله. . . **﴿ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون﴾**.

التوجيه الثالث: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾: في هذا التوجيه الإعلام بذكر ما وصل إليه اليهود في نهاية المطاف معهم، من خصال لهم عجيبة: منها كفرهم بموسى والنبيئين جميعا، وبالتوراة والكتب جميعا، ثم ما جاء به رسول الله محمد وكتابه القرآن، ونبذوا كل ذلك وأخذوا بالأباطيل وأنواع الكذب والبهتان، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على

ملك سليمان!. وذلك أنّ اليهود اتبعوا ما تحكيه كُهّان السحرة ومردة الكفر والزندقة، وما تقصه من الخرافات والأكاذيب على ملك سليمان، وكيف كان سببه؟. وادعوا أنّ سليمان لم يحصل له هذا الملك الواسع والسلطان الشامل، إلاّ بسبب ما كان يستعمله من طلاسم السحر من العزائم، وأسماء الجن وأسرار الحروف والخواتم!. وقد نفى الله كل ما نسب لسليمان، لأنّ هذا كفر وخروج عن الإيمان.

وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا: والشياطين هنا هم رؤساء اليهود الذين كفروا بما أنزل الله على سليمان من الشرائع والأحكام، كما كفروا من قبل بما جاء به موسى من عند الله، وهاهم الآن يكفرون بما أنزل على محمد خاتم الرسل وناسخ جميع الأديان. وانحدر اليهود إلى الدرك الأسفل من الخرافات والتدجيل والكهانة، ومعرفة سر تأثير النجوم وسر الحروف، قصدوا بها تضليل الناس وبث الجهالات بينهم؛ إذ كل التعاليم التي تأتي من طريق اليهود على مر التاريخ اتّباع لتعاليم الشياطين التي لا يتعلمها إلاّ الخارج عن حدود الله، والمنكر لما جاءت به رسل الله؛ فتعلم السحر منكر، والعمل به كفر... وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾: وهذا ما جعل العرب يزعمون أنّ أعلم الناس بالسحر اليهود والصّابئَة - وهم أهل بابل -. ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر، وكانوا يوهمون الناس أنّه من الدين، وأنّ رجل الدين باستطاعته أن يخاطب أرواح الموتى وتسخير الشياطين. وقد استقر أمره عند الكلدان وخلطوه بعلوم النجوم وعلم الطب، وقد صار عند الكلدان والمصريين خاصية في يد الكهنة، وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون في أشخاصهم الرئاسة الدينية والعلمية، فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية، لتسخير العامة إليهم، وإخضاعهم بما يظهرونه من المقدرة على علاج الأمراض، والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين، وبالحيل والمكائد، ونقل اليهود كل هذا وخلطوه ومزجوه بما زيّفوه، وادعوا أنّ هذه هي تعاليم سليمان، فكان السحر قرين خباثة نفس، وفساد دين، وشر عمل، وإرعاب وتهويل على الناس؛ من أجل ذلك حرمه الله تعالى في كتبه التي أنزلها على رسله، ويُعد الاشتغال به مروقاً عن طاعة الله تعالى، لأنّه مبني على اعتقاد تأثير الأرواح المنسوبة إلى الآلهة في عقائد الأولين.

وقد حذر الإسلام من عمل السحر وذمه في مواضع من القرآن الكريم، ويكفيك ما في هذه الآية من قوله تعالى فيما عمل اليهود. . . ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئسما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**﴾: وحذّر الرسول ﷺ منه وجعله من الموبقات السبع، وعده في المرتبة التي تلي الإشراك بالله سبحانه. ونحن نعلم علم اليقين أنّ السحر مفسد للعقائد، وانطلاق عن قيود الديانة وانسلاخ وابتعاد عن أصول الأخلاق والآداب. وقد كثر الكلام عن السحر قديماً وحديثاً، ولم يتفقوا على شيء منه، والواجب على كل مسلم أن يؤمن حق الإيمان بما جاء في القرآن - وهو الملجأ الوحيد لإنقاذ البصائر من الأوهام، وتقليد الجهّال وأشباه العوام - في هذه الآيات التي درست تفاصيلها موعظة وعبرة لمن يدرس كتاب الله، ويحاول أن يطلع على إرشاداته وتوجيهاته، وفيها تحذير وإنذار خطير لكل من يسلك مسلك اليهود الذي نهايته سوء المصير، ذلك المصير الذي وصلوا إليه بكفرهم وعنادهم وتجرّئهم على الله ورسله وملائكته وكتبه.

ومع هذا التحذير والإنذار الرهيب الخطير فقد سلك بعض المسلمين هذا المسلك العسير، وتورطوا فيما تورط فيه اليهود من تعاليم السحر والشعوذة والدجل والمخرقة، وظهر كثير منهم يحترفون بهذه الصناعة من رسم الخواتم، وكتابة التعاويذ وقراءة العزائم التي لا يفهم معناها، وظهرت على أيدي هؤلاء كتب ورسائل تبين كيفية عمل السحر والتنجيم، وما هي إلاّ عمل من أعمال الكهّان والعرافين من قديم الزمان، وما هو إلاّ تخويف الناس الآمنين، وبث الرهبة في قلوب الغافلين!. ومرد ذلك كله إلى ما نقل منها في كتب التفسير التي لم يراع أصحابها ما فيها من باطل وتزوير، وهي حكايات وخرافات مستقاة من القصص الإسرائيلية المملوءة بالكذب والتغرير، وقد وقف من وقف ضد هذه التعاليم موقف الناقد البصير، ونبهوا من قديم عليها وما فيها من الشر المستطير.

التوجيه الرابع: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم**﴾: في هذا توجيه لطيف، ولكنه في الحقيقة عنيف؛ يحذر المؤمنين فيه من التشبه باليهود في كل شيء ولو كانت كلمة تقال في التخاطب المألوف!. في هذا الاتجاه كان الأمر باستبدال قول بقول: لا تقولوا: راعنا

وقولوا: انظرنا، فيكشف للمؤمنين عن خبيئة نفوس اليهود فهم ليسوا ميؤوساً من إيمانهم فحسب، ولكنهم حاسدون حاقدون لا يريدون بالمؤمنين خيراً. واليهود استعملوا كلمة (راعنا) استعمالا خبيثا عندما سمعوا المسلمين يقولونها للرسول ﷺ وتلاعبوا بها وتضاحكوا منها في ثنايا حديثهم. وهنا تبرز السمة الأولى في الإسلام، سمة الوحدة بين القول والفعل، بين التعبير والسلوك، بين الظاهر والباطن. واسمعوا: ليس المراد مجرّد السماع، ولكن ما ينشأ من السماع؛ العمل، والطاعة، والتنفيذ. قولوا بألسنتكم في النداء قولاً غير الذي تعارف عليه أهل الكتاب، واسلكوا في طاعة الله سبيلاً غير الذي عُرف عنهم من المعصية. وبهذا وذلك يتم الامتياز، ويتحقق التفرد، وتبرز الشخصية الجديدة - شخصية المؤمن - ويتميزون عن الكافرين الذين أعدّ الله لهم مصيراً كذلك متميزاً. وللكافرين عذاب أليم. . .

﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾: هذه الآية تبيّن السبب الذي دعا اليهود إلى الامتناع عن الإيمان بمحمد ﷺ، وهو الحسد على ما أنزل على غيرهم. ودخل مع اليهود هنا الذين كفروا من النصارى، وعطف عليهم المشركين للسبب نفسه. والخير والرحمة التي اختص الله بهما محمداً وأمته، هي النبوءة المؤيدة بنصر الله وبالمؤمنين. والمختص بها لا بد أن يكون أهلاً لها؛ على صفاء وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئا فشيئا. ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوءة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره، ووكل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلاّ بما علمه، واقتضته حكمته سبحانه رفقا بالمخاطبين. وفي هذا تنبيه على أنّ واجب مريد الخير التعرضُ لفضل الله والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة، فيتخلى عن المعاصي والخبائث، ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه. وفي الحديث الصحيح «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

9 ـ وقوع النسخ والتبديل
ردّ لما يدعيه بنو إسرائيل!

النص

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿105﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿106﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿107﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿108﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿109﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿110﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿111﴾﴾

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ
الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (112) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ
فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ
أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (113) * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (114) وَقَالُوا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ
قَانِتُونَ (115) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (116) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (117) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (118)
وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ
قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (119) الَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿120﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿121﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿122﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿ما ننسخ﴾: نسخ الكتابَ وانتسخه واستنسخه: كتبه عن معارضة، والمنقول منه النسخة، وكذلك المنقول إليه، والكتاب ناسخ ومنتسخ، والنسخ نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو... **﴿من آية﴾**: الآية في الأصل: الدليل والشاهد على أمر، ومنها الأمارة التي يعطيها المُرْسِلْ للرسول ليصدقه المُرْسَلُ إليه، ومن هذا قيل للمعجزة آية، وتطلق الآية على القطعة من القرآن لها مطلع ومقطع، وتطلق الآية على الشريعة المتضمنة لآيات الأحكام وأمارات الصدق وتحدي الأنام، وهي المقصود هنا؛ لأنّه مقصد عام... **﴿أو ننسها﴾**: نأمر بتركها لتُنْسَى فلا يعمل بها، مشتق من النسيان، يقال: نسِي الشيءَ وأنساه إياه غيرُه... **﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾**: نأت بحكم خير منه عند ترك الحكم الأول في الشريعة السابقة، ونأت بحكم يماثله عندما ينقل من الشريعة السابقة إلى الشريعة اللاحقة... **﴿ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾**: همزة الاستفهام للتقرير؛ لأنّها دخلت على حرف النفي. **﴿وتعلم﴾**: المراد بها المخاطب، وهو إشعاره بأنّ الله على كل شيء قدير، ومثله **﴿ألم تعلم أنّ الله له ملكُ...﴾** الخ...

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾: أمْ حرف عطف مختص بالاستفهام وما فى معناه وهو التسوية، فإذا عطفت أحد مفردَين مستفهما عن تعيين أحدهما استفهاما حقيقيا أو مسوى بينهما في احتمال الحصول، فهي بمعنى أو العاطفة، ويسميها

النحاة متصلة، وإذا وقعت عاطفة جملةً دلت على انتقال من الكلام السابق إلى الاستفهام، فتكون بمعنى بل الانتقالية ويسميها النحاة منقطعة، فالاستفهام ملازم لها في الحالين، وهي هنا منقطعة لا محالة؛ لأنّ الاستفهامين اللذين قبلها في معنى الخبر؛ لأنّهما للتقرير... ﴿**سواء السبيل**﴾: السواء: الوسط من كل شيء. والسبيل: الطريق، ووسط الطريق هو الطريق الجادة الواضحة؛ لأنّه يكون بين بُنَيّات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية... ﴿**ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا**﴾: الوُدُّ المحبّة، والمراد هنا الانصراف عن الإيمان والرجوع إلى الشرك... ﴿**حسداً من عند أنفسهم**﴾: حسداً مصدر حَسَدَ، وهو تمني زوال الخير عن الغير...

﴿**فاعفوا واصفحوا**﴾: العفو: ترك عقوبة المذنب. والصفح: الترك والإعراض؛ لأنّ الإنسان إذا أعرض عن شيء ولاّه من صفحة وجهه... ﴿**بلى من أسلم وجهه لله**﴾: بلى حرف يجاب به المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الإثبات؛ سواء وقعت بعد استفهام عن نفي وهو الغالب أو بعد خبر منفي. وإسلام الوجه لله: هو التسليم لأوامر الله، وأصله: ألقى السلاح وترك المقاومة، والمراد بالوجه بالذات. ويطلق الوجه على الحقيقة، تقول: جاء بالأمر على وجهه، ووجوه الناس أشرافهم... ﴿**وهو محسن**﴾: الإحسان: ضد الإساءة، وأصله إتقان العمل حتى صار حسناً في أعين الناس... ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء**﴾: المراد بالقول هنا: التصريح بالكلام الدال على المعنى المراد. وعلى شيء: صيغة عموم منفي، حيث إنّه أمر لا يعتدّ به... ﴿**وهم يتلون الكتاب. ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾: الظلم: الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان صالحان هنا.

والمساجد: جمع مسجد، والمسجد البيت الذي فيه الكعبة، وأصله مكان السجود، ثم أطلق على كل بيت من بيوت الله المعدة للصلاة، والمسجد الجامع ما تصلى فيه الجمعة... ﴿**وسعى في خرابها**﴾: عمل على تخريبها وإخلائها... ﴿**لهم في الدنيا خزي**﴾: الخزي: الفضيحة والذل والهوان... ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾: المراد من المشرق والمغرب هنا تعميم جهات الأرض؛ لأنّها تنقسم

بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين: قسم يبتدئ من حيث تطلع الشمس، وقسم ينتهي إلى حيث تغرب... ﴿**فأينما تولوا فثمّ وجه الله**﴾: تولّى: أدبر واتخذ، ومعناه هنا اتجه، وثَمَّ ظرف بمعنى هناك، ووجه الله الجهة التي أمر بها ورضي عنها... ﴿**وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه**﴾: معنى اتخذ هنا: صنع وعمل. وسبحانه: علّم التسبيح، مشتق من السبح الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض... ﴿**بل له ما في السماوات والأرض كلٌ له قانتون**﴾: كلمة بل للإضراب الإبطالي الذي تقتضيه مقالتهم الباطلة، والمعنى ليس الأمر على ما زعموا، بل هو خالق جميع الموجودات. ﴿**وكلٌ**﴾: بالتنوين عوض عن المضاف إليه. وقانتون: منقادون مطيعون عابدون معترفون بربوبيته سبحانه وتعالى...

﴿**بديع السماوات والأرض**﴾: البديع: مشتق من الإبداع بمعنى الإنشاء على غير مثال، والبديع الذي بلغ الغاية في الروعة والحسن في الشكل... ﴿**وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون**﴾: أصل القضاء: التمام والحتمية والإحكام، ومعناه هنا الإرادة الموجبة القاطعة التي لا راد لها... ﴿**وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية**﴾: الذين لا يعلمون: مشركوا العرب. ولولا هنا حرف تحضيض، والمراد بالآيات هنا: عجائب الحوادث... ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾: في مقدمة من قالوا هذا اليهود والنصارى... ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾: تشابهت: تماثلت حتى أشبه كل منها الآخر، والقلوب هنا: بمعنى العقول... ﴿**قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون**﴾: تبيين الآيات هو ما جاء من القرآن المعجز للبشر الذي تحدى به جميعهم فلم يستطيعوا الإتيان بمثله. والإيقان: تحقق العلم، واليقين إزاحة الشك...

﴿**إنّا أرسلناك بالحق**﴾: الحق هنا: هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه الحق والمعجزات، وهو كلها ملابسة للرسول ﷺ في رسالته... ﴿**ولا تسأل عن أصحاب الجحيم**﴾: ملازموا النار المتأججة بشدة. والجَحم: الاضطرام، والجاحم الجمر الشديد الاشتعال... ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾: عدم الرضى: السخط والكراهية والحقد والبغض. واتباع الملة: القول بقولهم في الاعتقاد والعمل، مشتقة من أملّ الكتاب إذا أسمعه ليكتب لأنّ الرسول يعلمها للناس ويملها عليهم... ﴿**قل إنّ هدى الله هو**

الهدى﴾: هدى الله: ما يقدره للشخص من التوفيق، ويطلق على الإسلام وعلى القرآن... **﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير﴾**: الأهواء مفردها الهوى، وهو هنا الرأي الناشئ عن شهوة لا عن دليل. والولي: المحب والصديق والمانع. والنصير: كل من يعين أحداً على من يريد به ضراً، وكلاهما فعيل بمعنى فاعل... **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾**: التلاوة: متابعة المقروء مرة بعد مرة، وتلا القرآن والكلام قرأه. وحق تلاوته: هي التلاوة بفهم مقاصد الكلام المتلو؛ فإنّ التلاوة يراد منها إفهام السامع.

مبحث الإعراب

﴿ما﴾ اسم شرط جازم. **﴿ننسخ﴾** فعل الشرط مجزوم بالسكون، والفاعل نحن. **﴿من آية﴾** من صلة، وآية مجرورة بها لفظاً ومنصوبة محلاً، مفعول ننسخ. **﴿أو ننسها﴾** معطوف على ننسخ مجزوم بحذف الياء، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. **﴿نأت﴾** جواب الشرط مجزوم بحذف الياء. **﴿بخيرٍ﴾** متعلق بنأت. **﴿منها﴾** متعلق بخير. **﴿أو مثلها﴾** معطوف على خير، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿ألم تعلم﴾** الهمزة للاستفهام، وتعلم فعل مضارع مجزوم بلم، والفاعل ضمير المخاطب. **﴿أنّ الله﴾** أنّ واسمها. **﴿على كل﴾** متعلق بقدير. **﴿شيء﴾** مضاف إلى كل. **﴿قدير﴾** خبر أنّ، وأنّ واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي تعلم. **﴿ألم تعلم أنّ الله﴾** مثل ألم تعلم السابقة. **﴿له﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿ملك﴾** مبتدأ مؤخر. **﴿السماوات﴾** مضاف إلى ملك. **﴿والأرض﴾** معطوف على السماوات، وجملة له ملك خبر أنّ.

﴿وما﴾ الواو للعطف، وما نافية. لكم متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿من دون الله﴾** متعلق بمحذوف حال بما بعده. **﴿من ولي﴾** مبتدأ مؤخر دخل عليه حرف الجر الزائد، فجرّ لفظا ورُفع محلا. **﴿ولا نصير﴾** معطوف على وليّ. **﴿أم﴾** حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه. **﴿تريدون﴾** فعل وفاعل. **﴿أن تسألوا﴾** فعل مضارع منصوب بأن، وواو الجماعة فاعل. **﴿رسولكم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر معمول تريدون. **﴿كما﴾** الكاف في محل نصب نعت للمفعول المطلق المقدر، وما في محل جر

بالكاف. **﴿سُئل﴾** فعل ماض مبني للمجهول. **﴿موسى﴾** نائب الفاعل مرفوع بضمة مقدرة على الألف. **﴿من قبل﴾** مبنيّ على الضم في محل جر، لحذف المضاف إليه ونية معناه، وهو متعلق بسئل، وجملة سئل صلة ما. **﴿ومَنْ﴾** الواو للعطف، ومن اسم شرط جازم. **﴿يتبدل﴾** فعل الشرط مجزوم، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. **﴿الكفر﴾** مفعول به. **﴿بالإيمان﴾** متعلق بيتبدل. **﴿فقد﴾** الفاء رابطة لجواب الشرط، وقد حرف تحقيق. **﴿ضلّ﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. **﴿سواء﴾** مفعول به. **﴿السبيل﴾** مضاف إلى سواء، وجملة فقد ضل في محل جزم جواب الشرط.

﴿ودّ كثير﴾ فعل وفاعل. **﴿من أهل﴾** متعلق بودّ. **﴿الكتاب﴾** مضاف إلى أهل. **﴿لو﴾** مصدرية. **﴿يردونكم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿من بعد﴾** متعلق بيردونكم. **﴿إيمانكم﴾** مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه، ولو وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بودّ. **﴿كفارا﴾** مفعول ثان لودّ. **﴿حسدا﴾** منصوب على الحال من فاعل يردونكم، وهم أهل الكتاب. **﴿من عند﴾** متعلق بحسدا. **﴿أنفسهم﴾** مضاف إلى عند، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من بعد﴾** متعلق بما تعلق المجرور قبله. **﴿ما﴾** مصدرية. **﴿تبيّن﴾** فعل ماض. **﴿لهم﴾** متعلق بتبيّن. **﴿الحق﴾** فاعل، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى بعد. **﴿فاعفوا﴾** الفاء للتعقيب والتفريع، واعفوا فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. **﴿واصفحوا﴾** معطوف عليه. **﴿حتى﴾** حرف غاية. **﴿يأتي﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى. **﴿الله﴾** فاعل. **﴿بأمره﴾** متعلق بيأتي، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إنّ الله﴾** إنّ واسمها. **﴿على كل شيء﴾** متعلق بما بعده. **﴿قدير﴾** خبر إنّ، والجملة تعليلية. **﴿وأقيموا﴾** معطوف على فاعفوا. **﴿الصلاة﴾** مفعول به. **﴿وآتوا﴾** معطوف على أقيموا. **﴿الزكاة﴾** مفعول به. **﴿وما تقدموا﴾** جملة شرطية معطوفة على فاعفوا. **﴿لأنفسكم﴾** متعلق بتقدموا، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿من خير﴾** متعلق بتقدموا. **﴿تجدوه﴾** جواب الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة فاعل، والضمير المنصوب المتصل مفعول به. **﴿عند﴾** متعلق بتجدوه. **﴿الله﴾** مضاف إلى عند. **﴿إنّ الله﴾** إنّ واسمها. **﴿بما﴾** متعلق بالخبر الآتي. **﴿تعملون﴾** الجملة من الفعل والفاعل صلة ما. **﴿بصير﴾** خبر إنّ، والجملة تعليلية.

﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل معطوف على ودّ كثير. ﴿**لن يدخل**﴾ فعل مضارع منصوب بلن. ﴿**الجنة**﴾ مفعول به. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**مَنْ**﴾ في محل رفع بدل من فاعل يدخل المقدر. ﴿**كان هوداً**﴾ صلة مَنْ. ﴿**أو نصارى**﴾ معطوف على هودا منصوب بفتحة مقدرة على الألف، وجملة لن يدخل الجنة في محل نصب مقول القول. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**أمانيهم**﴾ خبره، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قل هاتوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**برهانكم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة هاتوا في محل نصب مقول القول. ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ جملة من كان واسمها وخبرها دخل عليها حرف الشرط، وجواب الشرط مقدر يدل عليه هاتوا. ﴿**بلى**﴾ حرف جواب. ﴿**مَنْ**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**أسلم**﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على مَنْ. ﴿**وجهه**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لله**﴾ متعلق بأسلم. ﴿**وهو محسن**﴾ جملة حالية من فاعل أسلم. ﴿**فله**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، له متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**أجره**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**عند**﴾ متعلق بمحذوف حال من أجره. ﴿**ربّه**﴾ مضاف إلى عند، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة فله أجره في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ولا خوف عليهم**﴾ معطوف على قوله: فلهم أجرهم. ﴿**ولا هم يحزنون**﴾ كذلك[1].

﴿**وقالت اليهود**﴾ فعل وفاعل، معطوف على قوله: وقالوا لن يدخل الجنة. ﴿**ليست النصارى**﴾ ليس واسمها. ﴿**على شيء**﴾ متعلق بمحذوف خبرها. ﴿**وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**﴾ مثلها في الإعراب. ﴿**وهم**﴾ الواو واو الحال، وهم في محل رفع مبتدأ. ﴿**يتلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدإ، وجملة وهم يتلون في محل نصب حال من القائل من الفريقين. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به. ﴿**كذلك**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر، واسم الإشارة في محل جر بالكاف. ﴿**قال الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لا يعلمون**﴾ صلة الذين. ﴿**مثل**﴾ بيان وتوكيد للكاف. ﴿**قولهم**﴾ مضاف إلى مثل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فالله**﴾ الفاء للتفريع، الله مبتدأ. ﴿**يحكم**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ.

---

(1) جملة فلهم أجرهم عند ربهم من مبتدإ وخبر، ولا خوف عليهم جملة أخرى كذلك. ولا هم يحزنون مثلها.

﴿**بينهم**﴾ متعلق بيحكم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**يوم**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**فيما**﴾ متعلق بيحكم كذلك. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**فيه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**يختلفون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر كان.

﴿**وَمَنْ**﴾ الواو حرف عطف، من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**أظلم**﴾ خبره. ﴿**ممن**﴾ متعلق بأظلم. ﴿**منع**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة مَنْ. ﴿**مساجد**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى مساجد. ﴿**أن يذكر**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن. ﴿**فيها**﴾ متعلق بيُذكر. ﴿**اسمه**﴾ نائب فاعل يُذكر، والضمير فيه مضاف إليه، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول ثان لمنع. ﴿**وسعى**﴾ معطوف على من. ﴿**في خرابها**﴾ متعلق بسعى، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ما**﴾ حرف نفي. ﴿**كان**﴾ منفي بما. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان. ﴿**أن يدخلوها**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع اسم كان. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**خائفين**﴾ منصوب بالاستثناء، وجملة ما كان لهم أن يدخلوها خبر المبتدإ (أولئك). ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**في الدنيا**﴾ مثل لهم. ﴿**خزي**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ معطوف عليه، وهو مثله في الإعراب. ﴿**ولله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**المشرق**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**والمغرب**﴾ معطوف على المشرق، والجملة معطوفة على الوعيد قبلها. ﴿**فأينما**﴾ الفاء للتعقيب، أينما اسم شرط جازم. ﴿**تولوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل. ﴿**فثَمّ**﴾ الفاء رابطة للجواب، ثم ظرف في محل نصب متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**وجه**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى وجه، والجملة في محل جزم جواب الشرط. ﴿**إنّ الله واسع عليم**﴾ جملة من إنّ واسمها وخبرها تعليلية.

﴿**وقالوا**﴾ فعل وفاعل عطف على قوله: وقالت اليهود. ﴿**اتخذ الله ولداً**﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل نصب مقول القول. ﴿**سبحانه**﴾ مفعول مطلق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بل**﴾ حرف إضراب. ﴿**له**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**ما**﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**في السماوات**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**كلٌّ**﴾ مرفوع على الإبتداء، والتنوين

عوض عن المضاف إليه. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**قانتون**﴾ خبره. ﴿**بديع**﴾ خبر لمبتدإ مقدر. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى بديع. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**وإذا**﴾ شرطية. ﴿**قضى**﴾ فعلها. ﴿**أمراً**﴾ مفعول به. ﴿**فإنّما**﴾ الفاء رابطة للجواب، إنّما كافة ومكفوفة. ﴿**يقول**﴾ فعل مضارع، والفاعل يعود على بديع. ﴿**له**﴾ متعلق بيقول. ﴿**كُنْ**﴾ فعل أمر. ﴿**فيكون**﴾ مرتب على كن، وفاعل يكون يعود على أمراً. ﴿**وقال الذين**﴾ فعل وفاعل عطف على قوله: وقالوا اتخذ. ﴿**لا يعلمون**﴾ لا نافية، يعلمون الجملة من الفعل والفاعل صلة الذين.

﴿**لولا**﴾ حرف تحضيض. ﴿**يكلّمنا**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**الله**﴾ فاعل. ﴿**أو**﴾ حرف عطف. ﴿**تأتينا**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول. ﴿**آية**﴾ فاعل. ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾ تقدم إعراب مثلها قريبا. ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾ فعل وفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قد بيّنا**﴾ فعل وفاعل دخل عليه حرف التحقيق. ﴿**الآيات**﴾ مفعول به. ﴿**لقوم**﴾ متعلق ببيّنا. ﴿**يوقنون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل جر نعت لقوم. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أرسلناك**﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بأرسل. ﴿**بشيراً**﴾ حال من الضمير المفعول. ﴿**ونذيراً**﴾ معطوف على بشيراً. ﴿**ولا تسألْ**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا، عطف على إنّا أرسلناك. ﴿**عن أصحاب**﴾ متعلق بتسأل. ﴿**الجحيم**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**ولن ترضى**﴾ فعل مضارع منصوب بلن، على فتحة مقدرة على الألف، عطف على قوله: ولا تسأل. ﴿**عنك**﴾ متعلق بترضى. ﴿**اليهود**﴾ فاعل ترضى. ﴿**ولا النصارى**﴾ معطوف على اليهود مرفوع بضمة مقدرة على الألف. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية. ﴿**تتبع**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والفاعل ضمير يعود على الرسول ﷺ. ﴿**ملّتهم**﴾ مفعول به والضمير فيه مضاف إليه.

﴿**قل**﴾. فعل أمر. ﴿**إنّ هدى**﴾ إنّ واسمها. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى هدى. ﴿**هو**﴾ ضمير فصل. ﴿**الهدى**﴾ خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الألف، وجملة إنّ هدى الله في محل نصب مقول القول. ﴿**ولئن**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وإن حرف شرط جازم. ﴿**اتبعت**﴾ فعل الشرط، وضمير المخاطب فاعل. ﴿**أهواءهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**بعد**﴾ متعلق باتبعت. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**جاءك**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل

به مفعول به، وفاعله ضمير يعود على الذي، وجملة جاءك صلة الذي. ﴿**من العلم**﴾ متعلق بجاء. ﴿**ما**﴾ نافية. ﴿**لك**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من الله**﴾ متعلق به أيضا. ﴿**من ولي**﴾ مجرور بمن لفظا ومرفوع محلا مبتدأ مؤخر. ﴿**ولا نصير**﴾ معطوف على ولي باعتبار اللفظ، وجملة ما لك جواب للقسم، واكتُفي به عن جواب الشرط. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آتيناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثان لآتينا، والجملة صلة الذين. ﴿**يتلونه**﴾ الجملة من الفعل والفاعل والمفعول في محل نصب حال من الموصول. ﴿**حق**﴾ مفعول مطلق. ﴿**تلاوته**﴾ مضاف إلى حق، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يؤمنون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدإ الأول (الذين).. ﴿**به**﴾ متعلق بيؤمنون.

﴿**ومن**﴾ الواو للعطف، من اسم شرط جازم. ﴿**يكفر**﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على مَن. ﴿**به**﴾ متعلق بيكفر. ﴿**فأولئك**﴾ الفاء رابطة للجواب، أولئك في محل رفع مبتدأ. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**الخاسرون**﴾ خبر مرفوع بالواو، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط. ﴿**يا بني**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بني مجرور بالفتحة. ﴿**اذكروا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**نعمتي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم مضاف إليه في محل جر وفتحت تخفيفا. ﴿**التي**﴾ في محل نصب نعت لنعمتي. ﴿**أنعمت**﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة التي. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأنعمت. ﴿**وأنّي**﴾ أنّ واسمها. ﴿**فضلتكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر أنّ. ﴿**على العالمين**﴾ متعلق بفضلتكم. ﴿**واتقوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**يوما**﴾ مفعول به. ﴿**لا تجزي**﴾ فعل مضارع منفي بلا. ﴿**نفس**﴾ فاعل. ﴿**عن نفس**﴾ متعلق بتجزي. ﴿**شيئا**﴾ مفعول به، وجملة لا تجزي نفس في محل نصب نعت ليوم. ﴿**ولا يقبل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا. ﴿**منها**﴾ متعلق بيقبل. ﴿**عدل**﴾ نائب الفاعل. ﴿**ولا تنفعها شفاعة**﴾ الجملة من الفعل والفاعل والجملة التي قبلها عطف على قوله: لا تجزي. ﴿**ولا هم**﴾ الواو للعطف، ولا للنفي، وهم في محل رفع مبتدأ. ﴿**ينصرون**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل في محل رفع خبر المبتدإ.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**﴾: مناسبة هذا الكلام لما قبله، ردٌّ على ما ادعاه اليهود من أنّ شريعتهم لا تُنسخ وأنّهم متمسكون بها. وبيان لنقص شبهتهم التي راموا ترويجها على الناس. ولمّا كان هذا الكلام رداً على ما زعم اليهود كان منفصلاً عما قبله بعدم العطف، وما شرطية، وأصلها الموصولة أشربت معنى الشرط، وهي توجب إبهاماً فلا تدل على زمن معين لشرطها وجزائها، وهي من أدوات العموم. ومن آية بيان لها. أو ننسها عطف بأو على ننسخ، وهو مقابل ننسخ، فيكون الجواب موزعاً على طريقة اللف والنشر المشوش؛ فنأت بخير منها عند الإنساء. أو مثلها عند النسخ، الذي هو النقل من شريعة إلى شريعة. والمراد بالآية هنا الحكم الشرعي الوارد على ألسنة الرسل. . .

﴿**ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير**﴾: هذا الكلام مسوق لبيان حكمة نقل الحكم الشرعي أو تبديله بغيره، ولكون هذه الجملة تتنزل منزلة البيان للأولى فصلت عنها، والخطاب لغير معين متمشٍ مع طريقة المجاز بتشبيه الغائب بالحاضر المخاطب؛ لشهرة هذا الأمر. والاستفهام الداخل على النفي مراد به التقريري دائما. والالتفات بوضع الاسم الجليل (الله) موضع الضمير، لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم. . . ﴿**ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض**﴾: المقصود من هذا التكرير تقوي الحكم وإعادة للاستشهاد، وجاء منفصلاً روماً لزيادة التوكيد، وإشعاراً باستقلال الحكم لكل منهما. وقوله تعالى. . . ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾: جملة متصلة بما قبلها بالعطف لتدخل تحت العلم المقرر، والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الإتيان بما هو خير من المبدل أو بمثله من المنقول، فإنّ مجرد قدرته على ذلك لا يستدعي حصوله البتة، وإنّما الذي يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليّا ونصيراً لهم، فمن علم أنّ الله تعالى وليه ونصيره على الاستقلال، يعلم قطعاً أنّه لا يفعل به إلاّ ما هو خير له، فيفوض أمره إليه تعالى، ولا يخطر بباله ريبة في أمر ما يحصل من النسخ والتبديل وغيرهما أصلاً. والفرق بين الولي والنصير: أنّ الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً من المنصور. . .

﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل**﴾: في هذا الاستفهام

إنكار وتحذير، والخطاب للمؤمنين. والمناسبة في هذا الانتقال تامة؛ فإنّ التقرير الذي قبله مراد منه التحذير من الغلط وأن يكونوا كمن لا يعلم. والاستفهام بعده مراد منه التحذير كذلك، والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة. وقوله: تريدون يؤذن بأنّ السؤال لم يقع، ولكنه ربما جاس في نفوس بعضهم، أو ربما أثارته نفوسهم؛ شبه اليهود في إنكارهم تبديل أحكام شرعهم وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك، مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال الرسول ﷺ، وقوله: كما سئل موسى تشبيه، ووجهه أنّ في أسئلة بني إسرائيل موسى كثيرا من الأسئلة التي تفضي بهم إلى الكفر، أو من الأسئلة التافهة التي قد تجر إلى إرهاق ومشقات لا طاقة للإنسان بها، والآية مسوقة مساق الإنكار التحذيري قصدا للوصاية بالثقة بما أنزل الله على رسوله...

وقوله ﴿**ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾: تذييل للتحذير المتقدم للدلالة على أنّ المحذر منه كفرٌ أو يفضي إلى الكفر؛ لأنّه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله... ﴿**ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّاراً**﴾: هذا تصريح بمفهوم قوله سابقا ﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم**﴾، وفصلت هذه الجملة فلم تعطف لكونها بمنزلة البيان لها... ﴿**حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق**﴾: بيان بسبب ردّ الود، وفيها إشارة إلى تأصله فيهما؛ لأنّه كامن في نفوسهم... ﴿**فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير**﴾: لمّا كان هذا الخبر قد يثير غضب المسلمين خيف أن يفتكوا باليهود، فرتّب عليه قوله: فاعفوا واصفحوا، حتى يكون قدوة في الفضائل. وقوله: حتى يأتي الله بأمره تطمين لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم باطلاً، وجملة إنّ الله على كل شيء قدير تذييل مسوق مساق التعليل، وفيه تعليم المسلمين فضيلة العفو لأنّها من شأن القادر...

﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾... الخ الآية: أريد بهذا الكلام الأمر بالثبات على الإسلام، فإنّ الصلاة والزكاة ركناه، فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية، وقوله ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**﴾ مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالعفو والصفح، وفيه تعريض

باليهود بأنّهم لا يقدرون قدر عفوكم وصفحكم، ولكنه لا يضيع عند الله. وقوله: ﴿**إنّ الله بما تعملون بصير**﴾ تذييل لما قبله، وفيه وعد للمؤمنين ووعيد لغيرهم؛ لأنّه إذا كان بصير بما يعمل المؤمنون كان بصيرا بما يعمل غيرهم... ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى**﴾... الخ: هذه الجملة متصلة بالعطف بقوله: ودّ كثير من أهل الكتاب. والضمير في قالوا لليهود والنصارى بقرينة ما بعده، ومقول القول مختلف باختلاف القائل. وجمع بين قوليهما على طريقة الإيجاز، فأو هنا لتقسيم القولين؛ ليرجع السامع كل قول إلى قائله...

﴿**تلك أمانيهم**﴾: جملة معترضة تبين بطلان ما قالوا، وتلك إشارة إليه، والجمع باعتبار صدوره من الجميع... ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾: تبكيت وقطع لأطماعهم بدليل قوله: ﴿**بلى**﴾!. فهو إثبات من جهة الله تعالى لما نفوه مستلزم لنفي ما أثبتوه، وهو تكذيب لهم فيما ادعوه. وإنّما الذي يستحق دخول الجنة... ﴿**من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾: وهي جملة مستأنفة عن بلى لجواب سؤال من يتطلب كيف نقض نفي دخول الجنة عن غير هذين الفريقين؟. أريد بها بيان أنّ الجنة ليست حكراً لأحد؛ ولكن إنّما يستحقها من أسلم...الخ. وجيء بالجملة الحالية لإظهار أنّه لا يغني إسلام الوجه وحده ولا العمل بدون إخلاص. وجمع الضمير في قوله: ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون اعتباراً بعموم معنى مَنْ، كما أفرد الضمير قبله اعتباراً بإفراد اللفظ، وهذا من تفنُّن العربية لدفع سآمة التكرار. والعندية للتشريف. ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به، وتقرير مضمون الجملة...

﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء**﴾... الخ: في هذه الآية بيان لتضليل كل فريق صاحبَه بخصوصه، إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم. وجيء بالجملة الحالية أثناءها لمزيد التعجب من شأنهم. والتشبيه المستفاد من الكاف في قوله: كذلك تشبيه في الادّعاء على أنّهم ليسوا على شيء. ومثل قولهم لِمَا أفاده كاف التشبيه، وهو تأكيد يشير إلى أنّ المشابهة بين قول الذين لا يعلمون وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة. وقوله: ﴿**فالله يحكم**﴾... الخ متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر مراد به التوبيخ والوعيد.

والضمير المجرور بإضافة بين راجع إلى الفرق الثلاث. **﴿وما كانوا فيه يختلفون﴾** يعم ما ذكر وغيره، والجملة تذييل...

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله﴾... الخ الآية: هذا استطراد واقع معترضاً بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام. والاستفهام إنكاري فهو بمعنى النفي. ومَنْ أصلها نكرة موصُوفة، فيصير الكلام: لا أحد أظلم ممن منع...الخ، وجمع المساجد ليعم جميع المساجد. وقوله: **﴿لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** استئناف ثان، ولم يعطف على ما قبله؛ ليكون مقصوداً بالاستئناف اهتماماً به؛ لأنّ المعطوف لكونه تابعاً لا يهتم به السامعون كَمَالَ الاهتمام؛ ولأنّه يجري من الاستئناف الذي قبله مجرى البيان من المبيّن؛ فإنّ الخزي خوف، وذلك ما نال صناديد المشركين يوم بدر، وما نالهم يوم فتح مكة. هذا في الدنيا أمّا في الآخرة فيتممه بقوله: ولهم في الآخرة عذاب عظيم... **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا﴾**... الخ الآية: لما جاء بوعيد الكافرين ووعدِ المؤمنين عطف على ذلك تسلية المسلمين على خروجهم من مكة بأنّ الأرض كلها لله، فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله فأينما تولى فقد صادف رضوان الله. وتقديم الظرف للاختصاص، وفي هذا كناية رمزية عن رضاه بهجرة المؤمنين في سبيل الدين...

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾... الخ الآية: هذه حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على قوله: وقالت اليهود. والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لا يعلمون... **﴿سبحانه﴾**: تنزيه وتبرئة له تعالى مما قالوا، وفي قوله: سبحانه من التنزيه البليغ عدة جهات: من جهة الاشتقاق، مشتق من السبح الذي هو الذهاب والإبعاد في الأرض. ومن جهة النقل، منقول إلى التفعيل. ومن جهة العدول، عدل به من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة، لا سيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن. ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى. وقوله... **﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾**: ردٌّ لما زعموا وتنبيه على بطلانه، وكلمة بل للإضراب عمّا تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات، فليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات. وقوله... **﴿كل له قانتون﴾**:

جملة مفصولة عمّا قبلها لقصد استقلالها بالاستدلال، حتى لا يظن السامع أنّها مكملة للدليل المسوق له قوله: له ما في السماوات والأرض، وهي حجة ثالثة على انتفاء الولد؛ لأنّ الخضوع من شعار العبيد، أمّا الولد فله إدلال على الوالد، وإنّما يبرّ به ولا يقنت، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها، لثبوت مساوي نقيضه، ومساوي النقيض نقيض، وإثبات النقيض يستلزم نفي ما هو نقيض له...

﴿**بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً**﴾... الخ الآية: هذه حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنعاء، واستدلال آخر على نفي بنوة من جعلوه ابنا لله تعالى. وفي الكلام تمثيل وتصوير لسرعة حدوث الأمر من طاعة المأمور المطيع للآمر القوي المطاع، وفيه تقرير لمعنى الإبداع؛ بأن شبّه فعل الله تعالى بتكوين شيء، وحصول المكوَّن عقب ذلك بدون مهلة بتوجيه الأمر للمأمور بكلمة الأمر، وحصول امتثاله عقب ذلك؛ لأنّ ذلك أقرب الحالات المتعارفة التي يمكن التقريب بها في الأمور التي لا تتسع اللغة للتعبير عنها...

﴿**وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله**﴾... الخ الآية: هذه الآية متصلة بما تقدم من قوله تعالى ﴿**وقالت اليهود**﴾، ﴿**وقالوا اتخذ الله ولدا**﴾ بالعطف؛ لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الفاسدة الضالة. وفي هذا الكلام تسلية للرسول ﷺ بأنّ ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله. وجملة... ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾: واقعة موقع الجواب لمقالة الذين لا يعلمون، وهو جواب إجمالي اقتصر فيه على تشبيه حالهم بحال من قبلهم، فيكون كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم، وأنّه لا يستأهل أن يجاب؛ لأنّهم ليسوا بمرتبة من يكلمهم الله، وليست أفهامهم بأهل لإدراك ما في نزول القرآن من أعظم آية، وتكون جملة تشابهت قلوبهم تقريراً، وتكون جملة قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون تعليلاً للإعراض عن جوابهم بأنّهم غير أهل للجواب. وقوله: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾ تقرير لمعنى قال الذين من قبلهم مثل قولهم؛ فالقلوب هنا بمعنى العقول في اللغة العربية، وقوله: تشابهت صيغة من صيغ التشبيه، وهي أقوى فيه من حروفه وأقرب بالتشبيه البليغ. وفي هذه الآية جُعلت اليهود والنصارى مُماثِلين للمشركين في هذه المقالة، وبهذا الأسلوب تأتّى الرجوع إلى

بيان أحوال أهل الكتابين الخاصة بهم، وذلك من رد العجز على الصدر. وجيء بالفعل المضارع في يوقنون لدلالته على التجدد والاستمرار كناية عن كون الإيقان خُلُقا لهم، فأما الذين دأبهم الإعراض عن النظر والمكابرة بعد ظهور الحق، فإنّ الإعراض يحول دون حصول اليقين، والمكابرة تحول عن الانتفاع به، فكأنّه لم يحصل، فأصحاب هذين الخلقين ليسوا من الموقنين...

﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾: هذه الآية معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب، القصد منها تأنيس الرسول ﷺ من أسَفِهِ على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين، وتطمين لنفسه - عليه الصلاة والسلام - بأنّه غير مسؤول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم، وفيه التمهيد للتأييس من إيمان اليهود والنصارى. وجيء بالتأكيد - وإن كان النبيء لا يتردد في ذلك - لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وبيان أنّه ينوه به لما تضمنه من تنويه شأن الرسول ﷺ. وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفاً للنبيء بعزّ الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدّس، كأنّ الله يشافهه بهذا الكلام بدون وساطة، فلذا لم يقل له: إنّ الله أرسلك. وقوله: بالحق متعلق بأرسلناك، والحق هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه الحق والمعجزات، وهي كلها ملابسة للنبيء في رسالته؛ بعضها بملابسة التبليغ، وبعضها بملابسة التأييد، فالمعنى: إنّك رسول الله، وأنّ القرآن حق منزل من عند الله، وقوله: ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم متصل بما قبله بالعطف، وهو عطف إنشاء على خبر. والسؤال هنا مستعمل في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم. وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم، وإيذان بأنّهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعاً...

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾... الخ الآية: في هذه الآية بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة إثر بيان ما يعمهما والمشركين من الإصرار إلى ما هم عليه إلى الموت. وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفي، والإشعار بأنّ رضى كل منهما مباين رضى الأخرى، بمعنى لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم، ولا النصارى ولو تركتهم ودينهم حتى تتبع

ملتهم، فأوجز النظم ثقة بظهور المراد، وفيه من المبالغة في إقناطه - عليه الصلاة والسلام - من إسلامهم ما لا غاية وراءه. وقوله: **﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى﴾**: أمر بالجواب عمّا تضمنه قوله: ولن ترضى، من خلاصة أقوال لهم يقتضي مضمونها أنّهم لا يرضيهم شيء مما يدعوهم النبيء إليه إلاّ أن يتبع ملتهم. وقوله: هو الهدى، الضمير ضمير فصل، والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر. وقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات: حرف إنّ والقصر؛ إذ القصر تأكيد على تأكيد، فهو في قوة مؤكدين، مع تأكيد القصر بضمير الفصل، وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات. وقوله: **﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾**: اللام موطئة للقسم، وذلك توكيد للخبر وتحقيق له.

وقوله... **﴿ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾**: تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى؛ جاء على طريقة تحذير النبيء ﷺ مثل: لئن أشركت ليحبطن عملك، وهو جواب القسم، ودليل جواب الشرط. وجيء بإن الشرطية التي تأتي في مواقع عدم القطع بوقوع شرطها؛ لأنّ هذا فرض ضعيف في شأن النبيء والمسلمين. وقد اشتملت جملة ولئن اتبعت أهواءهم... الخ على تحذير من الطمع في استدناء اليهود أو النصارى بشيء من استرضائهم طمعاً في إسلامهم بتألف قلوبهم، فأكد ذلك التحذير بجملة مؤكدات: القسم، وتأكيد جملة الجزاء بالجملة الاسميّة، والإجمال ثم التفصيل بذكر اسم الموصول وتبيينه بقوله: من العلم، وجعل الذي جاء من العلم هو العلم كله لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه، وتأكيد من ولي بعطف ولا نصير الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه، فهو كالتأكيد بالمرادف، فهي الأهواء إذن تلك التي تميل بهم إلى التعلات والأوهام والأباطيل. وهدى الله هو وحده الهدى، الذي لا عوج فيه ولا هوى...

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾... الخ الآية: هذه الآية جواب قاطع لمعذرتهم المتقدمة، وهو من باب رد العجز على الصدر ولهذا جاءت مفصولة عمّا قبلها. وجيء باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره للتنبيه على أنّ الأوصاف المتقدمة التي استحضروا بواسطتها - حتى أشير إليهم باتصافهم

بها - هي الموجبة لجدارتهم بالحكم المسند لاسم الإشارة على حد قوله تعالى: أولئك على هدى من ربهم، فلا شك أنّ تلاوتهم للكتاب حق تلاوته تثبت لهم أوحديتهم بالإيمان بذلك الكتاب؛ لأنّ إيمان غيرهم به كالعدم، وإذا كانوا هم المؤمنين به كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ لانطباق الصفات التي في كتب اليهود والنصارى عليه، وقوله: ﴿**ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾: تصريح بحكم مفهوم أولئك يؤمنون به، وفيه اكتفاء عن التصريح بحكم المنطوق، وهو أنّ المؤمنين به هم الرابحون؛ ففي الآية إيجاز بديع لدلالتها على أنّ الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته، هم المؤمنون دون غيرهم - فهم كافرون -، فالمؤمنون به هم الفائزون، والكافرون هم الخاسرون. . .

﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين**﴾: أعيد نداء بني إسرائيل نداء التنبيه والإنذار والتذكير على طريقة التكرير في الغرض الذي سيق الكلام الماضي لأجله، ليهتف بهم الهتاف الأخير بعد الاستعراض الطويل، استعراض نِعَم الله عليهم وكفرهم بها، استعراض مواثيقهم ونقضهم لها، استعراض دعاواهم وأَباطيلهم وتفنيدها، والالتفات عنهم إلى خطاب المسلمين وخطاب الرسول أن لا يطمعوا في إيمانهم، وأن لا يحاولوا استرضاءهم. هنا يجيء الالتفات إليهم كأنّه الدعوة الأخيرة إليهم لينقذوا أنفسهم وهم على أبواب الإهمال والإغفال؛ الدعوة ذاتها التي وجهت إليهم في أوائل الخطاب في أوائل السورة قبيل الاستعراض، وقد أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنالك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير. ولم يخالف بين الآيتين إلاّ في الترتيب بين العدل والشفاعة؛ فهنالك قدّم ولا يقبل منها شفاعة وأخّر ولا يؤخذ منها عدل، وهنا قدم ولا يقبل منها عدل وأخّر لفظ الشفاعة مسنداً إليه تنفعها، وهو تفنن؛ والتفنن في الكلام تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير، وقد حصل مع التفنن نكتة لطيفة، إذ جاءت الشفاعة في الآية السابقة مسنداً إليها المقبولية، فقدمت على العدل بسبب نفي قبولها، ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء، فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس. وأمّا في هذه الآية، فقدم الفداء لأنّه أسند إليه المقبولية، ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة، فعطف نفي الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضاً، والحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولاً قد جعل في الآيتين أولاً، وذكر الآخر بعده. وأمّا

نفي القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام في طلب الفكاك عن الجناة تختلف، فمرة يقدمون الفداء، فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء. وهنا ختم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة، وذلك من براعة المقطع.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾: يوجه الله الرسول ﷺ وأمته إلى موقف اليهود الذين اعترضوا على نسخ الإسلام بعض شريعة موسى، بنقل أحكامها إلى شريعة محمد، وهو ما كان صالحاً لجميع العصور ولكافة البشر من غير زيادة أو قصور، وذلك مثل العقائد في الحقائق الثابتة مما يتعلق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومثل ما يتعلق بالأخلاق من المحاسن والمساوئ؛ من العدل والظلم والخير والشر ومن المنافع والمضار للنفوس والعقول والأفراد والجماعات، أو اعترضوا على إلغاء أحكام شريعة موسى بترك العمل بها كلية، لأنّها أحكام خاصة باليهود ولا تصلح لغيرهم فأبدلت بخير منها، وذلك مثل ما كان من محرمات المطاعم والملابس والعمل يوم السبت وأشياء أخرى تتعلق بالعبادات والمعاملات، وهو ما نص عليه القرآن صريحاً بقوله **﴿الذين يتبعون الرسول النبيء الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾**.

فالكلام هنا في معرض التصدي لموقف اليهود من قولهم: إنّ شريعتهم باقية إلى الأبد، فرد القرآن عليهم هذا القول، وأعلمهم بأنّ هذا أمر الله وحكمه وهو يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد. من هنا نعلم أنّ هذه الآية جاءت مبينة لرفع بعض أحكام الشرائع السابقة، وإتيان أحكام أنسب وأصلح للناس، ونقل ما فيها من صلاح يتمشى مع الإنسان في كل مكان وزمان، وجاءت رادة لما يعتقده اليهود ويدّعونه من أنّ أحكام التوراة باقية فيها لم تنقل ولم تبدل ولن تُنقل ولن تُبدّل، وأنّهم مأمورون بالعمل بها دون العمل بما جاء به القرآن. وما نجده في أقوال بعض المفسرين من أنّ المراد من قوله تعالى: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها نسخ أحكام القرآن بعضها ببعض، أو نسخ أحكام القرآن بأحكام

السنة أو العكس؛ فهو من تخريجات الفقهاء أصحاب الأصول من علم الفقه واجتهاداتهم فيه؛ ليدلّلوا على أنّ النسخ المبحوث فيه عندهم جاء به القرآن الكريم، غير أنّ هذه الآية لا تدل دلالة قاطعة، وإنّما هو استنتاج مما يوهمه مفهومها وعموم قوله (آية)، وما استندوا إليه من مأثورات ساقها أصحابها للتدليل على ما استنتجوا. والدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال كما يقول أهل النظر، وهذه الآية ليست في معرض بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بأعمال المكلفين، بل هي في موقع الرد على اليهود عندما ادعوا أنّ كتابهم لا ينسخ، وأن أحكامه لا تُبدّل.

ورُدّ عليهم فيما سبق من قوله: ﴿**وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه**﴾، وبما لحق من قوله ﴿**ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير. ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض**﴾ وهو رد على اليهود فيما ادعوه من أنّ دينهم باق لم ينسخ ولم يبدل، ولن ينسخ ولن يبدل، ولن يحيدوا عنه أبدا. وصورة الرد جاءت مقررة بالاستفهام الذي يؤكد بطلان مدّعاهم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي صرح بالنسخ والتبديل في الأحكام التي أنزلها الله على رسله، وهو القادر على كل شيء، وهو المالك لكل شيء يتصرف في ملكه كيف يشاء، فلا راد لحكمه وهو الفاعل المختار، ولهذا جاء معقباً بقوله: ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾. إذا كان ذلك كذلك فما لأحد من دون الله ولي يتولى أمره أو نصير يمنع عنه ما ينزل به من سوء العذاب ونكال العقاب. والكلام هنا موجه لجميع المخاطبين المعاصرين لنزول القرآن، فيدخل فيه اليهود دخولاً أولياً؛ لأنّهم هم المرادون في سياق هذا الموضوع. ثم كُرّر الخطابُ موجّها إلى المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ...

﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل**﴾: هذا الكلام وارد مورد السؤال للمؤمنين بعد تفنيد تلك الشبهة التي يثيرها الذين لا يؤمنون بالله، ولا يثقون في كل ما يأتيهم من عنده، ولا يطمئنون إلى حكمته وقدرته. سؤال استنكاري أن يتشبه المؤمنون بقوم موسى المتعنتين الذين لم يكونوا ليطمئنوا ويثقوا إلاّ أن يسألوه البراهين المادية والمعجزات الخوارق، أو يسألوه أسئلة الإعنات والتعنت. والإشارة في هذا السؤال إلى قوم موسى مفهومة بعدما عرض تعنتهم

وجحودهم وبطرهم وإعناتهم لرسولهم، فهم مثل يضرب في هذا كله؛ مثل بارز يستنكره الله أن يصير المسلمون إليه، وأن يسلكوا طريقه بالأسئلة المتعنتة التي تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل. وهذا التعنت والتعسف في طلب المسائل من الرسل على وجه التحدي والاستهزاء كفر وضلال... **﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾**: وهو تهديد قد يردع المتعنت الهازل ويوقظ المقلد الغافل؛ ولكن الحقود الحاسد يستمر في غيّه سادراً ولا يلتفت إلى العواقب...

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير﴾: ذلك ما يفعل الحقد اللئيم بالنفوس؛ الرغبة في نزع الخير الذي يهتدي إليه الآخرون. لماذا؟. لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم، ولكن بعد ما تتبين وتعلم!. وهكذا يحاول أهل الكتاب أن يردوكم كافرين بعد إيمانكم أيّها المؤمنون حسداً من عند أنفسهم. والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس، وتمني زوال النعمة عن الآخرين. إنّ معرفتهم أنّه الحق لا تثير في نفوسهم أن يسابقوكم إليه؛ لأنّ ذلك الانفعال يصدهم عن الخير الذي لم يكونوا هم أصحابه، ولم يشإ الله أن يخصهم به. وهنا، وفي اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة وتنكشف فيها النية السيئة، هنا يدعو القرآن أصحابه إلى الارتفاع عن ملابسات المواقف الحاضرة، ونوازع النفس البشرية؛ يدعوهم إلى أن يكونوا فوق ذواتهم، وإلى أن يكونوا أكبر من حاضرهم؛ يدعوهم إلى الصفح والعفو عن المساءة، وعن النوايا السيئة، وعن الانفعالات الخسيسة. وهكذا يصرف قلوبهم عن الانفعال بالغيظ من سوء النية، وعلى الحنق ممن يكرهون لهم الخير، وعن التفكير في الانتقام أو الاضطغان؛ يصرف قلوبهم عن هذا كله ليصون لها سمعتها ورضاها وطمأنينتها، ويوجهها إلى العمل المنتج، ويصون طاقتها عن التبدد في الانفعالات الرديئة، وعن التلوث بسموم الحقد والكراهية والضغينة، ويردها إلى الله بالعبادة وعمل الخير... **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إنّ الله بما تعملون بصير﴾**.

التوجيه الثاني: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾: يوجه فيه إلى موقف اليهود

والنصارى بعضهم من بعض؛ يعرض فيه مقال كل فريق عن نفسه بأنّه هو الذي يستحق الجنة دون غيره، وهي مقالة نابعة من أوهامهم دالة على أثرتهم، ومن كراهية الخير للغير، ومن الرغبة في احتجاز فضل الله ورحمته؛ فهي قولة لا تستند على واقع ولا على منطق، إنّما تستند على هواء، على مجرد الأماني والآمال. وكثير ما يتخيل المرء ثم يخال!. كثيرا ما يرغب في الأمر ثم ينسى أنّها مجرد رغبة، فيخاله قد صار حقيقة. وتلك سمة الذين لا يملكون عقولهم ولا يواجهون الواقع، بل يهربون من الحقائق لأنّ احتمالهم أضعف من مواجهة الحقائق، لأنّهم لا برهان لهم بطبيعة الحال. ولما كانت هذه الدعاوى لا يقبلها العقل السليم، ولا تتمشى مع المنطق الفهيم، بين لهم المبدأ الصحيح القويم، ووجههم إلى الصراط المستقيم. وهي قاعدة أساسية في مبدإ الإسلام التي جاء بها جميع الرسل عليهم السلام، وكل من حاد عن هذا المبدإ لا يُعتد بفعله، ولا يُسمع لقوله...

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾: في هذه الآية يقرر قاعدة الإسلام الكلية في ترتيب الجزاء على العمل، وعلى العمل وحده بلا محاباة لأمة ولا لجنس ولا لطائفة ولا لفرد. فهنا تبرز سمة الإسلام الأولى؛ إسلام الوجه، والوجه رمز للإنسان كله، ومن أسلم وجهه فقد أسلم نفسه، ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام. وهو محسن: والمراد بالإحسان هنا الإحسان الشرعي كما بينه رسول الله ﷺ في جوابه لجبريل «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»، ومعناه الإخلاص والإتقان، فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فقد ضمن الأجر وضمن الأمن وضمن المسرة. تلك هي القاعدة المطلقة التي يستوي عندها عباد الله جميعا، لا مَن كانوا هودا أو نصارى، ولا من كانوا مسلمين أيضاً، ما لم يستوفوا هذين الشرطين العامَين: الإسلام المطلق لله، وإحسان العمل في الحياة. فلا محسوبية ولا تمييز عند الله. وبعد، فلقد كان قولهم الذي قالوا: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودا أو نصارى، ذلك بينما اليهود يجبهون النصارى، والنصارى يجبهون اليهود، ويتهم كل فريق منهما الفريق الآخر بالضلال والفراغ...

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾: فيعد هؤلاء وهؤلاء، أنّ اليهود كانوا على كتاب من

الله، وأنّ النصارى كذلك على كتاب من الله، فإمّا أن يعتقدوا أنّهم على حق ليتسق هذا مع قولهم: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودا أو نصارى، وإمّا أن يعتقدوا أنّهم على غير الحق بعدما جاءهم الإسلام، فهم أولى إذن بألا يقولوا قولتهم تلك، ولكنهم لا يفيئون إلى هذه ولا تلك، إنّما هو الاضطراب واللجاج الذي يميل مع الهوى ومع الرغبة الخاصة في أن يحتجز كل منهما الخير لنفسه والفضل لذاته، وأن يعاند في الحق ويجادل، لأنّ التسليم للحق قد يفقده شيئا من عرض الدنيا، أو لا يتفق مع الأثرة الخبيثة والحسد الوبيل. وكم في الدنيا من أمثال ذينك الفريقين من اليهود والنصارى الذين كانوا يواجهون الإسلام يومذاك. فكم في الدنيا من شيع وفرق وأحزاب يجبه بعضها بعضاً بكل كبيرة، ولكنها جميعاً تقف في وجه الإسلام ودعوته؛ لأنّ هنالك رابطة من الضلالة، ورابطة من المصلحة، ورابطة من العناد تؤلف بينهم جميعاً على ما بينها من خلاف وشقاق وتعادٍ. . .

﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾: يشبه هذا القولُ قول فريق آخر غير الفريقين، وهؤلاء الذين لا يعلمون هم مقابل الذين يتلون الكتاب وأريد بهم مشركو العرب. وإطلاق الذين لا يعلمون على المشركين وارد في القرآن، والمراد بهم الذين قالوا: إنّ محمداً ليس على شيء. . . **﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾**: فهو الحَكَمُ العدْل وإليه تصير الأمور، وهذه الإحالة إلى حكم الله الأخير هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق ولا من عقل، ولكن من هوى ومن رغبة، فلا جدوى في جدالهم، فلن يفيئوا أبدا إلى منطق معقول.

التوجيه الثالث: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾: هذه الآية تتحدث عمّا حصل من قريش، وهم قادة مشركي العرب؛ منعوا النبيء وأصحابه من دخول مكة عندما أرادوا زيارتها عام الحديبية، وتبيّن أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممّن قبلهم. وحكم الآية يشمل كل حالة مماثلة وقعت أو ستقع سواء بهذا المنع أو بالهدم والتخريب، والنتيجة واحدة في النهاية. كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة ويقرر أنّه وحده الذي يليق أن

يكون جزاء، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين. ولقد صدق الله وعده وحقق جزاءه هذا في المسجد الحرام في عام فتح مكة، فأعلن الرسول ﷺ أنّ من دخل المسجد الحرام آمن، فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش بعد أن كانوا هم الذين يصدون عنه رسول الله والمسلمين. . .

﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله إنّ الله واسع عليم**﴾: فيه ارتباط في السياق بين الإشارة إلى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه استبداداً وافتياتاً وبين تقرير أنّ المشرق والمغرب لله، وأينما تولوا فثم وجه الله، لإشعار القلوب التي تبتغي أن تسلم نفسها إلى الله وتتوجه إلى حماه، بأن المنع من المساجد لا يمنع من قبول التوجه، وأنّ كل مكان على الأرض مسجد، وأنّ التوجه إلى الله لا يتقيد بجهة ولا يتقيد بمكان؛ فأينما تولوا فثمّ وجه الله إنّ الله واسع عليم. بعد هذه الإشارة المعترضة إلى مساجد الله ومنع المؤمنين أن يذكروا اسم الله، عاد الكلام إلى مقالات اليهود والنصارى والمشركين، وإلى تفنيد أوهامهم وأباطيلهم منذ قولهم: ﴿**لن يدخل الجنة إلاّ من كان هودا أو نصارى**﴾، ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء**﴾، ﴿**وقال الذين لا يعلمون مثل قولهم**﴾، عاد إلى تفنيد فرية جديدة اتفق عليها الجميع. . .

﴿**وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه! . بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون. بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون**﴾: هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أنسب وأليق تصور يملكه البشر لتلك الحقائق جميعاً. لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توجه الإرادة المطلقة: كن فيكون. وتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدرة له بدون وسط من قوة أو مادة، أمّا كيف تتصل هذه الإرادة التي لا يعرف كنهها الإنسان بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه؛ لأنّ الطاقة البشرية دون إدراكه. ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه وهي تحاول كشف هذا السر، وتفترض فروضاً تتبع الإدراك البشري المحدود، تصل أحياناً إلى حدٍ مضحك لا يدري الإنسان كيف يصدر عن فيلسوف، وما ذلك كله إلاّ لأنّ أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن

مداه المقدر له، فلم ينتهوا إلى شيء يطمئن إليه. وعصم الإسلامُ أهلَه المؤمنين به الفاهمين له أن يحاولوا هذه المحاولات الفاشلة، فلمّا أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية - على وجه خاص - أن يتطاولوا إلى هذا المرتقى باءوا بالتعقيد والتخليط، وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء حدوده وفوق طبيعته. والنظرية الإسلامية هنا: أنّ الخلق غير الخالق، وأنّ الخالق ليس كمثله شيء. ومن هنا تنتفي من التفكير الإسلامي الصحيح فكرة «وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح، بمعنى أنّ الوجود وخالقه وحدة واحدة، أو أنّ الوجود شعاع ذاتي للخالق، أو أنّ الوجود هو الصورة المرئية لموجده، أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس. والوجود وحده في نظر المسلم على معنى آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه، والله ليس كمثله شيء، والوجود صدر عن توجه الإرادة إلى إيجاده بكيفية غير معلومة، لأنّها فوق الإدراك البشري، والله هو المبدع، فما أبدعه الله ليس هو الله، وليس صورة لله... والله له ما في السماوات والأرض كل له قانتون: فليس أحد ممن خلق ابناً له، ولا بضعة منه سبحانه، إنّما هي كلمته هي أمره هي إرادته: إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون...

﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾: المراد بالذين لا يعلمون المشركون فقد قالوا **﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾**، وقالوا **﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾**، وهذا القول قاله من قبلهم من اليهود والنصارى. إنّ هذه القولة وليدة تصور خاطئ، ووليدة التحدي والتعنت؛ إنّها سمة مكررة في البشرية تظهر كلّما انحرفت الفطرة وضلت البصيرة... **﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾**: على اختلاف الزمان والمكان... **﴿قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون﴾**: قد بيّنا الآيات لقوم يظهرون اليقين ويعترفون بالحق، لا لقوم مثلكم من المكابرين؛ فالقوم الذين دأبهم الإعراض عن النظر والمكابرة بعد ظهور الحق ليسوا من الموقنين.

التوجيه الرابع: ﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾: الخطاب هنا موجّه إلى الرسول ﷺ بياناً لوظيفته وتحديداً لتبعاته، وكشفاً للتعلات التي يتمسك بها أهل الكتاب ويتلكأون بها على الإيمان، فكان

لتذكير الله إيّاه بأنّه أرسله، تهديةٌ لخاطره الشريف وعذرٌ له إذ أبلغ الرسالة، وتطمين لنفسه بأنّه غير مسؤول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم، وفيه تمهيد للتأييس من إيمان اليهود والنصارى!..

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾: تلك هي العلة الأصيلة؛ إنّهم لا يطلبون برهاناً ولا يحاولون اقتناعاً، ولو صنعت لهم ما صنعت ولو تودّدت إليهم ما تودّدت، فإنّ ذلك لن يرضيهم إنّما يرضيهم أمر واحد: أن تتبع ملتهم!. وهذه لهي العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل مكان، ونسمع عنها في كل زمان، فهم دائماً واقفون أمام دعوة القرآن، يصدون عنه كل من يريد الدخول فيه من بني الإنسان، إنّهم يتعللون بشتى العلل في عدم قبوله، وفي عدم الهشاشة لأهله. والسبب الكامن وراء العلل جميعاً أنّهم لا يستريحون لوجود الإسلام أصلاً، ومهما بذل المسلمون من جهد لإرضائهم فلن يرضوا إلاّ أن يترك المسلمون هذا الدين، وإنّه من العبث أن يُسترضوا، لأنّهم لن يرضوا عن المسلمين ما داموا مسلمين!. فمن شاء أن يدفع هذا الثمن من دينه لإرضاء اليهود والنصارى فذلك هو الثمن الوحيد، وما سواه من ترضيات فمردود!. ولكن الأمر الحازم الجازم هنا هو... **﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى﴾**: فلا براح منه ولا فكاك عنه ولا محاولة فيه ولا ترضية على حسابه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وحذار أن تميل بك الرغبة في استرضائهم قيد أنملة عن ذلك الجواب الحازم...

﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾: فهي الأهواء إذن تلك التي تميل بهم إلى التعلات والأوهام والأباطيل؛ وهدى الله هو وحده الهدى الذي لاعوج فيه ولا هوى. وهذا الخطاب بالتهديد والوعيد جاء محذراً كل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى. جاء على طريقة تحذير النبيء ﷺ مثل: لئن أشركت ليحبطن عملك...
﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾: الكتاب هنا كل كتاب أنزله الله. وتلاوته حق التلاوة فهم مقاصده، ويدخل في هذا التوراة والإنجيل. واليهود والنصارى إن كانوا يؤمنون بكتابهم فليتلوه تلاوة حقة كما أنزله الله دون تغيير أو تأويل. والكتاب الذي ذكر هنا فيه أوصاف الرسول الخاتم، والتوراة والإنجيل فيهما التصريح القاطع بأوصاف هذا

الرسول وكتابه الجامع المانع. وهذا حكم على اليهود والنصارى الذين يدعون أنّهم مؤمنون، لأنّهم يكفرون بمحمد صراحة، ويكفرون بالتوراة والإنجيل ضمنا، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون.

التوجيه الخامس: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين**﴾: هنا يتجه الكلام مرة أخرى لليهود ليهتف بهم الهتاف الأخير بعد الاستعراض الطويل الخطير، والمقصود منه التنبيه والإنذار والتذكير. وقد أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنالك للتنبيه على نكتة التكرير لزيادة التذكير... ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون**﴾: هذه هي الكلمة الأخيرة في مسير قصة اليهود الخطيرة؛ فقد بان لكل ناظر بصير ولكل فاهم خبير أنّ اليهود هم اليهود، وأنّهم أخطر قومية في الوجود؛ فهم أولياء الشيطان، وقادة الكفر والطغيان، حرفوا نصوص الدين وخرّبوا مساجد المؤمنين، ولا يزالون سائرين على هذا العمل المشين حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

10 ـ المفارقة والمقارنة بين العرض السابق، وبين موقف إبراهيم وبنيه من العرض اللاحق

النص

۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿123﴾
وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن
مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ
أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿124﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿125﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿126﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ
وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿127﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿128﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿129﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿130﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿131﴾

* أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿132﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿133﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿134﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿135﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿136﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿137﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿138﴾ أَمْ تَقُولُونَ

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿139﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿140﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ابتلى**﴾: اختبر وامتحن، والابتلاء في أصل اللغة الاختبار، وهو تطلب الخبرة بحال المختَبر، بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه... ﴿**بكلمات**﴾: جمع كلمة، والكلمة لفظ يدل على معنى، والمراد بها هنا الجمل، مثل قوله تعالى ﴿**كلا إنّها كلمة هو قائلها...**﴾ ﴿**فأتمهن**﴾: أتى بهن كاملة وافية ﴿**وإبراهيم الذي وفى...**﴾ ﴿**قال إنّي جاعلك للناس إماماً**﴾: الإمام: من يُؤتم ويُقتدى به، يقال منه: أممت القوم فأنا أؤمُّهم أمّا وإمامة إذا كنت إمامهم، ومعناه هنا: إنّي مصيّرك تؤم من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي فتتقدم أنت ويتبعون هديك ويستنون بسنتك التي تعمل بها بأمري إيّاك ووحي إليك، والإمام مشتق من الأَمّ وهو القصد... ﴿**ومن ذريتي**﴾: الذرية: نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقة إمّا من الذر اسماً وهو صغار النمل، وإمّا من الذر مصدراً بمعنى التفريق، وإمّا من الذرى والذرو وهو مصدر ذرّت الريح إذا سفت، وإمّا من الذرء بالهمز وهو الخلق... ﴿**قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾: ينال مضارع نال نيلاً إذا أصاب شيئاً والتحق. والعهد: الوعد المؤكد...

﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة**﴾: الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا،

والبيت في أصل اللغة الاستقرار ليلاً، فأطلق على المكان المستقر فيه، وهو المكان المتخذ للسكن في غرض من الأغراض، وقد يكون خاصاً وهو الغالب، وقد يكون لجماعة مثل بيت الطلبة، ولا يكون بيتاً إلاّ إذا كان مقراً وكنّاً يكِنُّ من البرد والحر، وتسمية الكعبة بالبيت تسمية قديمة. والمثابة: مفعلة من ثاب يثوب إذا رجع، والمراد بالمثابة أنّه يقصده الناس بالتعظيم ويلوذون به... ﴿**للناس وأمناً**﴾: الناس: سكان مكة من ذرية إسماعيل وكل من يجاورهم ويدخل في حلفهم؛ فتعريف الناس للجنس المعهود. والأمن: حفظ الناس من الأضرار، والأمن يُفسر في كل حال بما يناسبه. والجعل في قوله... وإذ جعلنا البيت: إمّا الجعل التكويني؛ لأنّ ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية ويسرهم إلى تعظيمه، وإمّا الجعل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه إبراهيم ابنه إسماعيل وبثه في ذريته، فتلقاه أعقابهم تلقي الأمور المسلمة...

﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾: مقام إبراهيم: يطلق على الكعبة؛ لأنّ إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده. والمصلى: موضع الصلاة... ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾: العهد هنا: بمعنى الوصية لتعديته بإلى، فالمعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل، والمراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ، ومن تطهير معنوي، وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأعمال المنافية للحق والمنافية للمروءة. والطائفون والعاكفون والراكعون والساجدون أصناف المتعبدين في البيت...

﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا**﴾: البلد: كل قطعة من الأرض مستجيزة عامرة أو غامرة، والبلدة الجزء المخصص مأخوذ من قولهم بلد بالمكان بلوداً، بمعنى أقام بها واتخذها بلداً. والآمِن: اسم فاعل من أمن ضد خاف، وهو عند الإطلاق عدم الخوف من عدو ومن قتال، وقد يطلق الأمن على عدم الخوف مطلقا... ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾: الثمرات: جمع ثمرة، وهي ما تحمل به الشجرة وتنتجه مما فيه غذاء للإنسان أو فاكهة له... ﴿**ثم أضطره إلى عذاب النار**﴾: الاضطرار في الأصل الالتجاء، وهو بوزن افتعل مطاوع أضرّه إذا صيره ذا ضرورة، يقال: اضطره إلى كذا، بمعنى ألجأه إليه... ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد**

من البيت﴾: القواعد: جمع قاعدة، وهي أساس البناء الموالي للأرض الذي به ثبات البناء. ورفع القواعد: إبرازها من الأرض والاعتلاء بها لتصير جداراً. . . **﴿أمّة مسلمة لك﴾**: الأمّة: اسم مشترك يطلق على معان كثيرة، والمراد منها هنا الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال، مشتقة من الأم وهو القصد. . .

﴿وأرنا مناسكنا﴾: المناسك: جمع منسك، وهو اسم مكان بمعنى مكان العبادة، والاسم النسك - مثلثة النون - العبادة وكل حق لله، ومعنى أرنا مناسكنا هنا متعبداتنا. . . **﴿وتب علينا﴾**: تاب الله عليه ووفقه للتوبة، والتوبة الرجوع عن المعصية ومعناها هنا اقبل توبتنا. . . **﴿يتلو عليهم آياتك﴾**: يقرؤها عليهم قراءة تذكير، والآيات جمع آية، وهي الجملة من جمل القرآن؛ سمّيت آية لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيها دلالة صدور مثلها من أُمّي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس على الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله. والحكمة هنا العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده. والتزكية: التطهير من النقائص. . . **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه﴾**: الرغبة: طلب أمر محبوب فحق فعلها أن يتعدى بفي، وقد يتعدى بعن إذا ضمن معنى العدول عن أمر، وكثر هذا التضمين في الكلام حتى صار منسياً. والملة: الدين. وسفِه: بمعنى استخف؛ لأنّ السفاهة خفة العقل واضطرابه، يقال تسفهه استخفه، ومنه السفاهة في الفعل، وهو ارتكاب أفعال لا يرضى بها أهل المروءة، والسفه في المال هو إضاعته وقلة المبالاة به وسوء تنميته، وسفهه بمعنى استخفّه وأهانه؛ لأنّ الاستخفاف ينشأ عنه الإهانة، وسُفِه صار سفيها. . .

﴿وأوصى بها إبراهيم بنيه﴾: الإيصاء: أمر أو نهي يتعلق بصلاح المخاطب خصوصا أوعموما، وفي فَوْتِه ضُرٌّ، وأوصى ووصىّ، ومصدر وصَّى توصية، ومصدر أوصى إيصاء، وأوصاه ووصّاه عهد إليه، والاسم الوصاية والوصية والوصاة، والوصِي الموصِي والموصَى، وهي وَصي أيضا، والجمع أوصياء. . . **﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾**: الشهداء جمع شهيد، وهو الشاهد بمعنى الحاضر للأمر والشأن. . . **﴿تلك أمة قد خلت﴾**: مضت لسبيلها، يقال للذي قد مات فذهب قد خلا؛ لتخليه من الدنيا وانفراده بما كان من الأنس بأهله

وقرنائه في دنياه، وأصله من قولهم: خلا الرجل إذا صار بالمكان الذي لا أنيس له فيه وانفرد من الناس، فاستعمل ذلك في الذي يموت على ذلك الوجه... ﴿**لها ما كسبت**﴾: جمعت من العمل... ﴿**ولا تسألون**﴾: غير مطالبين ولا مؤاخذين بأعمال من خلا لسبيله... ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾: قالت اليهود اتبعوا اليهودية تهتدوا، وقالت النصارى اتبعوا النصرانية تهتدوا، والمعنى هنا: أنّ من لم يكن يهودياً لا يراه اليهود مهتدياً، ومن لم يكن نصرانياً لا يراه النصارى مهتدياً... ﴿**قل بل ملة إبراهيم حنيفاً**﴾: ملة إبراهيم: شريعته التي هي دين الله. والحنيف: فعيل بمعنى فاعل مشتق من الحنَف، وهو الميل في الرِّجْلِ، والمراد هنا الميْل في المذهب عن الباطل إلى الحق... ﴿**قولوا آمنا بالله**﴾: الإيمان والأمن والمأمن والآمن والأمين والأمانة والأمنة، وكلمة (أ م ن) ومشتقاتها كلها تعطي معنى التحرر من الغش والخديعة، كما تعني الاطمئنان وراحة الضمير، فإذا انتقلت إلى الإيمان بالله والعمل الصالح والإيمان بالرسول وما أنزل عليه، فإنّها تحمل معها هذه الدلالات والشحنات المعنوية. في هذا الإطار اللغوي تدور كلمة الإيمان، وهو إطار واسع، ولكنه ينتهي عند الاطمئنان والثقة وانعدام القلق النفسي وراحة العقل والطمأنينة من الخوف، ولذلك حين ما نقل إلى المعنى الديني أضيف إليه المفهوم الاصطلاحي الذي هو الاعتراف بالله وتصديق ما جاء به نبيئه وقبول شريعته، ثم ما وراء هذا الاعتراف والتصديق من كل اطمئنان نفسي يتصل بالله أو بالدين أو بالنبيء، وما شرّع للنبيء من أحكام وما يتبع ذلك من راحة الضمير.

والكلمة تتعلق أساساً بالقلب؛ سواء في معناها اللغوي، أو في المفهوم الذي أعطاها القرآن، وهي تردد عشرات المرات في أغلب سوره. فالثقة عند المستجير مثلاً لا تكون إلاّ بالقلب، والإيمان بالغيب مثلاً لا يكون إلاّ بالقلب، وهكذا الأمانة من الخيانة الأمن من الخوف. فنجد أنّ صلة الإيمان بالقلب مفهوم أساسي في كل استعمال معنوي للكلمة، بل حتى في الاستعمال المادي لها نجد صلة الكلمة بالاطمئنان والثقة القلبية. من هنا نرى أنّ الإيمان يتضمن شمولية مطلقة بالمحسوسات والمغيبات على السواء؛ أن تؤمن يعني أن تسلم نفسك وروحك لله ولمن جاء من عند الله، وهم الأنبئاء والرسل...

﴿**لا نفرق بين أحد منهم**﴾: أحد: معناه واحد في الأصل، وتصريفه واحد،

ولكن اختلفت مواقع استعماله المتفرعة على أصل وضعه، حتى صارت بمنزلة معان متعددة. . . **﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾**: تقدم معناه في بحث اشتقاق الإيمان قريباً. . . **﴿وإن تولوا فإنّما هم في شقاق﴾**: الشقاق: شدة المخالفة مشتق من الشَّق، وهو الفلق وتفريق الجسم، ومعناه هنا الخلاف والعداوة، ومعنى. . . **﴿فسيكفيكهم الله﴾**: كفاية شرهم وشقاقهم. . . **﴿صبغة الله﴾**: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو دين الإسلام، وأصل الصبغة صبغ، وهو الشيء الذي يصبغ به، واتصاله بعلامة التأنيث لإرادة الوحدة، فالصبغة الصبغ المعين المحضر لأنّ يصبغ به.

مبحث الإعراب:

﴿وإذ﴾: الواو للعطف، إذاً ظرف للزمن الماضي متعلق بما تعلق به مثله وهو اذكر، وهو عطف جملة على ما قبله. **﴿ابتلى﴾** فعل ماض. **﴿إبراهيم﴾** مفعول به. **﴿ربُه﴾** فاعل، والضمير فيه مضاف إليه، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. **﴿بكلمات﴾** متعلق بابتلى. **﴿فأتمّهن﴾** الفاء للعطف والترتيب، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم. **﴿قال﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ربّه. **﴿إنّي﴾** إنّ واسمها. **﴿جاعلك﴾** خبرها، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿للناس﴾** متعلق بجاعل. **﴿إماماً﴾** مفعول ثان لجاعل، والمفعول الأول المضاف إلى جاعل، وهو ضمير المخاطب. **﴿قال﴾** مثل سابقه. **﴿ومن ذريتي﴾** الواو حرف عطف داخلة على فعل دعاء مقدر، أي: واجعل، من ذريتي متعلق به، وياء المتكلم في المجرور مضاف إليه في محل جر. **﴿قال﴾** مثل ما سبقه مع الفرق في إعادة الضمير الفاعل بين ما يعود على الله وبين ما يعود على إبراهيم. **﴿لا ينال﴾** فعل مضارع منفي بلا. **﴿عهدي﴾** فاعل ينال مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وعهدي مضاف وياء المتكلم مضاف إليه. **﴿الظالمين﴾** مفعول به منصوب بالياء، والجمل بعد قال في محل نصب مقول القول.

﴿وإذ جعلنا﴾ مثل وإذ ابتلى. **﴿البيت﴾** مفعول أول. **﴿مثابة﴾** مفعول ثان. **﴿للناس﴾** متعلق بما قبله. **﴿وأمنا﴾** معطوف على مثابة. **﴿واتخذوا﴾** فعل وفاعل. **﴿من مقام﴾** متعلق باتخذوا. **﴿إبراهيم﴾** مضاف إلى مقام. **﴿مصلى﴾** مفعول به.

﴿**وعهدنا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلى إبراهيم**﴾ متعلق بعهدنا. ﴿**وإسماعيل**﴾ معطوف على إبراهيم. ﴿**أن طهّرا**﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، وأن تفسيرية، وألف المثنى فاعل. ﴿**بيتي**﴾ مفعول به. ﴿**للطائفين**﴾ متعلق بطهّرا. ﴿**والعاكفين والركع السجود**﴾ معطوفات على الطائفين. ﴿**وإذ قال**﴾ مثل وإذ ابتلى في العطف والإعراب. ﴿**إبراهيم**﴾ فاعل قال. ﴿**ربّ**﴾ منادى منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف. ﴿**اجعل**﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على ربّ. ﴿**هذا**﴾ في محل نصب مفعول أول. ﴿**بلداً**﴾ مفعول ثان. ﴿**آمنا**﴾ نعت له، وجملة ربّ اجعل في محل نصب مقول القول. ﴿**وارزق أهله**﴾ مثل اجعل هذا في الإعراب. ﴿**من الثمرات**﴾ متعلق بارزق. ﴿**من**﴾ اسم موصول في محل نصب بدل من بعض من قوله: أهله. ﴿**آمن**﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على مَنْ، والجملة صلة الموصول. ﴿**منهم**﴾ متعلق بآمن. ﴿**بالله**﴾ مثل ما قبله. ﴿**واليوم**﴾ معطوف على بالله. ﴿**الآخر**﴾ نعت لليوم.

﴿**قال**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**ومَنْ**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**كفر**﴾ صلة من. ﴿**فأمتعه**﴾ الفاء رابطة، أمتعه فعل مضارع، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير يعود على ربّ. ﴿**قليلاً**﴾ نعت لمصدر مقدر، وجملة فأمتعه خبر. ﴿**ثمّ**﴾ حرف عطف. ﴿**أضطره**﴾ معطوف على أمتعه، وهو مثله في الإعراب. ﴿**إلى عذاب**﴾ متعلق بأضطره. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**وبئس**﴾ الواو للعطف، بئس فعل ماض. ﴿**المصير**﴾ فاعل. ﴿**وإذ**﴾ مثل ما قبله من الظروف. ﴿**يرفع**﴾ فعل مضارع. ﴿**إبراهيم**﴾ فاعل. ﴿**القواعد**﴾ مفعول به. ﴿**من البيت**﴾ متعلق بمحذوف حال من القواعد. ﴿**وإسماعيل**﴾ معطوف على إبراهيم. ﴿**ربّنا**﴾ منادى منصوب بالفتحة وحرف النداء محذوف، وضمير المتكلمين مضاف إلى ربّ، وهو في محل نصب مقول لقول مقدر. ﴿**تقبل**﴾ فعل دعاء مبني على الجزم، والفاعل ضمير يعود على ربّ. ﴿**منّا**﴾ متعلق بتقبل. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أنت**﴾ ضمير فصل. ﴿**السميع**﴾ خبر إنّ. ﴿**العليم**﴾ خبر ثان، وجملة إنّك تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ربّنا**﴾ مثل السابقة. ﴿**واجعلنا**﴾ فعل دعاء، والضمير المتصل به مفعول أوّل. ﴿**مسلمين**﴾ مفعول ثان منصوب بالياء. ﴿**لك**﴾ متعلق بمسلمين.

﴿**ومن ذريّتنا**﴾ متعلق باجعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أمّة**﴾ مفعول ثان.

﴿مسلمة﴾ نعت لأمّة. ﴿لك﴾ متعلق بالنعت. ﴿وأرنا مناسكنا﴾ معطوف على اجعلنا، وهو مثله في الإعراب. ﴿وتُبْ﴾ معطوف كذلك. ﴿علينا﴾ متعلق بتُبْ. ﴿إنّك أنت التواب الرحيم﴾ مثل إنّك أنت السميع العليم في الإعراب. ﴿ربنا وابعث﴾ مثل ربنا واجعلنا. ﴿فيهم﴾ متعلق بابعث. ﴿رسولا﴾ مفعول به. ﴿منهم﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسول. ﴿يتلو﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو، والفاعل ضمير يعود على رسول. ﴿عليهم﴾ متعلق بيتلو. ﴿آياتك﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يتلو في محل نصب نعت لرسول. ﴿ويعلّمهم﴾ معطوف على يتلو، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿الكتاب﴾ مفعول ثان. ﴿والحكمة﴾ معطوف على الكتاب. ﴿ويزكّيهم﴾ معطوف على يتلو. ﴿إنّك أنت العزيز الحكيم﴾ سبق إعراب مثلها قريباً. ﴿ومن﴾ الواو للعطف، من نافية اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿يرغب﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على مَن، والجملة خبر مَن. ﴿عن ملّة﴾ متعلق بيرغب. ﴿إبراهيم﴾ مضاف إلى ملّة مجرور بالفتحة. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿من﴾ بدل من فاعل يرغب مبني على السكون في محل رفع. ﴿سفه﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على فاعل يرغب، والجملة صلة الموصول. ﴿نفسَه﴾ مفعول به والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ولقد﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وقد للتحقيق. ﴿اصطفيناه﴾ فعل وفاعل ومفعول به. ﴿في الدنيا﴾ متعلق باصطفيناه. ﴿وإنّه﴾ الواو للعطف، إنّ واسمها. ﴿في الآخرة﴾ متعلق بالصالحين بعده. ﴿لمن الصالحين﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿إذ﴾ متعلق باصطفينا. ﴿قال﴾ فعل ماض. ﴿له﴾ متعلق به. ﴿ربّه﴾ فاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿أسلم﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير يعود على إبراهيم، وجملة أسلم في محل نصب مقول القول، وجملة قال في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿قال: أسلمت﴾ فعل وفاعل. ﴿لرب﴾ متعلق بأسلمت. ﴿العالمين﴾ مضاف إلى رب مجرور بالياء، وجملة أسلمت مقول القول. ﴿وأوصى﴾ فعل ماض. ﴿بها﴾ متعلق بأوصى. ﴿إبراهيم﴾ فاعل. ﴿بنيه﴾ مفعول به منصوب بالياء، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿ويعقوب﴾ معطوف على إبراهيم. ﴿يابني﴾ منادى منصوب بالياء المدغمة في ياء المتكلم، وياء المتكلم في محل جر بالإضافة، والفتحة حركة تخفيف، وجملة يابني في محل نصب مقول لقول مقدر. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها.

﴿اصطفى﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة خبر إنّ. **﴿لكم﴾** متعلق باصطفى. **﴿الدين﴾** مفعول به. **﴿فلا﴾** الفاء للتعقيب، لا للنهي. **﴿تموتن﴾** فعل مضارع مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة المحذوف فاعل، والنون للتوكيد. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء مفرغ. **﴿وأنتم مسلمون﴾** الجملة من المبتدإ والخبر في محل نصب حال من ضمير الجماعة المرفوع المحذوف لالتقاء الساكنين. **﴿أم﴾** حرف عطف. **﴿كنتم﴾** كان واسمها. **﴿شهداء﴾** خبر كان. **﴿إذ﴾** ظرف في محل نصب. **﴿حضر﴾** فعل ماض. **﴿يعقوب﴾** مفعول به. **﴿الموتُ﴾** فاعل، وجملة حضر في محل جر مضاف إلى الظرف. **﴿إذ قال﴾** مثل إذ حضر. **﴿لبنيه﴾** متعلق بقال. **﴿ما﴾** اسم استفهام. **﴿تعبدون﴾** فعل وفاعل، والجملة خبر ما. **﴿من بعدي﴾** متعلق بتعبدون، وياء المتكلم في محل جر مضاف إلى بعد، وجملة ما تعبدون؟. في محل نصب مقول القول.

﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. **﴿نعبد﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير المتكلمين (نحن). **﴿إلهك﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وإلهَ﴾** معطوف على إلهك. **﴿آبائك﴾** مضاف إلى إله والضمير فيه مضاف إليه، وجملة قالوا نعبد جوابية لا محل لها من الإعراب. **﴿إبراهيم﴾** مجرور بالفتحة عطف بيان لآبائك. **﴿وإسماعيل﴾** معطوف على إبراهيم. **﴿وإسحاق﴾** كذلك. **﴿إلها﴾** بدل من إلهك. **﴿واحدا﴾** نعت له. **﴿ونحن﴾** الواو للحال، نحن في محل رفع مبتدأ. **﴿له﴾** متعلق بما بعده. **﴿مسلمون﴾** خبر مرفوع بالواو. **﴿تلك﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿أمة﴾** خبره. **﴿قد﴾** حرف تحقيق. **﴿خلت﴾** فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على أمّة، وجملة قد خلت في محل رفع نعت لأمّة. **﴿لها﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿ما﴾** في محل رفع مبتدأ مؤخر. **﴿كسبت﴾** الجملة من الفعل والفاعل صلة الموصول، وهي نعت ثان لأمّة. **﴿ولكم ما كسبتم﴾** معطوف على لها ما كسبت، مثلها في الإعراب. **﴿ولا تسألون﴾** فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا، وواو الجماعة نائب الفاعل. **﴿عمّا﴾** متعلق بتسألون. **﴿كانوا﴾** كان واسمها. **﴿يعملون﴾** الجملة من الفعل والفاعل خبر كان، وجملة كانوا يعملون صلة ما. **﴿وقالوا﴾** عطف على ما تقدم. **﴿كونوا﴾** كان واسمها. **﴿هودا﴾** خبرها. **﴿أو نصارى﴾** معطوف عليه منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. **﴿تهتدوا﴾** مجزوم في جواب الأمر. **﴿قل﴾** فعل أمر. **﴿بل﴾** حرف اضراب

إبطالي. ﴿**ملّة**﴾ مفعول بفعل مقدر، والتقدير بل نتبع ملّة. ﴿**إبراهيم**﴾ مضاف إلى ملّة مجرور بالفتحة. ﴿**حنيفاً**﴾ حال من المضاف إليه. ﴿**وما كان من المشركين**﴾ هذه جملة منفية حال ثانية من إبراهيم.

﴿**قولوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**آمنّا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**بالله**﴾ متعلق بآمنّا. ﴿**وما**﴾ معطوف على الله في محل جر. ﴿**أُنزل**﴾ الجملة من الفعل ونائب الفاعل صلة ما. ﴿**إلينا**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**وما أنزل إلى إبراهيم**﴾ مثلها. ﴿**وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾ معطوفات على إبراهيم. ﴿**وما أوتي موسى وعيسى**﴾ إعرابها مثل إعراب وما أنزل إلينا. ﴿**وما أوتي النبيئون من ربّهم**﴾ مثل ما سبقها في الإعراب. ﴿**لا نفرّق**﴾ فعل مضارع منفي بلا، والفاعل ضمير المتكلمين نحن. ﴿**بين**﴾ ظرف مكان متعلق بنفرق. ﴿**أحد**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لأحد. ﴿**ونحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**مسلمون**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**فإنْ**﴾ الفاء للتفريع، ﴿**إنْ**﴾ شرطيّة. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل فعل الشرط. ﴿**بمثل**﴾ متعلق بآمنوا. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل.

﴿**آمنتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بآمنتم. ﴿**فقد**﴾ الفاء رابطة للجواب، وقد حرف تحقيق. ﴿**اهتدوا**﴾ فعل وفاعل، وجملة فقد اهتدوا في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وإن تولوا**﴾ جملة شرطية مثل ما قبلها. ﴿**فإنّما**﴾ رابطة للشرط. ﴿**هم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**في شقاق**﴾ متعلق بمحذوف خبر، وجملة فإنّما هم في شقاق في محل جزم جواب الشرط. ﴿**فسيكفيكهم**﴾ الفاء للتفريع، والسين للتنفيس، يكفي فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، وضمير المخاطب المتصل مفعول أول، والضمير المتصل بعده مفعول ثان. ﴿**اللهُ**﴾ فاعل يكفي. ﴿**وهو السميع العليم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على الجملة الفعلية قبلها. ﴿**صبغة**﴾ منصوب بالفتحة مفعول مطلق نائب عن عامله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى صبغة. ﴿**ومَنْ**﴾ في محل رفع اسم استفهام مبتدأ. ﴿**أحسنُ**﴾ خبره. ﴿**من الله**﴾ متعلق به. ﴿**صبغة**﴾ تمييز منصوب بالفتحة. ﴿**ونحن**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**له**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**عابدون**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر معطوفة على قوله آمنا خبر المبتدإ.

﴿قل﴾: فعل أمر. ﴿أتحاجوننا﴾ الهمزة للاستفهام، تحاجوننا فعل وفاعل ومفعول. ﴿في الله﴾ متعلق به. ﴿وهو ربّنا﴾ جملة حالية. ﴿وربّكم﴾ معطوف على ربّنا. ﴿ولنا أعمالنا﴾ كذلك. ﴿ولكم أعمالكم﴾ مثلها. ﴿ونحن له مخلصون﴾ مثل الجمل السابقة. ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي. ﴿يقولون﴾ فعل وفاعل. ﴿إنّ إبراهيم﴾ إنّ واسمها. ﴿وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ معطوفات على إبراهيم. ﴿كانوا﴾ كان واسمها. ﴿هوداً﴾ خبرها منصوب بالفتحة ﴿أو نصارى﴾ معطوف عليه منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة كانوا في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ إبراهيم في محل نصب مقول القول. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿أأنتم﴾ الهمزة للاستفهام، أنتم في محل رفع مبتدأ. ﴿أعلمُ﴾ خبره. ﴿أم﴾ حرف عطف. ﴿اللهُ﴾ معطوف على أنتم. ﴿ومن﴾ الواو للعطف، من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿أظلمُ﴾ خبره. ﴿ممّن﴾ متعلق به. ﴿كتم﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على من. ﴿شهادة﴾ مفعول به، وجملة كتم صلة مَن. ﴿عنده﴾ متعلق بمحذوف نعت لشهادة. ﴿من﴾ ﴿الله﴾ كذلك. ﴿وما﴾ الواو للعطف، وما نافية تعمل عمل ليس. ﴿الله﴾ اسمها. ﴿بغافل﴾ جُرّت بحرف الجر لفظاً ونصبت محلاً لأنّها خبر ليس. ﴿عمّا﴾ متعلق بغافل. ﴿تعملون﴾ فعل وفاعل صلة ما. **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون﴾** تقدم إعراب مثلها قريبا.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات﴾: ربط هذه الآيات بما قبلها؛ لما كمُلت الحُججُ نهوضاً على أهل الكتابين ومشركي العرب في عميق ضلالهم بإعراضهم عن الإسلام، وتبيّن سوءُ نواياهم التي حالت دون الاهتداء بهديه والانتفاع بفضله، وسجل ذلك على زعماء المعاندين، وهم اليهود ابتداء بقوله: يا بني إسرائيل مرتين، وأدمج معهم النصارى استطراداً مقصوداً، ثم أُنصف المنصِفون منهم الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته، انتقل إلى توجيه التوبيخ والتذكير إلى العرب الذين يزعمون أنّهم أفضلُ ذرية إبراهيم وأنّهم يتعلّقون بملّته، وأنّهم زرع إسماعيل وسدنة بيته الذي بناه، وكانوا قد وخزوا بجانب من التعريض في خلال المحاورات التي

جرت مع أهل الكتاب، للصبغة التي جمعتهم وإيّاهم، من حسد النبيء والمسلمين على ما أنزل عليهم من خير، ومن قولهم: ليس المسلمون على شيء، ومن قولهم: اتخذ الله ولداً، ومن قولهم: لولا يكلمنا الله.

فلما أخذ اليهود والنصارى حظهم من الإنذار والموعظة كاملاً فيما اختصوا به، وأخذوا مع المشركين حظهم من ذلك فيما اشتركوا فيه، تهيّأ المقام للتوجه إلى مشركي العرب لإعطائهم حظهم من الموعظة كاملاً فيما اختصوا به، فمناسبة ذكر فضائل إبراهيم ومنزلته عند ربه، ودعوته لعقبه عقب ذكر أحوال بني إسرائيل هي الاتحاد في المقصد، فإنّ المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف بالنقم، تحريضُهم على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية والتجرد من المكابرة والحسد وترك الحظوظ الدنيوية لنيل السعادة الأخروية. والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظةُ المشركين ابتداءً وبني إسرائيل تبعاً له؛ لأنّ العرب أشد اختصاصاً بإبراهيم من حيث إنّهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمه، ومنتمين قديماً للحنيفية ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفية بخلاف أهل الكتابين، فحقيق أن نجعل قوله: وإذ ابتلى إبراهيم عطفاً على قوله: وإذ قال ربك للملائكة، كما دل عليه افتتاحه بإذ على نحو افتتاح ذكر خلق آدم بقوله ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة**﴾، فإنّ الأول تذكير بالخلق الأول، وقد وقع عقب التعجب من كفر المشركين بالخالق في قوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم. ثم عقبت تلك التذكرة بإنذار من يكفر بآيات الله من ذرية آدم. . . بقوله: فإمّا يأتينكم مني هدى. . . الآية.

ثم خُصَّ من بين ذرية آدم بنو إسرائيل الذين عهد إليهم على لسان موسى عهد الإيمان وتصديق الرسول الذي يجيء مصدقاً لما معهم، لأنّهم صاروا بمنزلة الشهداء على ذرية آدم، فتهيأ المقام لتذكير الفريقين بأبيهم الأقرب وهو إبراهيم. ويكون المقصود بالخطاب فيه ابتداءً العرب، ويضم الفريق الآخر معهم في قَرَن، ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر البيت الحرام وما تبعه إلى أن ذكرت القبلة وسط ذلك، ثم طوى بالانتقال إلى ذكر سلف بني إسرائيل بقوله. . . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت: ليفضي إلى قوله: وقالوا كونوا هوداً أونصارى تهتدوا؛ فيرجع إلى تفضيل الحنيفية والإعلام بأنّها أصل الإسلام وأنّ المشركين

ليسوا في شيء منها وكذلك اليهود والنصارى. وقد افتتح ذكر هذين بفضل ذكر الأبوين: آدم وإبراهيم، فجاء الخبران على أسلوب واحد على أبدع وجه وأحكم نظم، فتعين أنّ تقدير الكلام: واذكر إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات. والآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوّه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في دعوى اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذا النسب وهذه الصلات، كذلك تجيء المناسبة لتقرير وحدة الدين الإلهي واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي الاحتكار عنه في أيدي أمة أو جنس، وبيان أنّ الدين فكرة مجردة من مثل هذه العصبيات الصغيرة، وأنّ وراثتها ليست ناشئة من صلات الدم، ولكنها ناشئة من صلات القلب، فمن آمن بها ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بوراثتها من أبناء الصلب، ومن أقرباء النسب، فالدين دين الله، وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر.

هذه الحقيقة الكبرى يُجلّيها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء العجيب، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع؛ يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم منذ أن ابتلاه ربّه فاستحق نعمته وفضله وتنصيبه إماما للناس، إلى أن نشأت الأمة المسلمة برسالة محمد ﷺ فاستحقت وراثة هذه الإمامة، دون ذرية إبراهيم جميعا بذلك السبب الوحيد الذي يفضي إلى هذه الوراثة؛ سبب الإيمان بالرسالة وحسن القيام عليها وتأديتها حق أدائها. وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز أنّ الإسلام - بمعنى إسلام الوجه لله وحده - كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة.

هكذا اعتقد إبراهيم وهكذا اعتقد من بعده اسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى؛ فمن استقام على العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث بشاراتها وعهودها، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتمكين. عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنّهم ورثة إبراهيم وبنيه، لأنّ هذه الوراثة سقطت عنهم منذ أن تخلّوْا عن العقيدة الخالدة؛ عقيدة الإسلام لله بلا وسيط ولا شريك، وعندئذ تسقط كل

دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته، لأنّهم فقدوا حقهم في وراثة باني البيت وراعيه، منذ أن حادوا عن طريقته ونقضوا عهده مع الله في ذريته وبنيه. كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب، فلنأخذ في استعراض هذا النسق - في ظل هذا البيان المنير- على الترتيب. وصيغة الافتعال في قوله: ابتلى للمبالغة، وهو مجاز مشهور فيه، لأنّ الذي يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمنا انتظار فعله أو تركه، فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز، والمراد هنا التكليف، لأنّ الله كلفه بأوامر ونواهٍ، وتقديم المفعول وهو لفظ إبراهيم، لأنّ المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم ربّه إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل: وإذ ابتلى الله إبراهيم.

وقوله: ﴿**فأتمهن**﴾ جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال، وتعدية فعل أتم إلى ضمير كلمات مجاز عقلي، وهو من تعليق الفعل بحاوي المفعول لأنّه كالمكان له، فالأفعال هنا بمعنى إيقاع الفعل على الوجه الأتم، فدلّ قوله: أتمهن مع إيجازه على الامتثال وإتقانه والفور فيه... ﴿**قال ومن ذريتي**﴾: هذا جواب صدر من إبراهيم، فلذا حكى بقال دون عاطف على طريقة حكاية المحاورات... ﴿**قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾: استجابة مطوية بإيجاز، وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه، واختيار لفظ عهدي هنا لأنّ اليهود زعموا أنّ الله عهد لإبراهيم عهداً بأنّه مع ذريته. وفي الآية تنبيه على أنّ أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم! وهو الإشراك بالله... ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا**﴾: أعيدت إذ للتنبيه على استقلال القصّة، واتصلت بما قبلها بواو العطف... ﴿**واتخَذُوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، ليكون هذا الاتخاذ من آثار ذلك الجعل...

﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾: المراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير؛ من محسوس بأن يحفظ من الأوساخ، ومن تطهير معنوي، وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه، وفي هذا تعريض بأنّ المشركين ليسوا أهلاً لعمارة المسجد الحرام. وقد جمع الطائف والعاكف جمع سلامة، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير تفنناً في

الكلام وبعداً عن تكرير الصيغة أكثر من مرّة، ولم يعطف السجود على الركّع لأنّ الوصفين متلازمان. . . **﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمنا﴾**: اتصل الكلام بما قبله بالعطف لإفادة منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام في استجابة دعوته بفضل مكة والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، وتنبيه ثالث لمشركي مكة يومئذ ليتذكروا دعوة أبيهم إبراهيم المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر حتى خص من ذريته بدعوته المؤمنين، فيعرض المشركون أنفسهم على الحال التي سألها أبوهم، فيتضح لهم أنّهم على غير تلك الحالة. ولما كان البيت لم يُعمّر بعدُ جاء نكرة هنا، وبعد ما عُمّر جاء معرفاً بأل، وفي سورة إبراهيم **﴿رب اجعل هذا البلد آمنا. . .﴾**

﴿وارزق أهله من الثمرات﴾: في دعاء إبراهيم هنا أن يرزق الله أهل هذا البيت من الثمرات، احتراس واستثناء وتعيين لماذا يعني؟. . **﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾**: وعندئذ يجيئه رد ربه مكملاً ومبيناً عن الشطر الآخر الذي سكت عنه إبراهيم. . . **﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾**: وقوله: ثم أضطره إلى عذاب النار احتراس من أن يغتر الكافر بأنّ تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله، فلذلك ذكر العذاب هنا، وقوله: **﴿وبئس المصير﴾** تذييل. . . **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**: اتصل الكلام بما قبله بالعطف، وصيغة الاستقبال (يرفع) لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة، فاستعمالها هنا استعارة تبعية، وأصل تسمية القاعدة مجاز عن اللصوق بالأرض، وعطف إسماعيل على إبراهيم تنويه به إذ كان معاونه ومناوله. وللإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول والمتعلقات، وجملة. . . **﴿ربنا تقبل منّا إنّك أنت السميع العليم﴾**: مقول قول محذوف، وجملة إنّك أنت السميع العليم تعليل لطلب التقبل منهما. وتعريف جزئي هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى. . .

﴿ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم﴾: فائدة تكرير النداء إظهار الضراعة إلى الله تعالى،

وإظهار أنّ كل دعوة من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ومن هنا ابتدئ التعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن التوحيد واتبعوا الشرك، والتمهيد لشرف الدين المحمدي. وفي قوله: ﴿**إنّك أنت التواب الرحيم**﴾ تعليل للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة... ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنّك أنت العزيز الحكيم**﴾: كرر النداء لأنّه عطف غرض آخر في هذا الدعاء، وهو غرض الدعاء بمجيء الرسالة ذريته لتشريفهم وحرصاً على تمام هديهم، وإنّما قال: فيهم، ولم يقل: لهم؛ لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة فلا يكون ذلك الرسول رسولا إليهم فقط، ولذلك حذف متعلق رسولا ليعم. وجيء بالمضارع في قوله: يتلو للإشارة إلى أنّ هذا الكتاب تتكرّرُ تلاوتُه. وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها، لأنّ أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعاليم معانيه، قال تعالى ﴿**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنّ علينا بيانه**﴾ ثم بالعلم تحصل التزكية، وهي في العمل بإرشاد القرآن.

وقوله: إنّك أنت العزيز الحكيم تعليل للدعاء وإجابة المسؤول، فإنّ وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول، ووصف العزة مستدع امتناع وجود المانع بالمرة... ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه**﴾: موقع هذه الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل: فإنّه لما بين فضائل إبراهيم من قوله: وإذ ابتلى إلى هنا، علم أنّ صاحب هذه الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلاّ سفيه العقل أفن الرأي، فمقتضى الظاهر أن تعطف على سوابقها بالفاء، وإنّما عدل من الفاء إلى الواو ليكون مدلول هذه الجملة مستقلا بنفسه في تكميل التنويه بشأن إبراهيم، وفي أنّ هذا الحكم حقيق بملة إبراهيم من كل جهة لا من نصوص ما حكى عنه في الآيات السابقة، وفي التعريض بالذين حادوا عن الدين الذي جاء متضمناً لملة إبراهيم، والدلالة عن التفريع لا تفوت، لأنّ وقوع الجملة بعد سوابقها متضمنة هذا المعنى دليل على أنّها نتيجة لما تقدم، كما تقول: أحسن فلان تَدْبِيرَ المُهِمّ، وهو رجل حكيم، ولا يحتاج أن تقول: فهو رجل حكيم.

والمقصود من قوله تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه،

تسفيه المشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام بعد أن بيّن لهم الرسول ﷺ أنّ الإسلام مُقام على أساس الحنيفية، وهي معروفة عندهم بأنّها ملّة إبراهيم. . .
﴿**ولقد اصطفيناه في الدنيا**﴾: اتصلت هذه الجملة بما قبلها بالعطف، للدلالة على رفعة درجة إبراهيم عند الله تعالى إذ جعله للناس إماماً، وضمن له النبوءة في ذريته، وأمره ببناء مسجد لتوحيده، واستجاب له دعواته. وقد دلّت تلك الجمل على اختيار الله إيّاه، فلا جرم أعقبت بعطف هذه الجملة عليها، لأنّها جامعة لفذلكتها، وزائدة بذكر أنّه سيكون في الآخرة من الصالحين. واللام جواب قسم محذوف، وفي ذلك اهتمام بتقرير اصطفائه وصلاحه في الآخرة. ولأجل الاهتمام بهذا الخبر الأخير أكد بقوله: ﴿**وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. . .**﴾

﴿**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**﴾: إذ هنا ظرف لاصطفيناه وما عطف عليه، القصد منه التخلص إلى منقبة أخرى، والأمر هنا تمثيل، والالتفات إلى الخطاب مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته. وإضافة الرب في جوابه إلى العالمين للإيذان بكمال قوّة إسلامه. . . ﴿**وأوصى بها إبراهيم بنيه**﴾: لما كان من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم، كان من مكملات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متبعا مشهورا، فكان من سنتهم التوصية لمن يظنونهم خلفاء عنهم في الناس، وأدمج في الوصية مع إبراهيم يعقوب، مقصود به تذكير اليهود بوصية جدهم. . .

وقوله: ﴿**إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون**﴾ فيه إشارة إلى أنّ الله اختار لهم الدين الإسلامي، وأنّه فضلهم به. ومعنى فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون النهي عن مفارقة الإسلام في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة. وللعرب في النهي المراد منه النهي عن لازمه طرق ثلاث:
الأول: أن يجعلوا المنهي عنه ممّا لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه، مثل قولهم: لا تنس كذا، لا أعرفك تفعل كذا.
الثاني: أن يكون المنهي عنه مقدوراً للمخاطب، ولا يريد المتكلم النهي عنه، ولكن عمّا يتصل به أو يقارنه، فيجعل النهي في اللفظ عن شيء، ويقيّده بمقارنه للعلم بأنّ المنهي عنه مضطر لإيقاعه، فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه، نحو

قولك: لا أراك بثياب مشوهة، ومنه: فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون. الثالث: أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول، ويجعله مقيداً لاحتمال المقام لأن يكون النهي عن الأمرين إذا اجتمعا، ولو لم يفعل أحدهما، نحو: لا تجئني سائلاً...

﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾... الخ الآية: هذا تفصيل لوصية يعقوب بأنّه أمر أبناءَه أن يكونوا على ملة إبراهيم، وهي نظير ما أوصى به إبراهيم بنيه. فأجمل هنا اعتماداً على ما صرح به في قوله سابقا: يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون. وهذا تنويه بالحنيفية التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قول اليهود والنصارى: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، وإبطال لزعمهم أن يعقوب كان على اليهودية. والاستفهام هنا مجاز، وهو أم كنتم شهداء؛ ومحمله على الإنكار لأنّه أشهر محامل الاستفهام المجازي؛ فالمخاطب هنا اليهود، وأنّ الإنكار متوجه إلى اعتقادٍ اعتقدوه يُعْلَمُ من سياق الكلام وسوابقه. وفائدة قوله: إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟. استقلال الخبر وأهمية القصة وقصد حكايتها على ترتيب حصولها، وقصد الإجمال بعد التفصيل، لأنّ حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه السامع، وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطلع على خالص طويتهم، ليلقي إليهم ما سيوصيهم به. وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون من، لأنّ ما هي الأصل عند قصد العموم؛ لأنّه سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون.

وجملة... **﴿قالوا نعبد إلهك﴾**: جواب عن قوله: ما تعبدون؛ جاءت عن طريق المحاورات بدون واو... **﴿وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾**: في الإتيان بعطف البيان في قولهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ضرب من محسّن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف. وقوله: ونحن له مسلمون جملة جيء بها اسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه، بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار... **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون﴾**: عقبت الآيات المتقدمة من قوله: وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بهذه الآية؛ لأنّ تلك الآيات تضمنت الثناء على إبراهيم وبنيه، والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم.

وكان ذلك مما قد يَنْتَحِلُ منه المغرورون عذراً لأنفسهم، فيقولون: نحن - وإن قصرنا - فإنّ لنا من فضل آبائنا مسلكا لنجاتنا، فذكرت هذه الآية أنّ الجزاء بالأعمال لا بالاتكال. وأسند الخلوّ إلى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة المبالغة. والخبر هنا كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة. والخطاب موجه إلى اليهود، والمعنى: لاينفعكم صلاحُ آبائكم إذا كنتم غير متبعين طريقتهم، وتقديم المسندين على المسند إليهما لقصر المسند إليه على المسند، وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين؛ فإنّهم لغرورهم يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من الفضائل يُزيل ما ارتكبوه من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافُهم. وقوله: ولا تسألون عمّا كانوا يعملون من تمام التفصيل لمعنى خلت... ﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾: الجملة متصلة بما قبلها بالعطف، والواو في قالوا عائدة لليهود والنصارى بقرينة مساق الخطاب. وأوْ في قوله: أو نصارى تقسيم بعد الجمع، لأنّ السامع يرد كلا إلى من قاله. وجزم تهتدوا في جواب الأمر للإيذان بمعنى الشرط ليفيد بمفهوم الشرط: أنّكم إن كنتم على غير اليهودية والنصرانية فلستم بمهتدين...

﴿**قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾: جرّدت جملة قل من العاطف لوقوعها في مقام الحوار مجاوبة لقولهم: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. وانتصب ملة بإضمار نتبع لدلالة المقام؛ لأنّ كونوا هودا بمعنى اتبعوا. وقوله: وما كان من المشركين احتراس لئلا يغتر المشركون بقوله: بل ملة إبراهيم...

﴿**قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيئون من ربّهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾: هذا تفصيل لكيفية ملة إبراهيم بعد أن أجمل قبلُ. والأمر بالقول أمر بما يتضمنه، والمقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هذه الملة، ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطوية؛ ليرغب في ذلك الراغبون، ويكمد عند سماعه المعاندون، وليكون هذا كالاحتراس بعد قوله: قل بل ملة إبراهيم حنيفاً، بمعنى: نحن لا نطعن في شريعة موسى وشريعة عيسى وما أوتي النبيئون ولا نكذبهم، ولكنا مسلمون لله بدين الإسلام الذي بقي على أساس ملة إبراهيم،

وكان تفصيلاً لها وكمالاً لمراد الله منها حين أراد الله إكمالها، ومن مناسبات هذا المعنى: أن ابتدئ بقوله: وما أنزل إلينا، واختتم بقوله: ونحن له مسلمون.

ووسط ذكر ما أنزل على النبيئين بعد ذلك، وجمع الضمير ليشمل النبيء ﷺ والمسلمين، فهم مأمورون بأن يقولوا ذلك... ﴿**فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنّما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾: جاء الشرط هنا بحرف إنْ المفيدة للشك في حصول شرطها إيذاناً بأنّ إيمانهم غير مرجوّ، والمماثلة هنا بمعنى المساواة في العقيدة، وليست مشابهة معتبراً فيها تعدد الأديان. وقوله: فإن تولوا فإنّما هم في شقاق بمعنى قد تبين أنّهم ليسوا طالبي هدى ولا حقّ؛ إذ لا أَبْيَنَ من دعوتكم إيّاهم، ولا إنصاف أظهر من هذه الحجة. وجيء بفي في قوله: في شقاق للدلالة على تمكن الشقاق منهم، حتى كأنّه ظرف محيط بهم. وفرع عليه قوله: فسيكفيكهم الله على قوله: فإنّما هم في شقاق تثبيتا للنبيء ﷺ لأنّ إعلامه بأنّ هؤلاء في شقاق مع ما هو معروف من كثرتهم وقوة أنصارهم ممّا قد يتحرج له السامع، فوعده الله بأنّه سيكفيه شرهم الحاصل من توليهم. وفي قوله: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم وعد ووعيد وتذييل لتقريرهما...

﴿**صبغة الله**﴾: أطلقت هذه اللفظة على وجه المشاكلة؛ لأنّ أصل إطلاقها على ماء المعمودية الذي كان معروفاً عند النصارى ومن قبلهم كان عند اليهود، فقوله: صبغة الله رد على اليهود والنصارى معاً. ولمّا كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأنّ صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله: قولوا آمنا بالله، إلى قوله: ونحن له مسلمون. فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة، وهي مشابهة حسّنها قصد المشاكلة. والاستفهام في قوله: ﴿**ومن أحسن من الله صبغة**﴾؟! إنكاري، ومعناه: لا أحسن من الله صبغة. وجملة ﴿**ونحن له عابدون**﴾ عطف على آمنّا. وفي تقديم الجار والمجرور على عامله إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية لكنّهم عبدوا المسيح...

﴿**قل أتحاجوننا في الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون**﴾: هذا خطاب لأهل الكتاب؛ لأنّه جواب كلامهم السابق، ولدليل قوله الآتي: ﴿**أم يقولون إنّ إبراهيم**﴾.. الخ. والاستفهام للتعجب والتوبيخ. ومعنى

المحاجة في الله الجدال في شؤونه بدلالة الاقتضاء؛ إذ لا محاجة في الذات بما هي ذات، ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله وكرامته، فلذلك كان قوله: وهو ربّنا وربّكم موقع في تأييد الإنكار، والمعنى: بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجّونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم أنّ الله اختصكم بالفضيلة، مع أنّ الله ربنا كما هو ربكم، فلماذا لا يمنّ علينا بما منّ به عليكم؟. فجملة وهو ربنا حالية، وهي حالة معروفة لا تقبل الشك. وبهذه الجملة حصل بيانٌ لموضوع المحاجة، وكذلك جملة ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وهي عطف على الحال ارتقاء في إبطال مجادلتهم بعد بيان أنّ الربوبية تؤهل لإنعامه كما أهّلتهم؛ ارتقى فجعل مرجع رضَى اللهِ على عباده أعمالَهُم. وتقديم الجار والمجرور للاختصاص، وعطف ولكم أعمالكم احتراس، وجملة ونحن له مخلصون عطف آخر على جملة الحال، وهي ارتقاء ثالث لإظهار أنّ المسلمين أحق بإفاضة الخير، والجملة الاسمية مفيدة الدوام على الإخلاص...

﴿أم يقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أونصارى. قل أأنتم أعلم أم الله﴾: أم هنا منقطعة بمعنى بل، وهي إضراب للانتقال من غرض إلى غرض، وفيها تقدير استفهام، وهو استفهام للتوبيخ والإنكار، وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم. والأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غروراً ومن دون تدبر، اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل، واجتمعت في عقائدها المتناقضات. وقد استفيد من التقرير في قوله: قل أأنتم أعلم أم الله؟!. أنّه أعلمهم بأمْرٍ جهلته عامتهم وكتمته خاصتهم، ولذلك قال...

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾؟: يشير خاصة إلى الأحبار والرهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطإ والغرور والضلالة، وهم ساكتون لا يغيِّرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم، وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته، وظنت جهالتها علما، فلم ينجح فيها إصلاح بعد ذلك؛ لأنّها ترى المُصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا **﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون﴾**!. وقوله **﴿...وما الله بغافل عما تعملون﴾**: تهديد... **﴿تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون﴾**: هذا تكرير لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السامعين اهتمامًا بما تضمنه، ومثل هذا التكرير وارد في كلام العرب منه الكثير.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن قال إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**﴾: فيه تنبيه السامع إلى فضائل ومناقب إبراهيم عليه السلام، حيث شرفه ربّه بما أوحى إليه من الشرائع التي جاء بها، وهي الدين القيم والحنيفية السمحة. وقد أتى بها كاملة وأداها لمن بعده من أبنائه وأحفاده دون تغيير. فكان إماماً رسولاً من أولي العزم، وصار أباً للأنبياء والرسل من بعده دون منازع، فهو إمام بمعناها اللغوي والشرعي، ولا يرثه في الرسالة والنبوءة والإمامة إلاّ من كان مثله طائعاً قانتاً لله حنيفاً وما كان من المشركين. ومن هنا خرج اليهود والنصارى والمشركون من هذا الميراث العظيم...

قال ومن ذريتي. قال لا ينال عهدي الظالمين: وفي الآية إنذار بليغ وتخويف شديد عن وخامة عاقبة الظلم وقبح موقعه، فإنّه يحط أولاً عن رتبة النبوءة؛ لا ينال عهدي الظالمين. وثانياً عن درجة الولاية؛ ألا لعنة الله على الظالمين. وثالثا عن مرتبة السلطنة - الزعامة والوجاهة - بيت الظالم خراب ولو بعد حين. ورابعا عن نظر الخلائق بالمحبة والاحترام؛ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها. وخامسا عن حظ نفسه بحرمانها من سعادة الدنيا والآخرة؛ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ولله درّ القائل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم آخره يأتيك بالندم

نامت عيونك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

... ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾: المقصود من هذا الكلام ذكر منقبة البيت مع زيادة لذكر منقبة إبراهيم عليه السلام، وفيه المنة على ساكنيه، وهو تذكيرهم بنعمة الله بحيث جعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا وجعلوه مصلى. ودام هذا من عهد إبراهيم وإسماعيل وأبناء إسماعيل وأحفاده حتى أورثه الله محمدا وأمته، فأغنى الله عنه بما شرع من أحكام المن في الإسلام في كل مكان، وتم مراد الله تعالى. وما حدث ويحدث في البيت الحرام من إخافة أو قتل أو نهب أو سجن أو تشريد بعد ما شرع من حكم القصاص في الإسلام؛ فالمسؤول عنها من يرتكب تلك ظلماً وعدواناً ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾. ومقام إبراهيم يطلق على الكعبة؛ لأنّ إبراهيم كان

يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده. وبهذا الإطلاق جاء في قوله **﴿مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾**.

ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار كما أخرجه البخاري، وهذا الحجر يُعرف إلى اليوم بالمقام. وقد ركع النبيء ﷺ في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم، فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف. والمصلى موضع الصلاة؛ والصلاة قاعدة ثابتة من قواعد الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعا، وإنّما خصت بهذا البيت هنا تنويهاً بشأن إبراهيم وإسماعيل، وأنّ دينهما الإسلام؛ ليخرج بهذا الخصوص اليهود والنصارى والعرب المشركون الذين لم يتبعوا ما جاء به محمد ﷺ، ولهذا جاء العطف عليه بقوله تعالى... **﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بَيْتِي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾**: والمراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس، بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ، ليكون المتعبد فيه مقبلاً على العبادة دون تذكير، ومن تطهير معنوي وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عرايا دون ثياب الرجال والنساء؛ لأنّ البيت بيت الله وإبراهيم وإسماعيل مأموران بأن يقوما بتطهيره وإعداده لعباده المؤمنين، فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما فيورث بالنسب عنهما، وإنّما كانا سادنين له بأمر ربهما لإعداده لعبّاده وقصّاده من الناس جميعا...

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾: هذه منقبة أخرى لإبراهيم زيادة على ما تقدم في استجابة دعوته بفضل مكة، والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، وتنبيه آخر لمشركي مكة ليتذكروا دعوة أبيهم إبراهيم المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر حتى خص من ذريته بدعوته المؤمنين. ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإنّ أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال السعادة، ويقتضي العرف والعدل والرخاء - إذ لا أمن بدونه - وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة، فلا يختل الأمن إلاّ إذا اختلت الثلاثة الأول، وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة. وإنّما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع

الإسلام. وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم مستشعراً من رد الله عموم دعائه السابق إذ قال: ومن ذريتي لقال: لا ينال عهدي الظالمين: أنّ غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته بقوله: ومن كفر فأمتعه قليلا. . .الخ فآل المعنى هنا إلى أنّ الله تعالى يرزق سكان مكة كلَّهم مؤمنَهم وكافرَهم سواء كانوا من ذرية إبراهيم أو من غيرهم. . . **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾**: تقدمت الغاية من البناء في الآية السابقة، لأنّ الغاية تسبق العمل في الوجود. والآن يجيء وصف مرحلة البناء، ودور إبراهيم وإسماعيل فيها وهما يبتهلان بالدعاء لله. . .

﴿ربّنا تقبل منّا إنّك أنت السميع العليم: ومن دعوتهما التصريح بأن يقولا. . . ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريّتنا أمّة مسلمة لك﴾: وهو دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما التي تبقى على ما كانا عليه، فجمعا بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء. ومن دعوتهما السؤال لإرشادهم لكيفية الحج الذي أمر به من قبل أمرا مجملا. . . **﴿وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنّك أنت العزيز الحكيم﴾**: وكأنّهما يقرران بهذا وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ورعاية البيت الحرام، وكأنّما يحقق الله لهما دعوة ورجاء، إذ يرسل في أهل هذا البيت ذلك الرسول. وإذن فمن كان يربط ديانته من اليهود والنصارى، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش فليسمع: إنّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه بالإمامة، قال له ربه: لا ينال عهدي الظالمين، ولما أن دعا لأهل البيت بالرزق والبركة خصص بدعوته: من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره وإعداده للجميع، كانت دعوتهما أن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث في أهل البيت رسولاً منهم. . فاستجاب لهما ربهما وأرسل من أهل البيت محمداً رسولاً، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله. هذه هي ملة إبراهيم، لا يرغب عنها إلاّ ظالم لنفسه، سفيه عليها مستهتر بها، فالإسلام - إسلام الوجه كله لله - كان دينَ إبراهيم ودين بنيه من المخلصين. . .

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾: ثم

يخطو السياقِ خطوة أخرى، فيكشف عن وصية إبراهيم لبنيه بهذا الدين يصل بها إلى يعقوب، وهو إسرائيل أبو الأسباط وجد اليهود. . . **﴿وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾**: إنّ الحقيقة الجديدة التي يكشف عنها هنا: هي أنّ هذا الدين قد اختاره الله واصطفاه لإبراهيم وذريته من الصالحين، فأبسط ما يوجبه فضل الله والشكر على نعمة اختياره واصطفائه، أن يبذل أبناء إبراهيم وورثته جهدهم، ويجعلوه قصدهم مدة حياتهم، وها هي الفرصة سانحة أمام من بقي منهم، فقد جاءهم الرسول الذي يدعو إلى الإسلام. . . فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون.

التوجيه الثاني: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾: هذا التوجيه للمخاطبين المدعين أن يعقوب مات على اليهودية، وأوصى بها فلزمت ذريته. إنّما يعقوب وأبناؤه، وهم الأسباط مؤمنون بالله متبعون شريعة آبائهم؛ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، كذلك ظلت وصية إبراهيم مرعية في أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصّون نصّاً على أنّهم مسلمون بذلك المعنى الواسع؛ معنى توحيد الله بلا شريك، والاستسلام لله دون معارضة، وتوحيد دينه ورسالاته ورسله أجمعين. وهنا يظهر الفارق بين الأمة التي خلت، وبين الأمة التي خلفت بعدها وسارت على غير طريقها، فلا مجال للصلة، ولا مجال للتعلق بوراثة قد تقطعت أسبابها بين السابقين واللاحقين. . . **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون﴾**: فلكل منهما حساب، ولكل منهما طريق. في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم يعرض السياق قولة أهل الكتاب للمسلمين: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، فتبدوا هذه القولة خالية من الأسانيد مجردة من الحق، لا تقوم إلاّ على ادعاء باطل وتعنّت مرذول. . . **﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**.

التوجيه الثالث: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيئون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾: هذا التوجيه للمسلمين ليردوا على أهل الكتاب دعوتهم إلى دينهم ليكونوا مهتدين مثلهم!. ثم هو إعلان

للوحدة الكبرى للدين من لدن إبراهيم إلى عيسى ابن مريم بلا تفرقة ولا تعصب، ودعوة إلى الإيمان بهذا الدين الواحد. فإمّا آمنوا مع المسلمين، وإمّا تولوا فهم في نزاع بينهم وخصام، ولا على المسلمين منهم، والله بهم كفيل. تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، تلك الوحدة طابع الإسلام وميزته على سائر الأديان الوضعية الباطلة. . .

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾: هذا رد على اليهود والنصارى معاً. أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم، حيث كان الكاهن إذا أراد تقديم قربان، كفارة خطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته يغتسل من الماء المجعول لتلك الكفارة، والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضاً في عيد الكفارة عن خطايا اليهود في كل عام. وأما النصارى فهي سنة مستمرة فيهم، حيث تقرر في عادة النصارى أن من يدخل في دين النصارى وهو كبير لا بد أن يتعمد بماء يسمونه ماء المعمودية، أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم السابع من ولادته. وقد تخيل النصارى أن التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية ويُلوّنه بلونها، كما يلون الصبغ ثوباً مصبوغاً. ولما كانت المعمودية مشروعة لليهود والنصارى لغلبة تأثيرات المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله: آمنا بالله. . . إلى قوله: ونحن له مسلمون، والمعنى: إن كان إيمانكم حاصلاً بصبغة الكاهن والقسيس فإيماننا بصبغة الله، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها. تلك صبغة الله والطابع الثابت الذي يميز المسلمين. صبغة الله التي شاء لها أن تكون آخر رسالات السماء إلى الأرض، لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق، لا تعصب فيها ولا حقد، ولا أجناس فيها ولا ألوان. وقد سبق بها الإسلام كل دعوة إلى عالمية الإنسان، وما تزال دعوته قائمة لبني الإنسان.

التوجيه الرابع: **﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾**: في هذا التوجيه أمر للرسول محمد ﷺ أن يوجه إليهم هذا السؤال رداً على كلامهم السابق: كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. ولدليل قوله الآتي: أم يقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، والاستفهام هنا للتعجب والتوبيخ. ومعنى المحاجة في الله: الجدال في شؤونه، والمراد الشأن الذي حمل أهل الكتاب على المحاجة مع

المؤمنين فيه، وهو ما تضمنته بعثة محمد ﷺ من أنّ الله نسخ شريعة اليهود والنصارى، وأنّه فضّله وفضّل أمته. ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله وكرامته. فلذلك كان لقوله: هو ربّنا وربّكم موقع في تأييد الإنكار. والمعنى هنا: بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل، سوى زعمكم أنّ الله اختصكم بالفضيلة مع أنّ الله ربّنا كما هو ربّكم، فلماذا لا يمن علينا بما منّ به عليكم؟!..

﴿أم يقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾: هذا انتقال من غرض إلى غرض آخر، وفيه استفهام للتوبيخ والإنكار!. وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم. فاليهود زعموا أنّ إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية، وكذلك النصارى كما دل عليه قوله: أأنتم أعلم أم الله؟!. ولدلالة آيات أخرى عليه مثل: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**. وقوله: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾** فرماهم بفقد التعقل. والأمة إذا انغمست في الجهالة، وصارت عقائدها غروراً ومن دون تدبر، اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل، واجتمعت في عقائدها المتناقضات.

وقد استفيد من التقرير في قوله: قل أأنتم أعلم أم الله؟. أنّه أعلمهم بأمر جهلته عامتهم، وكتمته خاصّتُهم، ولذلك قال: ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله!. وهو يشير إلى خاصة الأحبار والرهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطإ والغرور والضلالة، وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم. وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته، وظنّت جهالَتها علماً، فلم ينجح فيها إصلاح بعد ذلك؛ لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا: **﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾**. وهنا تتكرر الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين، والتي تدعو أهل الكتاب ألا يربطوا أنفسهم بذلك السلف الصالح الذي هو منهم بريء... **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾**: وفيها فصل الخطاب ونهاية الجدل، بعد تقرير الحق في وراثة الإمامة وقانونها الثابت الصحيح إلى يوم القيامة.

1 ـ القبلة في الإسلام حجة على جميع الأنام

النص

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي
كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿141﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا
لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ
وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ
ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً
إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿142﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ
فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿143﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿144﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (145) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (146) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (147) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (149) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (150) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (151)﴾

البيان

مبحث المفردات اللغوية

﴿سيقول السفهاء من الناس﴾: السفهاء: جمع سفيه وهو من به طيش من خفة العقل، والجهل مقابل الحلم، والجهل مقابل العلم، وأصل السفه الخفة والحركة، ثم استعمل في اللجاج والجهل وعدم المبالاة بما يقول ويفعل، فأطلق

السفه على كل جاهل خفيف العقل، الضعيف في الرأي، الأحمق... **﴿ما ولاّهم﴾**: عدلهم عن قبلة بيت المقدس، والتولي عن الشيء الإعراض عنه، ويقال: ولاه عن كذا صرفه عنه. والقبلة: اسم مفعول كالذِّبح وتأنيثه باعتبار الجهة، ومعناها في الأصل كل ما يُستقبل، ثم أطلقت إطلاقاً شرعياً على الكعبة التي يستقبلها المصلي ويتجه إليها في كل مكان في صلاته، وهو مشتق من المقابلة بمعنى المواجهة... **﴿وكذلك جعلناكم﴾** أمةً وسطاً: الوسط من كل شيء أعدله، ومعناه هنا العدول الخيار، ويطلق على المكان الواقع بين أمكنة تحيط به، وللشيء الواقع بين أشياء تحيط به، وفيه معنى النفاسة والعزة والخيار... لتكونوا شهداء على الناس: الشهداء: جمع شهيد، وهو من يشهد على قضية ما ويؤديها كما هي دون تبديل أو إنكار...

﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾: الجعل هنا جعل التشريع، بدليل أنّ مفعوله من شؤون التعبّد. والانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي جاء منه، يقال: انقلب إلى الدار. على عقبيه: مثنى عقب، والجمع أعقاب، يطلق على مؤخر القدم... **﴿وإن كانت لكبيرة﴾**: ثقيلة شاقة، بمعنى الشدة المحرجة للنفوس، تقول العرب: كبر عليه كذا إذا كان شديداً على نفسه، ومنه: **﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم... ﴾** **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾**: الإضاعة إتلاف الشيء وإبطال آثاره. والإيمان هنا فسر على ظاهره، وفسر بمعنى الصلاة... **﴿إنّ الله بالناس لرءوف رحيم﴾**: اسمان من أسماء الله الحسنى، وأصل الرءوف والرحيم صفتان متشابهتان، مشتقتان من الرأفة والرحمة، فالرأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضر، وأمّا الرحمة فاسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام...

﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾: التقلب: مطاوع قلّبه إذا حوّله، والمراد بتقليب الوجه تحويلُه عن جهته الأصلية، فهو هنا ترديده في السماء... **﴿فلنولينّك قبلة ترضاها﴾**: لنوجّهنّك إلى جهة تميل إليها، وهي جهة الكعبة... **﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾**: الشطر: الجهة والناحية. والمسجد الحرام: المسجد المعهود عند المسلمين، والحرام المجعول وصفاً للمسجد بمعنى الممنوع منه تعظيم وحرمة، فإنّ مادة التحريم تؤذن بتجنب الشيء، فيفهم التجنب في كل

مقام بما يناسبه. . . ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾: المراد بالذين أوتوا الكتاب في الموضعين اليهود والنصارى، والمراد بكل آية آيات متكاثرة، وهي الحجة القاطعة، وإطلاق لفظ كل على الكثرة شائع في كلام العرب. . . ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم**﴾: الأهواء: جمع هوى، وهو الحب البليغ بحيث يقتضي طلب حصول الشيء المحبوب ولو بحصول ضر لمحصله، فلذلك غلب إطلاق الهوى على حب لا يقتضيه الرشد ولا العقل، ومن ثم أطلق على العشق، وشاع إطلاق الهوى في القرآن على عقيدة الضلال. . . ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه**﴾: المعرفة: تتعلق غالباً بالذوات والأمور المحسوسة، والمعنى هنا: يعرفون صفات الرسول وعلاماته المذكورة في كتبهم، ويعرفون الحق كالشيء المشاهد. . . ﴿**ولكل وجهة هو موليها**﴾: الوجهة: حقيقتها البقعة التي يتوجه إليها، فهي اسم مكان. . . ﴿**لِئَلّا يكون للناس عليكم حجة**﴾: الحجة في كلام العرب: ما يقصد به إثبات المخالف بحيث لا يجد منه تفصّياً، ولذلك يقال للذي غلب مخالفه بحجته: قد حجّه، وهو هنا بخلاف الاحتجاج، فالحجة لا تطلق حقيقة إلاّ على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف.

مبحث الإعراب

﴿**سيقول**﴾ فعل مضارع دخل عليه سين التنفيس. ﴿**السفهاء**﴾ فاعل يقول. ﴿**من الناس**﴾ بيان للسفهاء. ﴿**ما**﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿**ولاّهم**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على ما، والضمير المتصل به مفعول به، وجملة ولاّهم خبرُ ما، وجملة ما ولاّهم في محل نصب مقول القول. ﴿**عن قبلتهم**﴾ متعلق بولاّهم، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**التي**﴾ في محل جر نعت لقبلتهم. ﴿**كانوا**﴾ كان واسمها. ﴿**عليها**﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كانوا صلة الموصول. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**المشرق**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**والمغرب**﴾ معطوف على المشرق. ﴿**يهدي**﴾ فعل مضارع رفعه مقدر على الياء، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**مَنْ**﴾ في محل نصب مفعول يهدي. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يشاء صلة من، وجملة يهدي في محل نصب حال من اسم الجلالة المجرور. ﴿**إلى صراط**﴾ متعلق بيهدي. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط. ﴿**وكذلك**﴾

الواو للاستئناف، والكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعول مطلق، وذلك في محل جر مضاف إلى معنى الكاف. **﴿جعلناكم﴾** فعل وفاعل ومفعول. **﴿أمة﴾** المفعول الثاني لجعلنا. **﴿وسطاً﴾** نعت لأمة. **﴿لتكونوا﴾** اللام للتعليل، تكونوا فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وواو الجماعة اسم تكون. **﴿شهداء﴾** خبر تكون. **﴿على الناس﴾** متعلق بشهداء، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بجعلنا. **﴿ويكون الرسول﴾** معطوف على تكونوا. **﴿عليكم﴾** متعلق بما بعدها. **﴿شهيداً﴾** خبر. **﴿وما﴾** الواو للعطف، ما نافية. **﴿جعلنا﴾** فعل وفاعل. **﴿القبلة﴾** مفعول به. **﴿التي﴾** في محل نصب المفعول الثاني لجعلنا. **﴿كنت﴾** كان واسمها. **﴿عليها﴾** متعلق بمحذوف خبر كان، والجملة صلة التي. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء مفرغ. **﴿لنعلم﴾** فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل نحن. **﴿مَنْ﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿يتّبع﴾** فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على من، والجملة صلة من. **﴿الرسول﴾** مفعول به. **﴿ممن﴾** متعلق بنعلم. **﴿ينقلب﴾** فاعله ضمير يعود على من، والجملة صلة مَنْ. **﴿على عقبيه﴾** متعلق بينقلب، والضمير فيه مضاف إليه.

﴿وإن﴾ الواو للعطف، وإن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن. **﴿كانت﴾** اسمها ضمير يعود على القبلة. **﴿لكبيرة﴾** خبر كانت دخل عليه لام التوكيد. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء. **﴿على الذين﴾** متعلق بكبيرة. **﴿هدى الله﴾** فعل وفاعل صلة الذين، وجملة كانت في محل رفع خبر إن المخففة من الثقيلة. **﴿وما﴾** الواو للعطف، وما نافية. **﴿كان الله﴾** كان واسمها. **﴿ليضيع﴾** اللام لام الجحود، يضيع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل ضمير يعود على الله. **﴿إيمانكم﴾** مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه، ولام الجحود داخلة على مصدر منصوب خبر كان. **﴿إنّ الله﴾** إنّ واسمها. **﴿بالناس﴾** متعلق بخبر إنّ. وهو **﴿لرؤوف﴾** خبر إنّ. **﴿رحيم﴾** خبر ثان، والجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب. **﴿قد﴾** حرف تحقيق. **﴿نرى﴾** فعل مضارع رفعه مقدر على الألف، والفاعل نحن. **﴿تقلب﴾** مفعول به. **﴿وجهك﴾** مضاف إلى تقلب، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿في السماء﴾** متعلق بتقلب. **﴿فلنوليّنك﴾** الفاء للتعقيب، واللام لام القسم، نولينّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل نحن،

والكاف المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**قبلة**﴾ مفعول ثان. ﴿**ترضاها**﴾ فعل مضارع رفعه مقدر على الألف، والفاعل أنت، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة ترضاها في محل نصب نعت لقبلة. ﴿**فول**﴾ الفاء للتفريع، وول فعل أمر مبني على حذف الياء، والفاعل أنت. ﴿**وجهك**﴾ مفعول أول. ﴿**شطر**﴾ المفعول الثاني.

﴿**المسجد**﴾ مضاف إلى شطر. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمسجد. ﴿**وحيث ما**﴾ اسم شرط. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها، وخبرها مقدر يدل على معنى الظرفية في حيث، وهو فعل الشرط. ﴿**فولوا وجوهكم شطره**﴾ جواب الشرط لاقتران فعل الأمر بالفاء، ووجوهكم وشطره مفعولان لولوا. ﴿**وإنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**أوتوا**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل، وهو صلة الذين. ﴿**الكتاب**﴾ المفعول الثاني لأوتوا. ﴿**ليعلمون**﴾ الجملة خبر إنّ. ﴿**أنّه**﴾ أنّ واسمها. ﴿**الحق**﴾ خبرها. ﴿**من ربهم**﴾ متعلق بمحذوف حال من الحق، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول بيعلمون. ﴿**وما الله**﴾ ما واسمها. ﴿**بغافل**﴾ خبرها جر بحرف الجر الزائد لفظاً ونصبت محلاً. ﴿**عما**﴾ متعلق بغافل. ﴿**يعملون**﴾ صلة ما، وجملة وما الله بغافل تذييلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**ولئن**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، وإن شرطية. ﴿**أتيت**﴾ فعل وفاعل.

﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**أوتوا الكتاب**﴾ صلة الذين. ﴿**بكل**﴾ متعلق بأتيت. ﴿**آية**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**ما تبعوا**﴾ فعل وفاعل منفي بما، وهو جواب القسم سد مسد جواب الشرط. ﴿**قبلتك**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما أنت**﴾ ما واسمها. ﴿**بتابع**﴾ خبرها. ﴿**قبلتهم**﴾ مفعول باسم الفاعل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وما بعضهم بتابع قبلة بعض**﴾ إعرابها مثل إعراب ما أنت بتابع قبلتهم. ﴿**ولئن**﴾ مثل ما سبق قريباً. ﴿**اتبعت أهواءهم**﴾ فعل الشرط. ﴿**من بعد**﴾ متعلق باتبعت. ما اسم موصول في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**جاءك**﴾ صلة ما. ﴿**من العلم**﴾ متعلق بجاء. ﴿**إنّك**﴾ إنّ واسمها. ﴿**إذن**﴾ جوابية لا عمل لها هنا. ﴿**لمن الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب سدت مسد جواب الشرط كما تقدم في

مثلها. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آتيناهم الكتاب**﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ومفعول ثان. ﴿**يعرفونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**كما يعرفون**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالإضافة إلى معنى الكاف. ﴿**أبناءهم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وإنّ فريقاً**﴾ إنّ واسمها. ﴿**منهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لفريق. ﴿**ليكتمون الحق**﴾ فعل وفاعل ومفعول، واللام لتوكيد الخبر وهو خبر إنّ. ﴿**وهم يعلمون**﴾ جملة حالية من واو الجماعة. ﴿**الحق**﴾ مبتدأ. ﴿**من ربك**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**فلا تكونن**﴾ الفاء للتعقيب، لا ناهية، تكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا الناهية، واسمها أنت. ﴿**من الممترين**﴾ متعلق بمحذوف خبر تكون.

﴿**ولكل**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**وجهة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**موليها**﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة على الياء منع من ظهورها الثقل، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والفاء للتفريع. ﴿**أينما**﴾ اسم شرط جازم. ﴿**تكونوا**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون، وواو الجماعة اسم تكون، وخبرها محذوف يدل عليه الظرف الذي صار شرطاً. ﴿**يأت**﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء. ﴿**بكم**﴾ متعلق بيأت. ﴿**الله**﴾ فاعل يأتِ. ﴿**جميعاً**﴾ حال من الضمير المجرور. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**على كل**﴾ متعلق بالخبر بعده. ﴿**شيء**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**قدير**﴾ خبر إنّ.

﴿**ومن حيث**﴾ متعلق بقوله فولّ. ﴿**خرجت**﴾ فعل وفاعل في محل جر مضاف إلى حيث. ﴿**فولّ**﴾ الفاء للتعقيب، ولّ فعل أمر. ﴿**وجهك**﴾ مفعول بفعل الأمر، والضمير مضاف إليه. ﴿**شطر**﴾ المفعول الثاني. ﴿**المسجد**﴾ مضاف إلى شطر. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمسجد. ﴿**وإنّه**﴾ للحق جملة من إنّ واسمها وخبرها. ﴿**من ربك**﴾ متعلق بمحذوف نعت للحق. ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾ تقدم إعراب مثله. ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾ سبق إعراب مثله. ﴿**لئلا**﴾ اللام للتعليل، وأن مصدرية ناصبة، ولا نافية. ﴿**يكون**﴾ منصوب بأن. ﴿**للناس**﴾ متعلق بمحذوف خبر يكون. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**حجة**﴾ خبر يكون، وأن وما دخلت

عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بقوله: فولوا وجوهكم شطره. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مستثنى. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**منهم**﴾ بيان للذين ظلموا. ﴿**فلا تخشوهم**﴾ الفاء للتفريع، ولا للنهي، تخشوهم فعل وفاعل ومفعول. ﴿**واخشوني**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول. ﴿**ولأتم**﴾ معطوف على قوله: لئلا يكون. ﴿**نعمتي**﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها حركة المناسبة. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بأتم. ﴿**ولعلكم تهتدون**﴾ جملة من لعل واسمها وخبرها، عطف على قوله: ولأتم.

﴿**كما أرسلنا**﴾ تشبيه للعلتين السابقتين، فالكاف بمعنى مثل، وهي في محل نصب نعت لمصدر مقدر من قوله: ولأتم أو إتماماً مثل إرسالنا. ﴿**فيكم**﴾ متعلق بأرسلنا. ﴿**رسولاً**﴾ مفعول به. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لرسول. ﴿**يتلو**﴾ فعل مضارع رفعه مقدر على الواو، والفاعل هو. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بيتلو. ﴿**آياتنا**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**ويزكيكم**﴾ معطوف على يتلو. ﴿**ويعلمكم**﴾ كذلك. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول ثان. ﴿**والحكمة**﴾ معطوف على الكتاب. ﴿**ويعلمكم**﴾ مثل يزكيكم. ﴿**ما**﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول ثان ليعلم. ﴿**لم تكونوا**﴾ كان واسمها، مجزوم بلم. ﴿**تعلمون**﴾ جملة من الفعل والفاعل خبر تكون، وجملة لم تكونوا صلة ما. ﴿**فاذكروني**﴾ الفاء للتفريع عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة، اذكروني فعل أمر، وواو الجماعة فاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به. ﴿**أذكركم**﴾ جواب الأمر مجزوم بالسكون، والضمير المتصل به في محل نصب مفعول. ﴿**واشكرو لي**﴾ معطوف على اذكروني. ﴿**ولا تكفرون**﴾ معطوف على اشكرو لي، الفعل مجزوم بلا الناهية، والنون للوقاية، حذفت ياء المتكلم تخفيفاً.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**سيقول السفهاء**﴾: ربط الكلام بما قبله: كان الحديث عن المسجد الحرام؛ بنائه وعمارته وما أحاط بهما من ملابسات، والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته وعهده ووصيته، تمهيداً للحديث عن تحويل القبلة التي كان عليها النبيء في المدينة إلى المسجد الذي بناه إبراهيم وإسماعيل.

فالسياق هنا طبيعي ومنطقي، والقول سيكون في المستقبل عندما يأتي الأمر بتحويل قبلة بيت المقدس إلى قبلة البيت الحرام، وهو استعداد لما سيكون من السفهاء؛ وهو كل من يطعن في التحويل أو يعلله بعلة غير مناسبة، فيشمل اليهود والمنافقين والمشركين.

وقوله... **﴿من الناس﴾**: زيادة بيان لطوائف الكفرة المتربصين بالنبيء والمسلمين، الطاعنين دائما في تصرفاتهم وشئونهم!. ووجه الطعن هو استنكارهم بقولهم... **﴿ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾**؟!: والإخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس وإعداد ما يبكتهم، وقوله... **﴿قل لله المشرق والمغرب﴾**: جواب قاطع، وفيه إشارة إلى وجه صحة التولية إلى الكعبة، ودليله... **﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**: وقد سلك في هذا الجواب لهم طريق الإعراض والتبكيت؛ لأنّ إنكارهم كان من عناد لا عن طلب الحق، فأجيبوا بما لا يدفع عنهم الحيرة. ولم تبين لهم حكمة تحويل القبلة، ولا أحقية الكعبة بالاستقبال، وذلك ما يعلمه المؤمنون، والكلام من أسلوب الحكيم...

﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾: ذكر فضيلة أخرى للمسلمين بعد الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي فضيلة كونهم عدولاً خياراً. والتشبيه على هذا الوجه مقصود منه المبالغة بإيهام أنّه لو أراد المشبه أن يشبّه هذا في غرابته لما وجد له إلاّ أن يشبهه بنفسه. وتوجيه الخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول لتأييد ما في مضمون الكلام من التشريف، وما في الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه، وبعد منزلته في الفضل، وكمال تميزه به، وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة. والوسط في الأصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليه - كمركز الدائرة - ثم استعير للخصال المحمودة البشرية، ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنّه نفسها. وقد روعيت ههنا نكتة رائقة: هي أنّ الجعل المشار إليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته إلى الحق الذي عبر عنه بالصراط المستقيم، الذي هو الطريق السوي الواقع في وسط الطرق الجائرة عن القصد.

وقوله... **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾**: علة لجعلهم وسطاً. وقوله... **﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**: تكميل للشهادة الأولى وليستا علة ثانية. وكلمة

الاستعلاء لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن. . . ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾: جرد الخطاب للنبيء ﷺ رمزاً إلى أنّ مضمون الكلام من الأسرار الحقيقة بأن يخص معرفته به عليه الصلاة والسلام، وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل. والانقلاب على العقبين مراد به الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، وهو هنا استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام رجوعاً إلى الكفر السابق. وقوله. . . ﴿**وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله**﴾: متصل بما قبله بالعطف، والمناسبة ظاهرة؛ لأنّ جملة وإن كانت بمنزلة العلة لجملة نعلم من يتّبع الرسول، فإنّها ما كانت دالة على الاتباع والانقلاب إلاّ لأنّها أمر عظيم لا تساهل فيه، فيظهر به المؤمن الخالص من المشوب. . . ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾: الأسلوب هنا أسلوب تأكيد وتقرير وتحقيق لا تخفى على من درس وفهم قواعد النحو والبلاغة!. .

﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها**﴾: تأكيد الخبر هنا مستعمل في لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عن النبيء ﷺ، لأنّه كان حريصاً على حصول تحويل القبلة التي كان عليها، وجيء بالمضارع مع قد للدلالة على التجدد؛ وهو زيادة تأكيد الوعد. والفاء في فلنولينّك فاء التعقيب، لتأكيد الوعد بالصراحة بعد التمهيد لها بالكناية، وهذا الوعد اشتمل على عدة مؤكدات يستطيع القارئ أن يلاحظها في هذا السياق. وقوله. . . ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾: تفريع على الوعد وتعجيل به. وقوله. . . ﴿**وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره**﴾: تنصيص على تعميم حكم استقبال الكعبة لجميع المسلمين. ولما خيف إيهام أن يكون هذا الحكم خاصاً بالرسول، أو أن تجزئ فيه المرة أو بعض الجهات، أريد التعميم في المكلفين وفي جميع البلاد، ولذلك جيء بالعطف بالواو، لكن كان يكفي أن يقول وولوا وجوهكم شطره، فزيد عليه ما يدل على تعميم الأمكنة تصريحاً وتأكيداً لدلالة العموم المستفاد من إضافة شطر إلى ضمير المسجد الحرام؛ لأنّ شطر نكرة أشبهت الجمع في الدلالة على أفراد كثيرة، فكانت إضافتها كإضافة الجموع، وتأكيداً لدلالة الأمر التشريعي على التكرار تنويها بشأن هذا الحكم، فكأنه أفيد مرتين بالنسبة للمكلفين وأحوالهم: أولاهما إجمالية والثانية تفصيلية. . .

﴿وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾: إنّهم اليهود والنصارى يعلمون الحق بما يوجد في التوراة والإنجيل من أمر القبلة، فهم يعلمون أنّها قبلة إبراهيم، وهم يعلمون أنّ الإسلام هو الامتداد الطبيعي لدين إبراهيم. . . **﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾**: هذه الآية متصلة بما قبلها بواو العطف؛ لدفع توهم أن يطمع السامع باتباعهم لأنّهم يعلمون أحقيتها، فلذا أكدت الجملة الدالة على نفي اتباعهم بالقسم واللام الموطئة وبالتعليق على أقصى ما يمكن عادة، والمعنى أن إنكارهم أحقية الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة حتى تُزيلَه الحجة، ولكنه مكابرة وعناد، فلا جدوى في إطناب الاحتجاج. والمقصود من قوله: ما تبعوا قبلتك إظهار مكابرتهم تأييساً من إيمانهم، ومن قوله: وما أنت بتابع قبلتهم تنزيه النبيء ﷺ وتعريض لهم باليأس من رجوع المؤمنين إلى استقبال بيت المقدس.

وفي قوله: وما بعضهم بتابع قبلة بعض تأنيس للنبيء بأنّ هذا دأبهم وشنشنتهم من الخلاف، وجملة. . . **﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين﴾**: متصل بما قبله بواو العطف زيادة في تأكيد الأمر باستقبال الكعبة، والتحذير من التهاون في ذلك بحيث يفرض على وجه الاحتمال أنّه لو اتبع أهواء أهل الكتاب في ذلك لكان كذا وكذا، وكذلك كان الموقع لئنْ؛ لأنّ لها مواقع الشك والفرض في وقوع الشرط، وقوله: من العلم بيان لما جاءك، فجعل ما أنزل إليه هو العلم كله على وجه المبالغة، وقد بولغ في هذا التحذير على عدة مؤكدات: القسم المدلول عليه باللام. وحرف التوكيد في جملة الجزاء (إنّك). ولام الابتداء في خبرها (لمن الظالمين). واسمية الجملة. وجعل حرف الشرط الحرف الدال على الشك، وهو إنْ المقتضي: إنّ أقل جزء من اتباع أهوائهم كاف في الظلم. والإتيان بأذَنْ الدالة على الجزائية فإنّها أكدت ربط الجزاء بالشرط. والإجمال ثم التفصيل في قوله: ما جاءك من العلم، وجعل ما أُنزلَ عليه هو نفس العلم. والتعريف في الظالمين الدال على أنّه يكون من المعهودين بهذا الوصف، فهو أقوى دلالة من قوله: إنّك ظالم مثلا.

ويجب أن نقف لحظة هنا أمام ذلك التعبير الحازم الصارم في ذلك الخطاب

الإلهي إلى النبيء الكريم، إنّه سمة من سمات الإسلام الأساسية، فحتى الرسول ﷺ لا يُحابَى ولا يُجامَل ولا يلين الخطاب معه في موقف التشريع والتقرير، إنّه إمّا الطاعة والاستقامة وإمّا المواجهة والمجابهة، إنّ الحق لا مجاملة فيه ولا هوادة ولا امتياز لأحد حين يكون الأمر أمر الشريعة وأمر الدين. . . ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾: التعبير بالموصول للإشعار بعلية ما في حيز الصلة للحكم، ولهذا فصل الكلام عما قبله. والإلتفات إلى الغيبة لكون الرسول معروفا عند أهل الكتاب بوصفه في التوراة والإنجيل أنّه يصلي إلى القبلتين. والسياق يُؤَيّد المراد من قوله كما يعرفون أبناءهم محمد ﷺ، فهو معروف بأوصافه عندهم فلا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم.

وقوله. . . ﴿**وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾: تخصيص لبعض الذين أوتوا الكتاب بالعناد في أمر القبلة وفي غيره مما جاء به محمد ﷺ. . . ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾: تذييل لما قبله، والمقصود من خطاب النبيء ﷺ تحذير الأمة، وهي عادة القرآن في كل تحذير مُهِمّ. . . ﴿**ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات**﴾: هذا تذييل جامع لمعان سامية طياً لبساط المجادلة مع اليهود في أمر القبلة. وهذا الكلام موجه إلى المسلمين. والوجهة هنا مستعارة لما يهتم به من الأمور تشبيها بالمكان الموجه إليه تشبيه معقول بمحسوس، وقوله: فاستبقوا الخيرات تفريع على ما تقدم، والمراد من الاستباق هنا المعنى المجازي، وهو الحرص على مصادفة الخير والإكثار منه.

وقوله. . . ﴿**أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً**﴾: جملة في معنى العلة للأمر باستباق الخيرات، ولذلك فصلت. . . ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنّه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون**﴾: عودة إلى تقرير القبلة الجديدة، وتصريح بأنّ هذا التوجه هو الحق الذي يريده الله، وإن كان تلبية لرغبة الرسول ورضاه، ولهذا الغرض الأخير يجيء هذا التكرار. ثم توكيد للمرة الثالثة بمناسبة غرض جديد آخر. . ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة**﴾: وهكذا نجد لكل تكرار معنًى جديداً في السياق، ففي المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام تلبية لرغبة الرسول، وفي الثانية كان لإثبات أنّه

الحق من الله لا لمجرد الهوى والاتجاه، وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس. . . ﴿**إلاّ الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني**﴾: دعوهم ولا تقيموا لهم وزنا ولا يكونوا لكم في حساب، فهذا تخصيص بكم وتشريف لكم، وفي هذا إتمام النعمة وغاية الهداية. . . ﴿**ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون**﴾.

﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم**﴾: كما كان من قبل هذا إرسال الرسول محمد ﷺ، وهو معدود منكم. . . ﴿**يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾: وجاء هذا استجابة لدعوة إبراهيم: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم. . .** ﴾ ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾: إنّ النعم التي ذكرت قبل هذه الآية تستوجب ذكر المنعم وشكره، والسياق يهيئ الجو المناسب، والمناسبة هنا ذكر القبلة من أجل الصلاة، والصلاة ذكر وشكر، فهنا يجيء الأمر في أنسب ظروفه والنفوس متهيأة له ومتأهبة!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾: يوجه الله رسوله إلى أن يرد على السفهاء من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين عندما يطعنون في أمر تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، فأمره أن يقول لهم: لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وعلى هذا الجواب فلا داعي للعجب أن يولي الله بعض عباده قبلة هنا أو هناك، فلله المشرق والمغرب، وأينما تولوا فثم وجه الله. وبعد تقرير هذه القاعدة الأساسية الثابتة يأخذ السياق في كشف الحكمة المباشرة الخاصة، متجها بالحديث إلى الأمة المسلمة، لا إلى أولئك المستنكرين المستهترين؛ إنّها إعداد هذه الأمة إعداداً خاصاً، وتوجيهها مُتّجَهاً خاصاً كيما تتميز وتتخصص، وكي لا تندمج في الغمار، وكي لا تكون تابعة في قبلتها لأتباع ملة أخرى. وما استقلال القبلة إلاّ رمز لاستقلال الوجهة، واستقلال الطريق، واستقلال المنهج والسلوك. إنّها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً وتؤدي القسط للناس جميعاً، فينبغي إذنْ أن تكون لها قبلتها الخاصة ومنهجها الخاص ومقوماتها الخاصة، كي تنهض بالتبعة الكبرى وتؤدي الدور العظيم. . .

﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾: والحكمة في قوله تعالى: جعلناكم أمة وسطاً تظهر واضحة شاملة لأصحاب الرسول ﷺ ومن يقتدي بهم من كل مخلص مسلم. ونستخلص هذا الوسط بمعناه الأعم؛ أمة وسطاً في المكان، في سرة الأرض وفي أوسط بقاعها، وما تزال الأمة المسلمة إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها تشهد للناس جميعاً وتشهد على الناس جميعاً، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة؛ وعن طريقها تعبر خيرات الأرض ونتاج الإنسان من هنا وهناك؛ وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء. أمة وسطاً في الزمان: تنهي عهد الجهالة البشرية من قبلها، وتحرس رشد العقل البشري من بعدها، وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى حتى لا تذهب ضحية الخيالات، وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي على السواء.

أمة وسطاً في العقيدة: لا تغلو في التجرّد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، ولا تغلو غلوّ النصارى ولا تفريط اليهود، ولكنها تتبع هدى الملة التي جاءت على أصل الفطرة الممثلة في روح وجسد، تعطى لكل منهما حقه، وتعمل لترفيه الحياة مع امتداد الحياة، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وفي عالم النوازع بلا تفريط في أحد العالَمِيْن أو إفراط. أمة وسطاً في التفكير: لا تجمد على ما عندها وتغلق منافذ التجربة والاستنارة، ولا تتبع كل ناعق، وتقلد تقليد القردة وتتحرك حسب ما يتراء لها من الإشارة، إنّما تستمسك بما لديها من مناهج وأصول، ثم تطلع إلى نتاج الفكر والتجربة لضمان الوصول، وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها، والجهالة كلما تعلقت بباله نبذها.

أمة وسطاً في التنسيق: لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تتلاشى شخصيته لتندمج في تيار المجتمع وخيالاته، ولا تطلقه كذلك فرداً مندفعاً لا همّ له إلاّ نفسَهُ، ولا دافع له إلاّ ما يهواه تهوراً وخسَّةْ. إنّما تطلق من الدوافع ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع ما يحقق غرض العقلاء، ليتسق أمر الجماعة، ويسعد الفرد فيها دون خمول ولا إضاعة. وأمة هذه سماتها هي خير أمة

وأوسطها ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ وهي خليقة بأن تكون شهيدة على الناس، تسجل عليهم مناهجهم، وتكشف لهم عما فيها من انحراف، وتبين لهم عن منهج الحق وتهديهم إلى الصراط، ويكون رسولها شهيداً عليها يكشف لها عن الهدى، ويحذرها طريق الغواية، ويراقبها في الشعور والسلوك، ويعدها لما ناطه الله بها في الأرض من مهام.

ولما كان الخطاب في جعلناكم للموجودين عند نزول الآية، وهم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهو يدلّ دلالة قاطعة على أن إجماعهم هو الإجماع، ولما كان الخطاب نازلاً في المدينة بعد الهجرة، فهو دليل قاطع على أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة في الوقت الذي كانوا فيه مجتمعين قبل تفرقهم في الأمصار وخروجهم في الفتوحات. وقد كان عمر رضي الله عنه فاهماً لهذه الآية مغزاها فلم يأذن لأحد من كبار الصحابة بسكنى الأمصار حتى ينقطع نهائياً عن المدينة مثل أمراء الجيوش الفاتحة...

﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إنّ الله بالناس لرءوف رحيم**﴾: في استقبال الرسول إلى بيت المقدس في الصلاة أول الهجرة حكمة عظيمة واختبار خطير للعرب المهاجرين والأنصار، لأنّهم كانوا يقدسون البيت الحرامَ دون بيت المقدس، فهو لا شك امتحان خطير كبير. وإذنْ فلقد كانت هنالك حكمة كامنة وراء اتخاذ القبلة الأولى، وتحويلها إلى القبلة الأخيرة، وإنّ الله ليعلم السر وأخفى، ولكن يريد أن يظهر الخبيء، وأن يكشف المستور، وأن تكون أعمال الناس الظاهرة هي الحجة عليهم عند أنفسهم وعند الله. فالاستسلام المطلق، والتوجه إلى أي متجه، والتحول عن إلف النفس وميسور العادة، كل ذلك عسير على النفس وشاق، وإنّ الله ليعلم - وهو أعلم بمن خلق -، ولكنه الامتحان العسير للواجب الكبير، فهو يهدي المؤمنين ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق النية وتصح العزيمة، وإذا كان الاختبار مظهراً لحكمته فاجتياز الامتحان فضل من رحمته!.

التوجيه الثاني: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**﴾: في هذا

التوجيه استجابة لرغبة كانت تلازم الرسول ﷺ عندما كان يقلب وجهه في السماء ولا يصرح. كان يتجه بقلبه إلى ربه، ولسانه لا ينطق تأدباً مع ربه سبحانه، فلا يقترح عليه ما يرغب فيه، بل يكتفي بالتوجه الصامت، حتى يسمع له ربه ويجيب. ولقد أجابه الله سبحانه: قرر له قبلته وقبلة أمته، حيثما كان وحيثما كانوا. قبلة أبيهم إبراهيم، أول المستقبلين هذا البيت العظيم...

﴿وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾: هذه حكمة أخرى في توجيه المسلمين إلى بيت الله الحرام، وهي أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ الأمر بالتوجه إليه هو أمر الله الحق الذي لا مرية فيه، وهم يعلمون أنّ هذه القبلة هي قبلة إبراهيم، وهم يعلمون أن ٱلإسلام هو الامتداد الطبيعي لدين إبراهيم، وأنّ محمداً رسول الله والذين معه أحقُّ الناس أن يتوجهوا إلى هذه القبلة، ولكن أهل الكتاب لن يسلموا بهذه الحجة، ولن يتبعوا قبلة المسلمين الجديدة، كما أنّهم لم يتبعوا كتاب المسلمين الذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ذلك أنّ الأمر ليس أمر منطق وحجة وبرهان، إنّما هو أمر هوى وغرض ومصلحة. وما كان اختلاف معظم الناس لأنّهم يطلبون حجة أو يتبعون منطقاً، ولكن لأنّ لهم هوى وفي قلوبهم غرضاً، ثم هم يلبسونه ثوب الحجة ويتخذون منها علة... **﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾**: من هنا يتضح الفرق بينك وبين أهل الكتاب، فلا وصل بينك وبينهم ولا اتفاق بين بعضهم في الهدف والمشرب...

﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين﴾: وهو تحذير من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإنّ العالم الحجّة عليه أقوم من غيره، ولهذا خاطب الرسول أول ما خاطب؛ لأنّه أول المكلفين برسالته؛ ولأنّه أسوة لأمته، ولو فرض أنّه يتبع أهواء أهل الكتاب لدخل تحت هذا التهديد، ولطبقت عليه قاعدة الوعيد... **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾**: هذا تقرير يُظهر أهل الكتاب على حقيقتهم؛ فهم يكتمون الحق مع معرفتهم معرفة جازمة بأنّ ما جاء به محمد هو الحق، فمحمد عندهم معروف مثل معرفتهم أبناءهم!. فإذا كان

بعضهم ينكر ما يعلم ويعترض على الإسلام ورسول الإسلام، فليس ذلك لأنّهم يجهلون الحقيقة، ولكن لأنّهم يكتمون الحقيقة! فلا يجعلك كتمانُهم أو إنكارُهم ترتاب في الحق الذي جاءك. . . ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾!.

التوجيه الثالث: ﴿**ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إنّ الله على كل شيء قدير**﴾: هذا الكلام موجه إلى المسلمين طيّاً لبساط المجادلة مع اليهود في أمر القبلة، وفيه صرف للمسلمين بأن يهتموا بالمقاصد، ويعتنوا بإصلاح مجتمعهم، وأن يتركوا الكلام مع أهل الكتاب. إذا كان الأمر كذلك فاستبقوا الخيرات، وهو تحريض على المبادرة بالعمل الصالح قبل فوات الأوان بالموت، ولامهرب لكم من الله فكونوا على حذر من حسابه وعلى وجل من عقابه. . . ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنّه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلاّ الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون**﴾: في هذا الكلام تأكيد حكم استقبال بيت الله الحرام، وأنّه لا تهاون فيه في كل زمان ومكان تقريراً للحق في نفوس كل من يسمع هذا الكلام.

وحكم الاستقبال وكيفيته على طول البلاد وعرضها تكفلت به كتب الفقه وكتب الفلك الإسلامي على ضوء ما في كتاب الله وعلى منهج ما رسم رسول الله، غير أنّ القرآن هنا تعرض للحكمة الخاصة من استقبال الكعبة، والحكمة العامة من إرسال نبيء الرحمة. . . ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾: وفي إرسال الرسول محمد ﷺ في العرب ومن العرب نعمة عظيمة عليهم لما لهم فيه من الشرف؛ ولأنّ المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من اتباع الغير والانقياد للأمم الأخرى، فبعث الله منهم رسولاً ليكونوا إلى القبول أقرب، وكون القرآن متلواً بلسانهم من أعظم النعم؛ لأنّه معجزة باقية، ولأنّه يُتلى فتتأدى به العبادات؛ ولأنّه يتلى فتُستفاد منه جميع العلوم؛ ولأنّه يتلى فيوقف على مجامع الأخلاق الحميدة، ففي تلاوته خير الدنيا والآخرة.

ولا يغرب، عن البال أن هَذه النعم هي استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

وفيه تنبيه على أنّ الله تعالى أرسل محمداً على فترة من الرسل وجهالة من الأمر، وتحير الناس في أمور عادتهم وديانتهم فعلمهم ما يحتاجون إليه في صلاح معاشهم ومعادهم، وذلك من أعظم النعم التي تستوجب الذكر بالقلب واللسان، وتستلزم الشكر بالقول وفعل الأركان. الذكر باللسان، وهو أن يحمده ويسبحه ويمجده ويقرأ كتابه. والذكر بالقلب، وهو أن يتفكر في الدلائل على كيفية تكاليفه وأحكامه في أوامره ونواهيه ووعده ووعيده ليعمل بمقتضاها، ثم يتفكر في أسرار المخلوقات متوصلا من كل ذرة منها إلى موجدها. أمّا الشكر فباللسان وهو الثناء عليه بما هو أهله وبما أنّه المنعم المتفضل، وبالأركان وهو أن تكون مستغرقة في الأعمال المأمور بها فارغة عن الانشغال المنهي عنه. وذكرالله المأمور به هنا يدخل فيه الشكر ضمناً؛ لأنّه يطلق على كل ما له تعلق بالثواب. . . ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾، اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي، اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة، اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة، اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص.

2 ـ وجهة الإسلام في كل ما شرع من الأحكام

النص

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (152)
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ
وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (153) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (154)
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (155)
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (156)
* إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (157) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ
أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (158) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (159) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (160)
خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (161)
وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (162)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (163) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (164) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (165) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ (166)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿يا أيُّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين﴾: الاستعانة: طلب العون، والعون الظهير للواحد والجمع بمعنى المُعين والجمع أعوان، والعون هنا شيئان: الصبر، وهو نقيض الجزَع، والمراد هنا تحمل مكاره الحياة. والصلاة: وهي العبادة المفروضة ذات الركوع والسجود، ذات الشروط والأركان والآداب. . . **﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن**

لا تشعرون:﴾ القول المنهي عنه هنا: التعبير عما يعتقده الناس من أن المقتول في سبيل الله ميت، فرد الله عليهم بقوله: بل أحياء، وبل هنا للإضراب الإبطالي إبطالاً لمضمون المنهي عن قوله: ولكن لا تشعرون: عدم الشعور هنا: الإدراك بالمشاعر الظاهرة، والمشاعر الظاهرة الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. . .

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾: لنبلونّكم: لنصيبنّكم إصابة من يختبر أحوالكم. وشيء: قليل. والخوف الفزع: ومعناه هنا الفزع من القتل. والجوع: ضد الشبع، وهو ما يصيب الإنسان من المخمصة عند فقد الطعام، وهو ما حصل للمسلمين أيام الغزوات. ونقص الأموال: ما ينشأ عن قلة العناية بنخيلهم في خروجهم إلى الغزو. ونقص الأنفس: يكون بقلة الولادة لبعدهم عن نسائهم، وكذلك بالاستشهاد. والثمرات: جمع ثمرة وهي شاملة للنسل ومنه الولد، ونتاج الشجر والزرع وربح التجارة وما يحصل من فوائد الصناعة، يقال: ثمّر الرجل ماله نمّاه وكثّره، وأثمر الرجلُ كثُر مالُه. . . **﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾**: التبشير: الإعلام بالأمر المحبوب المفرح في المستقبل والوعد به ممّن يملكه؛ فالأول وبشر الصابرين، والثاني يبشرهم ربهم برحمة منه. الصابرين: جمع صابر، وهو من يتحمل المصائب ولا يجزع في النوائب. **﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾** توضيح لمعنى الصابرين، ولإفادة أن صبرهم أكمل الصبر؛ إذ هو صبر مقترن ببصيرة في أمر الله تعالى، فالمراد من القول هنا القول المطابق للاعتقاد؛ إذ الكلام إنّما وضع للصدق. وحقيقة الصلاة في كلام العرب: أنّها أقوال تنبئ عن محبة الخير للغير، وهو معنى قوله: الصلاة الدعاء بالخير للغير. . .

﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾: الصفا: جبل، وهو رأس نهاية جبل أبي قبيس. وأمّا المروة: فهو اسم لجبل مقابل الصفا، وهو رأس نهاية رأس جبل قُعَيْقِعَان، وسمي الصفا، لأنّ حجارته من الحجر الأملس الصفوان. وسميت المروة، لأنّ حجارتها من المرو الذي يوري النار. والشعائر: جمع شعيرة، بمعنى العلامة، ومعناها في الشرع ما جعل علامة على أداء عمل من أعمال الحج

والعمرة. . . **﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما﴾**: الحج في اللغة: اسم لِلْقَصْد إلى الشيء المطلوب يتكرر طلبه، وفي الشرع: القصد إلى بيت الله الحرام لأداء نُسُكِ الحج. والعمرة في اللغة: الزيارة، وفي الشرع: زيارة البيت الحرام لأداء مناسك العمرة. والجُناح: الإثم، مشتق من جنح إذا مال، وفي الشرع: الانحراف عن جادة الشرع. . . **﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾**: الكتم والكتمان: عدم الإخبار بما من شأنه أن يخبر به من حادث مسموع أو مرئي، ومنه كتم السر، وهو الخبر الذي تخبر به غيرَك وتأمره بأن يكتمه فلا يخبر غيرَه. والبينات: جمع بينة، وهي الحجة. والهدى: ما به الإرشاد إلى ما فيه السداد. . .

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾: الإله في كلام العرب: هو المعبود، ولذلك تعددت الآلهة عندهم، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبدوه، وهو إطلاق ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله، وما ورد في القرآن من إطلاق جمع الآلهة على أصنامهم فهو في مقام التغليظ لزعمهم، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالإفراد على المعبود بغير حق، فمعنى الإله هنا هو المعبود بحق سبحانه. الرحمن: اسم من أسماء الله تعالى مختص به لا يتصف به المخلوق. والرحيم: اسم من أسمائه تعالى، ووصف به المخلوق، وقد وصف به الرسول ﷺ في قوله تعالى: **﴿بالمؤمنين رءوف رحيم. . . ﴾** **﴿إنّ في خلق السماوات والأرض﴾**: الخلق هنا: بمعنى المصدر، وهو الإيجاد وتقديره على حسب المراد. والسماوات: العالم العلوي. والأرض: العالم السفلي. **﴿واختلاف الليل والنهار﴾**: الاختلاف: افتعال من الخلف، وهو أن يجيء شيء عوضاً عن شيء آخر يخلفه في مكانه، ومعناه هنا تعاقب الليل والنهار بالظلمة والضياء والطول والقصر والحر والبرد. . .

﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾: الفُلْك: لفظة يستوي فيها المفرد والجمع، ويتميزان من السياق حسب الضمير العائد، نحو: والفلك التي تجري في البحر، **﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم. . . ﴾** **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾**: السماء هنا: الجو الذي يتكون فيه السحاب، والسحاب ينزل منه الماء، وهو المطر. والماء يحيي الأرض

بالنبات. . . ﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾: البث في الأصل: نشر ما كان خفياً، ويطلق على انتشار الشيء وتوزيعه وتكثيره، وهذا شيء حسي، وقد يكون معنوياً كبث الشكوى وبث السر. والدابة: ما دب على وجه الأرض، على حد قوله تعالى: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع. . .** ﴾ ﴿**وتصريف الرياح**﴾: تبديلها وتغييرها من جهة إلى جهة - قوية وضعيفة، حارة وباردة ومعتدلة - وسميت رياحاً لهذا التصريف. . . ﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾: السحاب: الغيم الذي يحمل الماء تحمله الرياح وتنقله من مكان إلى مكان، مشتق من السحب. . .

﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾: المراد بالأنداد: الأمثال في الألوهية والعبادة حيث اتخذ المشركون أصناماً وأوثاناً عبدوها من دون الله. والمحبة هنا: مستعملة في معناها الحقيقي، وهو ميل النفس إلى الحسن عندها بمعاينة أو سماع أو حصول نفع محقق أو موهوم. . . ﴿**إذ تبرأ الذين اتُبِعُوا من الذين اتبَعوا**﴾: التبرؤ: تكلف البراءة، وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضراً، ولذلك يقال: تبارآ إذا أبعد كل الآخر من تبعة محققة أو متوقعة. . . ﴿**ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾: التقطع: الانقطاع الشديد، وأصله مطاوع قطّع. والأسباب: جمع سبب، وهو الحبل الذي يمد أو يشد للاعتماد عليه في الوصول أو الحصول. . . ﴿**وقال الذين اتَبعوا لو أنّ لنا كرّة**﴾: الكرة: الرجعة إلى محل كان فيه الراجع، وهي مرة من الكر، وتطلق في القرآن على الرجوع إلى الدنيا؛ لأنّه رجوع إلى مكان سابق. . . ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار**﴾: الحسرة: حزن في ندامة وتلهف، مشتقة من الحسر.

مبحث الإعراب

﴿**يا أيّها**﴾ يا للنداء، وأيُّ منادى مبني على الضم في محل نصب، وها للتنبيه. ﴿**الذين**﴾ نعت لأيُّ. ﴿**آمنوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**استعينوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**بالصبر**﴾ متعلق باستعينوا. ﴿**والصلاة**﴾ معطوف على الصبر. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**مع**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**الصابرين**﴾

مضاف إلى الظرف، والجملة تعليلية. ﴿**ولا تقولوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل، والجملة معطوفة على قوله: استعينوا. ﴿**لمن**﴾ متعلق بتقولوا. ﴿**يُقتل**﴾ فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على مَن، والجملة صلة مَنْ. ﴿**في سبيل**﴾ متعلق بيقتل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**أموات**﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم أموات. ﴿**بل أحياء**﴾ أي هم أحياء.

﴿**ولكن**﴾ حرف استدراك. ﴿**لا تشعرون**﴾ فعل مضارع منفي بلا، وواو الجماعة فاعل. ﴿**ولنبلونكم**﴾ الواو للعطف، واللام للقسم، نبلونكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير نحن، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول. ﴿**بشيء**﴾ متعلق بنبلونكم. ﴿**من الخوف**﴾ بيان لشيء. ﴿**والجوع**﴾ معطوف على خوف. ﴿**ونقص**﴾ عطف على شيء. ﴿**من الأموال**﴾ متعلق بنقص. ﴿**والأنفس**﴾ معطوف على الأموال. ﴿**والثمرات**﴾ كذلك. ﴿**وبشر**﴾ فعل أمر، وفاعله أنت، معطوف على قوله: ولنبلونكم. ﴿**الصابرين**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**الذين**﴾ في محل جر نعت للصابرين. ﴿**إذا أصابتهم مصيبة**﴾ جملة فعلية في محل جر مضافة إلى إذا الشرطية. ﴿**قالوا**﴾ جواب إذا. ﴿**إنّا**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبرها. ﴿**وإنّا إليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**راجعون**﴾ خبر إنّ، وجملة إنّ لله في محل نصب مقول القول، وجملة إذا أصابتهم مصيبة صلة الموصول. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ أول. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**صلوات**﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة خبر المبتدإ الأول. ﴿**من ربهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لصلوات. ﴿**ورحمة**﴾ معطوف على صلوات. ﴿**وأولئك هم المهتدون**﴾ معطوف على قوله: أولئك عليهم، وهي مثلها في الإعراب، وجملة وأولئك عليهم بيانية لا محل لها من الإعراب.

﴿**إنّ الصفا**﴾ اسم إنّ منصوب بفتحة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**والمروة**﴾ معطوف على الصفا منصوب بالفتحة. ﴿**من شعائر**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى شعائر. ﴿**فَمَن**﴾ الفاء للتعقيب، مَن اسم شرط جازم. ﴿**حَجَّ**﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على مَن. ﴿**البيت**﴾ مفعول به. ﴿**أو اعْتَمَر**﴾ معطوف على حَجَّ. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة للجواب، ولا نافية

للجنس. **﴿جناح﴾** اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. **﴿عليه﴾** متعلق بمحذوف خبر لا. **﴿أن يطوّف﴾** فاعل يطوّف ضمير يعود على مَن. **﴿بهما﴾** متعلق بالفعل قبله، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بفي مقدر، والتقدير: فلا جناح عليه في التطواف بهما، وجملة فلا جناح عليه جواب الشرط. **﴿ومن تطوع﴾** جملة شرطية. **﴿خيراً﴾** نصب على نزع الخافض أو مفعول. **﴿فإنّ الله شاكر عليم﴾** جملة من إنّ واسمها وخبرها وقعت سادّة مسدَّ جواب الشرط، وجملة ومن تطوّع خيراً تذييلية لا محل لها من الإعراب.

﴿إنّ الذين﴾ إنّ واسمها. **﴿يكتمون﴾** فعل وفاعل، صلة الذين. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول به. **﴿أنزلنا﴾** فعل وفاعل صلة ما. **﴿من البينات﴾** متعلق بأنزلنا. **﴿والهدى﴾** معطوف على البينات مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. **﴿من بعد﴾** متعلق بيكتمون. **﴿ما﴾** في محل جر مضاف إلى بعد. **﴿بيناه﴾** فعل وفاعل ومفعول صلة ما. **﴿للناس في الكتاب﴾** متعلقان ببينا. **﴿أولئك﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿يلعنهم الله﴾** جملة فعلية في محل رفع خبر أولئك، والجملة من المبتدإ والخبر خبر إنّ. **﴿ويلعنهم اللاعنون﴾** معطوف على يلعنهم الله. **﴿إلاّ﴾** أداة استثناء. **﴿الذين﴾** في محل نصب على الاستثناء. **﴿تابوا﴾** فعل وفاعل، صلة الذين. **﴿وأصلحوا﴾** معطوف على تابوا. **﴿وبينوا﴾** كذلك. **﴿فأولئك﴾** الفاء لربط الكلام وتأكيده، أولئك في محل رفع مبتدأ. **﴿أتوب﴾** فاعله أنا مستتر وجوباً. **﴿عليهم﴾** متعلق بأتوب، والجملة خبر المبتدإ. **﴿وأنا التواب الرحيم﴾** الجملة من المبتدإ والخبر تذييلية.

﴿إنّ الذين﴾ إنّ واسمها. **﴿كفروا﴾** صلة الذين. **﴿وماتوا﴾** معطوف على كفروا. **﴿وهم كفار﴾** جملة حالية من الضمير المرفوع. **﴿أولئك﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿عليهم﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿لعنة﴾** مبتدأ مؤخر. **﴿الله﴾** مضاف إلى لعنة. **﴿والملائكة﴾** معطوف على الله. **﴿والناس﴾** كذلك. **﴿أجمعين﴾** تأكيد للناس مجرور بالياء، وجملة عليهم لعنة الله في محل رفع خبر أولئك. **﴿خالدين﴾** حال من الضمير المجرور في عليهم. **﴿فيها﴾** متعلق بخالدين. **﴿لا يخفف﴾** فعل مضارع مبني للمجهول منفي بلا. **﴿عنهم﴾** متعلق بيخفف. **﴿العذاب﴾** نائب فاعل يُخفف. **﴿ولا هم﴾** معطوف على لا يخفف.

﴿**يُنظرون**﴾ الجملة خبر المبتدإ هُمْ. ﴿**وإلهكم**﴾ مبتدأ. ﴿**إله**﴾ خبره. ﴿**واحد**﴾ خبر ثان. ﴿**لا**﴾ نافية للجنس. ﴿**إله**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب، وخبر لا محذوف بمعنى موجود. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء لا عمل لها. ﴿**هو**﴾ في محل رفع بدل من خبر لا، والجملة خبر ثالث. ﴿**الرحمن**﴾ خبر رابع. ﴿**الرحيم**﴾ خبر خامس.

﴿**إنّ في خلق**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنَّ مقدّم. ﴿**السماوات**﴾ مضاف إلى خلق. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماوات. ﴿**واختلاف**﴾ معطوف على خلق. ﴿**الليل**﴾ مضاف إلى اختلاف. ﴿**والنهار**﴾ معطوف على الليل. ﴿**والفلك**﴾ عطف على خلق. ﴿**التي**﴾ في محل جر نعت لفلك. ﴿**تجري**﴾ صلة التي. ﴿**في البحر**﴾ متعلق بتجري. ﴿**بما**﴾ متعلق بمحذوف حال من ضمير الفلك. ﴿**ينفع**﴾ صلة ما. ﴿**الناس**﴾ مفعول به. ﴿**وما أنزل الله**﴾ ما اسم موصول في محل جر معطوف على مدخول في، أنزل الله صلته. ﴿**من السماء**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**من ماء**﴾ بيان لما. ﴿**فأحيا**﴾ مرتب على أنزل. ﴿**به**﴾ متعلق بأحيا. ﴿**الأرض**﴾ مفعول أحيا. ﴿**بعد**﴾ متعلق بأحيا. ﴿**موتها**﴾ مضاف إلى بعد، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وبثّ**﴾ معطوف على أحيا. ﴿**فيها**﴾ متعلق ببثّ. ﴿**من كل**﴾ مفعول بثّ دخل عليه من لإفادة العموم. ﴿**دابة**﴾ مضاف إلى كل. ﴿**وتصريف**﴾ معطوف على مدخول في. ﴿**الرياح**﴾ مضاف إلى تصريف. ﴿**والسحاب**﴾ معطوف على تسخير. ﴿**المسخر**﴾ نعت للسحاب. ﴿**بين**﴾ متعلق بالمسخر. ﴿**السماء**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**والأرض**﴾ معطوف على السماء. ﴿**لآيات**﴾ اللام داخلة على اسم إنّ لتأخره عن خبرها، وآيات اسم إنّ منصوب بالكسرة. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لآيات. ﴿**يعقلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة نعت لقوم.

﴿**ومن الناس**﴾ بعضُ الناس مبتدأ. ﴿**مَن**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**يتخذ**﴾ فاعله ضمير يعود على مَن، والجملة صلة مَن. ﴿**من دون**﴾ متعلق بيتخذ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دون. ﴿**أنداداً**﴾ مفعول به. ﴿**يحبونهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة نعت لأنداداً، والأظهر أن تكون حالاً مِن مَنْ، وقيل بدل مِن يتخذ. ﴿**كحب**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حب. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**أشدُّ**﴾ خبر

المبتدإ. ﴿**حبّاً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**لله**﴾ متعلق بأشد. ﴿**ولو**﴾ الواو للعطف، ولو حرف امتناع لامتناع. ﴿**ترى**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**ظلموا**﴾ صلة الذين. ﴿**إذ**﴾ ظرف زمان متعلق بترى. ﴿**يرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**العذاب**﴾ مفعول به، وجواب لو محذوف، وجملة ولو معطوف على قوله: ومن الناس، ومن الناس معطوف على قوله: إنّ في خلق السماوات والأرض. ﴿**أنّ القوة**﴾ أنّ واسمها. ﴿**لله**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدر، والتقدير: لأجل قوة الله التي اختص بها دون غيره. ﴿**جميعاً**﴾ توكيد للقوة، وزيادة على هذا. ﴿**وأنّ الله شديد العذاب**﴾ معطوف على أنّ القوة لله جميعاً، فيكون تأكيد بعد تأكيد. ﴿**إذ تبرأ**﴾ بدل من قوله: إذ يرون العذاب. ﴿**الذين**﴾ فاعل تبرأ. ﴿**اتُّبعوا**﴾ مبني للمجهول صلة الذين. ﴿**من الذين**﴾ متعلق بتبرأ. ﴿**اتَبعوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**ورأوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**العذاب**﴾ مفعول به، والجملة في محل نصب حال من التابعين والمتبوعين.

﴿**وتقطعت بهم الأسبابُ**﴾ معطوف على تبرأ. ﴿**وقال الذين اتبعوا**﴾ معطوف على قوله: إذا تبرأ. ﴿**لو**﴾ هنا مستعملة للتمني. ﴿**أنّ**﴾ حرف مصدر ونصب. ﴿**لنا**﴾ متعلق بمحذوف خبر أنّ. ﴿**كرّة**﴾ اسمها. ﴿**فنتبرأ**﴾ الفاء فاء السببية، نتبرأ منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية، والفاعل نحن. ﴿**منهم**﴾ متعلق بنتبرأ؛ ليت لنا رجوع فتكون لنا تبرئة منهم. ﴿**كما تبرأوا**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة إلى معنى الكاف، والتقدير: فنتبرأُ منهم تبرئةً مثل تبرئتهم منا. ﴿**كذلك**﴾ علم إعرابها مما تقدم. ﴿**يريهم**﴾ فعل مضارع. ﴿**الله**﴾ فاعل، والضمير المتصل بالفعل مفعول أول. ﴿**أعمالهم**﴾ مفعول ثان، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حسرات**﴾ حال من أعمالهم. ﴿**عليهم**﴾ متعلق بحسرات. ﴿**وما هم**﴾ في محل رفع اسم ما. ﴿**بخارجين**﴾ خبر ما دخلت عليه الصلة، فجرت لفظه ومحله النصب. ﴿**من النار**﴾ متعلق بخارجين.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿يأ ايّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين﴾: المقصود من هذا النداء إعداد المسلمين لما هم أهله من نصر دين الله شكراً له على ما خوّلهم من النعم المعدودة في الآيات السابقة؛ من جعلهم أمة وسطاً وشهداء على الناس، وتفضيلهم بالتوجه إلى استقبال أفضل بقعة، وتأييدهم بأنّهم على الحق في ذلك، وأمرهم بالاستخفاف بالظالمين وأن لا يخشوهم، وتبشيرهم بأنّه أتم نعمته عليهم وهداهم، وامتنّ عليهم بأنّه أرسل فيهم رسولاً منهم، وهداهم إلى الامتثال للأحكام العظيمة كالشكر والذكر؛ فإنّ الشكر والذكر بهما تهيئة النفوس إلى عظيم الأعمال، من أجل ذلك كله أمرهم بالصبر والصلاة إلى غير ذلك من الأحكام المتنوعة: حكم الطواف بعد حكم الجهاد وما يترتب عليه من المشاق والمصاعب، وحكم من يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وحكم من كفروا وماتوا وهم كفار، وأحكام في الطعام.

تخلل هذه الأحكام تلك التوجيهات القرآنية إلى آيات الله في الكون، وإلى حكمة الله في التشريع والتوجيه، كل أولئك يتساوى مع الغرض الذي توضح فيما سبق، وهو إعداد هذه الأمة للتكاليف الضخمة التي ناطها الله بها، وتربية روحها وتعريفها حدودها في ذلك الأسلوب القرآني الخبير بأطواء النفس، ومطارح الحس، ومداخل القلب، ومسالك الشعور. وافتُتح الكلام بالنداء؛ لأنّ فيه إشعاراً بخبرٍ مهم عظيم!. وفي افتتاح هذا الخطاب بالاستعانة بالصبر إيذان بأنّه سيُعقب بالندب إلى عمل عظيم وبلوى شديدة، وذلك تهيئة للجهاد. وقد قيل هذا القول لبني اسرائيل، غير أنّ هناك فيه: وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين لبيان ضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال. ولم يذكر مثل هذا هنا لبيان أنّ المسلمين قد يُسر لهم ما عسر على غيرهم. وزاد هنا فقال: إنّ الله مع الصابرين، فبشرهم بأنّهم ممن يمتثل عليهم هذا الأمر، ويُعد لذلك من زمرة الصابرين.

وقوله: **﴿إنّ الله مع الصابرين﴾** تذييل في معنى التعليل... **﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾**: الكلام متصل بما قبله بالعطف لمناسبة التعرض للغزو، ومما يتوقع منه القتل في سبيل الله، فلما أمروا بالصبر عرفوا أنّ الموت في سبيل الله أقوى مما يصبرون عليه، ولكن نبه مع ذلك

على أنّ هذا الصبر ينقلب شكراً عندما يرى الشهيد كرامته بعد الشهادة، وعندما يوقن ذووه بمصيره من الحياة الأبدية. وإنّما قال: ولكن لا تشعرون للإشارة إلى أنّها حياة غير معهودة عند الناس، فهي حياة مشتملة على إدراك التنعم بلذات الجنة. . .

﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾: ولنبلونّكم الخبر هنا مؤكد، وهو متصل بما قبله بالعطف، عطف المقصد على المقدمة. وجيء بكلمة شيء تهويناً للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، وإنّما أخبر به قبل الوقوع، ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينُهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنّه شيء يسير له عاقبة حميدة. . . **﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾**: الآية متصلة بما قبلها بالعطف، والخطاب للرسول ﷺ وهو عطف إنشاء على خبر، ولا ضير فيه لكثرته في كلام العرب. وجاء البشير على لسان الرسول تكريماً لشأنه، وزيادة في تعلق المؤمنين به، بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول، وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول. . .

﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾: الإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليه هو ذلك الموصوف بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأنّ الحكم الذي يرد بعد اسم الإشارة مترتب على تلك الأوصاف، ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو مرتبتهم، وجمع صلوات للتنبيه على كثرتها وتنوعها، والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة، والتنوين فيهما للتفخيم، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لإظهار مزيد العناية بهم، وتكرير وأولئك هم المهتدون بيان لفضيلة صفتهم إذا اهتدوا لما هو حق كل عبد عارف، فلم تزعجهم المصائب ولم تكن لهم حاجباً عن التحقق في مقام الصبر. . . **﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾**: إنّ الذكر والشكر والصلاة والصبر والابتلاء بالجهاد والقتل والخوف والجوع إلى غير ذلك من مقومات البشر هي من شعائر الله، ومثل ذلك عمل مناسك الحج فهي من شعائر الله، فلا ينبغي للمؤمن

أن يتحرج من شيء يُعد من شعائر الله. فتأكيد الجملة بإنّ؛ لأنّ المخاطبين مترددون في كونهما من شعائر الله، وقوله... ﴿**فمن حج البيت**﴾: تفريع على كونهما من شعائر الله، وأنّ السعي بينهما في الحج والعمرة من المناسك.

وقوله... ﴿**ومن تطوع خيراً فإنّ الله شاكر عليم**﴾: تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعي بين الصفا والمروة بمفاد قوله: من شعائرالله. والمقصد من هذا التذييل الإتيان بحكم كلي في أفعال الخيرات كلها. وقوله: ﴿**فإنّ الله شاكر عليم**﴾ دليل الجواب المقدر، وهو جوزي به؛ لأنّ الله شاكر. وكلمة شاكر استعارة تمثيلية؛ شبه شأن الله في جزاء العبد على الطاعة بحال الشاكر لمن أسدى إليه نعمة. وفائدة هذا التشبيه تمثيل تعجيل الثواب وتحقيقه... ﴿**إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب**﴾: اسم الموصول هنا للجنس، فهو كالمعرف بلام الاستغراق فيعم، ويكون من العام الوارد على سبب خاص، ولا يخصص بسببه، ولكنه يتناول أفراد سببه تناولاً أولياً أقوى من دلالته على بقية الأفراد الصالح هو للدلالة عليها؛ لأنّ دلالة العام على صورة السبب قطعية، ودلالته على غيرها مما يشمله مفهوم العام دلالة ظنية.

فمناسبة وقوع هذه الآية بعد التي قبلها أنّ أهل الكتاب يعرفون من كتابهم أنّ رسالة الإسلام حق، ولكنهم لم يفعلوا ما فعله الإسلام من إقرار كل ما هو حق، وتبنيه وضمه إلى شريعته وإقراره واتباعه على النحو الذي اتبعه في الطواف بين الصفا والمروة المذكورين في هذه المناسبة المتناسقة في السياق، بل إنّهم كتموا ما بينه الله لهم في كتابهم. وقوله: أولئك إشارة إلى الذين يكتمون؛ وُسّط اسم الإشارة بين اسم إنّ وخبرها للتنبيه على أنّ الحكم الوارد بعد ذلك قد صاروا أحرياء به، لأجل تلك الصفات التي ذكرت قبله. واختير اسم الإشارة ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم والإلتفات إليهم، وكأنّما تحوّلوا إلى مَلْعَنَةٍ ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه...

﴿**إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾: هذا استثناء من الذين يكتمون. وفائدة الاستثناء هنا إعلام السامع أنّ من تابوا من الكاتمين لا يلعنهم الله بل يرضى عنهم، فجاء في الآية نظم بديع، تقديره: إلاّ الذين تابوا انقطعت عنهم اللعنة فأتوب عليهم وأرضى عنهم. وزاد توسط اسم

الإشارة للدلالة على التعليل، وهو إيجاز بديع. هنا يفتح القرآن تلك المنافذ المضيئة - نافذة التوبة -، يفتحها مشعة تبعث الأمل في النفوس وتقودها إلى مصدر النور، فلا تيأس من رحمة الله، ولا تقنط من عفوه، فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن صادق النية؛ وآية صدق النية العمل الصالح، وليبين ما كتم، وليعلن للناس الحق، ثم ليثق برحمة الله وعفوه. . .

﴿**إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون**﴾: استئناف كلام لإفادة حال فريق آخر مشارك للذي قبله في استحقاق لعنة الله واللاعنين، وهي لعنة أخرى. وهؤلاء هم الذين أغلقوا على أنفسهم تلك المنافذ المضيئة، ومَضَوْا في ظلام مطبق إلى المصير المعتم، وهي لعنة مطبقة لا استثناء فيها ولا منفذ. وقوله: خالدين فيها تصريح يلازم اللعنة الدائمة المؤدية إلى جهنم التي يعود عليها ضمير خالدين فيها. . . ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾: الآية متصلة بما قبلها بالعطف، والمناسبة لما ذكر ما ينال المشركين على الشرك من اللعنة والخلود في النار؛ بيّن أنّ الذي أشركوا به هو إله واحد. والخطاب لكل من يتأتى خطابه وقت نزول الآية أو بعده. وقد أفادت جملة ﴿**لا إله إلا هو**﴾ التوحيد؛ لأنها نفت حقيقة الألوهية عن غير الله تعالى، والتقدير: لا إله موجود إلا الله. وقوله﴾: ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ دليل يوضح به ما تقدم، وزيادة في الرد على المشركين؛ لأنّهم قالوا: وما الرحمن؟!. .

﴿**إنّ في خلق السماوات والأرض. . .** ﴾ الآية: موقع هذه الآية عقب سابقتها موقع الحجة من الدعوى، ذلك أنّ الله تعالى أعلن أنّ الإله إله واحد لا إله غيره، وهي قضية من شأنها أن تُتلقى بالإنكار من كثير من الناس، فناسب إقامة الحجة لمن لا يقتنع، فجاء بهذه الدلائل الواضحة التي لا يسع الناظر إلا التسليم إليها. والمقصود من هذه الآية إثبات دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته، ولذلك ذكرت إثر ذكر الوحدانية؛ لأنّها إذا أثبتت بها الوحدانية ثبت الوجود بالضرورة. وقد قرر الله في هذه الآية دلائل كلها واضحة من أصناف المخلوقات، وهي مع وضوحها تشتمل على أسرار يتفاوت الناس في إدراكها حتى يتناول كل صنف من العقلاء مقدار الأدلة منها على قدر قرائحهم وعلومهم. والخلق هنا بمعنى المصدر،

واختير هنا لأنّه جامع لكل ما فيه عبرة من مخلوقات السماوات والأرض، والمعنى: إنّ في خلق مجموع السماوات مع الأرض آيات؛ فلذلك أفرد الخلق، وجعلت الأرض معطوفاً على السماوات ليتسلط المضاف عليهما. وقوله: ﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾ تذكير بآية أخرى عظيمة لا تخفى على أحد من العقلاء. والتعبير بالاختلاف تعبير عجيب وسر بديع لتكون العبارة صالحة للتعاقب والتداخل. . .

﴿**والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾: متصلة بالعطف على قوله: خلق، واختلاف، ووصفها بالتي تجري لتعليل العطف؛ لأنّ فيها آيتين: آية من حيث أنّها تجري في البحر، وآية من كونها نعمة من حيث أنّها تجري بما ينفع الناس. هذا ما يظهر لعامة العقلاء؛ أمّا لو بحث خاصة العقلاء من علماء البحار لرأوا العجب العجاب من هذه العبارة!. . ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء**﴾: معطوف على الأسماء التي قبله، جيء به اسم موصول لما في الصلة هنا وهي أنزل الله؛ لأنّه الذي أوجد أسباب نزول الماء. وقوله: ﴿**فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ معطوف على الصلة بالفاء، لسرعة حياة الأرض إثر نزول الماء. وأطلقت الحياة على تحرك القوى النامية من الأرض، وهي قوة النبات استعارة؛ لأنّ الحياة حقيقة هي ظهور القوى النامية في الحيوان فشبهت الأرض به. وفي الجمع بين السماء والأرض، وبين أحيى وموتها طباق. . . ﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾: البث مجاز في انتشار الشيء بعد أن كان كامناً، وعطفها على ما قبلها لتعدد المنة بهذه النعمة. . . ﴿**وتصريف الرياح**﴾: آية بعد آية. واختير لفظ التصريف هنا دون لفظ التبديل أو التغيير؛ لأنّه اللفظ الذي يصلح معناه لحكاية ما في نفس الأمر من حال الرياح؛ لأنّ التصريف تفعيل من الصرف للمبالغة. وجمع الرياح هنا؛ لأنّ التصريف اقتضى التعدد لفائدة تغير مهابها بلم السحاب وتوزيع البذور. . .

﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾: فيه عبرة ومنة ونعمة. . . ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾: جمع الآيات هنا لما في كل ما ذكر آيات وأيُّ آيات!. والتنكير للتفخيم، لما في هذه الآيات من التعظيم. وفي الكلام تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا الآيات من الرسول، وتسجيل عليهم بسخافة العقول. . . ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً**﴾: اتصل الكلام بما قبله بالعطف لبيان سفاهة وطيش وتفاهة المشركين إثر بيان الدلائل التي اهتدى بها العقلاء من

المؤمنين الصادقين. والأنداد كل ما عُبد وتقرب به سواء كان جماداً أو حيواناً أو إنساناً. . . ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾: تشبيه حب المشركين لمعبوداتهم بمحبة المؤمنين لله لتشويهها، وللنداء على انحطاط عقول أصحابها، وفيه إيقاظ لمن يعتقد أنّ محبة الأصنام والمعبودات المقدسة توصلهم إلى محبة الله ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. . .** ﴾

﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾: بيان للفرق بين المحبة الناتجة عن الحجة، وبين المحبة المبنية على الوهم. والمقصود تنقيص وازدراء ما عليه المشركون حتى في إيمانهم بآلهتم، فكثيراً ما كانوا يعرضون عنها إذا لم يجدوا منها ما أمّلوه. فمورد التسوية بين المحبتين التي دل عليها التشبيه مخالف لمورد التفضيل الذي دل عليه اسم التفضيل هنا؛ لأنّ التسوية ناظرة إلى فرط المحبة وقت خطورها، والتفضيل ناظر إلى رسوخ المحبة وعدم تزلزلها. . . ﴿**ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف، لمناسبة الانتقال من وصف حال المتخذين من دون الله أنداداً في الدنيا إلى وصف حالهم يوم الجزاء. والخطاب لغير معين، وهو يعم كل من يسمع هذا الخطاب، وذلك لتناهي حالهم في الفظاعة والسوء، حتى لو حضرها الناس لظهرت لجميعهم، والذين ظلموا هم الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، فهو إظهار في مقام الإضمار ليكون أشمل. وحذف مفعول ظلموا لقصد التعميم. وجواب لو محذوف لقصد التفخيم وتحويل ما يلقونه من الهول العظيم!. وقوله: أنّ القوة لله جميعاً تشهير وتوضيح لحالتهم الفظيعة. وكلمة جميعاً تفيد الكثرة والشدة، فنصبها على التوكيد، وهو مبالغة لعدم الاعتداد بقوة غيره. . .

﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾: هذه حالة أخرى، وهي حالة فظيعة أمرُّ وأدهى. فقد شبهت حالهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا من أجله مدة حياتهم، وقد جاء إبّانه في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقي إلى النخلة ليجتني الثمر الذي كدّ لأجله طول السنة فتقطع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكاً!. وهي تمثيلية بديعة؛ لأنّها تشتمل على سبعة أشياء:

1) تشبيه المشرك في عبادته الأصنام واتباع دينها بالمرتقي بجامع السعي.

2) وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل.

3) وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة؛ لأنّها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر.

4) وتشبيه العمر بالنخلة في الطول.

5) وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطع الحبل.

6) وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة.

7) وتشبيه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك... ﴿**وقال الذين اتَبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرّأوا منا**﴾: وصلت الجملة بما قبلها بالعطف، وفيها إظهار في مقام الإضمار. ولو هنا مستعملة في التمني، وهو استعمال شائع وأصله مجاز مرسل مركب.

وقوله... ﴿**كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم**﴾: تذييل وفذلكة لقصة تَبَرّي المتبوعين من أتباعهم... ﴿**وما هم بخارجين من النار**﴾: تذييل آخر يؤكد الأول. وعدل عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية لدلالة ثبوت العذاب لهم، فلا فائدة في التمني ولا خروج من النار. والمشهد المصور من السياق مشهد مؤثّر، مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، بين المحبين والمحبوبين، مثل هذا النسق والحبك والعرض في تجسيم المشاهد، يرد المعاني شاخصة حاضرة كأنّها عيان، وذلك لون من ألوان التصوير الفني في القرآن، ووراءه ألوان وألوان!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين**﴾: في هذا التوجيه نداء لمن تهيأ بالإيمان لقبول ما يكلف به من أحكام الإسلام، وهو إعداد بما يقوم النفس من الصبر وقوة العزم واستعداد للطوارئ حتى لا يكونوا مثل من سبقهم من أهل الكتاب، حيث أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، لأنّهم لم يُقيّموا أنفسهم بالصبر الذي هو شرط أصيل في تطبيق التكاليف الشرعية، والصلاة عنوان بارز على صحة دعوى الإيمان المطلوب...

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾: شبَحُ القتل، ووهْمُ الفناء يثيران في الإنسان الرعب والهلع وفتور العزيمة، فإذا أزيلتا من حوله تراءى له الخلود وحبب إليه الإيمان وتفانى في إظهاره على مسرح الحياة، وهذا ما تهدف إليه الآية حتى يتجه المؤمن الوجهة الصحيحة ليصل إلى جنة الخلد ومُلْكٍ لاَ يَبْلى. . .

﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾: تربيةً واستعداداً لما سوف يطرأ في المستقبل. ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، وبامتحان الإرادة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف الإيمان المطلوب منهم وما يترتب عليه من عقيدة وعبادة ومعاملة، كي تَعُزَّ عليهم هذه الأعمال بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والأعمال الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن الذي تُقَوَّمُ به أعمالُ الإسلام في نفوس متبعيها، وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها، كانت أعزُّ عليهم وكانوا بها أظنُّ، وكانوا قدوة لمن يأتي بعدهم، وهذا مرتبط بقوله تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس. . . ﴾** وبقوله: **﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾**، وبهذا كله تتحقق البشرى؛ بشرى النصر والغلبة والثواب ورضاء الله كلها في آنٍ. . .

﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾: والمقصود من هذا التوجيه التعليم؛ والتعليم رحمة والتوجيه فيه الفضل العظيم، حيث جمع للصابرين فيه أموراً لم يجمعها لغيرهم؛ إذ اهتدوا إلى ما هو المطلوب من العبد المخلِص الإيمان فلم تزعجهم المصائب، ولم تكن لهم حاجباً عن التحقُّق في مقام الصبر، لعلمهم أنّ الحياة لا تخلو من الأكدار، وأمّا غير المؤمنين الصادقين فهم الذين لم يهتدوا ولم يتحققوا فانزعجوا مما أصيبوا من الأغيار، فتكون المصائب سبباً في اعتراضهم على الله، أو كفرهم به، أو قول ما لا يليق، أو شكهم في صحة ما هم عليه من الإسلام؛ يقولون: لو كان هذا هو الدين المرضي لله لما لحقنا عذاب أو مصيبة **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به**

وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾، ﴿وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه﴾، ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾.

والقول الفصل أنّ جزاء الأعمال يظهر في الآخرة، وأما مصائب الدنيا فمسبَّبة عن أسباب دنيوية تعرض بعروض سَبَبِهَا، وقد يجعل الله سبب المصيبة عقوبة لعبده في الدنيا على سوء أدب أو نحوه، للتخفيف عنه من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات النفس. ولها أحوال ودقائق لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد يطلع عليها العبد إذا راقب نفسه وحاسبها. ولله سبحانه وتعالى في الحالين لطف ونكاية يظهر أثر أحدهما للعارفين.

التوجيه الثاني: ﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوع خيراً فإنّ الله شاكر عليم﴾: يقرر الله في هذا التوجيه مشروعية الطواف بين الصفا والمروة، لأنّها من شعائره عندما تحرج المسلمون أن يّطوّفوا بهما لما حصل فيهما من صنع الجاهلية. والآية تدل على وجوب السعي بين الصفا والمروة بالإخبار عنهما بأنّهما من شعائر الله، وهو ركن من أركان الحج، وهو قول جمهور الفقهاء. ووجهه أنّه من أفعال الحج، وقد اهتمّ به النبيء ﷺ وبادر إليه كما ورد في الصحيحين والموطأ، ومثله في الركنيّة الإحرام والوقوف بعرفة وطواف الإفاضة. وقوله تعالى: ومن تطوع خيراً فإنّ الله شاكر عليم لا يدل على تطوعية السعي؛ لأنّه يفيد حكماً كلّيّاً لا خصوص السعي.

التوجيه الثالث: ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾: فيه الوعيد الشديد لكل من يكتم شيئا مما أنزل الله من شرائع الحق والهدى على كل رسول من رسله أهل الصدق والوفى. ونوع هذا الوعيد هو لعن الله، ولعن كل لاعن من مخلوقات الله، وهذا هو وجه الشدة فيه. ولقد أخذ الله العهد على كل نبيء أن يبلّغ أمته بمجيء رسول صفته كذا وكذا أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه. وأخذ الله الميثاق على أهل الكتاب بالخصوص أن يؤمنوا بمحمد ويتبعوه... وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننه للناس ولاتكتمونه: وفيه تذكير لليهود باللعنة المسطورة في التوراة المعهودة عند اليهود الآن، وهي متلوة بينهم فكلما قرأ

القارئون فيها لعنة الكاتمين تجددت لعنة المقصودين به، فاليهود يلعنون أنفسهم بألسنتهم. وفي هذا تحذير للمسلمين من مثل هذا العمل الموجب للعن. فالعالم يحرم عليه أن يكتم مِنْ علمه ما فيه هدى للناس؛ لأنّ كتم الهدى إيقاع في الضلالة سواء في ذلك العلم الذي بلغ إليه بطريق الخبر كالقرآن والسنة الصحيحة، والعلم الذي يحصل عن نظر كالاجتهادات إذا بلغت مبلغ غلبة الظن بأنّ فيها خيراً للمسلمين.

والمحرم هنا بنص الآية الكتمان المقصود به تحريف النص أو تزييف المعنى أو تغيير الحكم أو تخريجه على هواية أحد من الناس. أمّا تبليغ العلم فهو ينقسم إلى قسمين: واجب إن انفرد العالم بعلمه، وإذا لم يبلّغ حصلت مضرة للناس في دينهم فهو يجب بيانه على العالم وجوباً متعيّناً، وإن شاركه فيه غيره من أمثاله كان وجوبه على جميع الذين يعلمون ذلك على الكفاية. والعهدة في وضع العالم نفسه في المنزلة اللائقة به منها، على ما يأنسه من نفسه في ذلك، وما يستبرئ به لدينه وعرضه. والعهدة في معرفة أحوال الطالبين والسائلين عليه ليجريها على ما يتعين إجراؤها عليه من الصور على ما يتوسمه من أحوالهم والأحوال المحيطة بهم، ويجب على العالم أن لا يغفل عن حكمة العطف في قوله تعالى: والهدى، حتى يكون ذلك ضابطاً لما يفضي إليه كتمان ما يكتم...

﴿إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾:
هذا استثناء من الحكم السابق بشرط أن يصلحوا ما كانوا أفسدوه، وأن يبيّنوا ما كتموه سواء في ذلك أهل الكتاب الذين كتموا ما عندهم من دلائل صحة نبوة محمد ﷺ أو غيرهم عندما يكون الكتمان يخدم أغراضهم الدنيوية... **﴿إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾**: لما ذكر حكم الكاتمين ما أنزل الله، وهم أهل الكتاب أعقب حكم الذين كفروا من العرب إن لم يرجعوا عن كفرهم حتى ماتوا عليه. واللعنة التي تلازمهم مع كفرهم تحيق بهم في الدنيا من القتل والأسر والهزيمة المنكرة، وفي الآخرة من عذاب النار الخالد، فلا رحمة ولا نظرة: خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

التوجيه الرابع: **﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾**: في هذا

توجيه الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده، ونبذ كل شرك وكل اتجاه يشير إلى مكامن الشرك. والإله الواحد هو الله الذي لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم. . . **﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**: قد عدد الله في هذه الآية ثماني آيات:

1) **خلق السماوات**: وهي التي نراها فوقنا أينما اتجهنا وسرنا في أنحاء الأرض، والتي نراها هي سماء الدنيا زينت بالكواكب والمصابيح، وهي تدل دلالة قاطعة على قدرة خالقها وعلمه وحكمته وهيمنته على الوجود كله، فإنّ من جوّز في بناء رفيع وقصر مشيد أنّ التراب والماء انضم أحدهما إلى الآخر ثم تولد منهما اللبنات، ثم تركبت تلك اللبنات وتولد من تركيبها القصر، ثم تزين بنفسه بالنقوش الغريبة والرسوم اللطيفة قضى العقل له بالجنون وسجل عليه سخافة الرأي، ليعد من زمرة الأنعام لا من جملة الأنام.

2) **خلق الأرض**: ومن تأمل في شكلها، وفي حيّزها، وفي اختلاف أوضاع بقاعها، واختلاف عوارضها، ومنافع ما فيها للحيوان والإنسان، علم علماً يقينياً افتقارها إلى مدبر قدير وعليم خبير واحد في مُلكه ومِلكه يفعل ما يشاء كما يشاء من غير منازع ومعاند.

3) **اختلاف الليل والنهار**: وهو الوقتان الناشئان عن طلوع الشمس وغروبها، ووجه الاختلاف تعاقبهما وتخالفهما طولاً وقصراً وضياءً وظلاماً إلى غير ذلك من شدة الحر وشدة البرد تارة وتارة. فهما في أنفسهما آيتان على وجود الصانع ووحدانيته وحكمة تدبيره.

4) **الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**: فجري السفن آية من آيات إلهام الإنسان للتفطن لهذا التسخير العجيب، وما زال الإنسان يطوّر وينوع ويستنتج سر الغوص والعوم والسرعة والتحريك والتغيير حتى توصل إلى ما وصل إليه الآن، وصنع الفلك من أقدم مخترعات البشر ألهمه الله نوحاً عليه السلام في أقدم عصور البشر.

5) **وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها**: وهو عبرة وتذكرة لجميع الناس عالمهم وجاهلهم، ويخص عالمهم بما يرى في هذا من عجائب تكوينه وسيره وتغييره جامداً ومائعاً وبخاراً عالقاً في الهواء، ثم تكييفه على الأرض غامراً وسائراً مندفعاً ظاهراً، ومختزناً قابعاً أو نابعاً، ثم ما ينتج عنه من نبات وأشجار وزروع وثمار مما يأكل الناس والأنعام.

6) **وبث فيها من كل دابة**: الحركة الذاتية والإحساس جعل الحيوان متميزاً عن النبات، وبما أنّه والنبات يشتركان في النمو والتوالد، جعل كالشيء الواحد في حياة الأرض بسبب الماء النازل، ومن تأمل كتب التشريح وقرأ كتاب الحيوان وتتبع عجائب المخلوقات وقف من تراكيبها وخواصها على ما يقضي منه العجب، ويفضي إلى الاعتراف بوحدانية الرب.

7) **تصريف الله تعالى الرياح**: وفي ذلك نفع عظيم لانتفاع الحيوان باستنشاق الهواء الضروري للتنفس، وبجريان السفن بهبوب الرياح قبل اختراع الآلات المحركة والموجهة، ومنه تلقيح الأشجار وتوزيع البذور، وتوجيه السحاب إلى مختلف الجهات على حسب المصالح شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، على كيفيات مختلفة حارة وباردة وعاصفة ورخاء، والرياح بالجمع أفيد لحياة الناس، والريح أخطر لشدة البأس.

8) **السحاب المسخر بين السماء والأرض** ساحباً مذللا مع عظمه وتراكمه بما فيه من ملايين الأطنان من المياه، مع ارتفاعه تارة وانخفاضه تارة أخرى، وانبساطه وتخلخله وسده الأفق في لحظة، وانقشاعه في أخرى، واشتماله على القوة الكهربية الناتج عنه الرعد القاصف والبرق الخاطف!. إلى غير ذلك من العجائب؛ دلالات واضحة على كمال حكمة موجده ومقدّره. وهذا منتهى الدقة في توجيه الدليل المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾، وهذه الأدلة الثمانية آيات لقوم يعقلون.

وإنّما خص هذه بالذكر مع أن سائر ما في السماوات والأرض من أجسام وأعراض مستوية في الاستدلال بها على وحدة الصانع، بل كل ذرة من ذرات العالم، لأنّ هذه الآيات الثمانية جامعة بين كونها دلائل، وبين كونها نعماً على الناس بالكامل، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع للقلوب، وأشد تأثيراً في

العقول والخواطر. وكل هذه المشاهد التي عرضها القرآن هنا لو ألقى الإنسان عن عقله الألفة، فاستقبل مشاهد الكون بحسّ متجدّد، ونظرة متطلعة، ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبطه أول مرة، تلفت سمعَه كلّ نأمة، وتلفت حسّه كلُّ حركة، وتلفت عينه كل ومضة، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي ما تني تتوالى على المشاعر والأبصار والقلوب، ومع هذا فإنّ هنالك من لا ينظر ولا يتعقل فيحيد عن التوحيد الذي يوحي به النظر في وحدة الناموس الكوني العجيب!.. ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾: عرض مقابل بين التوحيد الخالص والعبادة الموهومة المزعومة لشيء لا حقيقة له إلاّ ما علق بأذهانهم بأنّهم يعبدونه ليقربهم إلى الله زلفى، فمحبتهم لأصنامهم وأوهامهم هي محبة مجردة عن الحجة، وإنّما كانت عبادتهم ومحبتهم لأغراض عاجلة كقضاء الحاجات ودفع الملمات، وعندما يفقدون ما يرجون منها نبذوها وسبوها وربما أكلوها عندما يحتاجون إلى أكلها إن كانت معجونة بمواد دسمة وحلوة!.

التوجيه الخامس: ﴿**ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعاً. وأنّ الله شديد العذاب**﴾: في هذا لفت النظر إلى ما سيكون عليه حال هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم وقت معاينتهم العذاب وهوله وشدته، عندئذ تتغير الحال فتعود المحبّة عداوة والتقارب جفاوة بعد الحفاوة، وهكذا تنقلب الأوضاع وتنهار الأطماع... ﴿**إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتَبعوا لو أنّ لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار**﴾: والحاصل من هذا الكلام أنّ الكفار يوم القيامة لا يرون من أعمالهم التي عملوها في الدنيا إلا الحسرات والويلات وقد فات ما فات وهيهات هيهات!.

3 ـ دعوة كل الأنام
إلى معرفة الحلال والحرام

النص

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (167) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (168) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (169) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (170) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (171) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (172) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (173) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿174﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿175﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**كلوا مما في الأرض حلالاً طيّباً**﴾: الحلال نقيض الحرام، وهو المباح. والطيّب المستساغ المفيد تستطيبه النفوس بالإدراك المستقيم السليم من الشذوذ، وهى النفوس التي يشتهى الملائم الكامل أو الراجح، بحيث لا يعود تناوله بضرّ جسمانىّ أو روحانىّ، وطاب: لذّ، ونما... ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾: الخُطْوات: جمع خُطوة، وهى مسافة ما بين القدمين عند مشى الماشى. والشيطان إبليس وذريته، وهى قبيله المسلطة على البشر بالغواية والوسوسة لتقودهم إلى سوء المصير... ﴿**إنّه لكم عدو مبين**﴾: العدو المخالف الذي يكنّ الشر لمخالفه، المتربّص به الدوائر لإثارة داعية مخالفته في نفسه. والمُبين الظاهر العداوة...

﴿**إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء**﴾: السوء اسم لكل ما فيه مضرة في العاجل والآجل، ولكل آفة تتعلق بالجسم والنفس، ولكل ما يسوء الإنسان من قبائح الأعمال من سوء الأفعال والأقوال. والفحشاء اسم مشتق من فحُشَ إذا تجاوز الحد المعروف في فعله أو قوله، وهو ما تجاوز حدّ الآداب وعظُم إنكارُه... ﴿**قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا**﴾: ألفاه على الشيء: وجده متمسكاً به... ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء**﴾: نعق بغنمه صاح زاجراً لها. والدعاء والنداء رفع الصوت، غير أنّ النداء يُسمع، والدعاء قد يُسمع وقد لا يُسمع... ﴿**صم بكم عمى**﴾: صم: جمع أصم، وهو من اعتراه الصمم، وهو فقد السمع. والبكم: جمع أبكم، وهو من اعتراه البكم، وهو

الأخرس الذي لا يتكلم. والعُمْي: جمع أعمى، وهو من اعتراه العمى، وهو فقد البصر. . .

﴿**إنّما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير**﴾: حرّم منع منعا باتاً، وهو الحرام الممنوع شرعاً. والميتة بالتخفيف والتشديد، وهى مأكولة اللحم إذا ماتت بدون ذكاة. والدم السائل الأحمر السارى في الحيوان ذى القلب والرئة، وهو ما يقول عنه الفقهاء: ذو النفس السائلة. ولحم الخنزير: لحم الحيوان المعروف. . . ﴿**وما أهل به لغير الله**﴾: نودي عليه بغير اسم الله، وهو مأخوذ من أهلّ إذا رفع صوته بالكلام، وأهلّ بالحج أو العمرة إذا رفع صوته بالتلبية. . . ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد**﴾: المضطر هو الذي ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات. والبغى الظلم. والعدوان: المحاربة والقتال. وبقية كلمات الآيات في الموضوع معلومة مما تقدم في الكلمات مثلها.

مبحث الإعراب

﴿**يا أيتها الناس**﴾ يا حرف نداء، أيُّ منادى مبني على الضم في محل نصب، ها حرف تنبيه، الناس نعت لأيُّ باعتبار اللفظ فضمت وهى في محل نصب مثل المنعوت. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**مما**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بجملة صلة ما. ﴿**حلالاً طيّباً**﴾ منصوبان على الحال من ما. ﴿**ولا تتبعوا**﴾ معطوف على كلوا، والفعل مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، وواو الجماعة فاعل. ﴿**خطوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**الشيطان**﴾ مضاف إلى خطوات. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**عدوٌّ**﴾ خبر إنّ. ﴿**مبينٌ**﴾ نعت لعدو، وجملة إنّه تعليلية. ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**يأمركم**﴾ فاعل يأمركم الشيطان، وضمير المخاطبين في محل نصب مفعول به. ﴿**بالسوء**﴾ متعلق بيأمركم. ﴿**والفحشاء**﴾ معطوف على السوء. ﴿**وأن تقولوا**﴾ الفعل منصوب بحذف النون وناصبه أن المصدرية، وهى وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور معطوف على السوء. ﴿**على الله**﴾ متعلق بأن تقولوا. ﴿**ما لا تعلمون**﴾ ما اسم موصول في محل نصب مفعول لتقولوا، لا نافية، وجملة تعلمون صلة ما.

﴿**وإذا**﴾ ظرف متضمن معنى الشرط. ﴿**قيل لهم**﴾ الفعل المبنى للمجهول

ونائب فاعله في محل جر مضاف إلى الظرف. ﴿**اتبعوا**﴾ فعل أمر وواو الجماعة فاعل. ﴿**ما أنزل الله**﴾ ما في محل نصب مفعول اتبعوا، أنزل الله فعل وفاعل صلة ما. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**بل**﴾ حرف اضراب إبطالى. ﴿**نتّبع**﴾ فعل مضارع وفاعله نحن. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول نتبع. ﴿**ألفينا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**عليه**﴾ متعلق بألفينا. ﴿**آباءنا**﴾ مفعول ألفينا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أولو**﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للعطف، ولو وصلية فيها معنى الشرط. ﴿**كان**﴾ فعل الشرط. ﴿**آباؤهم**﴾ اسم كان، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لا يعقلون**﴾ فعل منفى بلا، وواو الجماعة فاعل، والجملة في موضع نصب خبر كان. ﴿**شيئاً**﴾ مفعول يعقلون. ﴿**ولا يهتدون**﴾ معطوف على قوله: لا يعقلون، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما تقدم من قوله: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. ﴿**ومثل**﴾ مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**كمثل**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**ينعق**﴾ صلة الذى. ﴿**بما**﴾ متعلق بينعق. ﴿**لا يسمع**﴾ فعل مضارع منفى بلا صلة ما. ﴿**إلاّ دعاء**﴾ بدل من المحذوف المنصوب، أى: لا يسمع شيئا إلاّ دعاء. ﴿**ونداء**﴾ معطوف على دعاء. ﴿**صم**﴾ خبر لمبتدإ محذوف. ﴿**بكم عمي**﴾ كذلك. ﴿**فهم**﴾ هم في محل رفع مبتدأ دخلت عليه فاء التفريع. ﴿**لا يعقلون**﴾ جملة فعلية منفية بلا في محل رفع خبر المبتدإ.

﴿**يا أيّها الذين آمنوا**﴾ تقدم إعراب مثلها كثيراً. ﴿**كلوا**﴾ فعل أمر، وواو الجماعة فاعل. ﴿**من طيبات**﴾ متعلق بكلوا. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول كلوا. ﴿**رزقناكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة ما. ﴿**واشكروا**﴾ معطوف على كلوا. ﴿**لله**﴾ متعلق باشكروا. ﴿**إن كنتم إيّاه تعبدون**﴾ جملة تعبدون خبر كان، إيّاه مفعول تعبدون، واسم كان ضمير المخاطبين، وكان في محل جزم فعل الشرط (إنْ)، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله (اشكروا لله). ﴿**إنّما**﴾ كافة ومكفوفة. ﴿**حرم**﴾ فاعله ضمير يعود على الله. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بحرم. ﴿**الميتة**﴾ مفعول حرم. ﴿**والدم ولحم**﴾ معطوفان على الميتة. ﴿**الخنزير**﴾ مضاف إلى لحم. ﴿**وما**﴾ في محل نصب معطوف كذلك. ﴿**أُهل به لغير**﴾ متعلقان بأُهل، وهو نائب فاعله صلة ما. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**فمنُ**﴾ الفاء للتفريع، ومن شرطية، وضمتها ضمة إتباع، ونائب فاعل ﴿**اضطُر**﴾ ضمير يعود على مَنْ.

﴿**غير**﴾ منصوب على الحال من نائب الفاعل. ﴿**باغ**﴾ مضاف إلى غير، وهو مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة. ﴿**ولا عاد**﴾ معطوف على باغ. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لا نافية للجنس تعمل عمل إنّ.

﴿**إثم**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**عليه**﴾ متعلق بمحذوف خبرُ لا، وجملة فلا إثم عليه في محل جزم جواب الشرط. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**غفور رحيم**﴾ خبران لها والجملة التعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يكتمون**﴾ جملة فعلية صلة الذين. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول يكتمون. ﴿**أنزل الله**﴾ صلة ما. ﴿**من الكتاب**﴾ متعلق بأنزل الله. ﴿**ويَشْتَرون**﴾ معطوف على يكتمون. ﴿**به**﴾ متعلق بيشترون. ﴿**ثمنا**﴾ مفعول به. ﴿**قليلا**﴾ نعت له. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ما يأكلون**﴾ فعل مضارع منفيّ بما، وواو الجماعة فاعل ﴿**في بطونهم**﴾ متعلق بيأكلون. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**النار**﴾ منصوب بدلا من المفعول المقدر، والتقدير: ما يأكلون شيئا إلاّ النارَ، وجملة ما يأكلون في محل رفع خبر أولئك، وجملة أولئك وخبره خبر إنّ. ﴿**ولا يكلّمهم الله**﴾ جملة فعلية معطوفة على قوله: ما يأكلون. ﴿**يوم**﴾ متعلق بفعل يكلمهم. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**ولا يزكيهم**﴾ كذلك. ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أليم نعت لعذاب، وعذاب مبتدأ مؤخر، ولهم متعلق بمحذوف خبر مقدم، والجملة معطوفة مثل الجمل السابقة.

﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**اشتروا**﴾ صلة الذين. ﴿**الضلالة**﴾ مفعول به. ﴿**بالهدى**﴾ متعلق باشتروا. ﴿**والعذاب بالمغفرة**﴾ معطوف على الضلالة. ﴿**فما**﴾ الفاء للتعقيب، وما للتعجب. ﴿**أصبرهم**﴾ فعل التعجب، وفاعله ضمير يعود على ما، والضمير المتصل بالفعل منصوب تشبيها بالمفعول به، وجملة ما أصبرهم مبتدأ وخبر. ﴿**على النار**﴾ متعلق بأصبر. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**بأنّ الله**﴾ أنّ واسمها مجرور بالباء متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**نزّل الكتاب**﴾ الكتاب مفعول نزّل، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة نزّل خبر أنّ. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بمحذوف حال من الكتاب. ﴿**وإنّ الذين اختلفوا**﴾ اختلفوا صلة الذين، والذين في محل نصب اسم إنّ. ﴿**في الكتاب**﴾ متعلق باختلفوا. ﴿**لفى شقاق**﴾ اللام لتوكيد الخبر، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ. ﴿**بعيد**﴾ نعت لشقاق.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿يا أيّها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾: هذا النداء موجه لجميع الناس، والأمر بالأكل للإباحة، والغرض منه بيان الذين ينحرفون عن هذا التوجيه من المشركين وأهل الكتاب... **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾**: هنا فقط تبدأ دائرة الشيطان؛ الشيطان الذي سبق أن زيّن المتاع المحظور لأبى البشر آدم؛ الشيطان الذي عالن الإنسان بالعداء منذ اللحظة الأولى، فلم يعد - لا من كرامة الإنسان ولا من عقله - أن يتبعَ خطاه، وأن يقفوَ أثرَه. والتعبير يجسّم طاعة الشيطان فيجعلها اتباعا لخطاه كما يتبع العبدُ مولاه، واتباع الخطوات تمثيلية، أصلها أنّ السائر قبله إذا رأى آثار خطوات السائرين تبع ذلك المسلك علما منه بأنّه ما سار فيه السائر قبله إلاّ أنّه موصل للمطلوب، فشبه المقتدِى الذي لا دليل له سوى المقتدى به، وهو يظن أنّ مسلكه موصلٌ بالذى يتبع خطوات السائرين. وقوله: إنّه لكم عدو مبين تعليل وربط بما قبلها، فتغنى غناء الفاء بعد الأمر والنهى...

﴿إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾: استئناف لبيان كيفية عداوته، وتفصيل لفنون شره وإفساده وانحصار معاملته معهم في ذلك، فهو لا يأمر بخير ولا يهدى إلى طيب، وأمر الشيطان مجاز عن الوسوسة والتزيين، وحصر أمر الشيطان في ثلاثة أهداف تجمع كل ما حرّم في الإسلام: السوء، الفحشاء، القول على الله بغير علم... **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾**: التفات من الخطاب إلى الغيبة ليتحدث عن أناس زين لهم الشيطان أعمالهم وصدهم عن سبيل الله فحرّموا الحلال وتورطوا في السوء والفحشاء، وتقولوا على كل زور وبهتان وافتراء، ويصدق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى أكثر مما يصدق على المشركين الجهلاء الحيارى، بدليل قوله تعالى: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا!.. **﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾**: فقولهم ألفينا دليل على رسوخهم وقدمهم في الضلال من زمان بعيد، وهم لا يعقلون شيئا لتمسكهم بما عندهم تقليداً لأسلافهم فلم يميزوا بين ما هو خير وما هو شر، فاستمروا في ضلالهم ولم يهتدوا بهدى الهادين...

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء﴾: في هذا

الكلام تشبيه الذين كفروا بغنم لا تسمع من راعيها إلاّ الصوت الذي يصيح به إليها زاجراً أو داعياً فقط. أمّا دعوة الرسل إلى الناس العقلاء فهم بعيدون عنها بعد عقل الراعى من فهم غنمه له... **﴿صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾**: هذا تشبيه بليغ، وقوله: فهم لا يعقلون تفريع كمجيئ النتيجة بعد البرهان، وعليه فلا فائدة من دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام؛ لأنّهم متمسكون بما ألفوا عليه آباءهم، على حد قوله تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»، ومن هنا يتجه القرآن إلى دعوة الذين آمنوا ليترك بقية الناس في ضلالهم وتقليدهم وعنادهم؛ يتجه بالدعوة إلى المؤمنين وحدهم مبينا لهم حدود الحلال والحرام...

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون﴾: ولما كان خطاب المؤمنين مستقلا بنفسه بيّن لهم حكمة التحليل والتحريم. فالطيّب حلال والشكر عليه واجب. والخبيث حرام والإمتناع منه واجب... **﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل به لغير الله﴾**: هذا الحصر جاء في محرمات الأكل من الحيوان الذي ضلّ فيه تحريما وتحليلا أكثر أهل الأديان، فبيّن هنا حكمة التحريم من جهتين: جهة خباثة المأكول ومضرته للآكل - الميتة، والدم، ولحم الخنزير - ومعلوم مضرة هذه طبيّاً. جهة معنوية تتعلق باتجاه الآكل إلى شيء يراه دينا يتعبد به لغير الله، وهى علة روحية تتنافى مع سلامة القلب وطهارة الروح ووحدة المتجه، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة. ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات، فيبيح فيها المحظورات، ويحل فيها المحرمات، بقدر ما تنتفى هذه الضرورة بغير تجاوز لها ولا تعدّ لحدودها... **﴿فمنُ اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾**: وقوله... **﴿إنّ الله غفور رحيم﴾**: تعليل وتقرير لحكمة الإباحة...

﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار. ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾: في هذا الكلام تحذير للمسلمين بما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم، وتحليل بعض ما حرّم الله عليهم، ومثلهم النصارى وغيرهم من المشركين. وفي هذا تهيئة للتخلص إلى الإفاضة في بيان شرائع

الإسلام، فإنّ هذا الكلام فيه إبطال لما شرعه أهل الكتاب في دينهم. وجيء بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى سبب الخبر وعلته، والكتاب المذكور هنا هو كتاب الذين يكتمون، وهم اليهود والنصارى، والثمن هنا ما يأخذه علماؤهم جزاء على إفتائهم بالباطل، أو رشوة لتزييف حق، ويطلق على الرشوة لأنها ثمن يدفع عوضاً عن جور الحاكم وتحريف المفتى.

وقوله... ﴿**أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار**﴾: جيء باسم الإشارة لإشهارهم؛ لئلا يخفى أمرهم عن الناس، وللتنبيه على أنّ ما يخبر به عن اسم الإشارة استحقوه بسبب ما ذكر قبلَ اسم الإشارة، وهو تأكيد للسببية المدلول عليها بالموصول. والأكل مستعار للإنتفاع مع الإخفاء، ولا يخفى ما في بقية الآية من التبكيت والتعنيف والتهديد والتخويف، لكل من يسمع ويقرأ ما يدخل تحت هذا من الوعيد الشديد لأهل الغش والتزييف... ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة**﴾: تكرر اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليه جدير بأحكام أخرى غير الحكم السابق، وأنّ تلك الأحكام لأهميتها ينبغى ألاّ تجعل معطوفة تابعة للحكم الأول، بل تُفرد بالحكمية. ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى في كتمان الكتاب: إنّ كل آية أخفوها أو أفسدوها بالتأويل فقد ارتفع مدلولها المقصود منها، ومعنى اشتراء العذاب بالمغفرة: أنّهم فعلوا ذلك الكتمان عن عمد وعلم بسوء عاقبته، وقوله ﴿**فما أصبرهم على النار**﴾: تعجيب من شدّة صبرهم على عذاب النار.

والأسلوب هنا مبني على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدّة استحضار السامع إيّاه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل الإشارة لربط الكلام اللاحق بالكلام السابق. والأول كتمان ما في كتابهم بسبب أنّ الله نزل القرآن بالحق، والغرض من هذا الأسلوب زيادة الإستغراب من تعمدهم كتمان ما أنزل الله، وأنّ هذا الصنع الشنيع لا يكون إلاّ عن سبب عظيم!. وقوله... ﴿**وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لفى شقاق بعيد**﴾: موصول بما قبله تكملة لوصف الذين اشتروا الضلالة بالهدى ووعيدهم، وفائدة الإظهار في مقام الإضمار في قوله: الكتاب، أن يكون التذييل مستقلا بنفسه لجريانه مجرى المثل، ووصف الشقاق بالبعيد مجاز عقلي.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿يا أيّها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾: في هذا يمضى السياق داعيا الناس جميعا إلى التمتع بطيبات الحياة والبعد عن خبائثها محذراً من اتباع الشيطان الذي يأمر بالخبائث. وهذه الطيبات مباحة للناس جميعا، بل إنّ المتاع بها مطلوب ومرغب فيه، فليس الحرمان أصلا من أصول هذا الدين، وليس الصدود عن نعم الله المتاحة هدفا من أهدافه، ما ظل الإستمتاع في الدائرة الطيبة الحلال، وهى دائرة واسعة تشمل كل متاع لا يؤدى إلى الفحشاء. هنا فقط تبدأ دائرة الشيطان، الشيطان الذي سبق أن زين المتاع المحظور لأبى البشر، فحرَمَه من المتاع المباح. والشيطان الذي عالن الإنسان بالعداء منذ اللحظة الأولى، فهو لا يأمر بخير ولا يهدى إلى طيب...

﴿إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾: السوء والفحشاء والقول على الله دون علم، وهذا ترقٍّ في القبائح من الرذيل إلى الأرذل إلى ما هو أشد وأقبح، لأنّ القول على الله بما لا ينبغى من أعظم الكبائر. فهذه الآية كالتفسير لقوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فالمعاصى والكفر والجهل كلها من مأمورات الشيطان، ويدخل جميع العقائد الفاسدة والأهواء الباطلة، والمذاهب الضالة، والقول: هذا حرام وهذا حَلال ترضية وتزلفا، أو خوفا أو طمعا بأىّ حال.

التوجيه الثانى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾: في هذا التوجيه بيان لفريق كبير من الناس، اتبعوا خطوات الشيطان، فخدعهم بالغرور والخذلان، وتعاموا عن التوجيه، وصمّموا على ما عليه الآباء والأجداد بدعوة أنّهم على الحق والسداد. ولهذا جاء التعجب والإستغراب من هذا الموقف السخيف، حتى ضرب بهم المثل في الجهل والغباوة وسخافة العقل... **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾**: ومن ثم يرسم لهم صورة مزرية مضحكة!. هنا يتجه القرآن بالدعوة إلى الذين آمنوا وحدهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم بعدما توجه بها من قبل للناس جميعاً، فإذا جماعة منهم لا يسمعون قولاً ولا يدركون توجيهاً، إنّما يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم دون تمييز بين الطيب والخبيث.

التوجيه الثالث: ﴿ياأيّها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله﴾: يتجه بالدعوة إلى المؤمنين وحدهم مبينا لهم حدود الحلال والحرام، وفي هذا التوجيه توبيخ ما عليه أهل الكتاب والمشركين من العرب وكل من يستن بسنتهم في اتباع الأوهام ورسم منهج الشيطان في أمر الحلال والحرام، وهو امتنان على المؤمنين بإباحة ما في الأرض من طيبات الشراب والطعام. وقوله: واشكروا لله معطوف على الأمر بأكل الطيبات الدال على الإباحة والإمتنان. والأمر في اشكروا للوجوب؛ لأنّ شكر المنعم واجب... **﴿إن كنتم إيّاه تعبدون﴾**: شرط في صحة الشكر. فإنّ الشكر اعتراف بالمنعم فلا تصح عبادة غيره؛ لأنّ غيره لا يملك شيئا... **﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله﴾**: هذه هي المحرمات، وهى مستفادة من صيغة الحصر، وبضدها تتميز الأشياء، ومن هنا نعلم أنّ الحلال الطيب كثير، والحرام الخبيث قليل، وهو في طبيعته حقير. وحكمة تحريم أكل الميتة - وهى التي ماتت بسبب غير الذكاة - لما فيها من الخباثة الذاتية، ومثلها الدم المسفوح، ولحم الخنزير. أمّا ما أُهل به لغير الله - وهو ما توجه به صاحبه لغير الله من صنم أو نصب أو ضريح - فعلّة تحريمه عارضة للتوجه به لغير الله... **﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾**: الضرورات تبيح المحظورات، وهو مبدأ عام ينصبّ هنا على هذه المحرمات، فأيّما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة كليا أو جزئيا فلصاحبها أن يتفادى الحرج بتناول المحظور في الحدود التي تدفع هذه الضرورة ولا زيادة. وهذا مدخل واسع في كتب الفقه استوفى فيه الفقهاء الكلامَ هنالك.

التوجيه الرابع: ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار﴾: في هذا التوجيه تحذير للمسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم، ويدخل في عموم كل ما حرم الله كتمانه رجاء كسب مادى من وراء هذا الكتمان. إنّهم بهذا العمل صائرون إلى النار، فكأنّما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم. وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة...

﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين

اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحق﴾: ذلك الجزاء الذي استحقوه بسبب إنزال الكتاب بالحق وهم لم يتبعوه ولم يعملوا بما فيه. فالكتاب هنا شامل لجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، ومنها التوراة التي كتم اليهود ما فيها من صحة دعوة محمد ﷺ فحرفوها، وغيروا معناها؛ لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على مدحهم وتعظيمهم آبائهم فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزؤا، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال!. فما أصبر هؤلاء على النار!

4 ـ توجيه الكلام إلى حقيقة البرّ في الإسلام

النص

* لَيْسَ اَلْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ اَلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنِ اِلْبِرُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلْأخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ
وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيٓـِٕينَ وَءَاتَى اَلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي اِلْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ اَلسَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي اِلرِّقَابِ
وَأَقَامَ اَلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى اَلزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمُۥٓ إِذَا عَٰهَدُواْ
وَالصَّٰبِرِينَ فِي اِلْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ اَلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ اَلَّذِينَ
صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْمُتَّقُونَ (176) يَٰٓأَيُّهَا اَلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ اُلْقِصَاصُ فِي اِلْقَتْلَى اَلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ
بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اِعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177) وَلَكُمْ فِي اِلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي
اِلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (178) كُتِبَ عَلَيْكُمُۥٓ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ اُلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا اِلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى اَلْمُتَّقِينَ (179) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ
فَإِنَّمَا إِثْمُهُۥ عَلَى اَلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (180)

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً اَوِ اِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿181﴾ يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ
ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى اَلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿182﴾ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ
مِنكُم مَّرِيضاً اَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ وَعَلَى اَلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسَاكِينَ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ
وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿183﴾ * شَهْرُ
رَمَضَانَ اَلَّذِي أُنزِلَ فِيهِ اِلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ اَلْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
اُلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً اَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ يُرِيدُ اُللَّهُ بِكُمُ اُلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
اُلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا اُلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اُللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿184﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَإِنِّي قَرِيبٌ اُجِيبُ دَعْوَةَ اَلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿185﴾
اُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ اَلصِّيَامِ اِلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اَللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (186) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (187)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ليس البرُّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾: البر سعة الإحسان، وشدة المرضاة، والخير الكامل الشامل، والمراد به هنا بر العبد ربَّه بحسن المعاملة في تلقى شرائعه وأوامره، والبر المنفي هو ما يعتقد براً وليس ببر، كاستقبال المشرق والمغرب عند أهل الكتاب. . . ﴿**ولكن البر من آمن بالله. . .**﴾ الخ: أول بر في الإسلام الإيمان بالله، وثانيه الإيمان باليوم الآخر، وثالثه الإيمان بالملائكة، ورابعه الإيمان بالكتاب، وخامسه الإيمان بالنبيئين، وسادسه إعطاء المال على حب المال والإعطاء والمعطى له كما أمر الله، وهو إعطاؤه للقرابة نسبا وجواراً. . . ﴿**واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب**﴾: وسابعه إقامة الصلاة، وثامنه إيتاء الزكاة، وتاسعه إيفاء العهد، وعاشره الصبر في البأساء والضراء وحين البأس. . . ﴿**أولئك الذين صدقوا**﴾: الإشارة إلى ما ذكر من

أهل البر، والصدق هنا صدق الإيمان، والتقوى اعتقاد الجنان والنطق باللسان والعمل بالأركان. . .

﴿**كتب عليكم القصاص في القتلى**﴾: فرض فرضا لازما على الأمة، والقصاص أصله في اللغة القطع، ويطلق القصاص هنا على عقوبة الجانى بمثل ما جنى، فماهية القصاص تتضمن ماهية التعويض والتماثل. والقتلى جمع قتيل، وهو من يقتله غيره من الناس. . . ﴿**الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾: الحر مقابل العبد، والعبد الإنسان الذي استعبده غيره بالأسر أو الشراء، وهو مَن به شائبة رق للغير، ويطلق العبد على الإنسان؛ لأنّه مملوك لله. . . ﴿**فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**﴾: فمن أعطى له شيء من المال عوضا عن حق النفس فعلى ولى النفس أن يقبله استبقاء لأواصر إخوة الإسلام. فاتباع بالمعروف: والمعنى فليرض بما بذل له من الصلح المتيسر. . . وأداء إليه بإحسان: والمعنى وليؤد باذل الصلح - الشيء - ما بذله دون مماطلة ولا نقص. . . ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾: إشارة إلى الحكم المذكور، وهو قبول العفو، وإحسان الأداء، والعدول عن القصاص، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة. . .

﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾: في القصاص حياة للناس، يعلم هذا أهل العقول الراجحة، ذلك عندما يعلم القاتل أنّه سيقتل يبتعد عن القتل ولا يزاوله فتحصل بذلك وقاية التعدى والاعتداء فيعيش الناس في أمن وسلام. . . ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين**﴾: فرض الله عليكم في وقت حلول علامات الموت بأحد منكم وكان له مال أن يعهد إلى غيره بإعطاء الوالدين والأقربين بالعدل دون مضارة أحد من حرمان أو إجحاف، وهو حق يرعاه المتقون فيما بينهم. . . ﴿**فمن بدّله بعدما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه**﴾: المراد من التبديل هنا الإبطال أو النقص. والإثم الذنب الناشيء عن التبديل الممنوع. . . ﴿**فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه**﴾: خاف ظن وتوقع من الموصى. والجنف الحيف والميل والجور، والمراد من الجنف هنا تفضيل من لا يستحق التفضيل على غيره. والإثم المعصية، وهى أن تكون الوصية على غير وجهها

المطلوب شرعا. ومعنى أصلح بينهم أن من وجد في وصية الموصى إضراراً ببعض أقربائه، أو سوء قصد في وصيته فسعى في إصلاح ما بين الموصِي والموصى له، أو بينه وبين الورثة فلا حرج ولا ذنب في هذا...

﴿**يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام**﴾: ومعنى كتب مثل ما سبق. الصيام في الشرع اسم لترك جميع الأكل وجميع الشرب وجماع النساء مدة مقدرة بالشرع بنية الإمتثال لأمر الله، وهذا الإطلاق الشرعى على الصوم قد عرفه العرب بهذا المعنى، فقد اتفقت اللغة والشريعة في هذا التعريف... ﴿**كما كتب على الذين من قبلكم**﴾: فُرض عليكم فرضا مثل فرض من كان قبلكم من الأمم بواسطة الرسل السابقين... ﴿**أياماً معدودات**﴾: أيام جمع يوم، والمعدودات محدودات بعدّ، وهذا أول ما شرع من الصوم قبل فرض شهر رمضان... ﴿**فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾: الخطاب هنا مخصوص بالحاضرين وقت نزول الآية عندما فرض عليهم أن يصوموا أياماً معدودات، فسمح للمريض والمسافر منهم أن يفطر ويقضى ما أفطر في أيام الصحة والحضر في المقر... ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين**﴾: هذه رخصة كانت أول ما فرضت الأيام المعدودات، فللشخص أن يفدى صيامه بطعام يطعمه المساكين... ﴿**فمن تطوع خيراً فهو خير له**﴾: فمن زاد في الإطعام صفة أو عدداً فهو زيادة خير، وكل هذا فيما كان قبل النسخ... ﴿**وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾: والصيام خير لكم لأجل التدرب والتمرن على الصوم إن كنتم تعلمون الحكمة في هذا التدريج في تشريع الصوم...

﴿**شهر رمضان**﴾: الشهر جزء من اثنى عشر جزءً من العام، والشهر يبتدىء من ظهور الهلال إلى المحاق، ثم ظهور الهلال مرة أخرى، وهو مشتق من الشهرة؛ لأنّ الهلال يظهر لهم فيشهرونه ليراه الناس ويثبت الشهر عندهم، والشهر القمرى تارة ثلاثون يوما، وتارة تسعة وعشرون يوما، ولا يثبت شرعا إلا برؤية الهلال، والحساب لم ينضبط انضباطاً قطعياً بين علماء الفلك، ورمضان اسم علم على الشهر المعروف عند الناس الآن، وهو الشهر الذي يكون بين شعبان وشوال... ﴿**هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾: المراد بالهدى الأول ما في القرآن من الإرشاد من المصالح العامة والخاصة، وبالبينات من الهدى والفرقان

ما في القرآن من الاستدلال على الهدى الخفي الذي ينكره كثير من الناس، مثل أدلة التوحيد، وصدق الرسل وغير ذلك من الحجج القرآنية. والفرقان مصدر فرق، وقد شاع في الفرق بين الحق والباطل. . . **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾**: شهد بمعنى حضر، يقال: شهد معركة كذا، وبمعنى علم، مثل قوله: شهد الله. . . **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾**: اليسر ضد العسر، فهما كلمتان متقابلتان، إن وجدت إحداهما انتفت الأخرى، فاليسر السهولة والرخاء، والعسر الصعوبة والشدة، ويطلق اليسر على اللين والانقياد وعلى الغنى وحسن العيش. . . **﴿ولتكملوا﴾** العدة: أكمل يكمل أتم، والمراد به هنا إكمال عدد أيام الصيام أداء وقضاء. . . **﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾**: التكبير تفعيل مراد به النسبة والتوصيف بمعنى أن تَصِفُوا الله بالكبر والعظمة والجلال، والتنزيه عن النقائص كلها، ومثل قولهم: كبّر، وبسمل، وحمدل، وهلّل. . .

﴿وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾: سأله عن كذا طلب إزالة الإبهام عن شيء مهم. وهذا السؤال موجه للرسول ﷺ من عباد الله المؤمنين عن إجابة الله لهم حين يسألونه شيئا. ومعنى قريب: عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أمورهم، أجيب دعوة السائل على أي حال وفي كل مكان وزمان، بشرط الإيمان والخضوع للأمر بالإذعان. . . **﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**: يرشد مضارع رشد، ومصدره رُشْداً ورَشَداً ورشاداً، ومعناه اهتدى، ويطلق على الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه ودراية به حتى صار صاحبه يهدى غيرَه إليه، وصار من أجل ذلك رشيداً يحسن ما يعمل من قول أو فعل. . . **﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾**: أحلّ أبيح. ليلة الصيام: الليلة التي يعقبها صيام اليوم الموالى لها. والرفث المسيس والكلام ومقدماته، ويعبر عنه بالإفضاء إلى النساء، وهو بهذا المعنى. . . **﴿هن لباس لكم﴾**: معناه الاتصال المباشر مثل اتصال اللباس بالجسد. . . **﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾**: الاختيان مراودة الخيانة، والمعنى هنا أنكم تلجؤون أنفسكم للخيانة، أو تنسبونها لها. . . **﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾**: من الآن ظهر الحكم واضحا فباشروا النساء بقصد ابتغاء الذرية الصالحة. . .

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾: المراد بالخيط الأبيض الشعاع الممتد في الأفق وقت بزوغه قبل أن ينتشر

إلى أعلى. والخيط الأسود الظلمة التي تعلوه قبل انكشافها ببهرة الضياء... ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾: الليل يدخل بغروب الشمس... ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾: حقيقة الأكل إدخال الطعام إلى المعدة من الفم، ثم استعمل في أخذ المال للإنتفاع به دون إرجاع، والأموال جمع مال، وهو ما يتموله الإنسان من منافع الحياة فيما له قيمة نقدية أو مثلية، والباطل ضد الحق... ﴿**وتدلوا بها إلى الحكام**﴾: الإدلاء في الأصل إرسال الدلو في البئر، وأدلى إليه بما له دفعه، والمراد به هنا المال الذي يدفع إلى الحكام ليسهلوا لهم أغراضهم، ويسمى هذا العمل الرشوة، وهى تتفق في أصل الوضع مع الإدلاء، فالدلو والرشاء مما يستعان بهما على نفع النفس بالماء.

مبحث الإعراب

﴿**ليس البرُّ**﴾ بالرفع اسم ليس. ﴿**أن تولوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب خبر ليس. ﴿**وجوهكم**﴾ مفعول تولوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**قبل**﴾ ظرف مكان منصوب بالفتحة. ﴿**المشرق**﴾ مضاف إلى قبل. ﴿**والمغرب**﴾ معطوف على المشرق. ﴿**ولكن**﴾ حرف استدراك مخفّف. ﴿**البر**﴾ مبتدأ. ﴿**مَنْ**﴾ في محل رفع خبر. ﴿**آمن**﴾ صلة مَن. ﴿**بالله**﴾ متعلق بآمن. ﴿**واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين**﴾ معطوفات على الله. ﴿**وآتى**﴾ معطوف على آمن. ﴿**المال**﴾ مفعول آتى الثانى. ﴿**على حبه**﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل آتى. ﴿**ذوى**﴾ المفعول الأول الآتى منصوب بالياء. ﴿**القربى**﴾ مضاف إلى ذوى مجرور بكسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر. ﴿**واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين**﴾ معطوفات على ذوى القربى. ﴿**وفي الرقاب**﴾ متعلق بفعل مقدر مناسب للسياق. ﴿**وأقام**﴾ معطوف على آتى. ﴿**الصلاة**﴾ مفعول به. ﴿**وآتى الزكاة**﴾ مثل أقام الصلاة. ﴿**والموفون**﴾ معطوف على من آمن بالله، فهو مرفوع على الخبرية. ﴿**بعهدهم**﴾ متعلق بالموفون، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**إذا عاهدوا**﴾ جملة شرطية. ﴿**والصابرين**﴾ نُصِبَ على الاختصاص. ﴿**في البأساء**﴾ متعلق بالصابرين. ﴿**والضراء وحين البأس**﴾ معطوف على البأساء. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع خبره. ﴿**صدقوا**﴾ صلة الذين. ﴿**وأولئك هم المتقون**﴾ معطوف على أولئك الذين صدقوا.

﴿**يا أيتها الذين آمنوا**﴾ معلوم إعراب هذه الجملة. ﴿**كتب**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بكتب. ﴿**القصاص**﴾ نائب فاعل كُتب. ﴿**في القتلى**﴾ متعلق بكتب، والمعنى كتب عليكم القصاص بسبب من يقتل ظلما. ﴿**الحر**﴾ مبتدأ. ﴿**بالحر**﴾ متعلق بمحذوف خبر. ﴿**والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾ مثله. ﴿**فمن عفى**﴾ الفاء للتفريع، ومن شرطية جازمة، وعفى فعل الشرط. ﴿**له من أخيه**﴾ متعلقان بعُفى. ﴿**شيء**﴾ نائب فاعل عُفى. ﴿**فاتباع**﴾ مبتدأ، والفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**وأداء إليه بإحسان**﴾ معطوف على فاتباع بالمعروف، وهو مثلها في الإعراب. ﴿**ذلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**تخفيف**﴾ خبره. ﴿**من ربكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت للخبر. ﴿**ورحمة**﴾ معطوف على تخفيف. ﴿**فمن**﴾ شرطية دخلت عليها فاء التفريع. ﴿**اعتدى**﴾ فعل الشرط. ﴿**بعد**﴾ متعلق باعتدى. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**فله**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والفاء رابطة لجواب الشرط. ﴿**عذاب**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**أليم**﴾ نعت لعذاب، والجملة في محل جزم جواب الشرط.

﴿**ولكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**في القصاص**﴾ مثله. ﴿**حياة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**يا أولي**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولي. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تتقون**﴾ الجملة الفعلية خبر لعل. ﴿**كتب**﴾ فعل ماض مبنيّ للمجهول. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بكتب. ﴿**إذا حضر أحدَكم الموت**﴾ جملة شرطية ظرفية، والموت فاعل حضر، وأحدكم مفعول له، وجملة حضر في محل جر مضاف إلى إذا، وجواب الشرط مقدر. ﴿**إن ترك خيراً**﴾ جملة شرطية، وجوابها مقدر مثل الشرط الأول. ﴿**الوصية**﴾ نائب فاعل كُتِبَ. ﴿**للوالدين**﴾ متعلق بالوصية. ﴿**والأقربين**﴾ معطوف على الوالدين. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بمحذوف حال من الوصية. ﴿**حقا**﴾ مفعول مطلق منصوب بالفتحة. ﴿**على المتقين**﴾ متعلق بحقا. ﴿**فمن**﴾ اسم شرط جازم دخل عليه حرف التفريع. ﴿**بدّله**﴾ فعل الشرط، والضمير المتصل مفعول به، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**بعد**﴾ متعلق ببدله. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**سمعه**﴾ صلة ما، والضمير المتصل به مفعول، والفاعل ضمير يعود على فاعل بدّل. ﴿**فإنّما إثمه على الذين**﴾ الجملة الإسمية في محل جزم جواب الشرط ربطت بالفاء. ﴿**يبدلونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الذين. ﴿**إنّ الله سميع عليم**﴾ الجملة من إنّ

واسمها وخبرها تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿**فمن خاف**﴾ مثل قوله: فمن بدّله. ﴿**من موص**﴾ متعلق بخاف. ﴿**جنفا**﴾ مفعول به. ﴿**أو إثما**﴾ معطوف على جنفا. ﴿**فأصلح**﴾ معطوف على خاف. ﴿**بينهم**﴾ متعلق بأصلح. ﴿**فلا إثم**﴾ الفاء لربط الجواب، ولا نافية للجنس، إثم اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**عليه**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة فلا إثم عليه في محل جزم جواب الشرط. ﴿**إنّ الله غفور رحيم**﴾ مثل إنّ الله سميع عليم. ﴿**يا أيّها الذين آمنوا**﴾ إعرابها معلوم. ﴿**كتب عليكم الصيام**﴾ نائب فاعل كتب، وعليكم متعلق به. ﴿**كما**﴾ الكاف في محل نصب نعت لمصدر كتب، ما في محل جر مضاف إلى الكاف. ﴿**كُتب**﴾ فعل ماض مبني للمجهول، صلة ما. ﴿**على الذين**﴾ متعلق بكتب. ﴿**من قبلكم**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذين، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**لعلكم تتقون**﴾ مثل سابقتها. ﴿**أياما**﴾ مفعول به لمعنى كتب. ﴿**معدودات**﴾ نعت لأياما. ﴿**فمن**﴾ اسم شرط دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**كان**﴾ اسمها ضمير يعود على من. ﴿**منكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لخبر كان. ﴿**مريضا**﴾ خبر كان. ﴿**أو على سفر**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**فعدة**﴾ الفاء رابطة للجواب، وعدة مبتدأ، والخبر مقدر. ﴿**من أيام**﴾ بيان لعدة. ﴿**أخر**﴾ نعت لأيام مجرور بالفتحة للوصفية والعدل. ﴿**وعلى الذين**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**يطيقونه**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الذين. ﴿**فدية**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**طعام**﴾ مضاف إلى فدية. ﴿**مساكين**﴾ مضاف إلى طعام مجرور بالفتحة لصيغة منتهى الجموع. ﴿**فمن تطوع**﴾ فاعل تطوع ضمير يعود على مَنْ، وتطوع في محل جزم فعل الشرط، والفاء للتفريع. ﴿**خيراً**﴾ مفعول به. ﴿**فهو خير له**﴾ جملة اسمية في محل جزم جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب. ﴿**وأن تصوموا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع مبتدأ. ﴿**خير**﴾ خبره. ﴿**لكم**﴾ متعلق بخير، والتقدير: وصيامكم خير. ﴿**إن كنتم تعلمون**﴾ جملة شرطية من كان واسمها وخبرها، وجواب الشرط مقدّر.

﴿**شهر**﴾ مبتدأ. ﴿**رمضان**﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة لزيادة الألف والنون. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**أُنزل فيه القرآن**﴾ صلة الذي. ﴿**هدى**﴾ حال من القرآن منصوب بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة. ﴿**للناس**﴾ متعلق

بهدى. ﴿وبينات﴾ معطوف على هدى منصوب بالكسرة. ﴿من الهدى﴾ متعلق ببينات. ﴿والفرقان﴾ معطوف على الهدى. ﴿فمن﴾ الفاء للترتيب، ومن شرطية جازمة. ﴿شهد﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على من. ﴿منكم﴾ متعلق بشهد. ﴿الشهر﴾ مفعول به. ﴿فليصمه﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، يصمه مجزوم بلام الأمر، والضمير المتصل به مفعول به، والفاعل ضمير يعود على مَن، وجملة فليصمه في محل جزم جواب الشرط. ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أُخَرَ﴾ تقدم إعراب مثلها قريبا. ﴿يريد الله﴾ فعل وفاعل. ﴿بكم﴾ متعلق بيريد. ﴿اليسر﴾ مفعول به. ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ مثلها. ﴿ولتكملوا﴾ الواو للعطف، واللام هذه يكثر وقوعها بعد فعل الإرادة، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة. ﴿العدة﴾ مفعول به. ﴿ولتكبروا الله﴾ معطوف على لتكملوا. ﴿على ما هداكم﴾ ما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بعلى متعلق بتكبروا، والتقدير: لتكبروا الله على هدايته إياكم. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ تقدم إعراب مثلها، وهذه الجمل من قوله: يريد الله. . . تعليلية.

﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ معطوفة على ما قبلها من الجمل، وعنّي متعلق بسألك، وعبادي فاعل سأل مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة. ﴿فإنّي قريب﴾ الجملة جواب الشرط. ﴿أجيب﴾ هذه الجملة في محل رفع خبر ثان لإنّ. ﴿دعوة﴾ مفعول به. ﴿الداعي﴾ مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة. ﴿إذا دعاني﴾ النون فيه للوقاية، وياء المتكلم في محل نصب مفعول به، وفاعل دعا ضمير يعود على الداعي. ﴿فليستجيبوا﴾ الفاء للتفريع، واللام لام الأمر، والفعل مجزوم بها، وواو الجماعة فاعل. ﴿لي﴾ متعلق بيستجيبوا. ﴿وليؤمنوا بي﴾ مثلها. ﴿لعلهم يرشدون﴾ علم إعراب مثلها فيما تقدم. ﴿أحل﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لكم﴾ متعلق بأحل. ﴿ليلة﴾ ظرف زمان منصوب بالفتحة. ﴿الصيام﴾ مضاف إلى ليلة. ﴿الرفث﴾ نائب فاعل أُحل. ﴿إلى نسائكم﴾ متعلق بالرفث. ﴿هن لباس﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لكم﴾ متعلق بلباس. ﴿وأنتم لباس لهن﴾ مثلها. ﴿علم الله﴾ فعل وفاعل. ﴿أنّكم﴾ أنّ واسمها. ﴿كنتم﴾ كان واسمها. ﴿تختانون﴾ جملة الفعل والفاعل في محل نصب خبر كان، وكنتم واسمها وخبرها في محل رفع خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول علم. ﴿أنفسكم﴾

مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فتاب عليكم**﴾ مرتب على ما قبله. ﴿**وعفا عنكم**﴾ معطوف عليه. ﴿**فالآن**﴾ تعقيب على ما تقدم، والظرف متعلق بما بعده. ﴿**باشروهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**وابتغوا**﴾ معطوف على باشروا. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**كتب الله**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**لكم**﴾ متعلق بكتب.

﴿**وكلوا واشربوا**﴾ عطفت على ما قبلها. ﴿**حتى يتبين**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى التي بمعنى إلى، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف الجر متعلق بكلوا واشربوا. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيتبيّن. ﴿**الخيط**﴾ فاعل. ﴿**الأبيض**﴾ نعت له. ﴿**من الخيط**﴾ متعلق بيتبين. ﴿**الأسود**﴾ نعت للخيط. ﴿**من الفجر**﴾ بيان للخيط الأبيض. ﴿**ثم أتموا الصيام**﴾ معطوف على قوله: حتى يتبيّن لكم. ﴿**إلى الليل**﴾ متعلق بأتموا. ﴿**ولا تباشروهن**﴾ معطوف على قوله: باشروهن، والفعل مجزوم بلا الناهية. ﴿**وأنتم عاكفون**﴾ جملة حالية من واو الجماعة في قوله: ولا تباشروهن. ﴿**في المساجد**﴾ متعلق بعاكفون. ﴿**تلك**﴾ اسم إشارة في محل رفع مبتدأ. ﴿**حدود**﴾ خبره. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حدود. ﴿**فلا تقربوها**﴾ مرتب على اسم الإشارة. ﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر محذوف، وذلك في محل جر مضاف إلى الكاف. ﴿**يبين الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**آياته**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**للناس**﴾ متعلق بيبين. ﴿**لعلهم يتقون**﴾ إعرابها مثل ما سبق.

﴿**ولا تأكلوا أموالكم**﴾ معطوف على ما قبله من المنهيات. ﴿**بينكم بالباطل**﴾ متعلقان بلا تأكلوا. ﴿**وتدلوا**﴾ عطف على المنهى عنه. ﴿**بها**﴾ متعلق بتدلوا. ﴿**إلى الحكام**﴾ كذلك. ﴿**لتأكلوا**﴾ الفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل. ﴿**فريقاً**﴾ مفعول به. ﴿**من أموال**﴾ متعلق بتأكلوا. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أموال. ﴿**بالإثم**﴾ كذلك. ﴿**وأنتم**﴾ في محل رفع مبتدأ، والواو واو الحال. ﴿**تعلمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال من واو الجماعة في قوله: لتأكلوا.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب. . .** ﴾ الخ الآية: الكلام

هنا إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أحوال أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتباع الإسلام، فالنفى هنا مسلط على البر المزعوم عند من يزعم أن البر هو ما عليه هُم من الطقوس والمراسيم التي رسمها لهم رؤساؤهم. وجاء الإستدراك مبينا حقيقة البر، وهى الأعمال والتكاليف التي يترتب عليها إسلامُ المرء وجهَه لله وإخلاصُه وإحسانُه. وقوله: ﴿**ولكن البر من آمن**﴾ إخبار عن المصدر باسم الذات للمبالغة. وخصال البر هنا بينها تفصيلا، فلم يترك من خصال البر شيئا. وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشىء عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، وهو تحقيق الحق بعد بيان بطلان الباطل، وتفصيل لخصال البر. وهكذا تجمع آية واحدة بين تكاليف النفس والمال، وتجعلها كلا لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنوانا واحداً هو البر، لهذا عقبت الآية الكريمة على من هؤلاء صفاتهم بأنّهم... ﴿**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾: كانت هذه الآية تقريراً لصلات المجتمع الرحيمة الودود في حالات الود والصفاء والسلام، ولكن هذه الحالات ليست هي السائدة دائما. والتشريع للمجتمع لابد أن يحسب حساباً لكل علاقاته وكل ضروراته، لذلك انتقل السياق من تقرير علاقات البر والرحمة والمودة، إلى تنظيم العلاقات التي تلابسها الخصومة والقتل والعدوان. واتخذ القصاص العادل وسيلة لترضية النفوس وشفاء الصدور وإقرار النظام...

﴿**يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾: وأعيد الخطاب بيا أيّها الذين آمنوا؛ لأنّ هذا صنف من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامى، واستتباب نظامه وأمنه. وابتدىء بأحكام القصاص؛ لأنّ أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة. ومعنى كتب عليكم: أنّه حق لازم للأمة لا محيد عن الأخذ به. وفي مِنْ قوله: في القتلى: للظرفية المجازية، والقصاص لا يكون في ذوات القتلى، فتعين تقدير مضاف، وحذفُه هنا ليشمل القصاص سائر شؤون القتلى، وسائر معانى القصاص، فهو إيجاز وتعميم. الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى: بيان وتفصيل لجملة كتب عليكم القصاص، والقصد من هذا إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من ترك القصاص لشرف أو لقلة اكتراث...

﴿**فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**﴾: المقصود

من هذا الكلام بيان أن أخذ الولى بالقصاص المستفاد من صور كتب عليكم القصاص في القتلى ليس واجبا عليه، ولكنه حق له فقط؛ لئلا يتوهم منه أنّ الأخذ به واجب على ولى القتيل. والتصدى لتفريع ذكر هذا بعد ذكر حق القصاص للإيماء إلى أنّ الأولى بالناس قبول الصلح استبقاء لأواصر أخوة الإسلام. ولفظ شيء اسم متوغل في التنكير دال على نوع ما يصلح له سياق الكلام. ومعنى عفى له من أخيه شيء أنّه أعطى الميسور على القاتل من عوض الصلح، ومن معانى العفو أنّه الميسور من المال الذي لا يجحف بباذله، فهذا تأكيد للترغيب الذي دل عليه قوله: من أخيه. واتباع وأداء مصدران وقعا عوضاً عن فعلين لإفادة معنى الثبات والتحقيق الحاصل بالجملة الاسمية. ومقصد الآية الترغيب في الرضى بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية يتعيرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدونه بيعاً لدم مولاهم. وقوله: ﴿**ذلك تخفيف من ربكم**﴾: إشارة إلى الحكم المذكور، وقد اجتمع فيه العدل والرحمة، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة... ﴿**فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم**﴾: تفريع عن حكم العفو. فمن عفا ثم غدر يشدد العذاب عليه في الدنيا بما يراه الإمام، وفي الآخرة بسوء الانتقام... ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف تذييل لتلك الأحكام الكبرى، طمأن به نفوس الفريقين - أولياء الدم، والقاتلين - في قبول أحكام القصاص، فبين أنّ في القصاص حياة. والتنكير في حياة للتعظيم بقرينة المقام.

وفي قوله: يا أولي الألباب تنبيه بحرف النداء على التأمل في حكمة القصاص؛ ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالة على أنّهم من أهل العقول الكاملة. وقال: لعلكم تتقون إكمالا للعلة. وقوله في القصاص حياة من جوامع الكلم فاق ما كان ساريا مسرى المثل عند العرب، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل. وبين الآية والمثل فرق شاسع بيّنه علماء البلاغة في كتبهم... ﴿**كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين**﴾: هذا بيان لحكم آخر من الأحكام المذكورة؛ ولهذا كانت الآية مفصولة عما قبلها. وذكر هذا الحكم عقب حكم القصاص بجريان ذكر موت القتيل وموت القاتل قصاص. ومعنى حضور الموت حضور أسبابه وعلاماته، وهو شرط أول. وإن ترك خيراً الشرط الثاني. وإسناد الحضور إلى الموت إسناد مجازى.

وقوله: حقاً مصدر مؤكد لكتب... **﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه إنّ الله سميع عليم﴾**: مفرع على الوصية بالمعروف، فالضمائر عائدة إلى المعروف. والمراد من التبديل هنا الإبطال أو النقص، فالتبديل مستعمل في معناه المجازى، وتقييد التبديل بظرف بعد ما سمعه تعليل للوعيد. وقوله: إنّ الله سميع عليم وعيد للمبدّل... **﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾**: تفريع على الحكم الذي تقدمه، وهو تحريم التبديل. فكما تفرع عن الأمر بالعدل في الوصية وعيد المبدل لها، تفرع عن وعيد المبدل الإذنُ في تبديل هو من المعروف، وهو تبديل الوصية التي فيها جَوْرٌ وحيْفٌ... **﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**: فصلت الجملة عما قبلها للانتقال إلى غرض آخر. وافتتحت بيا أيّها الذين آمنوا لما في النداء من إظهار العناية لما سيقال بعده. وقوله: كما كتب على الذين من قبلكم تشبيه في أصل فرض ماهية الصوم. وقوله: لعلكم تتقون بيان لحكمة الصيام... **﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أُخَر﴾**: تعقيب على قوله: **﴿أياماً معدودات﴾**، والقصد من هذا تخفيف المفروض على من كان غير متعوّد على الصيام، بدليل قوله: منكم، وهو ما يرجح القول بأنّ هذا الفرض من الصيام منسوخ بفرض صيام شهر رمضان الآتى بعد هذا الحكم... **﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**: هذه الآية تضمنت حكما كان فيه توسعة ورخصة، ثم انعقد الإجماع على نسخه. وقوله: فمن تطوع تفريع على قوله: وعلى الذين يطيقونه فدية. وقوله: وأن تصوموا خيرٌ لكم ترغيب في الصوم وتأنيس به. وقوله: إن كنتم تعلمون تذييل وتقرير للصوم، والمعنى إن كنتم تعلمون فوائد الصوم. وجىء في الشرط بكلمة إنْ، لأنّ علمهم بالأمرين من شأنه ألا يكون محققا بخفاء الفائدتين...

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾: هذه الجملة مفصولة عما قبلها جاءت توطيداً لوجوب صومه، وتوضيحاً لما خفى من فرض الصوم أياماً معدودات، وبياناً لعظمة هذا الشهر. فهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن... **﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾**: إشارة بهذين الوصفين إلى وجه تفضيل شهر رمضان بسبب ما نزل فيه من الهدى والفرقان... **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾**:

تفريع على قوله: شهر رمضان، الذي هو بيان لقوله: كتب عليكم الصيام. وشهد هنا قد يكون بمعنى حضر، وقد يكون بمعنى علم، وفيه إيجاز بديع. . . ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾: هذا يقوى ما وجهت به الآية السابقة من أنّها منسوخة بهذه الآية، وهو حكم مستأنف قصد منه الإستمرار والدوام، وقوله. . . ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾: استئناف بيانى كالعلة لقوله: ومن كان مريضا. . . الخ، بيّن به حكمة الرخصة، وقد يكون تعليلا لجميع ما تقدم. . . ﴿**ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾: هذه الجمل علل لفعل محذوف يدل عليه ماسبق، والمعنى: ولهذه الأمور شرع ما مر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر. وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد. . . ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾: اتصلت هذه الآية بما قبلها بالعطف. وتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ قصد به تشريفه ورفع محله. واستعمال مثل هذا الشرط مع مادة السؤال لقصد الاهتمام بما سيذكر بعده استعمال معروف عند البلغاء، مع ما في هذا الأسلوب البليغ من زيادة إخراج الكلام في صورة الحكم الكلى؛ إذ جاء بحكم عام في سياق الشرط فقال: سألك عبادى، وقال: أجيب دعوة الداعى. ولو قيل: وليدعونى فأستجيب لهم لكان حكماً جزئياً خاصاً بهم، فقد ظهر وجه إتصال الآية بالآيات قبلها، ومناسبتها لها، وارتباطها بها من غير أن يكون هنالك اعتراض جملة. وقوله: فإنّى قريب تمثيل لكمال علمه تعالى بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه. وقوله: فليستجيبوا لى تفريع على أجيب، وأصل أجاب واستجاب أنّه الإقبال على المنادى بالقدوم، أو قول يدل على الإستعداد للحضور نحو لبّيك، ثم أطلق مجازاً مشهوراً على تحقيق ما يطلبه الطالب. . .

﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾: هذا انتقال في أحكام الصيام إلى بيان أعمال في بعض أزمنة رمضان قد يُظن أنها تنافى عبادة الصيام؛ ولأجل هذا الإنتقال فصلت الجملة عن الجمل السابقة. الرفث هنا كناية عن الجماع، وأصله الكلام مع النساء في شؤون الالتذاذ بهن. وتعديته بإلى ليتعين المعنى المقصود، وهو الإفضاء، وقوله. . . ﴿**هنّ لباس لكم**﴾: بيان لعلة إحلال الرفث،

وهى استعارة بجامع شدة الإتصال... ﴿**وأنتم لباس لهن**﴾: متصل بالعطف بما قبله... ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾: استئناف مبين لما ذكر من السبب، والإختيان أبلغ من الخيانة، وخيانة الأنفس تمثيل لتكليفها ما لم تكلف به... ﴿**فتاب عليكم وعفا عنكم**﴾: مرتب على ما قبله... ﴿**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾: الفاء لتعقيب الجملة بما قبلها، والأمر للإباحة. وكلوا واشربوا متصل بما قبله بالعطف لمشاركته في الحكم. وحتى يتبين غاية لإباحة المباشرة والأكل، وقوله... ﴿**ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾ بيان لنهاية وقت الصيام، وقوله... ﴿**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد**﴾: عطف على قوله: باشروهن... ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾: الإشارة إلى ما تقدم من كل ما فيه تحديد يفضى تجاوزه إلى معصية، وقوله: فلا تقربوها نهى عن مقاربتها الموقعة في الخروج منها على طريق الكناية... ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس**﴾: تقدم نظير هذا الكلام في قوله: وكذلك جعلناكم...

﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام**﴾: عطف جملة على جملة والمناسبة أنّ قوله «تلك حدود الله» تحذير من الجرأة على مخالفة حكم الصيام بالإفطار غير المأذون فيه، وهو ضرب من الأكل الحرام، فعطف عليه أكل آخر محرم، وهو أكل المال بالباطل، والمشاكلة زادت المناسبة قوة، وقوله: وتدلوا عطف على قوله: ولا تأكلوا، عطف خاص على عام لشناعته زيادة على الأكل الحرام. والإدلاء في الأصل إرسال الدلو في البئر، وهو هنا في التسول والدفع. وقوله: ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ حال مؤكدة.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين**﴾: في هذا التوجيه بيان الحدود والفرائض التي كتبها الله على هذه الأمة المسلمة لإعدادها للمهمة العظمى التي ناطها الله بها، وقياما بحق الوراثة لدين الله، ولبيت الله، المتسلسلة من وراثة الأرض وخلافة الله فيها. والبر هنا جامع لكل أحكام الإسلام من عقائد وعبادات ومعاملات؛ وردٌ على من يعتبر البر مظاهر وطقوس وحركات وهمهمات

وتوجهات إلى جهات لا معنى لها لأنّها لا تحقق البر ولا تنشىء الخير، وليست هدفا مستقلا من أهداف الإسلام. . .

﴿**ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين**﴾: وأول أقسام البر قسم العقيدة، وهي تتحقق في خمسة أمور: الأول الإيمان بالله، ولن يحصل العلم بالله إلاّ عند العلم بذاته المخصوصة، والعلم بما يجب لها ويجوز ويستحيل عليها، ولن يحصل العلم بهذه الأمور إلاّ عند العلم بالدلائل الدالة عليها، وهذه الدلائل مبثوثة في الأنفس والآفاق حسب ما هو موجّه به في هذا القرآن العظيم. الثاني الإيمان باليوم الآخر، وهو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، وبأنّ حياة الإنسان في هذه الأرض ليست سدى، ولا فوضى بغير ميزان. الثالث الإيمان بالملائكة، وهو جزء من الإيمان بالغيب الذي سبق الحديث عنه في أول هذه السورة عند الحديث عن المتقين. الرابع الإيمان بالكتاب. والخامس الإيمان بالنبيئين، وهذا هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين، وهو إيمان بوحدة البشرية، ووحدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة اتجاهها.

وثاني أقسام البر قسم العبادات، ولها جهتان: جهة تتعلق بالناس، وهو إيتاء المال المستحق لمن يجب له من الأقارب والأيتام والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب. وإيتاء المال المفروض في الزكاة، وهو مال مخصوص، يعطى على وجه مخصوص، إلى جهة مخصوصة، وهذه الجهة عبادة وقربى. وجهة تتعلق بالله خاصة، وهي إقامة الصلاة المفروضة على كل مكلف خمس صلوات كل يوم وليلة، وهي عبادة خالصة لله. وثالث أقسام البر قسم المعاملات مع النفس ومع الناس، وهي الإيفاء بالعهد، وهو سمة الإسلام التي يحرص عليها ويكررها القرآن كثيراً، ويعدها علامة الإيمان وآية المروءة ودلالة الإحسان، وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والحكومات. وبغير هذه السمة يعيش كل فرد فزعاً قلقاً لا يركن إلى وعد ولا يطمئن إلى عهد ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإسلام في الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمّة لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله إلاّ على حداء الإسلام، وهدى الإسلام. والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، إنّها تربية للنفوس وإعداد، كي لا تطير شعاعا مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع

كل فاجعة، ولا تنهار جزعا من الأحداث، إنّه التماسك والتجمّل والثبات حتى تنقشع الغمّة، ويجعل الله بعد عسر يسرا.

وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلا لا يتجزأ ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر، والحق أنّ هذه الآية خلاصة لمبادئ الإسلام الكليّة، وتكاليفه الأساسية التي لا يستقيم بدونها إسلام. لهذا عقبت على من هؤلاء صفاتهم بأنّهم. . . ﴿**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾: صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في اعتقادهم، وصدقوا في ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة في واقع الحياة. وأولئك هم المتقون الذين يخشون الله، ويتصلون بالله، ويؤدون واجبهم لله.

التوجيه الثاني: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى. . .** ﴾ الخ الآية: يأتى هذا التوجيه بنداء المؤمنين يعلمهم فيه صنفا من التشريع لأحكام ذات بال في صلاح المجتمع الإسلامى، واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها. وهذه الأحكام من جملة البر المأمور به في العموم، وهو العدل القائم بين الناس في القصاص، وكانت هذه الأحكام ضائعة بينهم. وقد أفرط العرب في إضاعة هذا العدل الذي جاء أصلا من أصول البر، يعلم ذلك مَن له إلمام بتاريخهم وآدابهم وأحوالهم، فقد بلغ بهم تطرفهم في ذلك إلى وشك الفناء لو طال ذلك فلم يتداركهم الله فيه بنعمة الإسلام، فكانوا يغير بعضهم على بعض لغنيمة أنعامه وعبيده ونسائه، فيدافع المغار عليه وتتلف نفوس بين الفريقين، ثم ينشأ عن ذلك طلب الثارات فيسعى كل من قتل له قتيل في قتل قاتل وليه وإن أعوزه ذلك قتل به غيره من واحد كفء له أو عدد يراهم لا يوازونه، ويسمون ذلك بالتكايل في الدم.

ومعنى كتب عليكم أنّه حق لازم للأمة لا محيد عن الأخذ به، وقد ثبت بهذه الآية شرع القصاص في القتل العمد، وحكمة ذلك ردع أهل العدوان عند الإقدام على قتل النفس إذ علموا أنّ جزاءهم القتل، فإنّ الحياة أعز شيء على الإنسان في الجِبِلّة، فلا تعادل عقوبة القتل في الردع والإنزجار، ومن حكمة ذلك تطمين أولياء القتلى بأنّ القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتيلهم. والقصد من حكم الآية هنا إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من ترك القصاص لشرف أو لقلة اكتراث، كالمرأة

لا يعتد بجنايتها. ومع تقرير الإسلام للقصاص، فإنّه لا يغلق باب التراضى استحياء للأخوة، واستبقاء للمودة...

﴿فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾: ومقصد الآية الترغيب في الرضى بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية يتعيرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدونه بيعاً لدم وليهم. وكانوا يجعلون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فبعث الله محمداً بالعدل وسوى بين عباده في القصاص. وقوله... **﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾**: إشارة إلى الحكم بشرع القصاص والدية والعفو، والتخيير بينها توسعة وتيسيرٌ، فالخيرة فضل من الله ورحمة في حق الأمة المسلمة؛ لأنّ ولى الدم قد تكون الدية أعز عنده من القود إذا كان محتاجاً إلى المال، وقد يكون القود آثرَ عنده إذا كان راغباً في التشفى ودفع شر القاتل عن نفسه. وقد يؤثر ثواب الآخرة فيعفو. ثم بين عاقبة من يعتدى على هذا الحكم المخير...

﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾: بأن يتجاوز فيقتل أكثر من القاتل، أو يقتل غير القاتل، أو يأخذ الدية ثم يقتل، أو يعفو ثم يقتل، كما كان يفعل في الجاهلية. والعذاب الأليم الموعود به لمن يتعدى يشمل عذاب الدنيا، فللقاضى أن يؤاخذه بالجريمتين: السابقة واللاحقة، وعذاب الآخرة؛ لأنّه تعدى حدود الله. ثم يعود السياق لتقرير غاية القصاص، إنّها ليست الإنتقام وليست إرواء الأحقاد، إنّما هي أجل من ذلك وأعلى، إنّها للحياة وفي سبيل الحياة، بل هي ذاتها حياة... **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾**: حياة تبدأ أولى خطواتها عند كف الجناة عن الإعتداء ساعة الإبتداء، فالذى يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل جدير بأن يتروى ويفكر ويتردد، ثم تنتهى عند شفاء نفوس الأولياء من الحقد والرغبة في الثأر، الثأر الذي لا يقف عند حد - كما يرى في واقع حياة الناس - لأنّه يظل يختطف في كل يوم حياة ويتنهض كل فرصة لإهدار دم من هنا ومن هناك، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد الأسرية والقبلية ولا تكف عن المسيل. وفي القصاص حياة على معناها الأشمل والأعم، فالإعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل انسان حى يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كف القصاصُ الجانىَ عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الإعتداء

على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة؛ حياة مطلقة، لا حياة فرد واحد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة، بل حياة!.

التوجيه الثالث: **﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين﴾**: في هذا التوجيه بيان حكم المال بعد موت صاحبه. كانت عادة العرب في الجاهلية أنّ الميت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور استأثروا بماله كله، وإن لم يكن له ولد ذكر، استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عم أو ابن عم الأدنينَ فالأدنينَ، وكان صاحب المال ربما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، فلما استقر المسلمون بدار الهجرة واختصوا بجماعتهم شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في أموالهم ممن كانوا قد يهملون توريثه من البنات والأخوات والوالدين في حال وجود البنين، فتقرر حكم الإيصاء في صدر الإسلام لغير الأبناء من القرابة زيادة على ما يأخذه الأبناء.

ثم إنّ آية المواريث التي في سورة النساء بينت ميراث كل قريب معين فلم يبق حقه موقوفاً على إيصاء الميت له، بل صار حقه ثابتاً معيناً رضى الميت أم كره، فيكون تقرر حكم الوصية في أول الأمر استئناساً لمشروعية فرائض الميراث، وبالفرائض نسخ وجوب الوصية التي اقتضته هذه الآية، وبقيت الوصية مندوبة. وقد اتفق علماء الإسلام أنّ الوصية لا تكون لوارث، واتفق جمهورهم على أنّها لا تكون أكثر من الثلث. وهذه الأحكام داخلة في قوله تعالى: بالمعروف حقاً على المتقين، وعليه يرد التعقيب التالي... **﴿فمن بدّله بعد ما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه إنّ الله سميع عليم﴾**: فمن سمع هذه الوصية فهو آثم إن بدّلها بعد وفاة الموصى، إلاّ في حالة واحدة يجوز فيها التبديل وهو ما إذا عرف أنّ الموصى إنّما قصد بوصيته محاباة أحد، أو غبن أحد من الورثة، فعندئذ على من يتولى تنفيذ الوصية أن يُعدّل فيها لتلافى ذلك الجَنَف ورد الأمر فيها إلى العدل والنصف... **﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾**.

التوجيه الرابع: **﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات... ﴾** الخ الآية: في هذا التوجيه وجوب

الصوم، وهو الإمساك عن تناول المفطرات من الأكل والشرب والوقاع من الفجر إلى غروب الشمس. وأحكام الصوم مفصلة في كتب الفقه تفصيلا وافيا. وفرض الصوم بالتدرج ليتدرب الإنسان عليه فكان الصوم أياماً معدودات أو فدية طعام مساكين، على كل يوم إطعام مسكين، إلى أن جاء التصريح بوجوب صيام شهر رمضان. وحكمة الصوم التقوى، والتقوى الوقاية من كل ما يضر النفسَ في العاجل والآجل: ففى الحديث الصحيح «الصوم جنّة. . . » وفي الصوم وقاية من الوقوع في الآثام، ووقاية من الوقوع في عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأدواء الناشئة عن الإفراط في تناول اللذات. وفضائل الصوم ومنافعه أكثر من أن تحصى، ولو لم يكن فيه إلاّ التشبه بالملائكة لكفى به فضلا ومنقبة.

فالصوم هو مجال تقرير الإرادة الإنسانية، والشخصية الإنسانية، بالإستعلاء على ضرورات الجسد جميعا، واحتمال ضغطها وثقلها بالمقاومة الإرادية الواعية، التي تستعلى على الضرورات جميعا. كما أنّه مجال لاختبار مدى الطاعة لله، والإتصال بالله، والإستسلام لفرائضه أيّاً كان فيها من الحرمان إيثاراً لما عند الله من المتاع. وهذه الحِكَمُ التي ذكرت في حُكْمِ الصومِ تدخل تحت قوله تعالى: لعلكم تتقون. فالتقوى هي البناء مع التحصين والترصين، والتحيُّط والتربط، حتى لا يعترى شجرة الإيمان تخريبٌ أو توهين. . .

﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾: تفصيل بعد الإجمال، وتوضيح لما سبق من التدرج في حكم الصيام. ولما كان شهر رمضان ميزه الله على بقية الشهور بنزول القرآن فيه، القرآن الذي جاء للناس هدى وبينات من الهدى والفرقان، وهذه الميزة لابد أن تبقى في أذهان المسلمين حية راسخة رسوخ الزمان ففرض فيه الصوم الذي كتب على كل الناس السابقين واللاحقين، حتى يكون ميزة بين المؤمن وبين الكافر، ومن هذا نعلم أنّ الإيمان بالله لا يصح إلاّ بالإيمان بالقرآن، والقرآن جاء مصرحا بوجوب صيام شهر رمضان فمن لم يصمه فليس بمؤمن على الإطلاق. . .

﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾: وصفة المرض ونوع السفر وحده مفصل في كتب الفقه حسبما بينته سنة

الرسول الفعلية والقولية. . . ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون**﴾: هذه الجمل الأربع فيها بيان حكمة مشروعية الصوم زيادة على ما تقدم. وختمها بقوله: لعلكم تشكرون، وهى مرتبة تأتى بعد مرتبة التقوى؛ لأنّ الشكر ثمرة من ثمرات التقوى. . .

﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنّى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**﴾: هذه الآية جاءت لتعطى للصائم فرصة التقرب بعدما أعطى فرصة التأهب بالصوم والذكر، وهو مرتبة ثالثة بعد المرتبتين السابقتين، وهذه المرتبة هي الإنتفاع بثمرة العمل الذي قد يُحرم منه السفيه بسوء تصرفه فيما يعمل. أمّا من بلغ درجة الرشد فلا حجر عليه في كل ما يتصرف فيه، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون!. وليس بعد هذا الكلام كلام في بيان حكمة الصيام في الإسلام، ومن حكمة الصيام في الإسلام التمتع بمباشرة المرأة بالليل كما يتمتع فيه بالأكل والشرب. وقد كان المتدينون مثل ما يسمع عن الهنود البراهمة والبوذيين والنصارى وغيرهم كثير في القديم والحديث يحرمون نفوسهم من زينة الدنيا تدينا وترهبا، ويعدُّون العبادة حرمانا من كل ما فيه متعة للنفس وزينة. . . ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾!. ثم يأتى تحديد وقت الفطر ووقت الصوم تحديداً مفصلا موضحا دون لبس أو إبهام. . .

﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾: وقد زادت السنة بيانا لكل صائم يحتاج إلى بيان، وتوسع الفقهاء في ذلك فأتوا بكل ما في الصيام من شروط وآداب وأركان. . . ﴿**ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد**﴾: الاعتكاف ملازمة المسجد لقصد العبادة، وله أحكام تخصه بينته السنة فكان باباً من أبواب الفقه. والآية بيّنت ما يمتنع عنه المعتكف وهو مباشرة النساء ما دام معتكفا في المسجد. . ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾: حدود الله التي حدها للناس فلا زيادة عليها ولا نقص عنها، وهو الفاصل بين الحلال والحرام، والواجب والممنوع، فليجهد المكلف نفسه ما استطاع أن يكون بينه وبين الممنوع منطقة أمان، فمن حام حول الحمى

يوشك أن يقع فيه. والآن يرجع الكلام إلى التقوى التي كان الصيام من أهم مقوماتها... ﴿**كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون**﴾: وتبين الآيات توضيح أحكامها لئلا يلتبس شيء منها على الناس فيقعوا في عبادات باطلة لا تقيهم من عذاب الله...

﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾: من حكمة الصيام في الإسلام التحكم في غريزة النفس حتى لا تصير غريزة نفس حيوانية ديدنها الأكل والشرب والتلذذُ بشهوات الحياة. ومن حكمة الصيام التي بينتها الآيات السابقة شكر النعمة بالتوجه إلى الله القريب المجيب حتى يبلغ الإنسان غاية الرشد والتوفيق ولا يكون هذا إلاّ إذا كان الإنسان حكيماً يحسن التصرف في حياته. ولما كان المال هو الوسيلة إلى طلب ملذات الحياة جاء الحكم هنا متعلقاً بالمال، ولا شك أنّ هذا هو المقصود هنا من ذكر هذه الآية. والمنع هنا من جهتين: جهة أكله بالباطل، وجهة إعطائه للغير بالباطل، أمّا تفاصيل الحكم، وبيان النوع المحرم من الكسب والإنفاق فهو موزع في آيات أخرى كثيرة من آيات القرآن، والسنة فصلت ما أجمل، وبيّنت ما أبهم، والفقهاء وضحوا ما جدّ وما سيجد على ضوء الكتاب والسنة. وقد جاءت هذه الآية عقب ذكر حدود الله، والدعوة إلى تقواه؛ ليظلها جو الخوف الرادع عن حرمات الله.

5 ـ حكمة الإسلام في توقيت الأحكام

النص

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنِ الْبِرُّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (188) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (189) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (190) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (191) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (192) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (193) وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (194) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ
أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿195﴾
* الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ
فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم
مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ الضَّآلِّينَ ﴿196﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿197﴾ فَإِذَا
قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿198﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿199﴾ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿200﴾
۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿201﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**يسألونك عن الأهلة**﴾: السؤال طلب أحد من آخر إعطاءَ شيء أو إخباراً بخبر، وهو المقصود هنا لتعديته بحرف عن. والأهلة جمع هلال، وهو القمر في لياليه الثلاث، وإنّما سمى الهلال هلالاً، لأنّ الناس إذا رأوه رفعوا أصواتهم بالإخبار عنه... ﴿**قل هي مواقيت للناس والحج**﴾: المواقيت جمع ميقات من الوقت، والفرق بينه وبين المدة والزمان أنّ المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل. والوقت: الزمان المفروض لأمر، كوقت الصلاة... ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾: المقاتلة مفاعلة، وهى حصول الفعل من جانبين، والمقاتلة هنا بمعنى المحاربة... ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم**﴾: أصل الثقف الحذق في إدراك الشىء علما أو عملا... ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾: الفتنة إلقاء الخوف واختلال نظام الحياة، وأصلها إلقاء الذهب في النار، ليعرف جيده من رديئه، ويقال عنها: المحنة التي تصيب الفرد أو الجماعة... ﴿**فإن انتهوا**﴾: الانتهاء مطاوع نهى، يقال نهاه فانتهى، ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن عمل، أو عن عزم... ﴿**فلا عدوان**﴾: العُدْوان يصدق على معنيين: وثب عليه وقاتله، أو ظلم واعتدى عليه...

﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾: الإلقاء رمى الشيء من اليد. والتهلكة اسم مصدر بمعنى الهلاك... ﴿**وأحسنوا**﴾: الإحسان فعل النافع الملائم بإخلاص وإتقان... ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾: الإتمام إكمال الشيء والإتيان على بقايا ما بقى منه حتى يستوعب جميعه. والحج لغة تكرر القصد إلى الشيء أو كثرة قاصديه، والحج شرعاً: قصد بيت الله الحرام للنسك. والعمرة مشتقة من التعمير، وهو شغل المكان الخالى، وكان العرب يعرفونها ويجعلون ميقاتها في غير أشهر الحج... ﴿**فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي**﴾: الإحصار منع الذات من فعل ما، يقال: أحصره منعه مانع، وهو بمعنى حصره، ويطلق على التضييق، والحبس عن السفر وغيره. واستيسر سهُل وأمكن بدون مشقة في تحصيله. والهدي اسم الحيوان المتقرب به لله في الحج... ﴿**ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله**﴾: حلق الرأس إزالة شعره بالموسى. والمحل بفتح الميم وكسر الحاء مكان الحلول أو زمانه، يقال: حل بالمكان يحل... ﴿**ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾: الفدية ما يُعطى مقابل حقّ. والنسك العبادة، ويطلق على الذبيحة المقصود منها التعبد... ﴿**فإذا أمنتم**﴾: أمِن كفرح، والأمن السلامة من كل ما يُخاف منه...

﴿**فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي**﴾: التمتع بالعمرة الاستفادة منها بالحل قبل الإحرام بالحج، وهو انتفاع لكل من يقدم إحرام العمرة على إحرام الحج... ﴿**فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾: الرفث: تقدم معناه في آية أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم. والفسوق مصدر فسق ومعناه خرج عن الحد الذي رسم له، ومعناه هنا الخروج عن أوامر الله. والجدال مصدر جادله إذا خاصمه خصومة شديدة...

﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾: التزود إعداد الزاد وهو الطعام الذي يحمله المسافر... ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾: الإفاضة الخروج بسرعة، وأصلها من فاض الماء إذا كثر على ما يحويه فبرز منه وسال، وأفاض الناس من عرفات دفعوا وأسرعوا منها إلى مكان آخر، وعرفات اسم للمكان الذي يجتمع فيه الحجاج يوم التاسع من ذى الحجة. والمشعر الحرام المزدلِفة، والمشعر مشتق من الشعور بمعنى العلم بالشيء، أو الشعار بمعنى

العلامة على الشيء. . . ﴿**فإذا قضيتم مناسككم**﴾: المناسك جمع منسك مصدر ميمى، والإسم النسك.

مبحث الإعراب

﴿**يسألونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**عن الأهلة**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**هي**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**مواقيت**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**للناس**﴾ متعلق بمواقيت. ﴿**والحج**﴾ معطوف على الناس. ﴿**وليس البر**﴾ ليس واسمها. ﴿**بأن تأتوا**﴾ فعل وفاعل. ﴿**البيوت**﴾ مفعول به. ﴿**من ظهورها**﴾ متعلق بتأتوا، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بالباء الزائدة لفظا المنصوبة محلا خبر ليس، والجملة معطوفة على قوله: يسألونك. ﴿**ولكن**﴾ الواو للعطف، ولكن حرف استدراك مخفّف لا عمل له. ﴿**البر**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**من**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**اتقى**﴾ فعل ماض، والفاعل هو يعود على من، والجملة صلة مَنْ. ﴿**وأتوا**﴾ فعل أمر. ﴿**البيوت**﴾ مفعول به. ﴿**من أبوابها**﴾ متعلق بأتوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**واتقوا**﴾ مثل وأتوا. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تفلحون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل، وجملة لعلّ تعليلية.

﴿**وقاتلوا**﴾ معطوف على ما قبله من الأوامر. ﴿**في سبيل**﴾ متعلق بقاتلوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يقاتلونكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الذين. ﴿**ولا تعتدوا**﴾ الواو للعطف، ولا ناهية، والفعل مجزوم بلا. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لا يحب المعتدين**﴾ فعل مضارع منفى بلا، والفاعل هو يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية. ﴿**واقتلوهم**﴾ معطوف على الأمر السابق. ﴿**حيث**﴾ ظرف مبني على الضم في محل نصب متعلق بفعل الأمر. ﴿**ثقفتموهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وجملة ثقفتموهم في محل جر مضاف إلى حيث. ﴿**وأخرجوهم**﴾ مثل واقتلوهم. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بالفعل قبله وحيث في محل جر بمن. ﴿**أخرجوكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث. ﴿**والفتنة**﴾ مبتدأ. ﴿**أشدُّ**﴾ خبره. ﴿**من القتل**﴾ متعلق بأشد، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿**ولا تقاتلوهم**﴾ جملة النهي معطوفة على جملة الأمر. ﴿**عند**﴾ متعلق بالفعل. ﴿**المسجد**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمسجد. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية وجر. ﴿**يقاتلوكم**﴾ الفعل منصوب بأن مضمرة بعد حتى. ﴿**فيه**﴾ متعلق بالفعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى، متعلق بالفعل قبله. ﴿**فإن قاتلوكم**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التعقيب. ﴿**فاقتلوهم**﴾ في محل جزم جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب. ﴿**كذلك**﴾ الكاف بمعنى مثل في محل رفع مبتدأ، واسم الإشارة في محل جر مضاف إلى الكاف معنى. ﴿**جزاء**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**الكافرين**﴾ مضاف إلى جزاء. ﴿**فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم**﴾ مثل فإن قاتلوكم فاقتلوهم. ﴿**وقاتلوهم**﴾ عطف على قوله: وقاتلوا في سبيل الله. ﴿**حتى لا تكون**﴾ الفعل المنفي بلا منصوب بأن بعد حتى، وحتى بمعنى إلى، والمجرور الفعل المؤول بالمصدر المنسبك مع أن المقدرة، والتقدير: وقاتلوهم إلى انعدام الفتنة، فتكون هنا تامة تكتفي بمرفوعها. ﴿**فتنة**﴾ فاعل تكون. ﴿**ويكون الدين لله**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**فإن انتهوا**﴾ جملة شرطية مفرعة عما قبلها. ﴿**فلا عدوان**﴾ الفاء داخلة على جواب الشرط، لا عدوان لا واسمها جواب الشرط. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء. ﴿**على الظالمين**﴾ متعلق بمحذوف بدل من الخبر المقدر، والتقدير: فلا عدوان كائن على أحد إلاّ على الظالمين، وجملة فلا عدوان علة لجواب الشرط المقدر، والتقدير فإن انتهوا فلا تعتدوا عليهم.

﴿**الشهر**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**الحرام**﴾ نعت للشهر. ﴿**بالشهر**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿**الحرام**﴾ نعت للشهر مجرور بالكسرة. ﴿**والحرمات**﴾ معطوف على الشهر مبتدأ. ﴿**قصاص**﴾ خبره. ﴿**فمن اعتدى**﴾ جملة شرطية دخل عليها فاء التعقيب. ﴿**عليكم**﴾ متعلق باعتدى. ﴿**فاعتدوا عليه**﴾ جملة جوابية ربطت بالفاء. ﴿**بمثل**﴾ متعلق باعتدوا. ﴿**ما اعتدى عليكم**﴾ ما وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى مثل. ﴿**واتقوا**﴾ معطوف على ما قبله من قوله: فاعتدوا. ﴿**الله**﴾ مفعول به. ﴿**واعلموا**﴾ معطوف عليه. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**مع**﴾ ظرف منصوب بالفتحة متعلق بمحذوف خبر أنّ. ﴿**المتقين**﴾ مضاف إلى الظرف مجرور بالياء، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب سد مسد مفعولي اعلموا. ﴿**وأنفقوا**﴾ معطوف على قوله: وقاتلوا في سبيل الله. ﴿**في سبيل الله**﴾ متعلق بأنفقوا.

﴿ولا تلقوا﴾ الفعل مجزوم بلا الناهية، وهو معطوف على الأمر قبله. ﴿بأيديكم﴾ متعلق بالفعل قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿إلى التهلكة﴾ مثله. ﴿وأحسنوا﴾ معطوف على الأوامر قبله. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿يحب﴾ فعل مضارع، والفاعل هو يعود على الله. ﴿المحسنين﴾ مفعول به منصوب بالياء، والجملة في محل رفع خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية لا محل لها من الإعراب. ﴿وأتموا﴾ معطوف على ما قبلها. ﴿الحج﴾ مفعول به. ﴿والعمرة﴾ معطوف على الحج. ﴿لله﴾ متعلق بأتموا. ﴿فإن أُحصرتم﴾ جملة شرطية مفرعة عما قبلها من الأمر. ﴿فما استيسر من الهَدْيِ﴾ جملة جوابية دخلت عليها فاء الربط، وما هنا في محل نصب مفعول بفعل مقدر، والتقدير: فاهدوا ما استيسر من الهدي، واستيسر صلة ما، ومن الهَدْيِ متعلق باستيسر. ﴿ولا تحلقوا﴾ معطوف على الأمر قبله. ﴿رءوسكم﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿حتى يبلغ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد حتى. ﴿الهديُ﴾ فاعل. ﴿محله﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ الجملة من كان واسمها وخبرها شرطية دخل عليها فاء التعقيب. ﴿أو به أذى من رأسه﴾ عطف على فعل الشرط قبله. ﴿ففدية﴾ الفاء رابط للجواب، وفدية خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير: فالواجب عليه فدية. ﴿من صيام﴾ متعلق بمحذوف نعت لفدية. ﴿أو صدقة﴾ معطوف على طعام. ﴿أو نسك﴾ كذلك. ﴿فإذا أمنتم﴾ تعقيب على الجملة الشرطية قبلها.

﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ جملة شرطية ونعت جوابا للجملة الشرطية قبلها. ﴿فما استيسر من الهَدْيِ﴾ جواب لقوله فمن تمتع بالعمرة إلى الحج. ﴿فمن لم يجد﴾ تفريع على الشرطية قبلها. ﴿فصيام﴾ جواب فمن لم يجد، وصيام خبر لمبتدإ مقدر، والتقدير: فالواجب عليه صيام. ﴿ثلاثة﴾ مضاف إلى صيام. ﴿أيام﴾ مضاف إلى ثلاثة. ﴿في الحج﴾ متعلق بصيام. ﴿وسبعة﴾ معطوف على ثلاثة. ﴿إذا رجعتم﴾ جملة شرطية جوابها مقدر يدل عليه قوله: فصيام ثلاثة. ﴿تلك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿عشرة﴾ خبر المبتدإ. ﴿كاملة﴾ نعت لعشرة. ﴿ذلك﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿لمن﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿لم يكن أهله حاضرى﴾ الفعل مجزوم بلم، وأهله حاضرى اسم وخبر ليكن. ﴿المسجد﴾ مضاف إلى حاضرى. ﴿الحرام﴾ نعت لمسجد، وجملة لم يكن أهله صلة مَنْ. ﴿واتقوا الله واعلموا أمران﴾ معطوفان على الأوامر قبلها. ﴿أنّ الله شديد العقاب﴾ الجملة في

تأويل مصدر منصوب سد مسد مفعولي علم.

﴿**الحج**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**أشهر**﴾ خبره. ﴿**معلومات**﴾ نعت لأشهر. ﴿**فمن فرض فيهن الحج**﴾ جملة شرطية دخلت عليها فاء التفريع. ﴿**فلا**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، لا نافية للجنس تعمل عمل إنّ. ﴿**رفث**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**ولا فسوق ولا جدال**﴾ معطوفان على قوله فلا رفث. ﴿**في الحج**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة فلا رفث في محل جزم جواب الشرط. ﴿**وما تفعلوا**﴾ جملة شرطية معطوفة على ما قبلها. ﴿**من خير**﴾ مجرور بمن الزائدة، وهو في محل نصب مفعول به. ﴿**يعلمْه الله**﴾ جواب الشرط، والفعل مجزوم بالسكون، والضمير المتصل به مفعول، والله فاعل. ﴿**وتزوّدوا**﴾ معطوف على الأوامر قبله. ﴿**فإنّ خير**﴾ إنّ واسمها. ﴿**الزاد**﴾ مضاف إلى خير. ﴿**التقوى**﴾ خبر إنّ مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وجملة فإنّ خير الزاد التقوى تعليلية. ﴿**واتقوني**﴾ فعل أمر معطوف على ما قبله. ﴿**يا أولي**﴾ منادى منصوب بالياء. ﴿**الألباب**﴾ مضاف إلى أولي مجرور بالكسرة.

﴿**ليس**﴾ فعل ماض يعمل عمل كان. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بمحذوف خبر ليس. ﴿**جناح**﴾ اسمها. ﴿**أن تبتغوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: ليس عليكم جناح في ابتغائكم فضل الله. ﴿**فضلا**﴾ مفعول به. ﴿**من ربكم**﴾ متعلق بتبتغوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فإذا أفضتم من عرفات**﴾ جملة شرطية معطوفة على ما قبلها. ﴿**فاذكروا الله**﴾ جواب الشرط مقرون بالفاء. ﴿**عند**﴾ متعلق باذكروا. ﴿**المشعر**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمشعر. ﴿**واذكروه**﴾ معطوف على قوله: فاذكروا الله عند. ﴿**كما هداكم**﴾ الكاف للتشبيه في محل نصب نعت لمصدر محذوف، أي: ذكراً مساويا لهدايته إياكم، وما مصدرية، وهي وما بعدها في تأويل مصدر مضاف إلى الكاف. ﴿**وإن**﴾ الواو للعطف، إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن. ﴿**كنتم**﴾ كان واسمها. ﴿**من قبله لمن الضالين**﴾ متعلقان بمحذوف خبر كان، وجملة كنتم في محل رفع خبر إن المخففة. ﴿**ثم أفيضوا**﴾ معطوف على قوله: فإذا أفضتم من عرفات. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بأفيضوا، وحيث مبني على الضم في محل جر بمن. ﴿**أفاض الناس**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث.

﴿**واستغفروا الله**﴾ معطوف على أفيضوا. ﴿**إنّ الله غفور رحيم**﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها تعليلية.

﴿**فإذا قضيتم**﴾ جملة شرطية مفرعة على قوله: ثم أفيضوا. ﴿**مناسككم**﴾ مفعول به، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فاذكروا الله**﴾ جملة جوابية مقرونة بالفاء. ﴿**كذكركم**﴾ المصدر مجرور بكاف التمثيل، والكاف في محل نصب نعت لمصدر مقدر، والتقدير: اذكروا الله ذكراً مثلَ ذكركم. ﴿**آباءكم**﴾ مفعول بالمصدر قبله، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أو أشدَّ**﴾ معطوف على المصدر السابق المقدر. ﴿**ذكراً**﴾ منصوب على التمييز. ﴿**فمن الناس**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والفاء للتفصيل. ﴿**من**﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر. ﴿**يقول**﴾ صلة من. ﴿**ربنا**﴾ منادى منصوب بالفتحة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**آتنا**﴾ دعاء، وضمير المتكلمين مفعول به. ﴿**في الدنيا**﴾ متعلق بآتنا، وجملة ربنا آتنا في محل نصب مقول القول. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**له في الآخرة**﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿**من خلاق**﴾ مبتدأ مؤخر دخلت عليه مَنْ الزائدة فجرته لفظا، وهو مرفوع محلاً.

﴿**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ معطوف على قوله: فمن الناس من يقول، حسنة مفعول ثان لآتنا. ﴿**وقنا**﴾ مثل آتنا في إعرابه. ﴿**عذاب**﴾ مفعول ثان. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى عذاب. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ أول. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**نصيب**﴾ مبتدأ مؤخر، وهو وخبره في محل رفع خبر المبتدإ الأول. ﴿**مما**﴾ متعلق بما تعلق به الخبر قبله. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**سريع**﴾ خبره. ﴿**الحساب**﴾ مضاف إلى سريع، والجملة تذييلية. ﴿**واذكروا الله**﴾ معطوف على ما قبله من الأوامر. ﴿**في أيام**﴾ متعلق باذكروا. ﴿**معلومات**﴾ نعت لأيام. ﴿**فمن تعجل**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**في يومين**﴾ متعلق بتعجل. ﴿**فلا**﴾ الفاء لربط الجواب، لا نافية للجنس. ﴿**إثم**﴾ اسم لا مبني على الفتح في محل نصب. ﴿**عليه**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، وجملة فلا إثم عليه في محل جزم جواب الشرط. ﴿**ومن تأخر فلا إثم عليه**﴾ مثل الجملة السابقة. ﴿**لمن**﴾ متعلق بمحذوف خبر لمبتدإ مقدر، والتقدير: ذلك كائن لمن. ﴿**اتقى**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على من، والجملة صلة من. ﴿**واتقوا الله واعلموا**﴾ معطوفان على ما قبلهما من الأوامر. ﴿**أنّكم**﴾ أنّ واسمها.

﴿**إليه**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**تحشرون**﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب سد مسد مفعولي علم.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾: وجه ذكر هذا هنا مناسب لما سبق من أحكام الصوم بفرض صيام شهر رمضان، والشهر لا يثبت إلاّ برؤية الهلال، ولما سيأتى من أحكام الحج بفرضه في أشهر معينة، وهو ما سيجىء في قول الله تعالى: الحج أشهر معلومات. وابتدئت الآية بيسألونك لأنّ هنالك سؤالاً واقعاً عن أمر الأهلة، وجميع الآيات التي افتتحت بيسألونك هي متضمنة لأحكام وقع السؤال عنها فيكون موقعها في القرآن مع آيات تناسبها نزلت في وقتها أو قرنت بها. والظاهر أنّ السؤال واقع عن الحكمة، فالجواب جارٍ على وفق السؤال. وهناك من قال: إنّ السؤال واقع عن سبب تغير الهلال صغراً وكبراً وبالعكس فجاء الجواب على خلاف مقتضى الحال على طريقة أسلوب الحكيم.

وعلى القولين يخرج قوله: ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾: فعلى التخريج الأول يكون معنى الكلام على ظاهره حيث كان بعض العرب إذا أحرم لم يدخل بيته من بابه، وإنّما يدخل من ثقب وراء البيت، ويُعَدُّ ذلك براً، وعلى التخريج الثانى يكون المعنى: ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها... الخ السؤال على الوجه الذي يفيدكم في أمر دينكم، بأن تسألوا عن حكمة الهلال، لا أن تسألوا عن سبب صغره وكبره، وبذلك ردهم إلى النظر والتأمل في سنن الله على النحو الذي ينشىء التقوى في النفوس، وقوله: واتقوا الله إظهار لزيادة الإعتناء بشأن التقوى، وتمهيد لقوله: لعلكم تفلحون...

﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين**﴾: هذا الأمر جاء رداً لما حصل من المشركين من منع المسلمين حج البيت عندما وقفوا في وجه الرسول ومن معه عام الحديبية، فجاء الإذن بالقتال دفاعا لما سيحصل من المشركين. إنّ المسلمين مكلفون أن يقاتلوا من يعتدى عليهم دون اعتداء منهم ولا مجاوزة لهذا الغرض الدفاعى... ﴿**واقتلوهم حيث**

ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه. فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظالمين﴾: في هذه الجمل تفصيل لما سبق، وفيه إطناب لأجل تفصيل أحوال القتال في الحرم، وفيه استعداد كامل وتأهب شامل لما عسى أن يكون من المشركين الحاقدين على الإسلام والمسلمين. . .

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾: فصل الكلام عما قبله؛ لأنّه استئناف بيانى، فإنّه لما بيّن تعميم الأمكنة وأخرج منها المسجد الحرام في حالة خاصة كان السامع بحيث يتساءل عما يماثل البقاع الحرام وهو الأزمنة الحرام - الأشهر الحرم - التي يتوقع حظر القتال فيها. وقوله: والحرمات قصاص تعميم للحكم، وهو كالحجة لما قبله، فالجملة تذييل. وقوله. . . **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه. . . ﴾** الخ الآية تفريع ونتيجة لما قبله. وسمى جزاءُ الإعتداء اعتداءً مشاكلة. . .

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾: هذه الآية متصلة بالعطف على قوله: وقاتلوا في سبيل الله، فإنّهم لما أمروا بقتال عدوهم، وكان العدو أوفر منهم عُدّة حرب أيقظهم إلى الإستعداد بإنفاق الأموال في سبيل الله، وسبيل الله طريقه، وهو العمل الموصل إلى مرضاة الله وثوابه، فهو مجاز في اللفظ ومجاز في الإسناد. وقوله تعالى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة عطف غرض على غرض، ومعنى النهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة النهى عن التسبب في إتلاف النفس. وعُطف على الأمر بالإنفاق للإشارة إلى مشروعية الإنفاق، وإلى سبب الأمر به. وفي الأمر بالإحسان بعد ذكر الأمر بالإعتداء على المعتدى، والإنفاق في سبيل الله، والنهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة إشارة إلى أنّ كل هذه الأحوال يلابسها الإحسان ويحف بها. وقوله: إنّ الله يحب المحسنين تعليل للأمر بالإحسان. . .

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾: هذه الجملة عطف على ما قبلها، عطف قصة على قصة. . . **﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهَدْيِ﴾**: عطف على أتموا، والفاء للتفريع الذكرى، والفاء الثانية رابطة لجواب الشرط. . . **﴿ولا تحلقوا رءوسكم**

حتى يبلغ الهَدْيُ محله﴾: هذه الجملة بيان لملازمة حالة الإحرام حتى ينحر الهدى، وإنّما خص النهى عن الحلق دون غيره من منافيات الإحرام كالطيب تمهيداً لقوله: **﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه﴾**، ويعلم استمرار حكم الإحرام في البقية بدلالة القياس والسياق... **﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾**: مفرع على ما قبله من قوله ولا تحلقوا، وقوله: أو به أذى من رأسه كناية عن الوسخ الشديد والقمل. ومن لطائف القرآن تركُ التصريح بما هو مرذول من الألفاظ. وقوله: ففدية من صيام محذوف المسند إليه لظهوره... **﴿فإذا أمنتم﴾**: جيء بإذا لأنّ فعل الشرط مرغوب فيه، والفاء لترتيبه على ما قبله...

﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى﴾: الفاء رابطة لجواب إذا. وقوله... **﴿تلك عشرة كاملة﴾**: فذلكة الحساب وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أنّ الواو بمعنى أو، وأن يُعلم العدد جملة كما عُلم تفصيلا. وكاملة صفة مؤكدة للعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد... **﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام. واتقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾**: إشارة إلى أقرب شيء في الكلام. والأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام التي لا تخلو من مشقة، للتحذير من التهاون بها. والأمر باعلموا للإهتمام بالخبر...

﴿الحج أشهر معلومات﴾: استئناف ابتدائى للإعلام بتفصيل مناسك الحج، وقوله... **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾**: تفريع على ما تقدم لبيان أنّ الحج يقع في هذه الأشهر المعلومة وبيان أهمّ أحكامه. وقوله... **﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾**: جواب الشرط، وقد نفى الرفث والفسوق والجدال نفى الجنس مبالغة في النهى عنها وإبعادها عن الحاج، حتى جعلت كأنّها قد نُهى الحاج عنها فانتهى فانتفت أجناسها، وهو من قبيل التمثيل، والمراد بالرفث هنا الكناية عن قربان النساء. وقوله: في الحج إظهار في مقام الإضمار جيء به لإظهار كمال الإعتناء بشأنه، والإشعار بعلة الحكم. وقوله... **﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾**: عقب به النهى عن المنهيات لقصد الإتصاف بأضداد تلك المنهيات. وأطلق علم الله وأريد لازمه، وهو المجازاة على المعلوم بطريق الكناية...

﴿وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾: متصل بما قبله بالعطف باعتبار ما فيه من

الكناية عن الترغيب في فعل الخير. والتزود مستعار للإستكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبّه بإعداد المسافر الزاد لسفره. وقوله: فإنّ خير الزاد التقوى تفريع مؤكد لما سبقه... **﴿واتقونى يا أولى الألباب﴾**: زيادة في توكيد الأمر بالتزود... **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾**: هذه جملة معترضة بين المتعاطفين بمناسبة النهى عن أعمال في الحج تنافى المقصد منه، فنقل الكلام إلى إباحة ما كانوا يتحرجون منه في الحج... **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾**: الفاء عاطفة على قوله: فلا رفث ولا فسوق، عطف الأمر على النهى، وقوله: إذا أفضتم شرط للمقصود، وهو فاذكروا الله... **﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾**: هذا عطف عام على خاص، وهو في معنى التذييل، ومعنى التشبيه في مثل هذا المشابهة في التساوى...

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم﴾: ثم للتراخى الإخبارى، وهو الترقى في الخبر، وقوله: واستغفروا الله عطف على أفيضوا. أمرهم بالإستغفار كما أمرهم بذكر الله عند المشعر الحرام، وفيه تعريض بقريش فيما كانوا عليه من ترك الوقوف بعرفة... **﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكرا﴾**: هذا تفريع على قوله: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس. وقوله: فاذكروا الله جواب شرط إذا. وأعاد الأمر بالذكر بعد أن أمر به وبالإستغفار تحضيضا عليه، وإبطالاً لما كانوا عليه في الجاهلية من الإشتغال بفضول القول والتفاخر. وقوله: كذكركم آباءكم بيان لصفة الذكر، والمراد تشبيه ذكر الله بذكر آبائهم في الكثرة والتكرير وتعمير أوقات الفراغ به وليس فيه ما يؤذن بالجمع بين ذكر الله وذكر الآباء. ثم بيّن أنّ ذكر الله يكون أشد، والغرض إبطال ما كانوا عليه في حجهم من طلب الدنيا والإفتخار بالحسب والنسب والصخب والهذيان، ولهذا جاء التفريع والتفصيل في قوله... **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾**: فالفريق الأول لا خلاق له في الآخرة، والفريق الثانى لهم نصيب وافر مما عملوا وطلبوا من الخير، وقوله: **﴿والله سريع الحساب﴾** تذييل قصد به تحقيق الوعد بحصول الإجابة...

﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾: وصلت الجملة بما قبلها بالعطف على

قوله: فاذكروا الله، وإعادة فعل اذكروا ليبنى عليه تعليق المجرور. . . ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون**﴾: تفريع لفظى للإذن بالرخصة في ترك حضور بعض أيام منى لمن أعجله الرجوع إلى أهله. واتقوا الله وصاية بالتقوى وقعت في آخر بيان مهام أحكام الحج، وقوله: واعلموا أنّكم إليه تحشرون تحريض على التقوى وتحذير من خلافها، وعبر بتحشرون لما فيه من معنى الحشر الذي كانوا فيه أيام الحج، فذكرهم بالحشر العظيم يوم الجمع الأكبر في المحشر.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾: في هذا التوجيه أمر للنبيء ﷺ أن يجيب السائلين عن الأهلة أنّها مواقيت للناس في عباداتهم وفي معاملاتهم وكل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، فالهلال هو علامة الشهر، والشهر جزء العام، والعام يدور بعد كل اثنى عشر شهراً، وفي كل عام صوم شهر رمضان، وفي كل عام حج بيت الله الحرام، والمرأة المتوفى عنها زوجها تستعد أربعة أشهر وعشرة أيام، وحول الزكاة العام القمرى، كل ذلك وغيره من مواعيد الناس ومعاهداتهم تنضبط بالشهر القمرى لأنّه لا يحتاج إلى دقة في الحساب، وإنّما بمعرفة بداية كل شهر ونهايته بوجود الهلال في أول كل شهر.

وهذه هي الحكمة العظيمة التي خلق الله القمر لأجلها حتى تنضبط شؤون العباد، وحتى لا تتدخل الآراء والأهواء كما حصل في الجاهلية الجهلاء يوم بدلوا وغيّروا وزادوا ونقصوا، وتدخلت في العبادات والمعاملات عادات وطقوس قضى عليها هذا الدين الحنيف، وهو ما جاء هنا صريحا في قوله تعالى. . . ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾: لقد تحدث فيما سبق عن البر العام في مبادئه وأصوله، ثم فصله بما يتعلق به من عقائد وعبادات ومعاملات، ثم رجع مرة أخرى ليوضح ما يتعلق بالبيت الحرام حيث كان وقت نزول هذه السورة تحت تصرف المشركين يعبثون فيه حسب أهوائهم وشهواتهم وطقوسهم ودياناتهم، ويصدون عنه المؤمنين الذين هم أولى به من أعداء الله المشركين، ولقد وقفوا في وجه الرسول ومن معه في عام الحديبية فمنعوهم من الحج، ولم يراعوا حرمة البيت ولا حرمة الشهر، ثم

انتهوا إلى الصلح على أن يحجّ المسلمون من قابل، ولم يكن بد للمسلمين حين جاء الموعد أن يستعدوا كى لا يمنعوا من البيت مرة أخرى، ولقد عز على بعضهم أن يحمل سلاحه في الأشهر الحرم وفي بيت الله الحرام. هنا نزلت هذه الأحكام والتى بيانها في التوجيه الثانى.

التوجيه الثانى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل﴾: إنّ المسلمين مكلفون أن يقاتلوا من يعتدى عليهم دون اعتداء منهم ولا مجاوزة لهذا الغرض الدفاعى، ودون تجاوز المحاربين إلى سواهم ممن لم يعتدوا ولم يشنوا حربا من النساء والأطفال والشيوخ. فمن اعتدى على المسلمين فالمسلمون مكلفون بأن يقتلوه حيث وجدوه ومن أخرجهم من ديارهم فليخرجوه منها كما أخرجهم، ومن فتنهم عن دينهم وأكرههم على الإرتداد بعدما هداهم الله، فالفتنة أشد من القتل، وهم مكلفون إذن أن يقاتلوه، وأن يقتلوه أنّى وجدوه، ولا قتال عند المسجد الحرام، إلاّ أن يقاتلهم أعداؤهم، فإذا حملوا في وجههم السلاح فليقتلوهم، فإذا انتهوا وكفوا وجب على المسلمين أن يكفوا، وأن يدعوا أمرهم لله...

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم﴾: وغاية القتال في هذه الأحوال ضمانة ألا يُفتن المسلمون عن دينهم، وأن يُعز دين الله وينتصر ويمتنع على الأذى والفتنة، فإذا انتهى المعتدون عن الفتنة والتعرض لدين الله ومتبعيه بالأذى فلا قتال معهم لأنّ القتال لا يكون إلاّ مع الظالمين... **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظالمين﴾**: ومن انتهك حرمة الشهر الحرام فجزاؤه أن يُحرم السلمَ فيه...

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾: وقتاله هنا قصاص منه لحرمة الشهر التي لم يرعَها مع غيره فلا ترعى معه... **﴿والحرمات قصاص﴾**: وبعد هذا كله فالمسلمون موكولون إلى تقواهم لله، ألاّ يتجاوزوا الحد، وألا يقسوا في غير محل للقسوة، وأن يكون رائدهم هو إعلاء كلمة الله وحدها دون غاية... **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع**

المتقين﴾: والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال، فعلى المسلمين أن ينفقوا من أموالهم، وألاّ يضنوا بها في إعداد العدة، ففى الضن والبخل تهلكة، وإضعاف لشوكة المسلمين، وتعريض لهم للهزيمة!. وجزاء الإحسان حب الله وإحسانه. . .

﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾: حكمة القتال في الإسلام: المتدبر لهذه الآيات التي بينت دستور الإسلام في الحرب والسلم تنكشف له غاية الحرب واضحة: إنّها ليست لإكراه الناس على الدخول في الإسلام دون اقتناع بحقيقته وحسن دعوته وصدق الداعى إليه، وليست للغنائم والأسلاب والمنافع، وليست للقهر والغلب والإستغلال، وليست للإستعباد والتجبر والإذلال، وليست للمباهاة والفخر والسيادة، كلا، إنّها ليست لشيء من هذا كله، إنّها حرب للدفاع عن حرية العقيدة الصحيحة، وعن كرامة المعتقدين المخلصين لها، حرب غايتها ألاّ يفتن المؤمنون عن دينهم، وألاّ يتخطفوا من أرضهم، وألاّ يكون حمى الله مباحاً للمعتدين.

التوجيه الثالث: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾: فيه أمر للمسلمين أن يتموا الحج والعمرة قاصدين بهما وجه الله، لا كما يفعل الجهلاء قديما وحديثاً إظهاراً للمباهاة وتعديداً لمفاخر الآباء. فالحج هو زيارة البيت الحرام في موسم معين في وقت واحد للجماعة، وفيه وقوف عرفة. والعمرة زيارة البيت الحرام في غير موسم معين، وهى لكل فرد بخصوصه، والحج من أشهر العبادات عند العرب، وهو مما ورثوه عن شريعة إبراهيم، وقد أدخلوا فيه أشياء ليست من شريعة إبراهيم. ثم جاء الإسلام فردهم إلى ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل. ووجوب إتمام الحج والعمرة لمن دخل فيهما، وهما من العبادات التي تجب بالشروع، مثل الصلاة والصيام والطواف. ولا خلاف في وجوب الحج على المستطيع، وقد اختلف في وجوب العمرة، ومالك وأبوحنيفة قالا بسنيتها، والشافعى وأحمد قالا بوجوبها. فمن أحصر عن الحج بمنع عدو أو مرض أو عطب راحلة آتية في الطريق ولم يستطع أن يلحق الحاج في الوقت المحدد لأركان الحج فعليه ما استيسر من الهَدْيِ، وأقله الغنم، ببعثه إلى مكة أو توصيله بنفسه بعد زوال الإحصار إن أمكن، وبحث هذا الحكم في كتب الفقه في باب الحج. ومن أحرم بالحج أو بالعمرة فلا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله بذبحه في المكان المحدد

للهدى، ولا يجوز الحلق للمحرم قبل موعده إلاّ لضرر يلحقه بتركه كمرض أو شدة وسخ، فليحلق وعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك، وهى ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام. . .

﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾: التمتع في عرف الفقهاء هو أن يحرم الحاج بالعمرة فيأتى بها كاملة ويتحلل منها، ثم يحرم بالحج في العام نفسه، وعلى المتمتع هدى، فإن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام بعد رجوعه إلى وطنه، وهذا الحكم لغير من كان أهله في مكة وما جاورها. . .

﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾: هذا بيان لوقت الإحرام بالحج، وإعلام بتفصيل مناسكه، وهى وصاية بفرائض الحج وسننه، ومما يحق أن يراعى في أدائه، وذكر ما أراد الله الوصاية به من أركانه وشعائره. وقد ظهرت عناية الله تعالى بهذه العبادة العظيمة، إذ بسط تفاصيلها وأحوالها مع تغيير ما أدخله أهل الجاهلية فيها. وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة، ومعنى فرض فيهن الحج نوى وعزم على الإحرام بالتجرد من المُحيط والمخيط مع التلبية. وقوله: لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج تفصيل للمنهيات عن الحاج، والرفث مغازلة النساء بالقول أو بالفعل، ومن هنا أخذ الفقهاء حكم إفساد الجماع ومقدماته للحج. والفسوق ارتكاب المآثم المحرمة شرعاً، والجدال المخاصمة والمجادلة بالباطل والشتم والسب. وقوله: وما تفعلوا من خير يعلمه الله عقب به النهى عن المنهيات لقصد الإتصاف بأضداد تلك المنهيات. . .

﴿وتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقونِ يا أولى الألباب﴾: التزود هنا مراد به الإستعداد لسفر الحج، والإستعداد لسفر المحشر. والتقوى اجتناب المناهى التي كان يفعلها العرب في جاهليتهم، وامتثال ما أمر الله به فيما يتعلق بالحج المطلوب في الإسلام، وهو ما جاء موافقا للعقول النيرة، ولأصحاب النفوس الخيرة. . . **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾**: كانت الجاهلية إذا خرجت من آخر سوق من الأسواق التي كانت تقام قرب مكة وموسم الحج حرّمت البيع

والشراء لتهتم بالنسك والتفرغ للحج. . . ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾: الإفاضة من عرفات الخروج منها بعد أداء الركن المهم في الحج، وهو الوقوف بعرفة ليلة العاشر من ذي الحجة، ويومها يسمى يوم عرفة، وهو اليوم التاسع. فالوقوف ليلا هو الركن، أمّا الوقوف نهاراً فهو واجب ينجبر بالدم كما قُرّر في مذهب مالك. والمشعر الحرام هو المزدلفة، وذكر الله عند المشعر الحرام جمع الصلاة فيه بين المغرب والعشاء، ونزول الحاج بها واجب فمن تركه فعليه الهدى. . .

﴿**واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾: هذا تقرير وتنويه بالأحكام التي جاء بها القرآن لا كما كان يفعله العرب في جاهليتهم، لأنّهم كانوا ضالين متمسكين بأوهام وطقوس باطلة لا أساس لها من الصحة لا نقلا ولا عقلا، ومنها ما كانت تفعله قريش من الوقوف يوم عرفة بالمزدلفة، وكان سائر العرب يقفون بعرفة، وكانت قريش تسمى نفسها الحُمْسَ، وقالوا: نحن ولاة البيت وقاطنوا مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا فلا نخرج من الحرم. . . ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم**﴾: هذا تعريض بقريش فيما كانوا عليه من ترك الوقوف بعرفة، وهذه هي المساواة المطلقة التي يحرص عليها الإسلام، ويحطم بها فوارق النسب ومميزات الطبقات، إنّها موجهة إلى قريش التي كانت تعتز بنسبها وحسبها. إنّ الإسلام لا يعرف نسباً، ولا يعرف طبقة. . .

﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً**﴾: ذلك أنّ اعتزازهم بالآباء هو الذي كان يحول بينهم وبين الإفاضة من حيث أفاض الناس، فهو يذكرهم بالله وحده، يذكرهم بأن يتجهوا إلى الله وحده دون الأنداد والأجداد!. وهنا يختلف الحج في الإسلام مع الحج عند بقية الأقوام: قد كان كثير من الأمم قديماً وحديثاً يقصدون أماكن يقدسونها لما فيها من ذكر عظمائهم أو فيها معبوداتهم التي يعدونها أصلا لآلهتهم المحلية، فالنصارى يقصدون فلسطين لقصد زيارة مولد المسيح في زعمهم، كما يزعمون أنّ كنيسة القيامة قبر فيها المسيح. واليهود يقصدون هيكل سليمان المدمر في أورشليم، وحيط المبكى الباقى منه. والهنود يقصدون نهر الكنج يغتسلون فيه ليتطهروا مما ارتكبوا من

ذنوب. والإيرانيون اليوم لهم مزارات خاصة في النجف والكاظمية وكربلاء. وكل أمة من غير المسلمين لهم أمكنة معينة يحجون إليها، وكلها فيها ذكر الآباء والأجداد والأصنام والآلهة التي يعبدونها من دون الله.

أمّا الحج في الإسلام فهو يعد مؤتمر المسلمين العام الذي يتلاقون فيه مجردين عن كل ما وراءهم، تربطهم عقيدة الإسلام وحدَها، ويجمعهم بيت الله الحرام. عندئذ يتعارفون وتتلاقى قلوبهم، وعندئذ يعتزون بذلك النسب الواحد الذي يجمعهم، وبالوحدة الكبرى التي تربطهم، فإذا هم كثير، وإذا هم أقوياء بالكثرة والإتحاد، فهذه هي المساواة المطلقة التي يحرص عليها الإسلام، ويحطم بها فوارق النسب ومميزات الأقوام. والموقف موقف اتجاه إلى الدنيا أو اتجاه إلى الله، لذلك يعرض عليهم نموذجين للناس ليختاروا منهما أقربهما إلى الله... **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا والله سريع الحساب﴾**: إنّ الذي يحصر همه في الدنيا يفقد نصيبه كله في الآخرة، وماله في الآخرة من خلاق. فأمّا الذي يتجرد لله ويدعوه وحده أن يهبه حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة فهذا له نصيب مضمون؛ لأنّه جعل أمره كله إلى الله، ومن اتجه إلى الله فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة، ومن اتجه إلى الدنيا فقد حرم نفسه من كل شيء...

﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون﴾: الأيام المعدودات أيام منى بعد يوم النحر، ودلت الآية على طلب ذكر الله في أيام رمى الجمار، وهو الذكر عند الرمى وعند نحر الهدايا. وإنّما أمروا بالذكر في هذه الأيام لأنّ أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء. والآية تدل على أنّ الإقامة في منى في الأيام المعدودات واجبة، والتعجيل ترك منى في اليوم الثانى بعد رمى الجمرات، والتأخير بقاء الحاج في منى إلى أن يرمى الجمرات في اليوم الثالث. وفي آخر هذه الأحكام وصية جامعة للراجعين من الحج أن يراقبوا تقوى الله في سائر أحوالهم وأماكنهم، ولا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج، كما كانت تفعل الجاهلية، فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويختصمون ويفسدون، ومثل

هذا يفعله عصاة المسلمين اليوم بعد حجهم وبعد صومهم رمضان. وفي قوله... واعلموا أنّكم إليه تحشرون: تحريض على التقوى، وتحذير من خلافها. فالأمر في اعلموا للتذكير، وجمع الناس في موسم الحج يشبه الحشر الجامع يوم القيامة، وهو نموذج مصغر له، حتى يكون دائما في ذاكرتهم.

6 ـ تفصيل الكلام في موقف الناس من أحكام الإسلام

النص

وَمِنَ النَّاسِ
مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿202﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿203﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ
جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿204﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿205﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿206﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ
الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿207﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿208﴾
سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿209﴾ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (210)
* كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيئِينَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (211) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ
مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (212) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (213)
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (214) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ
قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (215) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (216) ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ
قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ (217) قُلِ الْعَفْوَ ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ
وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (218)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**﴾: من الناس يصلح أن يصدق على فريق أو على شخص معين، وكذلك مَن الموصولة. والإعجاب إيجاد العجب في النفس، والعجب انفعال يعرض للنفس عند مشاهدة أمر غير مألوف خفي سببُه، ومعناه هنا يحسن عندك قوله فتُسرُّ به... ﴿**ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام**﴾: إشهاد الله حَلِفُه بأنّ الله يعلم أنّه صادق. وألد الخصام شديد

الخصومة، وألد صفة مشبهة وليست أفعل تفضيل، والخصام يصلح أن يكون مصدراً، ويصلح أن يكون جمعاً. . .

﴿**وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل**﴾: تولى لها معنيان: معنى أدبر وأعرض عنه، ومعنى تقلد الأمر، فالمعنى الأول: وإذا فارقك وسعى في الأرض، والمعنى الثاني: وإذا تولى الأمر وصار في يده الأمر سعى في الأرض. والسعي في الأصل المشي الحثيث، ويطلق السعي على العمل والكسب، ويطلق على التوسط بين الناس لإصلاح ذات البين، ويطلق على الحرص وبذل العزم لتحصيل شيء. والإفساد: الإضرار والتخريب والتدمير والتقطيع والتقتيل والتشريد والتخويف وبث الذعر في قلوب الناس. ويهلك الحرث والنسل تفسير للإفساد، وإهلاك الحرث إتلاف ما تنبته الأرض، وإهلاك النسل إتلاف ما ينتجه الحيوان، والنسل مشتق من قولهم نسل الصوف نسولاً إذا سقط وانفصل. . .

﴿**وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم**﴾: أخذته العزة احتوت عليه عزة الجهل الملابسة للإثم والظلم. . . ﴿**فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾: أطلق الحسْبُ هنا على الجزاء، وأصل الحَسْبِ في اللغة الكافي. وجهنم اسمُ علَم على دار العقاب الموقدة ناراً، وجهنم في اللغة البئر عميقة القعر. والمهاد ما يهيأ لمن ينام، ومعناه هنا: بئس ما مهّد لنفسه في معاده. . . ﴿**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾: يشرى معناه يبيع. ومن الناس من يبذل نفسه في نصر الدين. . .

﴿**يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾: الدخول حقيقته نفوذ الجسم في جسم أو مكان محوط، وحقيقة السلم الصلح وترك الحرب، واشتقاقه من السلامة من ألم أو ضر يلحق بالجسم أو الروح. وكافة اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به. . . ﴿**فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات**﴾: أصل الزلل اضطراب القدم وتحركها في الموضع المقصود إثباتها فيه، والبينات الأدلة والمعجزات. ومجيئها ظهورها وبيانها. . . ﴿**هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكةُ وقضى الأمر. وإلى الله ترجع الأمور**﴾: النظر الانتظار والترقب. والظلل اسم جمع ظلة، وهي كل ما ارتفع وحال بينك وبين شعاع الشمس. والقضاء الفراغ والإتمام، والأمر هنا الأمر المعهود للناس بالجزاء يوم القيامة. والرجوع في الأصل المآب إلى الموضع الذي خرج منه الراجعُ. . .

﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾: سلْ أمر من سأل يسأل، أصله اسْأَلْ، حذفت الهمزة تخفيفاً بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها. وكم اسم للعدد المبهم، وهى هنا استفهامية، والآية البينة هنا: الكلمات الدالة على صدق الرسول محمد ﷺ المكتوبة عندهم والمشاهدة لهم... **﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب﴾**: التبديل جعل شيء بدلا عن آخر، فيكون تعويض ذات بذات، أو تعويض وصف بوصف. والعقاب هو الجزاء المؤلم عن جناية وجرم، وشدته كثرته ودوامه...

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾: التزيين جعل الشيء زينا، والزين شدة الحسن. والحياة الدنيا مراد بها ما تشتمل عليه من اللذات والملائمات والذوات الحسنة... **﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾**: والسخَر تعجب مشوب باحتقار الحال المتعجب منها. والذين آمنوا من اتبع محمداً في دعوته... **﴿كان الناس أمة واحدة﴾**: الناس اسم جمع ليس له مفرد من لفظه، وآل فيه للعموم. والأمة اسم للجماعة الذين أمرُهم واحدٌ، مشتقة من الأمّ، وهو القصد؛ لأنّ غايتهم واحدة، والوحدة هنا مراد بها الاتحاد والتماثل في الدين... **﴿فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾**: البعث الإرسال والإنهاض للمشى، ومنه: بَعثَ البعيرَ إذا أنهضه بعد أن برك، والبعث هنا مستعمل في أمر الله النبيءَ بتبليغ الشريعة للأمة. والنبيئين جمع نبيء، مشتق من النبإ، وهو الخبر المهمّ، مبشرين من يؤمن بهم بالخير، ومنذرين من يكفر بهم بالشر، فالبشارة وعد بالخير، والنذراة وعيد على الشر. والإنزال حقيقته تدلية الجسم من علو إلى أسفل، وأطلق هنا في وصول الشيء من الأعلى مرتبة إلى من هو دونه. والكتاب المكتوب، وأطلق في اصطلاح الشرع على كتاب الشريعة. والحكم بين الناس فصل القضاء فيما بينهم من الاختلاف. والاختلاف ضد الاتفاق...

﴿وما اختلف فيه إلاّ الذين أُوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾: الاختلاف في الكتاب الذي أوتوه ذهاب كل فريق في تحريف المراد منه مذهباً يخالف مذهب الآخر. والبينات جمع بينة، وهى الحجة والدليل. والبغى الظلم، وأصل البغى في كلام العرب الطلب، ثم شاع في طلب ما للغير بدون حق، فصار

بمعنى الظلم معنى ثانيا، وأطلق هنا عن الحسد؛ لأنّ الحسد ظلم. . . ﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾: المراد من الذين آمنوا المؤمنون بمحمد ﷺ والحق دين الإسلام. والإذن الخطاب بإباحة فعل، وأصله مشتق من فعل أذن إذا أصغى بأُذنه إلى كلام من يكلمه. . .

﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم**﴾: حسب فعل من أفعال القلوب، ومصدره الحسبان، وأصله من الحساب بمعنى العدّ. ولما أخت لم في جزم الفعل المضارع ونفيه، غير أنّ لم تنفي الماضي فقط، ولما تنفي الماضي والحال مع ترقب الوقوع في المستقبل. والمثل المشابهة في الهيئة والحالة. والذين خلوا هم الأمم الذين مضوا وانقرضوا، وأصل خلوْا خلا منهم المكان. ﴿**مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله**﴾ والمس في الأصل اتصال جسم بجسم آخر، ويطلق على إصابة شيء وحلوله. والبأساء الشدة من الخوف والفاقة. والضراء الآلام والأمراض. والزلزلة تحرك الجسم من مكانه بشدة، ومعناه هنا الإزعاج والاضطراب. وحتى غاية للمس والزلزال. ومتى استفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر. . .

﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين. . .**﴾ إلخ الآية: السؤال طلب توضيح ما فيه خفاء، فيقال: سأل عنه، والسؤال طلب الشىء لغرض ما، فيقال: سأله الشيء، والسؤال عن ماهية الشىء أو حاله، فيقال: ما هو؟. وماذا هو؟!. وهنا وقع السؤال عن كيفية الإنفاق من المال، فأجيبوا بقوله: قل ما أنفقتم من خير، فالخير هنا المال. . . ﴿**كتب عليكم القتال وهو كُره لكم**﴾: كتب فرض، والقتال الجهاد في سبيل الله. الكُرْه الكراهية ونفرة الطبع من الشيء. . . ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم. . .**﴾ إلخ الآية: كلمة عسى هنا من أفعال المقاربة. وخير وشر من صيغ التفضيل حذفت همزتهما لكثرة الاستعمال. . .

﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه**﴾: الشهر الحرام هو أحد الأشهر الأربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب. والسؤال وارد عن القتال في الشهر الحرام. والجواب: القتال في الشهر الحرام إثم كبير، لكن أكبر منه الصد عن سبيل الله والصد عن المسجد وإخراج أهله منه، وأكبر من ذلك الفتنة،

والفتنة التشغيب والإيقاع في الحيرة واضطراب العيش، فهي اسم شامل لما يعظم من الأذى الداخل على أحد أو جماعة من غيرهم، وأريد بها هنا ما لقيه المسلمون من المشركين من المصائب في مكة عندما كانوا محاصرين ومطاردين ومعذبين من أجل إيمانهم بالله... ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾: كلمة لا يزال تدل على الإستمرار في خبرها وهو هنا القتال، وغايته ارتداد المسلمين عن الإسلام إن استطاعوا... ﴿**ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم**﴾: الارتداد لغة الرجوع، وشرعاً الخروج من دين الإسلام. والحبط في الأصل انتفاخ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموت من ذلك، وأطلق الحبط هنا على إبطال الأعمال...

﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله**﴾: الذين هاجروا هم الذين جاءوا مسلمين إلى المدينة بعد الهجرة، والهجرة في الأصل الفراق. وجاهدوا في سبيل الله قاتلوا أعداء الله لإعلاء كلمته. والرجاء ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله... ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس**﴾: الخمر الشراب المسكر، سمى خمراً؛ لأنّه يخمر العقل ويستره. والميسر القمار. والإثم هو الفعل المذموم في الشرع. والمنافع ما فيها من الربح في الخمر، والكسب في الميسر... ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾: العفو مصدر عفا يعفوا إذا زاد ونمى، وهو هنا ما زاد على حاجة المرء من المال بعد نفقته ونفقة من تلزمه نفقته...

﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إنّ الله عزيز حكيم**﴾: الإصلاح جعل الشيء ذا صلاح، والصلاح ضد الفساد. والمُخالطة مُفاعلة من الخلط، وهو جمع الأشياء جمعاً يتعذر معه تمييز بعضها عن بعض فيما تُرادُ له، والمقصود من المخالطة هنا المشاركة في شؤون الحياة المفيدة للطرفين. والمفسد من يجعل الشيء فاسداً وعكسه المصلح. والإعنات التشديد، وإلزام ما يصعب أداؤه.

مبحث الإعراب

﴿**ومن الناس**﴾ الواو للعطف، من بمعنى بعض في محل رفع مبتدأ، الناس

مضاف إلى من في المعنى. ﴿مَنْ﴾ في محل رفع خبر المبتدإ، وهذا وجه من أوجه إعراب هذا التركيب، وهو كثير في القرآن. ﴿**يعجبك**﴾ فعل مضارع، والضمير المتصل به في محل نصب مفعول به. ﴿**قولُه**﴾ فاعل مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه، وجملة يعجبك قوله صلة مَنْ. ﴿**في الحياة**﴾ متعلق بيعجبك. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**ويُشهد**﴾ معطوف على يعجب، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**اللهَ**﴾ منصوب. ﴿**على ما**﴾ متعلق بيشهد. ﴿**في قلبه**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وهو**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**ألدُّ**﴾ خبره. ﴿**الخصام**﴾ مضاف إلى ألد، والجملة في محل نصب حال من الضمير المجرور العائد على مَنْ.

﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، وإذا ظرفية متضمنة معنى الشرط. ﴿**تولى**﴾ فعل الشرط، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**سعى**﴾ جواب الشرط. ﴿**في الأرض**﴾ متعلق بسعى. ﴿**ليفسد**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**فيها**﴾ متعلق بيفسد، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بسعى. ﴿**ويهلك**﴾ معطوف على يفسد. ﴿**الحرث**﴾ مفعول به. ﴿**والنسل**﴾ معطوف على الحرث. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**لا يحب**﴾ فعل مضارع منفى بلا، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**الفساد**﴾ مفعول به، وجملة لا يحب خبر المبتدإ، وجملة والله لا يحب الفساد تذييلية. ﴿**وإذا**﴾ الواو للعطف، وإذا للشرط. ﴿**قيل**﴾ فعل ماض مبني للمجهول فعل الشرط. ﴿**له**﴾ متعلق بقيل. ﴿**اتق**﴾ فعل أمر مبني على حذف الياء، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**الله**﴾ منصوب باتق، وجملة اتق الله في محل نصب مقول القول. ﴿**أخذته**﴾ جواب الشرط. ﴿**العزّة**﴾ فاعل أخذت. ﴿**بالإثم**﴾ متعلق بمحذوف صفة للعزّة. ﴿**فحسبه**﴾ الفاء للتفريع، حسب مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**جهنم**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**ولبئس**﴾ الواو للعطف، واللام موطئة للقسم، بئس فعل ماض. ﴿**المهاد**﴾ فاعله، والجملة اعتراضية تذييلية.

﴿**ومن الناس من يشري نفسه**﴾ عطف على قوله: ومن الناس من يعجبك، وهو مثله في الإعراب. ﴿**ابتغاء**﴾ مفعول لأجله منصوب بالفتحة. ﴿**مرضاة**﴾ مضاف إلى ابتغاء. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى مرضاة. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**رءوف**﴾ خبره.

﴿**بالعباد**﴾ متعلق برءوف، والجملة تذييلية. ﴿**يا أيّها الذين آمنوا**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**ادخلوا**﴾ فعل أمر وواو الجماعة فاعل. ﴿**في السلم**﴾ متعلق بادخلوا. ﴿**كافة**﴾ منصوب على الحال من واو الجماعة. ﴿**ولا تتبعوا**﴾ عطف النهى على الأمر. ﴿**خطوات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**الشيطان**﴾ مضاف إلى خطوات. ﴿**إنّه**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لكم**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**عدو**﴾ خبر إنّ. ﴿**مبين**﴾ نعت لعدو، والجملة تعليلية. ﴿**فإن**﴾ الفاء للتفريع، إن شرطية جازمة. ﴿**زللتم**﴾ فعل الشرط في محل جزم. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بزللتم. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى بعد. ﴿**جاءتكم البينات**﴾ صلة ما. ﴿**فاعلموا**﴾ جواب الشرط دخلت عليه فاء الربط. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**عزيز حكيم**﴾ خبران لأنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب سدّ مسد مفعولى اعلموا.

﴿**هل**﴾ حرف استفهام مراد به النفى. ﴿**ينظرون**﴾ فعل وفاعل. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرّغ. ﴿**أن يأتيهم الله**﴾ أن وما دخلت عليه من الفعل والمفعول في تأويل مصدر منصوب بدل من مفعول ينظرون. ﴿**في ظلل**﴾ متعلق بيأتى. ﴿**من الغمام**﴾ متعلق بمحذوف نعت لظلل. ﴿**والملائكة**﴾ معطوف على الله. ﴿**وقضى**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**الأمرُ**﴾ نائب الفاعل، وهو معطوف على ما قبله. ﴿**وإلى الله**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**ترجع**﴾ فعل مضارع مبنيّ للمجهول. ﴿**الأمور**﴾ نائب الفاعل، والجملة تذييل. ﴿**سَلْ**﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير المخاطب. ﴿**بنى**﴾ مفعول به منصوب بالياء. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بنى مجرور بالفتحة للعلمية والعجمة. ﴿**كم**﴾ اسم استفهام في محل نصب مفعول به. ﴿**آتيناهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿**من آية**﴾ تمييز دخلت عليه من فجرته لفظاً. ﴿**بيّنة**﴾ نعت لآية. ﴿**ومن يبدل**﴾ الواو للعطف، مَنْ اسم شرط جازم. يبدل مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير يعود على مَنْ. ﴿**نعمة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى نعمة. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بيبدل. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**جاءته**﴾ الفعل مع ما مؤول بمصدر مجرور مضاف إلى بعد. ﴿**فإنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**شديد**﴾ خبرها. ﴿**العقاب**﴾ مضاف إلى شديد، والفاء لربط جواب الشرط دخلت هنا على علّته، وجواب الشرط مقدر يؤخذ من سياق الأسلوب.

﴿**زيّن**﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿**للذين**﴾ متعلق بزين. ﴿**كفروا**﴾ صلة الذين. ﴿**الحياة**﴾ نائب الفاعل. ﴿**الدنيا**﴾ نعت للحياة مرفوع بضمة مقدرة على

الألف. ﴿**ويسخرون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل معطوفة على زين. ﴿**من الذين**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**اتقوا**﴾ صلة الذين. ﴿**فوقهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر الذين. ﴿**يوم**﴾ يتعلق بما تعلق به الظرف قبله. ﴿**القيامة**﴾ مضاف إلى يوم. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**يرزق**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**مَنْ**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يشاء**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، وجملة يشاء صلة من، وجملة يرزق من يشاء في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**بغير**﴾ متعلق بيرزق. ﴿**حساب**﴾ مضاف إلى غير.

﴿**كان الناسُ أمّةً**﴾ كان واسمها وخبرها. ﴿**واحدةً**﴾ نعت لأمة. ﴿**فبعث الله النبيئين**﴾ فعل وفاعل ومفعول مرتب بالفاء على جملة مقدرة، والتقدير: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيئين. ﴿**مبشرين**﴾ حال من النبيئين. ﴿**ومنذرين**﴾ معطوف على مبشرين. ﴿**وأنزل**﴾ معطوف على بعث، وفاعل أنزل ضمير يعود على الله. ﴿**معهم**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**الكتاب**﴾ مفعول به. ﴿**بالحق**﴾ متعلق بأنزل. ﴿**ليحكم**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير يعود على الكتاب، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بأنزل. ﴿**بين**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**فيما**﴾ متعلق بيحكم. ﴿**اختلفوا**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**فيه**﴾ متعلق باختلفوا. ﴿**وما**﴾ الواو للعطف، وما للنفي. ﴿**اختلف**﴾ فعل ماض. ﴿**فيه**﴾ متعلق باختلفوا. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**الذين**﴾ في محل رفع بدل من فاعل اختلف المقدّر. ﴿**أوتوه**﴾ الضمير المتصل المفعول الثاني، وواو الجماعة نائب فاعل أُوتُوا. ﴿**من بعد**﴾ متعلق بأوتوا. ﴿**ما**﴾ مصدرية. ﴿**جاءتهم البينات**﴾ الجملة مؤولة مع ما بمصدر مجرور مضاف إلى بعد. ﴿**بغياً**﴾ مفعول لأجله. ﴿**بينهم**﴾ متعلق ببغيا. ﴿**فهدى الله**﴾ فعل وفاعل دخلت عليه فاء الفصيحة. ﴿**الذين**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**لما**﴾ متعلق بهدى. ﴿**اختلفوا**﴾ صلة ما. ﴿**فيه**﴾ متعلق باختلفوا. ﴿**من الحق**﴾ بيان لما. ﴿**بإذنه**﴾ متعلق بهدى. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**يهدي**﴾ فعل مضارع، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**مَنْ**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**يشاء**﴾ صلة مَنْ. ﴿**إلى صراط**﴾ متعلق بيهدي. ﴿**مستقيم**﴾ نعت لصراط.

﴿أمْ﴾ منقطعة والهمزة للاستفهام ركبت مع أم لقصد الإضراب والإنكار. ﴿حسبتم﴾ فعل وفاعل. ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿ولما﴾ الواو للعطف، ولمّا حرف نفي وجزم. ﴿يأتكم﴾ مجزوم بحذف الياء، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿مثلُ﴾ فاعل. ﴿الذين﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿خلوا﴾ صلة الذين. ﴿من قبلكم﴾ متعلق بخلوا، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿مستهم﴾ فعل ماض، والضمير المتصل به مفعول. ﴿البأساء﴾ فاعل. ﴿والضراء﴾ معطوف على البأساء. ﴿وزلزلوا﴾ معطوف على مستهم، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿حتى﴾ حرف غاية. ﴿يقول﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة دون نصبه بأن بعد حتى؛ لأنّه بمعنى الماضي. ﴿الرسول﴾ فاعل. ﴿والذين﴾ معطوف على الرسول. ﴿آمنوا﴾ صلة الذين. ﴿معه﴾ متعلق بيقول. ﴿متى﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿نصرُ الله﴾ فاعل بفعل مقدر، والتقدير متى يأتي نصر الله، وجملة يأتي نصر الله في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿ألا﴾ أداة استفتاح. ﴿إنّ نصر﴾ إنّ واسمها. ﴿الله﴾ مضاف إلى نصر. ﴿قريب﴾ خبر إنّ. ﴿يسألونك﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿ماذا﴾ اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. ﴿ينفقون﴾ فعل وفاعل في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿ما﴾ اسم شرط جازم ﴿أنفقتم﴾ فعل الشرط. ﴿من خير﴾ متعلق بأنفقتم. ﴿فللوالدين﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط المتعلق به الجار والمجرور. ﴿والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ معطوفات على الوالدين.

﴿وما تفعلوا﴾ جملة شرطية. ﴿من خير﴾ متعلق بتفعلوا. ﴿فإنّ الله به عليم﴾ الجملة من إنّ واسمها وخبرها جواب الشرط. ﴿كتب﴾ فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عليكم﴾ متعلق بكتب. ﴿القتال﴾ نائب الفاعل. ﴿وهو﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿كره﴾ خبر المبتدإ. ﴿لكم﴾ متعلق بكره. ﴿وعسى﴾ تعمل عمل كاد ترفع الاسم وتنصب الخبر، واسمها ضمير. ﴿أن تكرهوا﴾ في محل نصب خبر عسى. ﴿شيئا﴾ مفعول به. ﴿وهو خير﴾ جملة من المبتدإ والخبر حال من ضمير الجماعة المرفوع. ﴿لكم﴾ متعلق بخير. ﴿وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ مثل إعراب ما سبقها. ﴿والله﴾ مبتدأ. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿وأنتم﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿لا تعلمون﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ، والجملة معطوفة على ما قبلها، وهي تذييل.

﴿**يسألونك**﴾ مثل ما قبلها. ﴿**عن الشهر**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الحرام**﴾ نعت للشهر. ﴿**قتال**﴾ بدل اشتمال من الشهر، وبدل المجرور مجرور. ﴿**فيه**﴾ متعلق بقتال. ﴿**قل**﴾ فعل أمر. ﴿**قتال**﴾ مبتدأ. ﴿**فيه**﴾ متعلق به. ﴿**كبير**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**وصدّ**﴾ معطوف على كبير. ﴿**عن سبيل**﴾ متعلق بصد. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**وكفر**﴾ عطف على صدّ. ﴿**به**﴾ متعلق بكفر. ﴿**والمسجد**﴾ معطوف على سبيل الله. ﴿**الحرام**﴾ نعت للمسجد. ﴿**وإخراج**﴾ مبتدأ. ﴿**أهله**﴾ مضاف إلى إخراج، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**منه**﴾ متعلق بإخراج. ﴿**أكبر**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**عند**﴾ متعلق بأكبر. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى عند. ﴿**والفتنة أكبر**﴾ مبتدأ وخبر. ﴿**من القتل**﴾ متعلق بأكبر، وهذه الجملة تذييل. ﴿**ولا يزالون**﴾ الفعل المنفي بلا يعمل عمل ليس. ﴿**يقاتلونكم**﴾ الجملة من الفعل والفاعل والمفعول في محل نصب خبر لا يزال، واسمها واو الجماعة المتصل بالفعل، وهذه الجملة اعتراضية. ﴿**حتى يردوكم**﴾ الفعل منصوب بأن بعد حتى، وواو الجماعة فاعل، والضمير للمخاطبين مفعول. ﴿**عن دينكم**﴾ متعلق بيردوكم، والضمير فيه مضاف إليه، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى التي هي بمعنى إلى. ﴿**إن استطاعوا**﴾ جملة شرطية جوابها مقدر، والتقدير: إن استطاع المشركون ردكم عن دينكم فلا يزالون جاهدين في ذلك.

﴿**ومن يرتدد**﴾ جملة شرطية اعتراضية. ﴿**منكم عن دينه**﴾ متعلقان بيرتدد. ﴿**فيمت**﴾ معطوف على يرتدد. ﴿**وهو كافر**﴾ جملة حالية. ﴿**فأولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**حبطت أعمالهم**﴾ جملة خبرية عن أولئك. ﴿**في الدنيا**﴾ متعلق بحبطت. ﴿**والآخرة**﴾ معطوف على الدنيا، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط، والرابط الفاء. ﴿**وأولئك أصحاب**﴾ مبتدأ وخبر معطوف على الشرط. ﴿**النار**﴾ مضاف إلى أصحاب. ﴿**هم**﴾ مبتدأ. ﴿**فيها خالدون**﴾ خبر المبتدإ، وفيها متعلق بالخبر، وجملة هم فيها خالدون خبر ثان توكيد للخبر الأول. ﴿**إنّ الذين**﴾ إنّ واسمها. ﴿**آمنوا**﴾ صلة الذين. ﴿**والذين هاجروا**﴾ معطوف على الذين آمنوا. ﴿**وجاهدوا**﴾ معطوف على هاجروا. ﴿**في سبيل**﴾ متعلق بجاهدوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يرجون**﴾ فعل وفاعل خبر المبتدإ. ﴿**رحمة**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى رحمة، وجملة أولئك في محل رفع خبر إنّ. ﴿**والله غفور رحيم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييلية.

﴿يسألونك عن الخمر﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿والميسر﴾ معطوف على الخمر. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿فيهما﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿إثم﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿كبير﴾ نعت لإثم. ﴿ومنافع﴾ معطوف على إثم. ﴿للناس﴾ متعلق بمنافع. ﴿وإثمهما﴾ مبتدأ. ﴿أكبرُ﴾ خبره. ﴿من نفعهما﴾ متعلق بأكبر. ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿العفوَ﴾ مفعول به. ﴿كذلك﴾ الكاف بمعنى مثل في محل نصب نعت لمصدر مقدر. ﴿يبيّن الله﴾ فعل وفاعل. ﴿لكم﴾ متعلق بيبيّن. ﴿الآيات﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والتقدير: يبيّن الله لكم الآيات تبيينا مثلَ هذا. ﴿لعلكم﴾ لعل واسمها. ﴿تتفكرون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعلّ. ﴿في الدنيا﴾ متعلق بتتفكرون. ﴿والآخرة﴾ معطوف على الدنيا.

﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿قل﴾ فعل أمر. ﴿إصلاح﴾ مبتدأ. ﴿لهم﴾ متعلق بمحذوف نعت لإصلاح، وهو المسوغ للابتداء. ﴿خير﴾ خبر المبتدإ. ﴿وإن تخالطوهم﴾ جملة شرطية. ﴿فإخوانكم﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أي: فهم إخوانكم، والجملة في محل جزم جواب الشرط، والرابط الفاء. ﴿والله يعلم﴾ جملة يعلم خبر المبتدإ. ﴿المفسد﴾ مفعول به. ﴿من المصلح﴾ متعلق بيعلم. ﴿ولو شاء الله﴾ جملة شرطية. ﴿لأعنتكم﴾ جواب الشرط. ﴿إنّ الله عزيز حكيم﴾ جملة إنّ واسمها وخبرها تعليلية.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه﴾: هذا الكلام موصول بما قبله بالعطف على جملة فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق... الخ الآية؛ لأنّه ذكر هنالك حال المشركين الصرحاء الذين لا حظ لهم في الآخرة، وقابل ذكرهم بذكر المؤمنين الذين لهم رغبة في الحسنة في الدنيا والآخرة، فانتقل هنا إلى بيان حال فريق آخر ممّن لا حظ لهم في الآخرة، وهم متظاهرون بأنّهم راغبون فيها. ومِنْ صالحة للصدق على فريق أو على شخص معين، ومَنْ كذلك صالحة لفريق وشخص ولما كان شأن ما يخفى سببه أن ترغب فيه النفس، صار العجب مستلزما للاستحسان. والمراد من القول هنا ما فيه مِن دلالته على حاله في الإيمان والنصح للمسلمين.

والخطاب للنبيء، ولكل مخاطب؛ لأنّ الكلام هنا صار مثلا سائراً بين الناس. والمراد بهم المنافقون والزنادقة في كل زمان ومكان، وهي صفة ظاهرة فيهم لا تنفك عنهم ما دامت الحياة. ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام: يُكثر الحلفَ والكلام المعسولَ ليُخفى ما عنده، ومع الجملة الحالية إظهار لهذه الخصوصية. . .

﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾: وُصل الكلام بما قبله بالعطف، والشرط بإذا المحققة للوصف زيادة تشنيع وإظهار لما يخفيه بالدليل الواضح أمام الأشهاد. والتولية هنا تحمل معنيين: بمعنى الإنصراف، ومعناه إذا فارقك فعل ما فعل، وبمعنى الولاية، ومعناه إذا مَا وَلِيَ أمراً من الأمور فعل ما فعل من الفساد والشرور. والسعى هنا له معان عدة: بمعنى السعى الحثيث، والعمل والكسب، والتوسط بين الناس بالخير أو بالشر، والحرص وبذل العزم لتحصيل شيء. وهذا الأسلوب يحتمل كل هذه المعاني، ففيه الإيجاز البديع. وفي الأرض تأكيد لمدلول سعى، لرفع توهم المجاز. . .

﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾: جملة شرطية مصدرة بإذا موصولة بما قبلها زيادة في توضيح ما فيه من الأوصاف والقبائح الجسميّة والنفسيّة والخُلُقية. . . **﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾**: هذا مقابل ذاك، فهذا بذل نفسه لأجل مرضاة الله، وذاك ضيع نفسه كفراً بنعمة الله، واستعمل يشرى هنا في البذل مجازاً. وذُيّل هذا الكلام بجملة: والله رءوف بالعباد ليناسب بذل النفوس في سبيل الله ولمرضاته، وفيه تعريض بالقسم الأول الذي ينافق ويفسد ويعتز بما عنده. . . **﴿يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾**: هذه الآية تكملة للأحكام المتعلقة بإصلاح أحوال العرب التي كانوا عليها في الجاهلية، وبها تكون الآية أصلا في كون السلم أصلا للإسلام، وهو رفْعُ التهارج وما يفضى إليه. وقوله: ولا تتبعوا خطوات الشيطان، تحذير مما يصدهم عن الدخول في السلم المأمور به بطريق النهى عن خلاف المأمور به، وفائدته التنبيه على أنّ ما يصد عن الدخول في السلم هو من مسالك الشيطان المعروف بأنّه لا يُشِيرُ بالخير. وقوله: إنّه لكم عدو مبين تعليل للنهى. . . **﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات**

فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم﴾: هذا الكلام تفريع على النهى، وأراد بالزلل المخالفة للنهى، واستعمل الزلل هنا مجازاً في الشر الناشىء عن اتباع الشيطان، من بناء التمثيل على التمثيل. وجيء في الشرط بإنْ لندرة حصول هذا الزلل من الذين آمنوا. وقوله: فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم جواب الشرط. والأمر بعلم عزة الله وحكمته القصد منه لازمه، وهو العقاب، وفيه وعيد شديد لما في العزيز الحكيم من التهديد! . .

﴿هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾: هل يفيد الاستفهام، ويفيد التحقيق، وهو موضوع للاستفهام عن أمر يُرادُ تحقيقه. والإستفهام هنا للإنكار بدليل الإستثناء بعده، والغرض منه مستعمل في التحذير والوعيد كما في قوله: فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات. . . **﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب﴾**: فصلت هذه الآية عما قبلها لأنّها تنزل منزلة البرهان على معنى الجملة السابقة. والمأمور بالسؤال هنا هو محمد ﷺ؛ لأنّه هو الذي يترقب أن يجيبه بنو إسرائيل عن سؤاله. والمراد بالسؤال سؤال التقرير للتقريع. والمراد ببنى إسرائيل الحاضرون في وقت التنزيل. وكم آتيناهم الجملة للإستفهام بدليل وقوعها في حيز السؤال، ودخلت من على تمييز كم خوف الإلتباس بالمفعول. وقوله: ومن يبدل نعمة الله. . . تذييل لجملة سل، أفاد أنّ المقصود أولاً من هذا الوعيد هم بنوا إسرائيل، وأفاد أنّ بنى إسرائيل قد بدلوا نعمة الله، فدل ذلك على أنّ الآيات التي أوتيها بنو إسرائيل هي نعم عليهم، وإلاّ لما كان لتذييل خبرهم بحكم من يبدل نعم الله مناسبة، وهذا مما يقصده البلغاء، فيغنى مثله في الكلام عن ذكر جمل كثيرة إيجازاً بديعاً من إيجاز الحذف وإيجاز القصر معاً.

وقوله: من بعد ما جاءته المجىء فيه كناية عن الوضوح والمشاهدة والتمكن؛ لأنّها من لوازم المجىء عرفاً، وإنّما جعل العقاب مترتباً على التبديل الواقع بعد هذا التمكن للدلالة على أنّه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أوغلط. وقوله: فإنّ الله شديد العقاب دليل جواب الشرط، وهو علته، والتقدير: ومن يبدل نعمة الله. . . فإنّ الله يعاقبه لأنّ الله شديد العقاب. وإظهار اسم الله هنا دون ضميره

لإدخال الروع في ضمير السامع، وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام مستقلا بنفسه؛ لأنّها بمنزلة المثل. . .

﴿**زين للذين كفروا الحياة الدنيا**﴾: هذا الكلام في معنى التعليل للأحوال الماضية، ولأجل ذلك فصل عن الجمل السابقة. وبُنى فعل زُين للمجهول لأنّ المزيّن لهم أمورٌ كثيرةٌ، فلأجل ذلك طوى ذكر هذا الفاعل تجنبا للإطالة. وقوله. . . ﴿**ويسخرون من الذين آمنوا**﴾ متصل بما قبله بالعطف على جملة زين للذين كفروا، وهذه حالة أعجب من التي قبلها، وهى حالة التناهى في الغرور. وجيء في فعل التزيين بصيغة الماضى وفي فعل السخرية بصيغة المضارع قضاء لحقّ الدلالة على أن معنى فعل التزيين أمر مستقر فيهم؛ لأنّ الماضى يدل على التحقق، وأن معنى يسخرون متكرر متجدد منهم.

وقوله. . . ﴿**والذين اتقوا فوقهم**﴾: جاء على غير مقتضى الظاهر لدفع إيهام أن يغتر الكافرون بأنّ الضمير عائد إليهم. والفوقية هنا فوقية تشريف، وهى مجاز في تناهى الفضل والسيادة. . . ﴿**يوم القيامة**﴾: يوم تنصيص على دوامها. . . وقوله. . . ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾: تذييل قصد منه تعظيم تشريف المؤمنين يوم القيامة؛ لأنّ التذييل لابد أن يكون مرتبطاً بما قبله. . . ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين**﴾: هذا كلام جامع مناسب لما قبله؛ لأنّه كالتذييل، ومناسب لما بعده، فهو المقدمة لما يذكر من اختصاص الإسلام بالهداية إلى الحق الذي اختلف فيه الناس بعدُ. والوحدة هنا مراد بها الإتحاد والتماثل في الدين بقرينة تفريع فبعث الله النبيئين. . . الخ. . .

﴿**وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾: بالتفريع والعطف والتعليل انتظم منه كلام من بليغ الإيجاز، وهو أنّ الناس كانوا أمة واحدة فاختلفوا فجاءتهم الرسل ومعهم الكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وعلى هذا التقرير فلفظ جاء على معناه الأصلى، وهو اتصاف اسمها المخبر عنه بمضمون خبرها في الزمن الماضى، وأنّ ذلك قد انقطع. . . ﴿**وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف على جملة وأنزل معهم الكتاب بالحق، وهو يبين حقيقةً أخرى من أحوال اختلاف الأمم. وجيء بالموصول دون غيره من المعرّفات لما في الصلة من الأمر

العجيب، وهو أن يكون المختلفون في مقصد الكتاب هم الذين أعطوا الكتاب ليزيلوا الخلاف بين الناس فأصبحوا هم سبب الخلاف فيه. والتعبير عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق. وقوله: من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم: زيادة في التشنيع على فاعل الفعل الذي تعلق به من بعد ما جاءتهم البينات وبغياً بينهم...

﴿**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**﴾: الفاء فصيحة لما علم من أنّ المقصود من الكلام السابق التحذير من الوقوع في الإختلاف ضرورة أنّ القرآن إنّما نزل لهدى المسلمين للحق في كل ما اختلف فيه أهل الكتب السالفة، فكأنّ السامع ترقب العلم بعاقبة هذا الإختلاف، فقيل: دام هذا الإختلاف إلى مجيء الإسلام، فهدى الله الذين آمنوا... الخ فقد أفصحت الفاء عن كلام مقدر. وقوله: ﴿**والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ تذييل لبيان أنّ فضل الله يعطيه من يشاء...

﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله**﴾؟: أمْ في الإضراب كبَلْ، إلاً أنّ أمْ تؤذن بالاستفهام، فمعنى الكلام هنا بل أحسبتم أن تدخلوا... الخ، وفيه إنكار وتعجيب. ولمّا أخت لم في الدلالة على نفى الفعل، ولكنها مركبة من لم وما النافية فأفادت توكيد النفى، وهى لنفى الماضى والحال مع ترقب الوقوع في المستقبل. وقوله: مستهم استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن، والمس هنا مجاز في إصابة الشيء وحلوله وأكثر ما يطلق في إصابة الشر. وقوله: وزلزلوا حتى يقول... الخ قسم من أقسام المَثل، وجاء الفعل مرفوعاً بعد حتى لحكاية الحالة العجيبة. ومتى استفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر. وقوله: ﴿**ألا إنّ نصر الله قريب**﴾: كلام مستأنف بقرينة افتتاحه بألا، وهو بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رُعْباً!. والقصد منه إكرام هذه الأمة. وتأكد هذا الكلام بألا وإنّ واسمية الجملة وصيغة المبالغة «قريب»!..

﴿**يسألونك ماذا ينفقون...** ﴾ الخ: فصلت الجملة عما قبلها؛ لأنّها جاءت جواباً عن سؤال السائلين حيث طلبوا بيانَ مَن يُنفَق عليه، فجاء الجواب مطابقاً

للسؤال بقوله. . . ﴿**قل ما أنفقتم من خير.**﴾ وقوله. . . ﴿**وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم**﴾ تذييل، والمقصود من قوله: فإنّ الله به عليم الكناية عن الجزاء عليه. والعموم هنا يشمل كل أفعال الخير من الواجب والتطوع. . . ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾: في هذا الكلام تلطّف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين - وإن كان سبحانه غنياً عن البيان والتعليل؛ لأنّه يأمر فيطاع -، ولكنّ في بيان الحكمة تخفيفاً من مشقة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقى الشريعة مُعلّلة مُدلّلة، فأشار إلى أنّ حكمة التكليف تعتمد المصالحَ ودرءَ المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرتَه. وجملة والله يعلم وأنتم لا تعلمون تذييل لما سبق من حكمة فرض القتال وما فيه من مشقة على النفوس. . .

﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام**﴾: هذا نوع آخر من أنواع الأسئلة التي ترد على الرسول ﷺ، وهو السؤال عن الشهر الحرام والقتال فيه، فجاء الجواب مستوفياً، ومبيناً فظائع المشركين فيما ارتكبوا في الشهر الحرام والمسجد الحرام والكفر بالله والصد عن المسجد الحرام. . . ﴿**وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل**﴾: زيادة بيان لفظائع المشركين من مؤامرة القتل والدس بالقول والفعل، وما حصل للمسلمين في الشهر الحرام في البلد الحرام من الفتن والظلم والمصائب. . . ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾: إنّ هذه الآية تبين وتؤكد وتعلل إصرار الكفار على الحرب وعلى الإيذاء وعلى الفتنة. وقوله: إن استطاعوا تعريض بأنّهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم، فموقع هذا الشرط موقع الإحتراس مما قد تُوهمه الغاية، ولهذا جاء الشرط بحرف إنْ المشعر بأنّ شرطَه مرجوٌّ عدمُ وقوعِه. . .

﴿**ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبِطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾: المقصد من هذه الآية التحذير؛ لأنّه لما ذكر حرص المشركين على رد المسلمين عن الإسلام وعقبته باستبعاد أن يصدر ذلك من المسلمين أعقبه بالتحذير منه. وقوله: فيمت معطوف على الشرط فهو كشرط ثان، وجواب الشرطين فأولئك حبطت أعمالهم. وإطلاق الحبط على

إبطال الأعمال تمثيل. . . ﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم**﴾: مناسبة هذه الآية لما قبلها من باب تعقيب الترهيب بالترغيب، والإنذار بالبشارة، وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم. وكرّر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنّهما مستقلان في تحقيق الرجاء. وجيء باسم الإشارة للدلالة على أنّ رجاءهم رحمةَ الله لأجل إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، فتأكد بذلك ما يدل على الموصول من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. . .

﴿**يسألونك عن الخمر والميسر. قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾: فصلت هذه الآية ولم تتصل بما قبلها بالعطف فجاءت مستأنفة لإبطال عملين غالبين على الناس في الجاهلية، وهما شرب الخمر والميسر، وهذا من عداد الأحكام التي بينها في هذه السورة مما يرجع إلى إصلاح الأموال التي كان عليها الناس في الجاهلية فهذه من جملة الأسئلة التي مر بعضُها ويأتى باقيها. . . ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾: كان سؤالهم عن الخمر والميسر حاصلاً مع سؤالهم ماذا ينفقون، فعطفت الآية التي فيها جواب لسؤالهم ماذا ينفقون على آية الجواب عن سؤال الخمر والميسر، ولذلك خولف الأسلوب الذي سلف في الآيات المختلفة بجُمَل يسألونك بدون عطف، فجيء بهذه معطوفة بالواو على التي قبلها. ومناسبة التركيب أنّ النهى عن الخمر والميسر يتوقع منه تعطيل انفاق عظيم كان ينتفع به المحاويج، فبيّنت لهم الآية وجه الإنفاق الحق. . . ﴿**كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة**﴾: الكاف للتشبيه واسم الإشارة راجع إلى الأحكام السابقة، وقرن بعلامة البعد تعظيماً لشأن المشار إليه لكماله في البيان حكما وعلّة. واللام في لكم للتعليل والأجل، وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة، وبين فائدة هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله: لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. . .

﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إنّ الله عزيز حكيم**﴾: اتصلت الجملة بما قبلها بالعطف، وهى من جملة الأحكام المسؤول عنها من حكم الخمر والميسر وبيان كيفية الإنفاق؛ لأنّ الخمر والميسر كانا باباً واسعاً للإنفاق على

المحاويج، ومن جملتهم اليتامى، فكان هذا وجه عطف هذه الجملة على التي قبلها. وفي قوله: إصلاح لهم خيرٌ: تعبير بديع، وهو شامل لكل ما فيه خير اليتامى. وقوله: وإن تخالطوهم فإخوانكم: مجاز في شدة الملابسة والمصاحبة، وهو زيادة إصلاح المال والتربية عن بعد. وقوله: والله يعلم المفسد من المصلح وعد ووعيد. وقوله: ولو شاء الله لأعنتكم تذييل لما دلّ عليه قولُه: قل إصلاح لهم خير. وقوله: إنّ الله عزيز حكيم تعليل للتذييل.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾: في هذا التوجيه يتجه الخطاب للرسول ﷺ، ثم يتجه بعده إلى كل مخاطب يسمع هذا التوجيه، وهذا مرتبط بما قبله من قوله تعالى: فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. غير أنّ هناك ذكر حال المشركين الصرحاء الذين لا حظ لهم في الآخرة وليس لهم غرض من حججهم إلاّ أن يكونوا في رغد من العيش وتفوق على الغير، وهنا ذكر حال فريق آخر من الناس شارك المشركين في الباطن، وشارك المؤمنين ظاهراً يقول بلسانه ما ليس في قلبه. والحكمة من هذا التوجيه تحذير المسلمين من أن تروج عليهم حيل المنافقين.

وفيه تنبيه لهم إلى استطلاع أحوال الناس، وبيّن لهم جملة من أفعال المنافقين: أولها حسن الكلام في طلب الدنيا، وثانيها الإستشهاد بالله كذباً وبهتاناً. وثالثها إلحاحه في إبطال الحق وإثبات الباطل. ورابعها وخامسها: **﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾**!. ثم ذكر خصلة سادسة أشنع من الكل دالة على الجهل المركب، وأنانيته التي لا تغلب: **﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد!.. ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾**: هذا الفريق الذي تقدم ذكره في قوله: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فهناك ذكر قوله، وهنا ذكر فعله لتتحد الأوصاف في ذات المؤمن الصحيح. فبهذا تظهر لنا نماذج من الناس ثلاثة: الكافر الصريح، والمنافق الذي دل عليه فعله القبيح،

والمؤمن الذي دل قوله وفعله على الإيمان الصحيح، وهذا ما ظهر لنا من أول ما قُسّم الناسُ في أول هذه السورة. وفي هذا التوجيه معان من معانى أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلم المؤمنين واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور وعدم الإغترار بالظواهر إلاّ بعد التجربة والإمتحان، فإنّ من الناس من يغر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء، ويعطى من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشر والكيد!. وعلامة الباطن بما فيه من سوء تظهر في تصرفات المنطوى على الشر الذي يحب الفساد ويهلك الحرث والنسل، والذى لا يصغى إلى دعوة الحق إذا دعى إليها، ويظهر عليه الإعتزاز بالظلم، فهذا لا يرعوى عن غيه ولا يترك أخلاقه الذميمة. ومقابل هذا النوع الذي يبيع نفسه لله يرأف بعباد الله لينال رضوان الله، فيسعد في آخرته بعد أن ربح دنياه.

التوجيه الثانى: **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين﴾**: في هذا التوجيه نداء خاص بالمؤمنين، فهم القسم الذي يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، والذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله. يدعوهم إلى الدخول في السلم لسلامتهم وسلامة الناس منهم، فلا يكونوا مثل القسمين السابقَيْن: الكافرين والمنافقين من الفريقين. وفرّع على هذا قوله: **﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم﴾**، والمعنى: فإن اتبعتم خطوات الشيطان فزللتم من بعد ما جاءتكم البينات التي فرقت بين المؤمن المسالم، والكافر المعاند المخاصم، فلتكونوا على علم من هذا الأمر، واحذروا عقاب العزيز الحكيم...

﴿هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾: توجيه هذا السؤال لجميع الناس الذي مرّ تقسيمُهم، يلفت نظرهم إلى ما ينتظرهم من ثواب أو عقاب يوم فصل القضاء، يوم يحضر القاضى والأشهاد ساعة الحساب. ثم يتجه الخطاب إلى الرسول مرة أخرى ليسأل بنى إسرائيل كم آتاهم الله آية بينة فبدّلوها ولم يهتدوا بها، وهى نعمة عظيمة لم ينتفعوا بها: فمن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله يعاقبه في الدنيا بالهوان وفي الآخرة بعذاب النيران، فالله شديد العقاب لمن بدل الشكر بالكفران، وهذا حكم على اليهود بأنّهم من القسم الكافر الذي يقول: ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق.

ولما كان المجال كله موازنة بين النفوس المؤمنة التي أسلمت ذاتها لله، وشرت نفسها ابتغاء مرضاته، وبين النفوس الجاحدة التي تطلب الدنيا لأجل الحياة، فإنّ السياق يلم بها هنا إذ يقرر أنّ الحياة الدنيا قد زينت للكافرين، فأحبوها ووقفوا عندها لم يتعدوها، وقد جهلوا دوافع المؤمنين وأهدافهم فهم يسخرون منهم؛ لأنّهم يطلون على الحياة من زاوية غير التي يطل منها المؤمنون، فإذا رأوهم يرفضون عرض الحياة الدنيا ويتطلعون إلى غايات أبعد منها وأسمى حسبوهم لا يدركون هذه الأعراض ولا يعرفونها، وسخروا من غفلتهم وسذاجتهم، على حين أنّ المؤمنين الذين يخافون الله إنّما يُصغّرون هذه الأعراض؛ لأنّ تصورهم للحياة يختلف، وتقديرهم للأشياء غير تقدير الكافرين، الذين يحصرون غاياتهم كلها في هذه الأرض دون سواها وفي لذائذ هذه الأرض دون الغايات العليا فيها. . .

﴿**زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة**﴾!. وستظل الحياة أبداً تعرف هذين النموذجين من الناس، تعرف المتصلين بالله الذين يرفعهم هذا الإتصال عن الإستغراق في دنيا الحياة، لا لأنّ الله كتب عليهم الحرمان ولكن لأنّهم تخلصوا من إرهاق الضرورات وقيود الشهوات، وحققوا إنسانيتهم بتحقيق إرادتهم، وأصبحوا مالكين للحياة يصرفونها ويوجهونها إلى أعلى، لا عبيد للحياة تتحكم فيهم شهواتها، وتثقل بهم إلى أدنى. كما تعرف أولئك الذين انفصمت علاقتهم بالله فلم يعد لهم إلاّ هذه الحياة الدنيا، ولم يعودوا يجدون في نفوسهم ما يشدها إلى المُثل العليا، وسيظل المؤمنون ينظرون من علٍ إلى أولئك الهابطين، على حين يعتقد هؤلاء أنّ المؤمنين محرومون من لذائذ الحياة محجوبون عما فيها من متاع؛ فيشفقون عليهم تارة ويسخرون منهم تارة، وهم أحق بالإشفاق والسخرية: والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، لأنّهم كانوا فوق شهواتهم وضروراتهم في الحياة الدنيا؛ لأنّهم حققوا ما كتب الله لهم من الكرامة، كرامة الإنسان الذي ارتفعت به إرادته على نزوات الحيوان. وما في هذا من كبت ولا صد عن طيبات الحياة، ولكن فيه استعلاء على الضرورات، وحرية في المتاع على طريقة الإنسان المالك لأمره، المختار في متاعه، الذي لا يقيس الحياة كلها بلذة تقضى وشهوة تنال: والله يرزق من يشاء بغير حساب. وفي معرض النماذج المتباينة من الناس يقرر السياق أنّ هذا التباين

طارىء أوجدته ظروف طارئة!. ﴿**كان الناس أمة واحدة**﴾، على دين واحد وشريعة واحدة، وهي شريعة آدم عليه السلام، وهو ما يدل عليه الكثير من آي القرآن، وهي الفطرة التي لم تدنس بعبادات، والشريعة التي لم تخالطها الشهوات...

وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا: فالصلاح هو الأصل الذي خلق عليه البشر ودام عليه دهراً ليس بالقصير، ثم أخذ يرتد إلى أسفل سافلين... ﴿**فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾: واستمر الإختلاف مع بعث النبيئين وإنزال الكتاب... ﴿**وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾: في هذه الآية سلسلة طويلة من سلسلة الرسل والكتب والأمم من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما وعلى جميع الأنبئاء السلام، وفي هذا إيماء إلى أنّ الله بعث بالإسلام لإرجاع الناس إلى الحق وإلى التوحيد الذي كانوا عليه، فحصل بما في الإسلام من بيان القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وضوحُ الحق والإرشاد إلى كيفية أخذه، فحصل بمجيء الإسلام إتمام مراد الله مما أنزل من الشرائع السالفة...

﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب**﴾: الخطاب هنا موجه للذين آمنوا، وهم الذين اهتدوا إلى الحق فدخلوا فيمن هداهم الله إلى صراط مستقيم. أُوقِظُوا أن يُزْهَوْا بهذا الثناء فيحسبوا أنّهم قضوا حق شكر النعمة فعقب بأنّ عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحى الأمم السالفة. فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم حرضهم هنا على الإقتداء بهدى المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة. الحكمة في هذا: إنّها سنة الله الأزلية في أن يدافع أهل العقيدة عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم، ويتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على ما اعتقدوا لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، استحقوا نصر الله؛ لأنّهم يومئذ أمناء على عقيدتهم، مأمونون على ما ائتمنوا عليه، صالحون لصيانته والذود عنه. وتظهر للقارىء وللسامع صورة عميقة جليلة مرهوبة.

إنّ هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه، من الرسول المتصل بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إنّ سؤالهم: متى نصر الله؟. ليصورَ مدى المحنة التي تزلزل القلوب المتصلة بقوة علام الغيوب، ولن تكون إلاّ محنة فوق الوصف تلقى ظلالها على مثل هذه المحنة المزلزلة المحطمة، عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله. . . ألا إنّ نصر الله قريب: إنّه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلاّ الذين يثبتون حتى النهاية الذين يثبتون على الزلزلة، الذين يصمدون للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلاّ نصر الله، فحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله. بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها جديرين بها، بعد الجهاد والإمتحان والثبات.

التوجيه الثالث: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم﴾:
في هذا التوجيه جواب السؤال الوارد على الرسول من السائلين عن الإنفاق من أين وكيف ولمن؟. وعلى هذا فينبغى أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه، والمعبر عنه هنا بالخير. والكيفية معلومة عند العرب؛ لأنّهم أهل المروءة والكرم غير أنّهم كانوا يسرفون فيه إسرافاً عجيباً ولا يتحرون فيه الطيب والخبيث، بل يطلبونه وينفقونه حسب عاداتهم. وبينت هنا لمن يكون هذا؟. فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، والآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه دون بيان القدر الموجَب والنوع والحد كما في الزكاة المفروضة. بل هذا الإنفاق من حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة، وأولى المسلمين بأن يقوم به أشدهم قرابة بالمحتاجين. فمنها الواجبة كالإنفاق على الوالدين الفقيرين والأولاد الصغار، ومنها المندوبة كالتوسعة والترفيه والتكريم بالهدية والمنحة في المناسبات.

فليست هاته الآية ما يدل على الواجب حتى يُظن أنّها نزلت في صدقة واجبة قبل فرض الزكاة. وشمل عموم «وما تفعلوا من خير» الأفعال الواجبة والمتطوع بها فيعم النفقات وغيرَها. وعلى هذا ينبغى أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه، وأفضل ما لديه فيشارك الآخرين فيه. فالإنفاق تطهير للقلب وتزكية للنفس، ثم منفعة للآخرين ومعونة، وتحرّى الطيّب والنزول عنه للآخرين هو الذي يحقق

للقلب الطهارة، وللنفس التزكية، وللإيثار معناه الكريم. أمّا طريق الإنفاق ومصرفه فيربط بين طوائف من الناس، بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب، وبعضهم رابطة الرحم، وبعضهم رابطة الرحمة، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى، وكلهم يتجاورون في الآية الواحدة: الوالدان، والأقربون، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وكلهم يتضامنون في رباط التكافل الإجتماعى الوثيق بين بنى الإنسان، تلك ضريبة المال وهناك ضريبة الدم، كلتاهما تتجاوران في السياق في مجال التضحية المكتوبة على المؤمنين...

﴿**كتب عليكم القتال**﴾: فهو فريضة وضريبة واجبة الأداء، وهى فريضة شاقة على النفس البشرية، لا يريد القرآن أن ينكر المشقة فيها، ولا أن يهوّن من أمرها، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها. فالإسلام لا يمارى الفطرة، ولا يصادمها، ولا يكلفها مالا تطيق، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل... ﴿**وهو كره لكم**﴾: ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، ويسلط عليها نوراً جديداً، إنّه يقرر أنّ من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق؛ ولكن وراءه حكمةٌ تُهوّن مشقّته، وتسيّغ مرارته، وتحقّق به خيراً مخبوءً قد لا يراه النظر الإنسانى القصير...

﴿**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾: وإذنْ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الحياة وعلى التكاليف وعلى الهدف البعيد، نافذة تَهُبّ منها ريح رخية على النفس الإنسانية عندما تحيط بها الكروب، وتشق عليها الأمور، إنّه من يدرى أنّ وراء المكروه خيراً، ووراء المحبوب شراً؟. إنّ العليم بالغايات المطلع على العواقب هو الله، خالق الوجود العليم بخفاياه. عندما تنسمّ تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة وتتفتح منافذ الرجاء، ويطمئن القلب وتعمره الثقة، ويجنح إلى الطاعة والأداء. هكذا يواجه الإسلام الفطرة لا منكراً عليها ما يطوف بها من مشاعر طبيعية ولكن مربيا لها على الطاعة مفسحاً لها في الرجاء لتبذُل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير، ولترتفع على ذاتها متطوّعة لا مُجبرَة، ولتحس العطف الإلهى الذي يعترف بضعفها ويعذره ويقدره، ويحدو لها بالتسامى والتطلع والرجاء.

وهكذا يربي الإسلام الفطرة فلا تجزع عند الصدمة الأولى، ولا تخور عند المشقة البادية، لأنّ هنالك غيباً لا تدريه، وقد يكون فيه الخير بعد الشر، واليسر بعد العسر والراحة الكبرى بعد شديد العناء، ولا تسترسل مع اللذة فقد تعقبها الحسرة، ويكمن فيها الشر، وتؤدى بصاحبها إلى الدمار. وهذا التوجيه تلطف من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين - وإن كان سبحانه غنيا عن البيان والتعليل ، لأنّه يأمر فيطاع.

ولكنّ في بيان الحكمة تخفيفاً من مشقة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقى الشريعة معلّلة مُدلّلة!. فأشار إلى أنّ حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئاً وفيه نفعه، وقد يحب شيئاً وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات. والمقصود من قوله: والله يعلم وأنتم لا تعلمون تعليم المسلمين تَلَقّى أمر الله تعالى باعتقاد أنّه الصلاح والخير، وأنّ ما لم تتبيّن لنا صفته من الأفعال المكلف بها نوقن بأنّ فيها صفة مناسبة لحكم الشرع فيها فنطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندركها، لنفرع عليها ونقيس، ويدخل تحت مسائل مسالك العلة؛ لأنّ الله تعالى لا يجرى أمره ونهيه إلاّ على وفق علمه... والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

التوجيه الرابع: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾**: في هذا التوجيه جوابُ سؤال مَنْ سأل الرسول عن حكم القتال في الشهر الحرام: هل يكون فيه قتال؟!. والجواب: أنّ القتال في الشهر الحرام كبيرة ولكن ما فعله المشركون من صد المسلمين عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام هو المبرّر للقتال، ذلك أنّ إخراج المسلمين من ديارهم، وصدهم عن المسجد الحرام، وفتنتهم عن دينهم، أكبر من القتل، ولقد فعل المشركون ذلك كله، فقتالهم إذن في الشهر الحرام أقل من عدوانهم على المسلمين، ومع هذا فهم مصرون على قتالكم وعلى إيذائكم وعلى فتنتكم مهما استطاعوا إلى ذلك من سبيل...

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾: وإذن فهو الإصرار على الحرب وعلى الإيذاء وعلى الفتنة حتى يزلزلوا المسلمين عن دينهم

ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً. وإذنْ فالمسلمون لا ينبغى لهم أن يحجموا عن رد العدوان احتفاظاً بحرمة الشهر الحرام التي لا يحترمها أعداؤهم المعتدون. ولما كان المشركون حريصين على ارتداد المسلمين حذرهم منه وبين حكم المرتد. . . **﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**: والردة هنا الرجوع من الإسلام إلى الكفر راضيا مختاراً، وحكمها في الدنيا ما يترتب عليها من آثار من معاملة المرتد معاملة الكافرين غير المعاهدين، وأولها قتله بعد استتابته فإن تاب ردت إليه حقوقه واعتبر مسلماً، فإن لم يتب قتل كفراً وحكم له بالخلود في النار. وهذا التوجيه هو التوجيه الفقهى، فالمرتد من المسلمين لا يترك على ردته بحال من الأحوال، وهو ظاهر النص هنا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون!. فليس للمرتد إلاّ التوبة أو الموت قصاصاً. وقد استثنى من هذا الحكم الزنديقُ إذا ظهر عليه قبل أن يتوب فإنّه يُقتَل ولا يستتاب. والزنديق من يظهر الإسلام ويخفى الكفر.

وحكمة تشريع قتل المرتد مع أنّ الكافر بالأصالة لا يقتل: أنّ الإرتداد خروج فرد أو جماعة من الجامعة الإسلامية، فهو بخروجه من الإسلام بعد الدخول فيه يُنادى على أنّه لما خالط هذا الدين وجده غير صالح، ووجد ما كان عليه قبل ذلك أصلح، فهذا تعريض بالدين واستخفاف به، وفيه أيضا تمهيد طريق لمن يريد أن ينسل من هذا الدين، وذلك يفضى إلى انحلال الجامعة الإسلامية. فلو لم يُجعل لذلك زاجرٌ ما انزجر الناس، ولا نجد شيئاً زاجراً مثل توقع الموت، فلذلك جُعل الموت هو العقوبة للمرتد، حتى لا يدخل أحد في الإسلام إلاّ على بصيرة، وحتى لا يخرج منه أحد بعد الدخول فيه. وليس هذا من الإكراه في الدين المنفي بقوله تعالى: «لا إكراه في الدين»، لأنّ الإكراه في الدين هو إكراه الناس على الخروج من أديانهم والدخول في الإسلام، على احتمال أنّ «في الدين» معناة: على الدين، وأمّا هذا فهو من الإكراه على البقاء في الإسلام، ولقد نزه الله سبحانه وتعالى أصحاب رسوله ﷺ من الإرتداد تنزيهاً قاطعاً فلم يرتد من الصحابة الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله. . . **﴿إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾**.

التوجيه الخامس: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾: في هذا التوجيه إجابة سؤال السائلين الرسولَ ﷺ عن الخمر والميسر، والجواب هو: إنّ في شرب الخمر ولعب الميسر إثماً كبيراً مع ما فيهما من منافع يظنها الناس منافع، وذلك أن شيوع شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدبهم وتاريخهم، فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم، وكانوا يشترون الخمر بأثمان غالية، ويعدون المماكسة في ثمنها عيباً!. والإثم الذي في الخمر نشأ عما يترتب على شربها تارة من الإفراط فيه والعربدة من تشاجر يجر إلى البغضاء، وفيها ذهاب العقل والتعرض للسخرية، وفيها ذهاب المال في شربها وفي الإنفاق على الندامى حتى كانوا ربما رهنوا ثيابهم عند الخمارين.

وقد حرّمها الحنفيّون من العرب الذين بقوا على الفطرة السليمة وعلى دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فعدوا منهم كثيرين بعضهم مات قبل الإسلام وبعضهم أسلم، منهم أبوبكر الصديق وعثمان بن عفان وعباس بن مرداس، وسميت الخمر إثما لضرها وفسادها للعقل والبدن والمال، قال شاعرهم:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

وكذلك سموا القمار إثماً لأنّه يُهلك مستعملَه ويُذهب ماله، فالخمر والميسر قرينان متمكنان من نفوس العرب، فكثيراً ما يأتون الميسر وقت الشراب إذا أعوزهم اللحم للشواء عند شرب الخمر، وهو كثير في أشعارهم كما ذُكر في كتب الأدب والتاريخ من أيام العرب، فلأجل هذا قرن في هذه الآية ذكرُ الخمر بذكْرِ الميسر، ولأجله اقترنا في سؤال السائلين.

ومضار الميسر كمضار الخمر في إفساد النفس والمال. ومنافعهما من جهة ما كانوا يعتبرونها منافع، فإنّ الخمر قد اشتهر بينهم نفعها من الطرب واللهو، وكانت مصدر رزق لكثير من قبائل العرب. والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء، ومن الغريب أنّ هذه التسمية موجودة يستعملها من يدعى الإسلام في كثير من بلدان المسلمين يسمونها (اليانصيب)، وهى أوراق تشترى بثمن معين ولها رقم معين يدفعها في مكان معين لتظهر بعد ذلك في وقت معين رابحة أو خاسرة، وهو نوع من أنواع الميسر. ويدخل في هذا كل أنواع المقامرة والمراهنة، وما يقال عنه:

حق وباطل، وهو معروف يستعمله جهلاء المسلمين تقليداً لأهل الأديان الباطلة الذين أصبحت حياتهم كلها خمراً وميسراً ولعباً ولهواً، ومجوناً وعربدةً وفسقاً، حمى الله المسلمين من هذا الوباء بما أنزله في كتابه المبين.

وفى هذه الآية تمهيد لتحريم الخمر والميسر شرعاً بعدما بيّن مضرتهما طبعاً وقد تدرج الإسلام في حكم الخمر والميسر، فجاء بخطوات ثلاث: الخطوة الأولى استعرض ما فيهما من مضرة موصوفة يستدل العاقل من خلالها بتحريمها. ثم جاءت الخطوة الثانية بتحريم الصلاة على السكارى شرعاً بآية: «يا أيّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون»، والصلاة تقع في خمس أوقات معظمها متقارب لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة، وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، بعد تضييق الفرص الشعورية بما قدم أن الإثم أكبر من النفع، حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر والميسر: «يا أيّها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»، ولما كان الخمر والميسر فيهما إثم كبير يزيد على ما فيهما من منافع كانت تعود أكثرها على المحتاجين من المساكين واليتامى جاء سؤالين آخرين كانا داخلين في منفعة الخمر والميسر. . .

﴿**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**﴾: السؤال الأول وجوابه؛ لإظهار ما يدفع توقعهم تعطيل نفع المحاويج، فالمرء ليس مطالباً بارتكاب المآثم لينفق على المحاويج، وإنّما ينفق عليهم مما استفضله من ماله، وهذا أمر بإنفاق لا يشق عليهم وهذا أفضل الإنفاق، وفيه حكمة بالغة، وأصل اقتصادى عمرانى جاء به الكتاب الحكيم، وأخبر وأمر به الرسول الكريم: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول!. فإنّ البداءة بمن يعول ضرب من الإنفاق؛ لأنّه إن تركهم في خصاصة احتاجوا إلى الأخذ من أموال الفقراء، فمن هذا حديث: «إنّك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدَعَهم عالة يتكففون الناس»، فتبين أنّ المنفق بإنفاقه على من ينفق عليه يخفف عن الفقراء بتقليل عدد الداخلين فيهم، وفي هذا حديث: «وإنّك لا تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلاّ أُجرت عليها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك»!. وقوله: ﴿**لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة**﴾ غاية هذا

البيان وحكمته، فالمعنى ليحصل لكم علم في شئون الدنيا والآخرة، فالتفكير في الدنيا وحدها لا يعطى العقل البشرى ولا القلب الإنسانى صورة كاملة عن الحياة وتكاليفها وواجباتها. فالدنيا شطر الحياة لا كلها، وبناء السلوك والتفكير على حساب الشطر دون الكل لا ينتهى إلى سلوك صحيح ولا إلى تفكير سليم.

ومسألة الإنفاق بالذات في حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة، فما ينقص من مال امرىء بالإنفاق يُردّ عليه طهارة لقلبه وزكاة لمشاعره، كما يُردّ عليه صلاحاً للمجتمع الذي يعيش فيه ووئاماً وسلاماً واتزاناً، ولكن هذا كله قد لا يكون بارزاً واضحاً لكل فرد، وحينئذ يكون الشعور بالآخرة وما فيها من جزاء تعويضاً طبيعياً عما نقص من المال في الحياة الدنيا ترضى عنه النفس وتطمئن له وتستريح. . .

﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إنّ الله عزيز حكيم﴾: السؤال الثانى وجوابه، فعطف تبيين معاملة اليتامى على تبيين الإنفاق لتعلق الأمرين بتبيين الخمر والميسر؛ فإنّهما كانا باباً واسعاً للإنفاق على المحاويج بما فيهما من إظهار الفخر والمغالبة على الغير، فجاء هذا البيان يردهم إلى كيفية الإنفاق وكيفية معاملة اليتامى، فيردهم إلى الإعتدال في الأمر، وإلى تحرى خير اليتامى في جميع الأوضاع. فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم أو ابتزاز أموالهم، والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم، فاليتامى إخوان للأوصياء وليس هم تحتهم أرقاء، والله يعلم المفسد من المصلح، وطبيعة الناس كما تقدم تنحصر في الخير أو الشر. والله لا يريد العنت بالناس فيما يكلفهم به، فلو شاء لكلفهم العنت والمشقة والتضييق، ولكنه عزيز حكيم يفعل ما يشاء ويُحكم ما يريد، والإنسان في هذا مكلف: مأمور بعمل الخير، ومنهى عن عمل الشر، وهنا يرجع بنا الكلام إلى ما سبق من تقسيم الناس إزاء هذه الأحكام!.

7 ـ تفصيل الكلام فيما يتعلق بالنكاح من الأحكام

النص

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ
وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ
خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿219﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ
قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ
حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿220﴾ نِسَآؤُكُمْ
حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿221﴾
وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿222﴾
لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿223﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿224﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟

ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿225﴾ * وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ
إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ
إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ
عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿226﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا
وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿227﴾
فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ
فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا
حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿228﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿229﴾
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ

أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن
كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (230) * وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا
فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ
أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم
بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (231)
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (232)
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ
وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوٓاْ
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (233) * لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ

مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ
عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (234) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ
وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (235)
حَافِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَانِتِينَ (236) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ
فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (237)
وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِم
مَّتَاعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (238) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (239) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (240)

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ**﴾: النكاح الزواج بين الرجل والمرأة. والمشركات جمع مشركة، وهى المرأة التي أشركت مع الله في العبادة، والمراد بها هنا المرأة العربية قبل أن تسلم، دليل هذا قوله: حتى يؤمنّ. والمقصود بالإيمان هنا الدخول في الإسلام... ﴿**ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم**﴾: الأمة المرأة المملوكة ملك اليمين، وجمعُها إماء... ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**﴾: نكح تزوّج، وأنكح زوّج غيره. والعبد المملوك، وجمعه عبيد وعباد. وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم... ﴿**أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه**﴾: اسم الإشارة يعود على المشركين والمشركات، يدعون إلى العمل بما يُدْخِلُ النارَ، والله يدعو إلى العمل بما يُدخل الجنة، وبما يمحو به الخطايا، بإعلامه المبين لعمل الخير وعمل الشر... ﴿**ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون**﴾: يوضّح الحكم النازل في القرآن وضوحا كاملا للناس ليتذكروا ويتعظوا...

﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾: المحيض اسم للدم النازل من رحم المرأة في أوقات منتظمة، ويسمى عرفاً بالعادة الشهرية، مأخوذ من قولهم: حاض الوادى إذا فاض ماؤه بغزارة، ومنه الحوض. والأذى الضر الذي ليس بفاحش، وهو دمٌ قذر كريه الرائحة تشمئز منه النفوس، ويعترى المرأة فتكون في حالة مرضية... ﴿**فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾: الاعتزال التباعد، والمقصود بالاعتزال هنا ترك مجامعة المرأة وقت محيضها. والنساء اسم جمع للمرأة لا واحد له من لفظه، والمراد به هنا الأزواج... ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾: القِربان بكسر القاف مصدر قرِب بكسر الراء، ومضارعه يقرَب بفتح الراء، ومعناه الجماع. حتى يطهرن: غاية الاعتزال وعدم القِربان. والطهر مصدر طهُر، وهو النقاء من الوسخ والقذارة... ﴿**فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾: التطهر هنا الغسل الشرعى بعد انقطاع دم الحيض. والمراد بالإتيان هنا الوطء، وهو ما وضحه قوله... ﴿**من حيث أمركم الله إنّ الله يحب التوابين ويحب

المتطهرين﴾. **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾**: الحرث هنا مراد به النسل، وعبر العرب بالحرث والزرع قاصدين النكاح والنسل، فهو حقيقة عرفية. ومعنى أنّى شئتم: متى شئتم إذا تطهّرن... **﴿وقدّموا لأنفسكم﴾**: تحروا ما يفيدكم... **﴿واتقوا الله﴾**: تقوى الله اجتناب ما نهى عنه، وفعل ما أمر به... **﴿واعلموا أنّكم ملاقوه﴾**: ملاقاة الله للجزاء يوم القيامة... **﴿وبشر المؤمنين﴾**: بشارة المؤمنين بما يسرهم حيث علموا لقاء الله فخافوه فقدموا لأنفسهم العمل الصالح...

﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾: العرضة اسم لما يجعل عارضاً لشيء آخر، ويصير حاجزاً عنه، كما يقال: فلان عرضة للخير. والأيمان جمع يمين، وهو الحلف، سُمّى الحلف يميناً أخذاً من اليمين التي هي إحدى اليدين، وهى اليد التي يفعل بها الإنسان معظم أفعاله، وهى مشتقة من اليمن، وهو البركة؛ لأنّ اليد اليمنى يتيسر بها الفعل أحسن من اليد الأخرى، وسمى الحلف يميناً لأنّ العرب كان من عادتهم إذا تحالفوا أن يمسك المتحالفان أحدهما باليد اليمنى من الآخر. والبر والتقوى والإصلاح بين الناس معناها واضح... **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾**: المؤاخذة مفاعلة من الأخذ بمعنى العد والمحاسبة، يقال: أخذه بكذا - عده عليه - ليعاتبه أو يعاقبه، والمؤاخذة باليمين هي الإلزام بالوفاء بها. واللغو مصدر لغا إذا قال كلاماً خاطئاً، ويطلق اللغو على الكلام الساقط الذي لا يعتد به...

﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾: الإيلاء الحلف، يقال: آلى يولى إيلاء، والإسم الألوّة والأليّة، مشتق من الألو بمعنى التقصير، والإيلاء في الشرع حلف الزوج على ترك زوجته في المعاشرة فيهجرها. والتربص الانتظار والتوقف... **﴿فإن فاءوا فإنّ الله غفور رحيم﴾**: فإن رجعوا عن الترك إلى المعاشرة الزوجية فمغفور لهم ما حصل منهم... **﴿وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم﴾**: وعزم الطلاق التصميم عليه بتنفيذه على الزوج إن لم يرجع إلى معاشرة زوجته وتمّت المدّة المحدودة... **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾**: المطلقات جمع مطلقة، وهى التي حل زوجها رباط عقد نكاحها. يتربصن بأنفسهن يتلبثن وينتظرن. وقروء جمع قرء، أُطلق على الطهر والحيض فهو من المشترك، والقول بالطهر أخذ به مالك وفقهاء المدينة...

﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾: لا يجوز للمطلقة ادعاء انتفاء الحيض أو الحمل، فالكتمان هنا إخفاء ما في رحمها من حيض أو حمل. والرحم مقر الجنين ووعاؤه، ومحله بطن المرأة... ﴿**وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً**﴾: البعولة جمع بعل، وهو اسم زوج المرأة، ويطلق على من له سيادة مطلقة، وسمى به معبود قوم إلياس عليه السلام، في قوله: «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين». وأطلق على الزوج لقوة الرجولة فيه، وسمى الشجر الذي لا يسقى بعلاً لقوته واستغنائه عن السقى. ومعنى أحق بردهن: للزوج أن يرد المطلقة طلاقاً رجعياً وليس للزوجة أن تمانع فيه، مع شرط إرادة الإصلاح دون إضرار ولا إفساد...

﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾: لهن من الحق مثل ما عليهن من الواجب، وهو ما عرف بين الناس بالمعروف عند العقلاء... ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾: للرجل مزية على المرأة تقتضيها طبيعته ومسؤوليته الشرعية على الأسرة... ﴿**والله عزيز حكيم**﴾: العزيز القوى الذي لا يعجزه أحد والقادر الذي لا يعجزه شيء، والحكيم الذي يضع الأمور في نصابها لعلمه بها...

﴿**الطلاق مرتان**﴾: تحديد لعدد الطلاق بمرتين تحديد شرعى؛ لأنّ العرب لا تعرف تحديد الطلاق... ﴿**فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾: الإمساك في أصل اللغة قبض اليد على شيء مخافة أن يسقط أو ينفلت، أطلق هنا على بقاء الزوجة في عصمة الزوج. والتسريح هنا معناه التطليق... ﴿**ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا**﴾: معنى لا يحل لا يجوز ولا يسمح به، وهو استعمال عربى قديم. والأخذ هنا رد ما أعطاه الزوج لزوجته من المهر. وشيئا أقل القليل... ﴿**إلاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله**﴾: استثناء من منع أخذ الزوج ما أعطى، والخوف توقع حصول ما تكرهه النفس. وإقامة حدود الله مراعاة حق الزوجية بما يقومها ويصلحها حتى تبقى وتدوم، فإن خيف على العشرة الزوجيّة من الضياع فلا بأس بإرجاع ما أخذت الزوجة من الزوج...

﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها**﴾: تلك إشارة إلى الأحكام المتقدمة. حدود جمع حد في الأصل اللغوى كل فاصل بين شيئين، والحد الشرعى أوامر الله ونواهيه... ﴿**ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾: تعدّى الحدود مجاوزتها وانتهاك حرمتها، والمراد هنا تعدى الحد الشرعى بدليل إضافتها إلى

الله، فالإشارة إلى المتعدى. والظلم التعدى على حق الغير ووضع الشىء في غير موضعه، مشتق من الظلام الذي يخفى الأشياء... **﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾**: فإن طلق الزوج زوجته مرة ثالثة فلا يجوز له ردها إلى أن تتزوج برجل آخر... **﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله﴾**: فإن طلق الزوج الثانى زوجته التي بانت من الأول فلا بأس بزواجها من زوجها الأول مع ظن دوام العشرة وإقامة حدود الله من الزوج والزوجة...

﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾: الإشارة إلى ما ذكر من الأحكام. وتبيينها تفصيلها وتوضيحها. لقوم يعلمون: لأناس يعلمون حكمة الله في هذه الحدود... **﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾**: بلوغ الأجل مشارفة الوصول إليه. والأجل يطلق على المدة التي يمهل إليها الشخص في حدوث حادث معين، ومنه قولهم: ضَرَب له أجلا... **﴿ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا﴾**: الضرار مصدر ضارّ، وأصل هذه الصيغة أن تدل على وقوع الفعل من الجانبين، مثل خاصم، وقد تستعمل في الدلالة على قوة الفعل مثل: عافاك الله...

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزؤا﴾: آيات الله ما في القرآن من الأحكام المتعلقة بحقوق النساء. والهزُؤُ مصدر هزأ به إذا سخر ولعب، ومعناه هنا الاستخفاف بالأحكام وعدم الرعاية... **﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾**: النعمة هنا الإنعام بالإسلام... **﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾**: إنزال القرآن الذي فيه العلم بالشريعة وكيفية العمل بها... **﴿يعظكم به﴾**: الوعظ النصح والتذكير بالترغيب والترهيب... **﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾**: العضل المنع والحبس وعدم الإنتقال، وشاع هذا التعبير عند العرب في منع الولى مولاته من النكاح، والمراد به هنا العضل الشرعى، وهو منع الولى موليته من الزواج بدون وجه صلاح. والمراضاة رغبة كل واحد في صاحبه... **﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾**: أزكى أوفر للعرض. وأطهر أنزه، فالزكاة زيادة في الألفة والمحبة، والطهارة نزاهة ونقاوة من الأحقاد والإحن...

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾: الوالدات هنا بمعنى الأمهات

المطلقات. والإرضاع إعطاء الصبى ثدى المرأة يمتص منه اللبن. وحولين: عامان، وسمى العام حولاً لتحول الشمس فيه من منزل إلى منزل من الربيع والصيف والخريف والشتاء في الأقاليم المعتدلة... **﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾**: المولود له الأب. والرزق النفقة. والكسوة اللباس. والمعروف ما تعارفه أمثالُهم... **﴿لا تكلف نفس إلاّ وسعها﴾**: التكليف تفعيل بمعنى جعله ذا كلفة، والكلفة المشقة، ويطلق التكليف على أمر بفعل فيه كلفة. والوسع الطاقة، وأصله من وسع الإناءُ الشيء إذا حواه ولم يبق منه شيء... **﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾**: المضارة جلب المشقة والشدة والعنت لمن يريد به السوء، والمعنى هنا: لا تساء الأم بسبب ولدها، ولا الأب بولده، وإنّما يُراعى حقُّ كلٍّ من الأب والأم والولد... **﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾**: على ولى الرضيع مثل ما على الأب من النفقة والكسوة عند فقد الأب... **﴿فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾**: ضمير المثنى عائد إلى الأب والأم. والفصام الفطام من الإرضاع؛ لأنّه فصل عن ثدى مرضعته. والتراضى طيبة النفس دون قهر أو اضطرار. والتشاور إبداء الرأى بين شخصين لتظهر لهما فائدته. والجناح الحرج، فلا جناح: فلا حرج ولا إثم...

﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾: الاسترضاع طلب إرضاع الطفل غير أمه. والتسليم هنا إعطاء المرضع أجراً حسب المتعارف... **﴿والذين يتوفون منكم﴾**: يتوفون من الأفعال التي التزمت العرب فيها البناء للمجهول، مثل: عُنى واضطُرّ، بسبب معرفة الفاعل، أو جهله... **﴿ويذرون أزواجاً﴾**: يتركون بعدهم زوجات... **﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾**: مثل التربص الواجب على المطلقة، غير أنّ المطلقة عدتها ثلاثة قروء، والمتوفى عنها عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام، وهى مدة الحداد... **﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم﴾**: التعريض يطلق على ضرب من ضروب المعانى المستفادة من الكلام. والخطبة بالكسر طلب الزواج. أو أكننتم في أنفسكم: الإكنان الإخفاء... **﴿ولكن لا تواعدوهن سراً إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً﴾**: السر هنا ما قابل الجهر، والمواعدة السرية كتمانها، وهى التصريح للمرأة المعتدة بالزواج في السر، إلاّ أن تقولوا لمن تريدون زواجها قولا معروفاً غير مصرح فيه بالزواج...

﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله**﴾: العزم التصميم. وعقدة النكاح عقد الزواج من المرأة. والكتاب المكتوب على المرأة وهو التربص أربعة أشهر وعشرا، وهو الأجل المحدد للعدة... ﴿**لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة**﴾: لا إثم في الطلاق قبل الدخول، ودون فرض المهر... ﴿**ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين**﴾: تمتيع المرأة بما يعطى لها مقابل المهر أو زائداً عنه عندما تطلق. والموسع من كان ذا سعة في رزقه. والمقتر من كان ضيق الرزق. والقدْر الحال التي يقدر بها المرء...

﴿**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم**﴾: المطلقة قبل الدخول ولها مهر مسمى فلها نصفه... ﴿**إلاّ أن يعفُون**﴾: فإن عفت المطلقة بأن تنازلت عنه فلها ذلك... ﴿**أو يعفُوَ الذي بيده عقدة النكاح**﴾: الذي بيده عقد النكاح ولى المرأة المطلقة... ﴿**وأن تعفُوا أقرب للتقوى**﴾. ﴿**ولا تنسوا الفضل بينكم إنّ الله بما تعملون بصير**﴾: العفو هنا السماحة وحسن المعاملة...

﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**﴾: المحافظة على الصلوات إقامتها في أوقاتها المحددة لها شرعاً بما يلزمها من شروط وأركان وآداب، وهى الصلوات الخمس. والصلاة الوسطى هي إحدى الصلوات خصت بوصف الوسطى... ﴿**وقوموا لله قانتين**﴾: القيام الوقوف. والقنوت الخضوع والخشوع، والطاعة، والسكوت، والدعاء... ﴿**فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً**﴾: الخوف توقع المكروه في المستقبل، والمراد به هنا خوف العدو، ويلحق به خوف السبع والإنسان العادى. ورجالاً جمع راجِل بمعنى الماشى على رجليه. وركباناً جمع راكب، وهو الراكب على الدابة... ﴿**فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾: الأمن ضد الخوف، والمراد به الأمن من العدو، والمراد بالتعليم معرفة أحكام الصلاة التي لم تكن معروفة عند المشركين...

﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم**﴾: الوصية هنا وصية الزوج لزوجته. والمتاع: السكنى، ومدتها حول

كامل، فإن خرجت ولم تقبل الوصية فلها ذلك دون حرج. . . ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**﴾: معنى الكلمات واضح.

مبحث الإعراب

﴿**ولا**﴾ الواو للعطف، ولا للنهي. ﴿**تنكحوا**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وواو الجماعة فاعل. ﴿**المشركات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**حتى**﴾ حرف غاية وجر. ﴿**يؤمنّ**﴾ فعل مضارع مبنيّ على السكون لاتصاله بنون النسوة في محل نصب بأن مضمرة بعد حتى، ونون النسوة مبنيّ على الفتح في محل رفع فاعل، وإن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى متعلق بقوله: ولا تنكحوا، والتقدير: ولا تنكحوا المشركات إلى حين إيمانهن. ﴿**ولأمة**﴾ الواو للعطف، واللام للتوكيد مشابهة للام القسم، وأمة مبتدأ. ﴿**مؤمنة**﴾ نعت لأمة. ﴿**خير**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**من مشركة**﴾ متعلق بخير. ﴿**ولو أعجبتكم**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل بالفعل في محل نصب مفعول. والفاعل هي ضمير يعود على الأمة، ولو وصليه للتنبيه على أقصى الأحوال التي هي مظنة تفضيل المشركة.

﴿**ولا تنكحوا**﴾ معطوف على قوله: ولاتنكحوا المشركات، وهو مجزوم مثله. ﴿**المشركين حتى يؤمنوا**﴾ إعرابه مثل إعراب المشركات حتى يؤمنّ. ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**﴾ مثل ولأمة مؤمنة. ﴿**أولئك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يدعون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**إلى النار**﴾ متعلق بيدعون. ﴿**والله يدعو إلى الجنة**﴾ معطوف على ما قبله، وهو مثله في الإعراب. ﴿**والمغفرة**﴾ معطوف على الجنة. ﴿**بإذنه**﴾ متعلق بيدعو. ﴿**ويبين**﴾ معطوف على يدعو، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**آياته**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**للناس**﴾ متعلق بيبين. ﴿**لعلهم**﴾ لعل واسمها. ﴿**يتذكرون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل، وجملة لعلهم يتذكرون تعليلية.

﴿**ويسألونك**﴾ فعل وفاعل ومفعول عطف على جملة ولا تنكحوا المشركات. ﴿**عن المحيض**﴾ متعلق بيسألونك. ﴿**قل**﴾ أمر. ﴿**هو**﴾ في محل رفع مبتدأ.

﴿**أذى**﴾ خبره مرفوع بضمة مقدرة على الألف المحذوفة للالتقاء الساكنين، وجملة هو أذى في محل نصب مقول القول. ﴿**فاعتزلوا**﴾ فعل أمر للجماعة دخل عليه حرف التفريع. ﴿**النساء**﴾ مفعول به. ﴿**في المحيض**﴾ متعلق باعتزلوا. ﴿**ولا تقربوهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف النهى، وهو معطوف على اعتزلوا. ﴿**حتى يطهرن**﴾ الفعل مبني على السكون في محل نصب بأن مضمرة بعد حتى، وهو مثل حتى يؤمن في الإعراب. ﴿**فإذا تطهّرن**﴾ جملة شرطية متفرعة عن قوله: حتى يطهرن. ﴿**فأتوهن**﴾ جواب الشرط لوجود فاء الربط. ﴿**من حيث**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**أمركم اللهُ**﴾ فعل ماض، والضمير المتصل به مفعول والله فاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى حيث، فحيث تبنى دائما على الضم، ولا يكون ما بعدها إلاّ جملة مضافة إليها.

﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**يحب**﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل رفع خبر إنّ. ﴿**التوابين**﴾ مفعول به. ﴿**ويحب المتطهّرين**﴾ معطوف على يحب التوابين، والجملة تعليلية. ﴿**نساؤكم**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**حرث**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**لكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لحرث. ﴿**فأتوا**﴾ فعل أمر للجماعة دخل عليه حرف التعقيب. ﴿**حرثكم**﴾ مفعول به. ﴿**أنّى**﴾ ظرف مبهم يصلح للمكان والزمان، ومعناه هنا متى، وهو مبني على السكون في محل نصب متعلق بأتوا. ﴿**شئتم**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل جر مضاف إلى أنّى. ﴿**وقدموا**﴾ معطوف على فأتوا. ﴿**لأنفسكم**﴾ متعلق بقدموا.

﴿**واتقوا الله**﴾ عطف على قدموا من عطف العام على الخاص فصارت تذييلا لما ﴿**قبلها**﴾. واعلموا عطف على اتقوا. ﴿**أنّكم ملاقوه**﴾ أنّ واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى اعلموا. ﴿**وبشّر المؤمنين**﴾ معطوفة على جملة واعلموا أنّكم ملاقوه. ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة**﴾ فعل وفاعل ومفعول أول وثان، وهو معطوف على الأوامر السابقة عطف النهى على ما يناسبه من الأمر. ﴿**لأيمانكم**﴾ متعلق بعرضة، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**أن تبروا**﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بيان لأيمانكم. ﴿**وتتقوا وتصلحوا**﴾ معطوفان على أن تبروا. ﴿**بين**﴾ متعلق بتصلحوا. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى بين. ﴿**والله سميع عليم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييل.

﴿لا يؤاخذكم﴾ فعل مضارع دخلت عليه لا النافية، والضمير المتصل بالفعل مفعول. **﴿الله﴾** فاعل. **﴿باللغو﴾** متعلق بيؤاخذكم. **﴿في أيمانكم﴾** متعلق بمحذوف نعت للّغو. **﴿ولكن يؤاخذكم﴾** معطوف على ما قبله دخل عليه حرف الاستدراك. **﴿بما﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿كسبت قلوبكم﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿والله غفور حليم﴾** الجملة من المبتدإ والخبر تذييل. **﴿للذين﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿يؤلون﴾** فعل وفاعل صلة الذين. **﴿من نسائهم﴾** متعلق بيؤلون، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿تربصُ﴾** مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة. **﴿أربعة﴾** مضاف إلى تربص. **﴿أشهر﴾** مضاف إلى أربعة. **﴿فإن فاءوا﴾** جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. **﴿فإنّ الله غفور رحيم﴾** الجملة من إنّ واسمها وخبرها دليل جواب الشرط، لوجود فاء الربط فيها.

﴿وإن عزموا﴾ معطوفة على قوله: فإن فاءوا. **﴿الطلاق﴾** مفعول به. **﴿فإنّ الله سميع عليم﴾** مثل فإنّ الله غفور رحيم. **﴿والمطلقات﴾** مبتدأ مرفوع بالضمة. **﴿يتربصن﴾** فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، وهي فاعل. **﴿بأنفسهن﴾** متعلق بيتربصن، والجملة خبر المبتدإ، والجملة من المبتدإ وخبره معطوفة على ما قبلها. **﴿ثلاثة﴾** منصوب نيابة عن الظرف. **﴿قروء﴾** مضاف إلى ثلاثة. **﴿ولا يحل﴾** فعل مضارع منفي بلا معطوف على يتربصن. **﴿لهن﴾** متعلق بالفعل. **﴿أن يكتمن﴾** مبني على السكون في محل نصب، ونون النسوة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل يحل. **﴿ما﴾** في محل نصب مفعول به **﴿خلق الله﴾** فعل وفاعل صلة ما. **﴿في أرحامهن﴾** متعلق بخلق، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿إن كنّ﴾** إن حرف شرط جازم، كنّ كان واسمها. **﴿يؤمن﴾** فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر كان، وجملة كنّ يؤمن فعل الشرط وجوابه محذوف يدل عليه قوله: ولا يحل لهن. **﴿بالله﴾** متعلق بيؤمنّ. **﴿واليوم﴾** معطوف على الله. **﴿الآخر﴾** نعت لليوم. **﴿وبعولتُهنّ﴾** مبتدأ، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿أحقُّ﴾** خبر المبتدإ. **﴿بردهن﴾** متعلق بأحق. **﴿في ذلك﴾** متعلق بالشرط بعده. **﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾** فعل وفاعل ومفعول دخل عليه حرف الشرط، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله.

﴿ولهن﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم، والواو حرف عطف. **﴿مثلُ﴾** مبتدأ

مؤخر. ﴿**الذي**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**عليهن**﴾ متعلق بمحذوف صلة الذى. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بمحذوف حال من مثل الذى. ﴿**وللرجال**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عليهن**﴾ متعلق بالخبر كذلك. ﴿**درجة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**والله عزيز حكيم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييل. ﴿**الطلاقُ**﴾ مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**مرتان**﴾ خبره مرفوع بالألف. ﴿**فإمساك**﴾ الفاء للتفريع، وإمساك خبر لمبتدإ محذوف، والتقدير: فالأمر إمساك. ﴿**بمعروف**﴾ متعلق بإمساك. ﴿**أو تسريح**﴾ معطوف على إمساك. ﴿**بإحسان**﴾ متعلق بتسريح. ﴿**ولا يحل لكم**﴾ الواو للعطف، ولا للنفى، ولكم متعلق بيحل. ﴿**أن تأخذوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع فاعل يحل. ﴿**مما**﴾ متعلق بتأخذوا. ﴿**آتيتموهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة ما. ﴿**شيئا**﴾ مفعول ثان لآتيتموهن. ﴿**إلاّ أن يخافا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر، والتقدير: ولا يحل أخذ شيء من حق الزوجة في أي حال من الأحوال إلاّ في حالة خوف عدم إقامة حدود الله. ﴿**أن لا يقيما**﴾ أن حرف مصدر ونصب، ولا حرف نفى، والفعل منصوب بحذف النون، وألف المثنى فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول يخاف. ﴿**حدودَ**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حدود.

﴿**فإن خفتم**﴾ الفاء للتفريع، وإن حرف شرط جازم، وخفتم فعل وفاعل فعل الشرط. ﴿**ألاّ يُقيما**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول خفتم. ﴿**حدودَ**﴾ مفعول به. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حدود. ﴿**فلا جناح**﴾ مبني على الفتح في محل نصب اسم لا النافية للجنس. ﴿**عليهما**﴾ متعلق بمحذوف خبر لا، والجملة في محل جزم جواب الشرط لوجود فاء الربط. ﴿**فيما**﴾ متعلق بخبر لا. ﴿**افتدت**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الزوجة المطلقة، وجملة افتدت صلة ما. ﴿**به**﴾ متعلق بافتدت. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**حدودُ**﴾ خبره. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى حدود. ﴿**فلا تعتدوها**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه لا الناهية فجُزم بحذف النون، والفاء للتعقيب. ﴿**ومن يتعد حدود الله**﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف الألف. ﴿**فأولئك**﴾ مبتدأ. ﴿**هم**﴾ ضمير فصل. ﴿**الظالمون**﴾ خبر المبتدإ مرفوع بالواو، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط لوجود فاء الربط.

﴿**فإن طلّقها**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**فلا تحل**﴾ الفاء لربط

الجواب، ولا للنفى، وفاعل تحل ضمير الزوجة المطلقة مرتين. ﴿**له**﴾ متعلق بتحل. ﴿**من بعدُ**﴾ كذلك، وبنى بعد على الضم لحذف المضاف إليه ونية معناه. ﴿**حتى تنكح**﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحتى التي بمعنى إلى متعلق بتحل، والتقدير: فإن طلق الزوج زوجته في المرة الثالثة فلا تحل له بعدها إلى نكاح زوج غيره. ﴿**زوجاً**﴾ مفعول تنكح. ﴿**غيره**﴾ نعت لزوج، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**فإن طلقها**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**فلا جناح عليهما**﴾ جواب الشرط. ﴿**أن يتراجعا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر، والتقدير: فإن طلق الزوج الثانى زوجته البائنة من الزوج الأول فلا جناح عليهما في التراجع للزوجية من جديد. ﴿**إن ظنّا أن يقيما حدود الله**﴾ جواب الجملة الشرطية محذوف يدل عليه ما قبلها، وألف «إن ظنّا، وأن يقيما» للزوجين، وحدود مفعول به، والله مضاف إليه. ﴿**وتلك حدود الله**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر اعتراضية. ﴿**يبيّنها**﴾ الجملة خبر ثان لتلك. ﴿**لقوم**﴾ متعلق بيبين. ﴿**يعلمون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل نعت لقوم.

﴿**وإذا طلقتم النساء**﴾ فعل وفاعل ومفعول فعل الشرط لإذا، وهو عطف على جملة فإن طلقها. ﴿**فبلغن أجلهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول مرتب على فعل الشرط. ﴿**فأمسكوهن**﴾ جواب الشرط. ﴿**بمعروف**﴾ متعلق بأمسكوهن. ﴿**أو سرحوهن بمعروف**﴾ معطوف على ما قبله. ﴿**ولا تمسكوهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على قوله: فأمسكوهن. ﴿**ضراراً**﴾ مفعول لأجله منصوب بالفتحة. ﴿**لتعتدوا**﴾ الفعل منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل متعلق بضرار. ﴿**ومن يفعل**﴾ جملة شرطية. ﴿**ذلك**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**فقد ظلم نفسه**﴾ جواب الشرط، وجملة ومن يفعل ذلك معطوفة على النهى.

﴿**ولا تتخذوا**﴾ معطوف على ولا تمسكوهن. ﴿**آيات**﴾ مفعول به منصوب بالكسرة. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**هزؤا**﴾ مفعول ثان لتتخذوا. ﴿**واذكروا نعمة الله**﴾ معطوف على النهى قبله. ﴿**عليكم**﴾ متعلق بنعمة. ﴿**وما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**أنزل**﴾ فاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما. ﴿**عليكم من**

الكتاب﴾ متعلق بأنزل. **﴿والحكمة﴾** معطوف على الكتاب، وجملة وما أنزل معطوف على نعمة. **﴿يعظكم﴾** الجملة في محل نصب حال. **﴿به﴾** متعلق بيعظكم. **﴿واتقوا الله﴾** معطوف على الأوامر قبله. **﴿واعلموا﴾** كذلك. **﴿أنّ الله﴾** أنّ واسمها. **﴿بكل﴾** متعلق بالخبر الاتى. **﴿شيء﴾** مضاف إلى كل. **﴿عليم﴾** خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر سد مسد مفعولى اعلموا. **﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾** تقدم إعراب مثلها قريبا، فقوله: فلا تعضلوهن جواب الشرط.

﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه أن المصدرية، فما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر متعلق بالفعل قبله، أزواجهن مفعول به. **﴿إذا تراضوا﴾** جملة شرطية جوابها محذوف يدل عليه ما قبله. **﴿بينهم بالمعروف﴾** متعلقان بتراضوا. **﴿ذلك﴾** في محل رفع مبتدأ. **﴿يوعظ به﴾** مبني للمجهول. **﴿مَنْ﴾** نائب عن الفاعل. **﴿كان﴾** صلة من. **﴿منكم﴾** متعلق بكان. **﴿يؤمن﴾** الجملة في محل نصب خبر كان. **﴿بالله﴾** متعلق بيؤمن. **﴿واليوم﴾** معطوف على الله. **﴿الآخر﴾** نعت لليوم. **﴿ذلكم﴾** مبتدأ. **﴿أزكى﴾** خبره. **﴿لكم﴾** متعلق بأزكى. **﴿وأطهر﴾** معطوف على أزكى. **﴿والله يعلم﴾** مبتدأ وخبر. **﴿وأنتم لا تعلمون﴾** معطوف على ما قبله، والجملة تذييل. **﴿والوالدات﴾** مبتدأ. **﴿يرضعن أولادهن﴾** فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل رفع خبر الوالدات، وجملة والوالدات معطوفة على جملة وإذا طلقتم النساء. **﴿حولين﴾** ظرف زمان منصوب بالياء. **﴿كاملين﴾** نعت لحولين. **﴿لمن﴾** متعلق بمحذوف خبر لمبتدإ مقدر، والتقدير: ذلك الحكم ثابت لمن. **﴿أراد﴾** فاعله ضمير يعود على مَنْ. **﴿أن يتم الرضاعة﴾** أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول أراد، والتقدير: لمن أراد إتمام الرضاعة. **﴿وعلى المولود﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿له﴾** متعلق بالمولود. **﴿رزقهن﴾** مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. **﴿وكسوتهن﴾** معطوف على رزقهن. **﴿بالمعروف﴾** متعلق بمحذوف حال من رزقهن وكسوتهن.

﴿لا تكلف﴾ فعل مضارع مبني للمجهول منفى بلا. **﴿نفس﴾** نائب الفاعل. **﴿إلاّ وسعها﴾** منصوب بدل من المفعول الثانى المقدر، والتقدير: لا يكلف الله

نفسا شيئاً إلاّ وسعَها. ﴿**لا تضارَّ**﴾ لا ناهية، والفعل مجزوم بلا، وفُتح آخره للتخلص من التقاء الساكنين الذي نشأ عن تسكين الراء الأولى، وبنى الفعل للمجهول. ﴿**والدة**﴾ نائب الفاعل. ﴿**بولدها**﴾ متعلق بتضار. ﴿**ولا مولود له**﴾ معطوف على لا تضار والدة. ﴿**بولده**﴾ متعلق بفعل مقدر، أي: ولا يضار مولود له بولده. ﴿**وعلى الوارث**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**مثل**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**ذلك**﴾ في محل جر مضاف إلى مثل. ﴿**فإن أرادا فصالا**﴾ فعل وفاعل ومفعول فعل شرط إنْ، والفاء للتفريع المترتب عن قوله: والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين. ﴿**عن تراض**﴾ متعلق بأرادا. ﴿**منهما**﴾ متعلق بمحذوف نعت لتراض. ﴿**وتشاور**﴾ معطوف على تراض. ﴿**فلا جناح عليهما**﴾ الجملة من لا واسمها وخبرها جواب الشرط لوجود فاء الربط. ﴿**وإن أردتم**﴾ جملة شرطية. ﴿**أن تسترضعوا أولادكم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول أردتم. ﴿**فلا جناح عليكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**إذا سلمتم**﴾ جملة شرطية. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**آتيتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بسلمتم.

﴿**واتقوا الله واعلموا**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**بما**﴾ متعلق بالخبر الآتى. ﴿**تعملون**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**بصير**﴾ خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه سدّ مسد مفعولى اعلموا. ﴿**والذين**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**يتوفون**﴾ فعل مضارع مبنىّ للمجهول، وواو الجماعة نائب الفاعل. ﴿**منكم**﴾ متعلق بالفعل، والجملة صلة الذين، وجملة والذين يتوفون منكم عطف قصة على قصة. ﴿**ويذرون**﴾ معطوف على يتوفون. ﴿**أزواجا**﴾ مفعول به. ﴿**يتربصن**﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر الذين. ﴿**بأنفسهن**﴾ متعلق بيتربصن. ﴿**أربعة**﴾ ظرف منصوب بالفتحة. ﴿**أشهر**﴾ مضاف إلى أربعة. ﴿**وعشرا**﴾ معطوف على أربعة. ﴿**فإذا بلغن أجلهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول فعل الشرط، والفاء للتعقيب. ﴿**فلا جناح عليكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**فيما**﴾ متعلق بما تعلق به عليكم. ﴿**فعلن**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**في أنفسهن**﴾ متعلق بفعلن. ﴿**بالمعروف**﴾ كذلك. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**بما**﴾ متعلق بالخبر الآتى. ﴿**تعملون**﴾ صلة ما. ﴿**خبير**﴾ خبر المبتدإ، والجملة تذييل.

﴿**ولا جناح عليكم فيما عرضتم**﴾ مثل إعراب سابقتها. ﴿**به من خطبة**﴾

متعلقان بعرضتم. ﴿**النساء**﴾ مضاف إلى خطبة. ﴿**أو أكننتم**﴾ معطوف على عرضتم. ﴿**في أنفسكم**﴾ متعلق بأكننتم. ﴿**علم الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**أنّكم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**ستذكرونهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة خبر أنّ، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب مفعول به. ﴿**ولكن لا تواعدوهن**﴾ الواو للعطف، ولكن للاستدراك، ولا للنهي، تواعدوهن فعل وفاعل ومفعول. ﴿**سراً**﴾ نعت لمصدر محذوف. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**أن تقولوا**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب، والتقدير: إلاّ وعداً معروفاً، وهذا الوعد هو القول المعروف. ﴿**ولا تعزموا عقدة النكاح**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه لا الناهية، والواو للعطف. ﴿**حتى يبلغ الكتابُ أجله**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه حتى. ﴿**واعلموا أنّ الله**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**يعلم**﴾ فاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر أنّ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿**في أنفسكم**﴾ متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿**فاحذروه**﴾ مفرع عن التذييل قبله. ﴿**واعلموا أنّ الله غفور حليم**﴾ تذييل بعد تذييل.

﴿**لا جناح عليكم**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**إن طلقتم النساء**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه إن الشرطية. ﴿**ما لم تمسوهن**﴾ فعل وفاعل ومفعول دخلت عليه لم النافية، وهو فعل شرط ما. ﴿**أو تفرضوا**﴾ معطوف على تمسوهن. ﴿**لهن**﴾ متعلق بتفرضوا. ﴿**فريضة**﴾ مفعول به، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله: لا جناح عليكم، وقوله: ما لم تمسوهنّ شرط لقوله: إن طلّقتم النساء. ﴿**ومتعوهنّ**﴾ معطوف على قوله: لا جناح عليكم. ﴿**على الموسع**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**قدره**﴾ مبتدأ مؤخر، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**وعلى المقتر قدره**﴾ معطوف على الموسع قدره. ﴿**متاعا**﴾ منصوب على المصدرية. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بفعل متعوهن. ﴿**حقا**﴾ نعت لمتاعا. ﴿**على المحسنين**﴾ متعلق بحقا. ﴿**وإن طلقتموهن**﴾ جملة شرطية معطوفة على قوله: لا جناح عليكم. ﴿**من قبل**﴾ متعلق بطلقتموهن. ﴿**أن تمسوهن**﴾ أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى قبل، أي: من قبل مساسكم إياهن. ﴿**وقد فرضتم**﴾ الواو للحال، وقد للتحقيق، فرضتم فعل وفاعل. ﴿**لهن**﴾ متعلق بفرضتم. ﴿**فريضة**﴾ مفعول به. ﴿**فنصف**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، نصف مبتدأٌ خبره مقدر، والتقدير: فلهن نصف. ﴿**ما**﴾ في محل جر مضاف إلى نصف.

﴿**فرضتم**﴾ فعل وفاعل صلة ما. ﴿**إلاّ**﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿**أن يعفون**﴾ في محل نصب بأن وهو مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور مضاف إلى حال مقدر، أي: فلهن نصف ما فرضتم في كل حال إلاّ في حال عفوهن. ﴿**أو يعفوَ**﴾ معطوف على يعفون منصوب بالفتحة. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع فاعل يعفو. ﴿**بيده**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**عقدة**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**النكاح**﴾ مضاف إلى عقدة، والجملة من المبتدإ والخبر صلة الذى. ﴿**وأن تعفو**﴾ فعل مضارع منصوب بحذف النون وواو الجماعة فاعل، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع بالإبتداء. ﴿**أقرب**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**للتقوى**﴾ متعلق بأقرب.

﴿**ولا تنسوا**﴾ الواو للعطف، ولا للنهى، والفعل مجزوم بحذف النون. ﴿**الفضل**﴾ مفعول به. ﴿**بينكم**﴾ متعلق بمحذوف نعت للفضل، وجملتا وأن تعفوا، ولا تنسوا تذييلان مقرران لما سبق. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**بما**﴾ متعلق بالخبر الآتى. ﴿**تعملون**﴾ صلة ما. ﴿**بصير**﴾ خبر إنّ، وجملة إنّ الله تعليلية. ﴿**حافظوا**﴾ فعل أمر وواو الجماعة فاعل. ﴿**على الصلوات**﴾ متعلق بحافظوا. ﴿**والصلاة**﴾ معطوف على الصلوات. ﴿**الوسطى**﴾ نعت للصلاة مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**وقوموا**﴾ مثل حافظوا. ﴿**لله**﴾ متعلق بما بعده. ﴿**قانتين**﴾ منصوب على الحال من واو الجماعة. ﴿**فإن خفتم**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**فرجالاً**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر بعدها، والتقدير: فصلوا رجالاً حال من ضمير الجماعة. ﴿**أو ركباناً**﴾ معطوف على رجالاً. ﴿**فإذا أمنتم**﴾ جملة شرطية مرتبة على ما قبلها. ﴿**فاذكروا**﴾ جواب إذا. ﴿**الله**﴾ منصوب على المفعولية. ﴿**كما**﴾ الكاف للتشبيه في محل نصب نعت لمصدر مقدر منصوب، وما اسم موصول في محل جر بالكاف. ﴿**علمكم**﴾ صلة ما، والتقدير: فاذكروا الله ذكراً مشابهاً للذكر الذي علمكم إيّاهُ. ﴿**ما**﴾ في محل نصب مفعول علّم الثانى. ﴿**لم تكونوا**﴾: تكونوا مجزوم بلم، وواو الجماعة اسمها. ﴿**تعلمون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل نصب خبر تكون، وجملة لم تكونوا تعلمون صلة ما إن جعلت ما موصولة أو نعت إن جعلت نكرة موصوفة.

﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**وصية**﴾

مبتدأ مرفوع بالضمة. ﴿**لأزواجهم**﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدإ، والضمير فيه مضاف إليه. ﴿**متاعاً**﴾ مصدر لفعل مقدر، والتقدير: ليمتعوهن متاعاً. ﴿**إلى الحول**﴾ متعلق بمتاعاً. ﴿**غير**﴾ منصوب على الحال، أو على البدل من متاعاً. ﴿**إخراج**﴾ مضاف إلى غير. ﴿**فإن خرجن**﴾ جملة شرطية دخل عليها حرف التفريع. ﴿**فلا جناح عليكم**﴾ جواب الشرط. ﴿**فيما فعلن في أنفسهن**﴾ تقدم إعراب مثلها قريباً. ﴿**من معروف**﴾ متعلق بفعلن. ﴿**والله عزيز حكيم**﴾ الجملة من المبتدإ والخبر تذييل. ﴿**وللمطلقات**﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿**متاع**﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿**بالمعروف**﴾ متعلق بمحذوف نعت لمتاع. ﴿**حقاً**﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر: يحق ذلك حقاً. ﴿**على المتقين**﴾ متعلق به. ﴿**كذلك**﴾ تقدم إعراب مثلها. ﴿**يبين الله**﴾ فعل وفاعل. ﴿**لكم**﴾ متعلق بيبيّن. ﴿**آياته**﴾ مفعول يبيّن منصوب بالكسرة، والضمير فيه مضاف إليه، وتقدير الكلام في هذا التركيب: يبيّن الله لكم الآيات تبييناً مثل ذلك. ﴿**لعلكم**﴾ لعل واسمها. ﴿**تعقلون**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر لعل، وجملة لعل تعليل.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن**﴾: الكلام متصل بالعطف على ما قبله من الأحكام التي تقدمت في جواب الأسئلة المتعددة، والآيات هذه تتحدث عن أحكام الزواج والمعاشرة والطلاق والعدّة والنفقة والمتعة والرضاعة وما إليها. وصدر الكلام بصيغة النهى للجماعة؛ لأنّ المسلمين في المدينة لم تزل العلاقة بينهم قائمة. والنكاح في كلام العرب في العقد بين الرجل والمرأة، وأمّا استعماله في الوطء فكناية. وحتى يُؤْمِنَّ غاية في النهي... ﴿**ولأمة مؤمنة خير من مشركة**﴾: تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب في مواصلة المؤمنات. صدر بلام الإبتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الإنزجار، وفيه تنبيه على دناءة المشركات وتحذير من تزوجهن، ومن الإغترار بما يكون للمشركة من حسب أو جمال أو مال، وهذه طرائق الإعجاب في المرأة المبالغ عليه بقوله... ﴿**ولو أعجبتكم**﴾!. فالأمة هنا هي المملوكة والمشركة الحرة بقرينة المقابلة بقوله: ولأمة مؤمنة، فالكلام وارد مورد التناهى في تفضيل أقل أفراد هذا الصنف على أتم أفراد الصنف الآخر.

والمراد من التفضيل في قوله: خير التفضيل في المنافع الحاصلة من المرأتين؛ فإنّ في تزوج الأمة المؤمنة منافع دينية، وفي الحرة المشركة منافع دنيوية، ومعاني الدين خير من أعراض الدنيا المنافية للدين، فالمقصود منه بيان حكمة التحريم استئناساً للمسلمين. . . ﴿**ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا. ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**﴾: القضية هي هي، تكررت توكيداً وتدقيقاً في بيان الحكم، والعلة في الأولى هي العلة في الثانية، غير أنّ الأولى عبر فيها بالنكاح، والثانية عبر فيها بالإنكاح لأنّ المرأة لا تتولى نكاحها بنفسها دون وليها. . . ﴿**أولئك يدعون إلى النار**﴾: اسم الإشارة يعود على الفريقين تغليباً، واسناد الدعاء إليهم حقيقة عقلية. ولفظ النار مجاز مرسل أطلق على أسباب الدخول إلى النار. وقوله. . . ﴿**والله يدعو إلى الجنة والمغفرة**﴾: دعاء إلى أسبابها. وقوله. . . ﴿**بإذنه**﴾: بمعنى تقديره وإرادته كما بينها في كتابه. . . ﴿**ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون**﴾: توضيح لقوله بإذنه حيث يدعو إلى الخير مع بيانه وإيضاحه حتى تتلقاه النفوس بمزيد القبول وتمام البصيرة. . .

﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾: الجملة موصولة بما قبلها بالعطف على قوله: ولا تنكحوا المشركات، والمناسبة أنّ المشركين كانوا يبتعدون عن نسائهم وقت الحيض، والمسلم منهى عن فعل المشرك فحصل ارتباك في حال الحيض فسألوا الرسول ليجيبهم الإجابة الصحيحة بصرف النظر عن عادة المشركين، فأجيبوا بما يرفع الحيرة والإرتباك، وهو أنّ طبيعة الحيض أذى يجب الإحتراس منه، فهو منفر للطبع السليم مع عدم صلاحيته للإخصاب. . . ﴿**فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾: والاعتزال كناية عن ترك المجامعة. . . ﴿**ولا تقربوهن حتى يطهرن**﴾: جاء النهى عن قربانهن تأكيداً للأمر باعتزالهن وتبييناً للمراد من الاعتزال، وأنّه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان كما كان عند اليهود. ووصلت هذه الجملة بما قبلها للعطف عليها اهتماماً بهذا الحكم ليكون النهى عن القربان مقصود بالذات معطوفاً على التشريعات، ويكنى عن الجماع بالقربان مصدر قرِب يقرَب، أما قرُب يقرُب فهو بمعنى الدنو. وقوله: حتى يطهرن غاية لاعتزلوا، ولا تقربوهن. . .

﴿**فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله**﴾: ترتيب على قوله حتى يطهرن

من الدم فإذا تطهرن بالإغتسال فأتوهن من حيث أمركم الله. وقوله: فأتوهن الأمر هنا للإباحة لوقوعه عقب النهى. وعبر بالإتيان هنا وهو شهير بالتكنى به عن الوطء، لبيان أن المراد بالقربان المنهى عنه هو ذلك المعنى الكنائى، فقد عبر بالإعتزال ثم قضى بالقربان ثم قضى بالإتيان، ومع كل تعبيرفائدة جديدة وحكم جديد، وهذا من إبداع الإيجاز في الإطناب. وقوله: من حيث أمركم الله: حيث اسم مكان مبهم مبني على الضم ملازم الإضافة إلى جملة تحدده لزوال إبهامها، وقد اعتاد العرب في التعبير سلوك طريق الكناية والإغماض، وكان فهمه موكولا إلى فطنهم ومعتاد تعبيرهم. ومن هنا للتعليل والسببية. وحيث مستعار للمكان المجازى، وهو حالة الإباحة التي قبل النهى، فشبهت حالتهم بحالة من حبس عند مكان ثم أطلق سراحه فهو يأتى منه إلى حيث يريد، وقوله. . .

﴿إنّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾: تعليل وبيان لحكمة التشريع في هذا الأمر الذي حَيَّرَ الناس فلم يهتدوا فيه إلى رأى صائب، فاحتاجوا إلى سؤال رسول الله ﷺ. . . **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾**: هذه الجملة تذييل ثان لجملة فأتوهن من حيث أمركم الله قصد به الإرتفاق بالمخاطبين والتأنس لهم؛ لإشعارهم بأنّ منعهم من قربان النساء مدة المحيض منع مؤقت لفائدتهم. وتعتبر جملة نساؤكم حرث لكم مقدمة لجملة فأتوا حرثكم أنّى شئتم، وفيها معنى التعليل للإذن بإتيانهن أنّى شاءوا. والعلة قد تجعل مقدمة فلو أوثر معنى التعليل لأخرت، ولكن أوثرت أن تكون مقدمة للتى بعدها؛ لأنّه أحكم نسيج النظم، ولتأتى عقبه الفاء الفصيحة. والمراد بالحرث هنا اسم المفعول. وكلمة أنّى اسم لمكان مبهم تبينه جملة مضاف هو إليها، وقد كثر استعماله مجازاً في معنى كيف، بتشبيه حال الشيء بمكانه، وقد تَرِدُ للزمان وتكون بمعنى متى، وقد تصلح أنّى هنا لهذا، وهو كلام موجز ومجمل بحيث يمكن للباحث أن يرى فيه أوجز إبداع وأكمل إيقاع. وزيادة على ما تقدم هذا التذييل المنمق المحكم المتمم. . .

﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه وبشر المؤمنين. ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والله سميع عليم﴾: وُصل الكلام بما قبله، وهو عطف تشريع على تشريع، فالمناسبة بين التشريعين تعلق مضمونيهما بأحكام معاشرة الأزواج، لأنّه تمهيد لما سيأتى من قوله: للذين

يؤلون من نسائهم. والنهى عن جعل اسم الله عرضة للأيمان يقتضى شيئين: لا تجعلوا اسم الله عارضاً ومانعاً عن فعل الخير، ولا تجعلوا اسم الله معرضاً للحلف ولو كان في فعل الخير، ففيه نهيان مختلفان معنى ومتفقان حكماً. . .

﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم**﴾: استئناف بيانى وضح ما أجمل في النهى عن اليمين، فالمناسبة لما قبله ظاهرة خصوصاً ما يفهم من معنى العرضة؛ التعرض لكثرة الحلف. والأيمان التي لا يؤاخذ بها الأيمان التي تجرى على الألسنة بدون قصد يمين. ففى الكلام إجمال تفصيله في سورة المائدة. وقوله: والله غفور حليم تذييل لحكم نفى المؤاخذة، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحليم هنا دون الرحيم؛ لأنّ هذه مغفرة لذنب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى، فلذلك وصف الله نفسه بالحليم، لأنّ الحليم هو الذي لا يستفزه التقصير في جانبه، ولا يغضب للغفلة ويقبل المعذرة. أمّا الآية السابقة فجاء التذييل فيها بقوله: والله سميع عليم، لما فيها من التحذير من القول المنهى عنه والفعل المحتمل للخير والشر. . .

﴿**للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر**﴾: استئناف ابتدائى للإنتقال إلى تشريع في عمل كان يغلب على الرجال أن يعملوه في الجاهلية والإسلام. كان من أشهر الأيمان الحائلة بين البر والتقوى والإصلاح، أيمان الرجال على مهاجرة نسائهم. ومجيء اللام في قوله: للذين يؤلون لبيان أنّ التربص جعل توسعة عليهم، فاللام للأجْل، مثل: هذا لك، ويعلم منه معنى التخيير فيه. وعدى فعل الإيلاء بمن، مع أنّ حقه أن يعدى بعلى؛ لأنّه ضمن هنا معنى البعد فعدى بالحرف المناسب لفعل البعد، فكأنّه قال: للذين يؤلون متباعدين من نسائهم، فمن للإبتداء المجازى. وتقديم للذين يؤلون على المبتدإ المسند إليه وهو تربص، للإهتمام بهذه التوسعة التي وسع الله على الأزواج، وتشويق لذكر المسند إليه. وحذف متعلق فاءوا بالظهور المقصود. وقوله. . . ﴿**فإنّ الله غفور رحيم**﴾: دليل الجواب. وقوله. . .

﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾ دليل على شرط محذوف، والتقدير: فإن لم يفيئوا وعزموا الطلاق. وقوله. . . ﴿**فإنّ الله سميع عليم**﴾: دليل الجواب. . . ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾: الكلام متصل بما قبله بالعطف على

الجملة قبلها لشدة المناسبة، وللإتحاد في الحكم وهو التربص. فهذه الآية جاءت متناسقة منتظمة على حسب مناسبات الإنتقال على عادة القرآن في إبداع الأحكام وإلقائها بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس. وجملة والمطلقات يتربصن خبرية مراد بها الأمر، وهو مجاز تمثيلي. . .

﴿**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾: متصل بما قبله بالعطف على يتربصن. وما خلق الله في أرحامهن يحتمل دم الحيض ويحتمل الحمل المتخلق في الرحم. وقوله. . . ﴿**إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر**﴾: شرط أريد به التهديد دون التقييد على طريقة المجاز المرسل التمثيلي. ودلالة جواب الشرط قوله: ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن. . . ﴿**وبعولتهن أحق بردهن**﴾: اتصلت الجملة بما قبلها بالعطف لفائدتين: حكم المراجعة، وتحضيض المطلقين على مراجعة المطلقات. . . ﴿**في ذلك إن أرادوا إصلاحا**﴾: اسم الإشارة صالح لرده على العدة أو لرده على الشرط، ومعناه هنا: فلا بد أن يكون الرد قبل مضى الأجل المحدد، ولابد أن يكون بقصد الإصلاح. . .

﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**﴾: لا زال الكلام متصلا لزيادة بيان الأحكام المتعلقة بالنساء، ففى هذا الكلام ضرب من رد العجز على الصدر، فعادت إلى أحكام الزوجات بأسلوب عجيب، والمناسبة أنّ في الإيلاء من النساء تطاولاً عليهن، وتظاهراً بما جعل الله للزوج من حق التصرف في العصمة فناسب أن يُذكّروا بأنّ للنساء من الحق مثل ما للرجال. وفي الآية احتباك، فالتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر وبالعكس. وكان الإعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء؛ لأنّ حقوق الرجال على النساء مشهورة. وتقديم الظرف للإهتمام بالخبر، ففيه إعلان لحقوق النساء، وأول إعلان هذا العدل بين الزوجين في الحقوق كان بهذه الآية العظيمة.

وقوله. . . ﴿**وللرجال عليهن درجة**﴾: إثبات لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم لكيلا يظن أنّ المساواة المشروعة بقوله: ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف مطردة، ولزيادة بيان المراد من قوله: بالمعروف. وقدم المسند على المسند إليه في قوله: وللرجال عليهن درجة للاهتمام بما تفيده اللام من معنى

استحقاقهم تلك الدرجة، والدرجة استعارة للرفعة المكنى بها عن الزيادة في الفضيلة الحقوقية. وقوله... ﴿والله عزيز حكيم﴾: تذييل وإقناع للمخاطبين بهذا الحكم الذي لم يكن معروفاً... ﴿الطلاق مرتان﴾: كلام مستأنف جيء به لذكر غاية الطلاق الذي يملكه الزوج من امرأته نشأ من الأحكام المتعلقة بالزوج فيما سبق. وقوله... ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾: تفريع على قوله: الطلاق مرتان، فتبين أنّ الطلاق حدد بمرتين قابلة كل منهما للإمساك بعدها والتسريح بإحسان توسعة على الناس. وقدم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنّه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع...

﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾: وصل الكلام بما قبله بالعطف على قوله: أو تسريح بإحسان؛ لأنّ من إحسان التسريح ألاّ يأخذ المسرح - المطلق - عوضاً عن الطلاق، وهذه مناسبة مجيء هذا الإعتراض، وهو تفنن بديع في جمع التشريعات. والخطاب للأمّة ليأخذ منه كلُّ أفرادها ما يختص به... ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾: حدود الله استعارة للأوامر والنواهي الشرعية بقرينة الإشارة، شبهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك الناس. وجملة... ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾: تذييل. واسم الإشارة مقصود منه تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وهو من يتعدى حدود الله اهتماماً بإيقاع وصف الظالمين عليهم. وأطلق فعل يَتَعَدّ على معنى يخالف حكم الله ترشيحاً لاستعارة الحدود لأحكام الله، وهو مع كونه ترشيحا مستعار لمخافة أحكام الله؛ لأنّ مخالفة الأمر والنهى تُشْبِه مُجاوزَةَ الحد في الإعتداء على صاحب الشيء المحدود...

﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾: تفريع مرتب على قوله: الطلاق مرتان وما بينهما بمنزلة الإعتراض، على أنّ تقديمه يكسبه تأثيراً في تفريع هذا على جميع ما تقدم. وضمير الفاعل عائد إلى المطلق المستفاد من قوله: الطلاق مرتان. وضمير المفعول عائد إلى المطلقة المستفاد من الطلاق أيضاً... ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله﴾: تعقيب على حكم التحريم السابق، أي: فإن طلق الزوج الثانى زوجته المطلقة من

الزوج الأول، فللزوج الأول ترجيع زوجته المطلقة من الزوج الثانى إن ظنّا أن يقيما حدود الله، وتقدم ما في حدود الله من البيان. وقوله. . . ﴿**وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون**﴾: تذييل مقرر لما سبق من الأحكام. . .

﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن. فأمسكوهن بمعروف. أو سرحوهن بمعروف**﴾: الكلام موصول بما قبله بالعطف، عطف حكم على حكم وتشريع على تشريع لقصد زيادة الوصاة بحسن المعاملة. وقوله. . . ﴿**ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا**﴾: تصريح بما فهم من قوله: فأمسكوهن بمعروف، قصد به التأكيد، وفائدته تقرير المعنى المراد في الذهن بطريقتين غايتهما واحدة. وقوله: لتعتدوا تعليل. . . ﴿**ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**﴾: تحذير لمن يعتدى على المرأة فيظلمها، فهو وعيد عائد على الشخص نفسه. . .

﴿**ولا تتخذوا آيات الله هزؤا**﴾: عطف هذا النهى على النهى في قوله: ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، لزيادة التحذير من تطويل العدة لقصد المضارة. والهزؤ هنا مراد به الإستخفاف وعدم الرعاية، ثم إنّ الله تعالى بعد أن حذرهم دعاهم بالرغبة فقال. . . ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم**﴾: فكل من يذكر هذه النعم التي جاء بها هذا التنزيل وما فيه من الحكم فلا بد أنّ يتعظ ويتقى الله ويعلم العلم اليقين أنّ الله بكل شيء عليم. . .

﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف**﴾: عطف على ما قبله من قوله: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف، عطف نهى على نهى، فالأول نهى الأزواج عن الإمساك للضرر، وهنا نهى الأولياء عن منع من ترغب في رد العصمة الأولى. وقوله. . . ﴿**ذلك يوعظ به**﴾: إشارة إلى حكم النهى عن العضل. وقوله. . . ﴿**من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾: نائب الفاعل؛ لأنّه هو الذي يمتثل الأمر وينفذ الحكم كما ينبغى. . . ﴿**ذلكم أزكى لكم وأطهر**﴾: توضيح وتفصيل لحكمة التشريع. . . ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾: تذييل يقرر منفعة هذا الحكم ويزيل ما كان لهم من عادات الجاهلية من تحكّم. . .

﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾: الكلام موصول بما قبله

بالعطف، والمناسبة هنا واضحة فلا تخفى. فهذا الحكم متعلق بالوالدات المطلقات. وجملة يرضعن خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الإستحقاق. وصرح بالمفعول مع كونه معلوماً إيماء إلى أحقية الوالدات بذلك، وإلى ترغيبهن فيه. ووصف الحولين بكاملين تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولاً وبعض الثانى... **﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾**: دليل على عدم وجوب إكمال الحولين، وبيان لمن يريد الإتمام فله ذلك... **﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾**: عبر عن الوالد بالمولود له إيماء إلى أنّه الحقيق بهذا الحكم؛ لأنّ منافع الولد مُنْجَرَّة إليه. وموقع... **﴿لا تكلف نفس إلاّ وسعها﴾**: تعليل لقوله: بالمعروف. وموقع جملة... **﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾**: موقع التعليل أيضاً، وهو اعتراض يفيد أصولاً عظيمة للتشريع ونظام الإجتماع... **﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾**: معطوف على قوله: وعلى المولود له رزقهن، فعلى الوارث مثل ما على الوالد من نفقة المرضع وفي الكلام إيجاز بديع... **﴿فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾**: الكلام مفرع على قوله: يرضعن، والضمير عائد على الوالدة والمولود له. وأفاد بقوله: فلا جناح عليهما أنّ ذلك مباح، وأنّ حق إرضاع الحولين مراعى فيه حق الأبوين وحق الرضيع. وقوله... **﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم﴾**: انتقال إلى حالة إرضاع الطفل غير والدته إذا تعذر على الوالدة إرضاعه، بشرط أن تستوفى الوالدة حقها المطلوب.مقابل إرضاعها السابق.

وقوله... **﴿واتقوا الله﴾**: تذييل للتخويف والحث على مراقبة ما شرع الله. وقوله... **﴿واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير﴾**: تذكير لهم بذلك... **﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾**: انتقال إلى بيان عدة الوفاة بعد الكلام عن عدة الطلاق وما اتصل بذلك من أحكام الإرضاع عقب الطلاق تفصيا لما به إصلاح أحوال العائلات، فهو عطف قصة على قصة... **﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾**: استعير البلوغ لإكمال المدة وتشبيها للزمان بالطريق الموصلة إلى المقصود، وضمير أجلهن للأزواج. أسند البلوغ إليهن، وأضيف الأجل إليهن تنبيها على أن مشقة هذا الأجل عليهن...

﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم

الله أنّكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾: عطف على الجملة التي قبلها، فهذا من الأحكام المتعلقة بالعدة، وقد تضمنت الآيات التي قبلها أحكام عدة الطلاق، وعدة الوفاة، وأنّ أمد العدة محترم، وأنّ المطلقات إذا بلغن أجلهن جاز أن يفعلن في أنفسهن ما أردن من المعروف، فعلم من ذلك أنّهن إذا لم يبلغْنَه لا يجوز ذلك، فالتزوج في مدة الأجل حرام، ولما كان التحدث في التزوج إنّما يقصد منه المتحدث حصول الزواج وكان من عادتهم أن يتسابقوا إلى خطبة المعتدة ومواعدتها، حرصاً على الإستيثار بها بعد انقضاء العدة، فبينت الشريعة لهم تحريم ذلك، ورخصت في شيء منه؛ ولذلك عطف هذا الكلام على سابقه. والتعريض يطلق على ضرب من ضروب المعانى المستفادة من الكلام، وقد بينه بقوله: من خطبة النساء. وقوله... **﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنّ الله غفور حليم﴾**: تذييل أريد به التحذير من مخالفة هذه الأحكام، والتحريض على تنفيذها بكل عزيمة واهتمام...

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾: استئناف تشريع لبيان حكم ما يترتب على الطلاق قبل الدخول وحكم المهر. وقوله... **﴿ومتعوهن﴾**: هي الحال التي طلق فيها قبل الدخول ولم يسمّ لها مهراً... **﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾**: تمتيع المطلقة في هذه الحال على حسب جهد الزوج من سعة وضيق... **﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾**: الحال التي طلق فيها قبل الدخول وقد سمى لها مهراً فلها نصف المهر... **﴿إلاّ أن يعفون﴾**: استئناف من عموم الأحوال... **﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾**: معطوف على يعفُون، فالعفو إمّا أن يأتى من النساء المطلقات، وإمّا أن يأتى من الولى... **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**: هذا تذييل يحث فيه على العفو لما فيه من ملامح التقوى بالمسامحة والمعاملة الحسنة... **﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾**: تذييل ثان يذكر فيه المرء ما ينبغى أن يكون عليه زيادة في الترغيب في العفو...

﴿إنّ الله بما تعملون بصير﴾: هذا تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل،

وتعريض بأنّ في العفو مرضاة الله تعالى. . . ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾: هذه الآية فصلت عما قبلها فلم تعطف، فهى للانتقال من غرض إلى غرض فالغرض الأول متعلق بحقوق الناس، والغرض الثانى متعلق بحقوق الله، وهذه طريقة القرآن في ربطه بين ما يتعلق بالإنسان وبين ما يتعلق بحق رب الإنسان. وحكم هذا الأمر يذكر في مبحثه. . . ﴿**فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾: هذا متفرع عما قبله من الأمر بالمحافظة على الصلوات مهما كانت الأحوال، والمقصود من هذا هو ذكر الله، فذكر الله كما يكون في الصلوات يكون في بقية التشريعات المتعلقة بكل المعاملات. فهذا الكلام نأخذ منه مناسبة الربط بين الأحكام. . .

﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج. فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم**﴾: سياق هذه الآية وحكمها متعلق بما كان عليه العرب في عدة الوفاة بكيفيتها ومدتها، فبخلاف الآية التي سبقت. . . ﴿**وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين**﴾: عطف على قوله: والذين يتوفون منكم، وهواستيفاء لأحكام المتعة للمطلقات. . . ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون**﴾: يختتم الله هذه الأحكام بهذا الكلام تنبيهاً على أهميتها.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم**﴾: في هذا التوجيه نهى المسلمين عن الزواج بالمشركات مهما كنّ فلا قيمة لنسب ولا حسب ولا جمال ولا مال. وهذا النهى يحسم ما كان عليه العرب من مسلمين ومشركين من اختلاط ومعاملات بسبب ما بينهم من قرابات وصداقات. والآيات التي تأتى بعد هذا تحدد العلاقة بين الرجل والمرأة من زواج وما فيه من معاملة، ومن طلاق وما يعتريه من ملابسات وتوجيهات. والزواج في الإسلام أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بنى الإنسان، فلا بد إذنْ من توحد القلوب والتقائها على عقيدة سليمة قائمة على القداسة والطهارة من قذارة الشرك وسخافة الأوهام وكلالة الأذهان، لهذا كله حرّم الله

التزاوج بين المسلم والمشركة، ولو بلغت ما بلغت فلن تصل إلى رتبة المؤمنة ولو كانت أمة. وكذلك المسلمة فلن تُزوّج من مشرك ولو بلغ ما بلغ فلن يصل إلى رتبة المسلم ولو كان عبداً!.

﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾!. ثم جاءت الحكمة في هذا النهى وهى قوله... **﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**: وحكمة النهى جاءت من وجوه أنّ الكفر سبب لدخول النار، والكافر بوصفه وعمله سائر في طريق النار. والإسلام سبب لدخول الجنة، والمسلم بوصفه وعمله سائر في طريق الجنة، وعليه فلا يلتقى المسلم والكافر في طريق واحد. وهذا التدليل والتوضيح لم يأت به فيلسوف ولا حكيم، وإنّما جاء به كتاب الله القرآن الكريم، فلعل الناس يتذكرون فيتعظون، ويسمعون فينزجرون ويخافون. فالله يدعو إلى الخير مع بيانه وإيضاحه حتى تتلقاه النفوس بمزيد القبول وتمام البصيرة، فهذا كقوله: كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة. وأمثالها في القرآن كثير. وبمناسبة ذكر حكم زواج المشركة وكونها غير صالحة لزواج المسلم بها لقذارتها المعنوية يرد سؤال عن المحيض لقذارته الحسية، فجاء البيان معطوفاً على ما سبق من حكم النساء التي تصلح للزواج من المسلم والتى لا تصلح...

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾: والمراد من السؤال عن المحيض السؤال عن قربان النساء في المحيض بدلالة الإقتضاء؛ لأنّ العرب كانوا يباعدون المرأة الحائض وينفرون منها، ويتقززون مما تصنعه من مأكل، فخبزها لا يختمر، ورائحة الحيض عندهم على كل ما تلمسه تظهر، وكان اليهود يتباعدون عن الحائض أشد التباعد بحكم ما عندهم في دينهم من النفور منها وأنّها لا تُلامَس ولا تُجالس ولا تُؤانس ولا تُضاجع ولا تُباضع، وكان النصارى لا يرون فيه شيئا فهو أمر عادى عندهم، فكانوا يجامعون نساءهم ولا يبالون بالحيض. فجاء الحكم في الإسلام منسق وموفق ومدقق في أمر الحيض مراعاة للفطرة وتخلصاً من تلك النفرة، واعتبرها الإسلام فترة تمر ولا تضر... **﴿فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إنّ الله يحب التوابين**

ويحب المتطهرين﴾: فالمباشرة في المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية، ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى. فضلا عن انصراف الفطرة النظيفة السليمة عنها في تلك الفترة؛ لأنّ الفطرة السليمة يحكمها من الداخل ذات القانون الذي يحكم الحياة، فتنصرف بطبعها وفق هذا القانون عن المباشرة في حالة ليس من الممكن أن يصح فيها غرس، ولا أن تنبت منها حياة. والمباشرة في الطهر تحقق اللذة الطبيعية، وتحقّق معها الغاية الفطرية، والآية دالة على أنّ المباشرة تكون بعد الطهر - النقاء من دم الحيض -، والتطهر - الإغتسال من الحيض - وهو رأى المحققين من الفقهاء. والكلام على الحيض وما يتعلق به من جواز ومنع وكيفيته ومدته مستفيض عند الفقهاء في كتبهم أخذاً من توجيهات هذه الآية. وتوضيح الحكمة في تلك الآية ما توجه إليه في هذا السياق...

﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾: وفيه يربط المسلمين برباط وثيق يبعدهم عن مزالق الشهوة ويشدهم عن متاهة الحرمان، ومن هنا نطلع على سماحة الإسلام الذي يقبل الإنسان كما هو بغرائزه وضروراته، فلا يحاول أن يحطم فطرته باسم التسامي والتطهر، ولا يحاول أن يستقذر ضروراته التي لا يَدَ له فيها، إنّما هو مكلف إيّاها في الحقيقة لحساب الحياة وامتدادها ونمائها. إنّما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ويرفعها ويذكره بها حتى وهو يلبى دوافع الجسد البحتة. يحاول أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر إنسانيته أولاً، وبمشاعر دينية أخيراً، فيربط بين نزوة الجسد العارضة، وغايات الإنسانية الدائمة، ورفرفة الوجدان الدينى اللطيف، ويمزج بينها جميعاً في لحظة واحدة، وحركة واحدة، واتجاه واحد، ذلك المزج القائم في كيان الإنسان ذاته، ولا يطلع على هذه الحِكَم والفوائد إلاّ من امتثل أمر الله في هذه الأحكام، فهو الجدير بالبشرى؛ براحة البال في الدنيا ونيل الثواب في الأخرى... وبشر المؤمنين!.

التوجيه الثاني: **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم﴾**: في هذا التوجيه يربط السابق باللاحق ببيان ما يترتب على تعظيم اسم الله واتقائه في حرمة أسمائه عند الحنث مع بيان ما رخص فيه من الحنث، ولبيان التحذير من تعريض اسمه تعالى للإستخفاف بكثرة الحلف.

وهذا تمهيد لما سيجيء من حكم الإيلاء المتعلق بالغرض المقصود من الموضوع، ومع الكراهية للحلف والنهى عنه فإنّ الله يرأف بعباده، فلا يحاسبهم على اللغو في الأيمان، وما تجرى به العادة ويسبق به اللسان، إنّما هو الأدب المطلوب والتوقير الواجب. فأمّا المؤاخذة والعقوبة فلا تكون إلاّ على نية القلب وكسب الضمير... والله غفور حليم!. وعند الإنتهاء من تقرير القاعدة الكلية في الحلف يستأنف الحديث في جو الأسرة موضوع هذا السياق، يستأنفه لبيان الحكم في تلك الحالة التي تلم بنفوس بعض الأزواج فيؤلون على أنفسهم ألاّ يباشروا زوجاتهم فترة طويلة محددة أو إلى غير أجل محدود...

﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإنّ الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم﴾: فلم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية؛ إنّما لجأ إلى توقيته بحد أقصى، لم يعمد إلى تحريمه لأنّه قد يكون ضرورة نفسية في بعض الحالات لا بد من مسايرتها حتى تخفَّ حدّتُها. قد يكون علاجاً نافعاً في بعض الأحيان للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله، أو إعناته بإبائها عليه وامتناعها، ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك لأنّه قد يكون باغياً في بعض الحالات يريد إعنات المرأة وإذلالها، أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة لا تستمتع بحياة زوجية معه، ولا تنطلق من عقالها لتجد حياة زوجية أخرى، فتوفيقاً بين الإحتمالات المتعددة، جعل هناك حدّاً على الإيلاء لا يتجاوز أربعة أشهر. وهذا التحديد قد يكون منظوراً فيه أقصى مدى الإحتمال كى لا تفسد نفس المرأة فتتطلع تحت ضغط حاجتها الجسدية إلى غير رجلها الهاجر، وقد روى أنّ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل ابنته حفصة زوج النبىء وأم المؤمنين عن أقصى مدى تصبر فيه المرأة عن رجلها فأجابت: أربعة أشهر، فاعتزم ألاّ يغيب المجاهدون من الجند أكثر من هذه الفترة... . وعلى أيّة حال فإنّ الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور، وأربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله، فإمّا أن يعود إلى زوجه وعشه، وإمّا أن يظل في نفوره وعدم قابليته، وفي هذه الحالة ينبغى أن تفك هذه العقدة، وأن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق، وأن يحاول كل واحد منهما أن يبدأ حياة زوجية جديدة مع شخص جديد، فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون، وأروح للرجل كذلك وأجدى وأقرب إلى العدل والجد في هذه العلاقة التي أراد الخالق

بها امتداد الحياة لا تجميد الحياة. والآن وقد انتهى السياق إلى الطلاق فإنّه يأخذ في تفصيل أحكام الطلاق وما يتبعه من العدة والفدية والنفقة والمتعة وغيرها في جميع الحالات، وكلها داخلة في هذا التوجيه.

التوجيه الثالث: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾: المطلقات ذوات القروء عدّتُها ثلاثة قروء، وهى الأطهار عند مالك وهو مذهب أهل المدينة وجمهور أهل الأثر، وهو أيسر وأقل مدة في التربص، وهو مراعى فيه أنّ الطلاق لا يكون إلاّ في طهر، فمدة العدة حيضتان فقط. أمّا القول الآخر فالعدة عنده لا بد أن تكون بعد ثلاث حيضات. والحكمة في عدة المطلقة من وجهين: الأول تحقق براءة الرحم من حمل المطلّق. الثانى انتظار الزوج لعله أن يرجع. وهذا الأخير يكون في الطلاق الرجعى وهو مقبول ومعقول الحكمة. أمّا الطلاق البائن فلا رجاء فيه للرجعة بدون عقد جديد. وعلى المطلقة ألاّ تكتم شيئاً من أمرها من دم أو حمل حتى تكون مدة العدة والتربص واضحة دون غموض أو إبهام، وهذا لا يكون إلاّ من امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر... ﴿**وبعولتهن أحقّ بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً**﴾: هذا حكم ثان يتعلق بالمطلقة طلاقًأ رجعياً، وهذا الحكم جامع لأمرين: حكم المراجعة، وتحضيض المطلقين على مراجعة المطلقات، مع الحث على إرادة الإصلاح بلم الشمل والرجوع إلى حسن المعاملة...

﴿**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**﴾: هذا حكم عام لجميع الزوجات المطلقات وغير المطلقات، وهذا إن اعتبرنا الضمير في لهن وعليهن يعود على قوله: «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر». وبعض العلماء خصص الضمير بالمطلقات فحلل المعنى على مقتضى هذا، ولكن التعميم أولى ليكون الحكم قاعدة وأصلاً يرتكز عليه نظام الأسرة ومعيار العشرة. فلكل من الزوجين حق وعليه واجب موزعان حسب ظروف كل منهما وطبائعه، فليست المماثلة أن تكون ما يعمله الزوج هو ما تعمله الزوجة، وإنّما هي أعمال تقتضيها حال كل منهما، بيّنته آيات أخرى. ومرجعها إلى نفى الإضرار وإلى حفظ مقاصد الشريعة من الأمّة المسلمة، وقد أومأ إليها قوله تعالى: بالمعروف، وقوله...

﴿وللرجال عليهن درجة﴾: إثبات لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم؛ لكيلا يظن أنّ المساواة المشروعة مطردة. وهذا التفضيل ثابت على الإجمال لكل رجل، وهذه الدرجة اقتضاها ما أودعه الله في صنف الرجال من زيادة القوة العقلية والبدنية: فإنّ الذكورة في الحيوان تمام في الخلقة، ولذلك نجد صنف الذكر في كل أنواع الحيوان أذكى من الأنثى وأقوى جسماً وعزماً، وعن إرادته يكون الصدر ما لم يعرض للخلقة عارض يوجب انحطاط بعض أفراد الصنف، وتفوق بعض أفراد الآخر نادراً. فلذلك كانت الأحكام التشريعية الإسلامية جارية على وفق النظم التكوينية؛ لأنّ واضع الأمرين واحد. وهذه الدرجة هي ما فضل به الأزواج على زوجاتهم: من الإذن بتعدد الزوجات للرجل دون أن يؤذن بمثل ذلك للأنثى، وذلك اقتضاه التزيد في القوة الجسمية ووفرة عدد الإناث في مواليد البشر. ومن جعل الطلاق بيد الرجل دون المرأة، والمراجعة في العدة كذلك، وذلك اقتضاه التزيد في القوة العقلية وصدق التأمل.

وكذلك جعل المرجع في اختلاف الزوجين إلى رأى الرجل في شؤون المنزل؛ لأنّ كل اجتماع يتوقع حصول تعارض المصالح فيه، يتعين أن يجعل له قاعدة في الإنفصال والصدر عن رأى واحد معين من ذلك الجمع، ولما كانت الزوجية اجتماع ذاتين لزم جعل إحداهما مرجعاً عند الخلاف، ورجح جانب الرجل لأنّ به تأسست العائلة؛ ولأنّه مظنة الصواب غالباً، ولذلك إذا لم يمكن التراجع، واشتد بين الزوجين النزاع، لزم تدخل القضاء في شأنهما. ويؤخذ من الآية حكم حقوق الرجال غير الأزواج بلحن الخطاب لمساواتهم للأزواج في صفة الرجولة التي كانت هي العلة في ابتزازهم حقوق النساء في الجاهلية، فلما أسست الآية حكم المساواة والتفضيل بين الرجال والنساء الأزواج إبطالاً لعمل الجاهلية أخذ منها حكم ذلك بالنسبة للرجال غير الأزواج على النساء كالجهاد، وذلك مما اقتضته القوة الجسدية، وكبعض الولايات المختلف في صحة إسنادها إلى المرأة، والتفضيل في باب العدالة، وولاية النكاح، والرعاية، وذلك مما اقتضته القوة الفكرية، وضعفها في المرأة وسرعة تأثرها. وكالتفضيل في الإرث وذلك مما اقتضته رئاسة العائلة الموجبة لفرط الحاجة إلى المال، وكالإيجاب على الرجل إنفاق زوجه. ولخطورة هذه الأحكام ذيلت بقوله تعالى... **﴿والله عزيز حكيم﴾**.

﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾: هذا الحكم مهم جداً

بالنسبة لما كان عليه الأزواج في الجاهلية، فهو يحدد مرات الطلاق فإن زادت على الحد بطل كل ما يتعلق بحقوق الزوجية. فالمقصود هنا الطلاق الرجعى الذي سبق الكلام عليه، فحق الزوج في إيقاع التطليق الرجعى مرتان، أمّا الطلقة الثالثة فليست برجعية وإنّما هي بينونة كبرى، فالإمساك أو التسريح لا يكون إلاّ بعد الطلقة الأولى أو بعد الطلقة الثانية. . . **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلاّ أن يخافا ألاّ يُقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**: هذا الحكم يتعلق بما أعطاه الرجل للزوجة قبل الطلاق، فلا يحل للرجل أن يسترد شيئاً من صداق أو نفقة أنفقها أثناء الحياة الزوجية، إلاّ إذا كان الطلاق طلاق خلع. وطلاق الخلع ما كان فيه تعويض عما أعطى الزوج، تعطيه الزوجة مقابل طلاقها - فلا جناح عليهما فيما افتدت به - وهذا الحكم مفصل في كتب الفقه يطلع عليه من يريد الإلمام بالموضوع. . .

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾: تحذير لكل من له دخل في هذا الحكم من زوج أو زوجة أو ولي أو قاض، ففيه الوعيد الشديد لكل من يتعدى هذه الحدود المرسومة المعلومة، فلا يخرج عنها إلاّ متعد ظالم، ومعلوم جزاء الظالم في الدنيا والآخرة!. . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره: هذا كلام مرتب على قوله: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وهو بيان لنهاية حق المراجعة صراحة. فلا يصح للزوج بعد أن طلق امرأته ثلاث تطليقات مراجعتها حتى تتزوج المطلقة بزوج غير الزوج الأول، فإن طلقها الزوج الثانى بعدما قضى منها وطره وطلقها طلاقاً معروفاً به شرعاً فللزوج الأول أن يعقد عقداً جديداً على هذه الزوجة. وحكمة هذا التشريع العظيم ردع الأزواج عن الإستخفاف بحقوق أزواجهم، وجعلهن لعبا في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة الأولى هفوة، والثانية تجربة، والثالثة فراقاً.

وقد رتب الله على الطلقة الثالثة حكمين، وهما سلب الزوج من حق الرجعة بمجرد الطلاق، وسلب المرأة حق الرضا بالرجوع إليه إلاّ بعد زوج. واشتراط التزوج بزوج ثان بعد ذلك لقصد تحذير الأزواج من المسارعة بالطلقة الثالثة إلاّ بعد التأمل والتريث الذي لا يبقى بعده رجاء في حسن المعاشرة للعلم بحرمة العود إلاّ بعد زوج، فهو عقاب للأزواج المستخفين بحقوق المرأة، إذا تكرر منهم ذلك

ثلاثاً بعقوبة ترجع إلى إيلام الوجدان، لما ارتكز في النفوس من شدة النفرة من اقتران امرأته برجل آخر. ومن هذا نعلم أنّ من يقول بوقوع الثلاث في كلمة واحدة نظر إلى ما حصل في زمن عمر رضى الله عنه بوقوعه، أمّا الآية فهى مع من يقول بعدم الوقوع. وموقع جملة ﴿**وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون**﴾ كموقع جملة «وتلك حدود الله فلا تعتدوها..».

﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه**﴾: هذا الحكم يتعلق بالأزواج المطلقين أزواجهم طلاقاً رجعياً، فهم بين أمرين عندما تبلغ المدة المحددة من العدّة الغاية المطلوبة منها. فإمّا أن يراجعوهن بإمساكهم بالعقد الأول بشرط أن يكون معروفاً ليس فيه احتيال ولا ختل، وإمّا أن يطلقوهن طلاقاً فيه العفو والإحسان ومراعاة الشرف وصيانة الأعراض فلا يَهين ولا يُهان. أمّا إمساكهن بقصد الإضرار بهن والإعتداء عليهن فهذا ظلم وتعد على حقوق الإنسان... ﴿**ولا تتخذوا آيات الله هزؤا**﴾: نهى لزيادة التحذير من صنيعهم في تطويل العدة لقصد المضارة، فالمخاطبون بهذه الآيات محذرون أن يجعلوا حكم الله في العدة الذي قصد منه انتظار الندامة وتذكر حسن المعاشرة، لعلهما يحملان المطلق على إمساك زوجته حرصاً على بقاء المودة والرحمة، فيغيروا ذلك ويجعلوه وسيلة إلى زيادة النكاية وتفاقم الشر والعداوة.

ثم إنّ الله تعالى بعد أن حذرهم دعاهم بالرغبة فقال... ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم**﴾: فذكرهم بما أنعم عليهم بعد الجاهلية بالإسلام الذي سماه نعمة، فكما أنعم عليكم بالإنسلاخ من ضلالة الجهالة، وبالكتاب الذي وضّح لكم معالم وأبان لكم تلك المظالم، وبالحكمة التي استفيدت من هذا الكتاب الحكيم فلا تتخذوا آيات الله هزؤا!. وقوله: واتقوا الله واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأنّ الله عليم بكل شيء تنزيلا لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة منزلة من يجهل أنّ الله عليم؛ فإنّ العليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابهم وبينهم شيء؛ لأنّ هذا العليم قدير!..

﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف**﴾: المراد من هذا الكلام مخاطبة أولياء النساء بألاّ يمنعوهن من مراجعة أزواجهن، بعد أن أمر المفارقين بإمساكهن بمعروف ورغبهم في ذلك، إذ قد علم أنّ المرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإنّ المرأة سريعة الإنفعال قريبة القلب، فإذا جاء منع فإنّما يجيء من قبل الأولياء. وقد عرف من شأن الأولياء في الجاهلية وما قاربها الأنفة من أصهارهم عند حدوث الشقاق بينهم وبين ولاياهم، وربما رأوا الطلاق استخفافاً بأولياء المرأة وقلة اكثرات بهم، فحملتهم الحمية على قصد الإنتقام منهم عندما يرون منهم ندامة ورغبة في المراجعة. فالخطاب الواقع في قوله: طلقتم وتعضلوهن ينبغى أن يحمل على أنّه موجه إلى جهة واحدة دون اختلاف التوجه، فيكون موجها إلى جميع المسلمين، لأنّ كل واحد صالح لأن يقع منه الطلاق إن كان زوجاً ويقع منه العضل إن كان ولياً.

وقوله: إذا تراضوا بينهم بالمعروف شرط للنهى؛ لأنّ الولى إذا علم عدم التراضى بين الزوجين، ورأى أنّ المراجعة ستعود إلى دخل وفساد فله أن يمنع مولاته نصحاً لها، وفي هذا الشرط إيماء إلى علة النهى. وفي الآية إشارة إلى اعتبار الولاية للمرأة في النكاح، ووجه الإشارة أنّ الله تعالى أشار إلى حقين: حق الولى بالنهى عن العضل؛ إذ لو لم يكن الأمر بيده لما نهى عن منعه. وحق المرأة في الرضا، ولأجله أسند الله النكاح إلى ضمير النساء، وهذا ما ذهب إليه مالك وأكثر علماء الأمصار، فإن أردت الإستقصاء في هذا الموضوع فعليك بكتب الفقه. وقوله... ﴿**ذلك يوعظ به**﴾... الخ الآية: إشارة إلى حكم النهى عن العضل. وفي قوله... ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾: زيادة في توضيح الحكم، وإزالة لاستغرابهم حين تلقّى هذا الحكم لمخالفته لعاداتهم القديمة وما اعتقدوه نفعاً وصلاحاً وإبقاءً على أعراضهم، فعلمهم الله أنّ ما أمرهم به ونهاهم عنه هو الحق؛ لأنّ الله يعلم النافع وهم لا يعلمون إلاّ ظاهراً، فالله يعلم ما فيه كمال زكاتكم وطهارتكم وأنتم لا تعلمون.

التوجيه الرابع: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾: في هذا التوجيه بيان حكم الرضاعة بعد الطلاق. إنّ على الوالدة المطلقة واجبٌ تجاه

طفلها أن ترضعه حولين كاملين، فذلك هو الأمد الكافى لإكمال الرضاعة، ولضمان صحة الطفل ونموّه. وقوله... ﴿**لمن أراد أن يتم الرضاعة**﴾: حكم يستحقه من طلب إتمام الرضاعة وأباه الآخر... ﴿**وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف**﴾: على الأب نفقة المرضع المطلقة وهو المتعارف عليه بين العشيرة... ﴿**لا تكلف نفس إلاّ وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده**﴾: تقرير يبين سلامة هذا الحكم وصلاحيته لكل من الوالد والوالدة والولد...

﴿**وعلى الوارث مثل ذلك**﴾: بيان لحكم ما إذا مات الوالد فعلى وارثه نفقة الإرضاع... ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما**﴾: حكم مفرع على حكم إرضاع الأم ولدها، فللوالدة والوالد إن تراضيا وتشاورا واتفقا على فصال الطفل قبل المدة المحددة بحولين... ﴿**وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف**﴾: إن تعذر إرضاع الأم ولدها لمرض أو غيره فلا إثم على الأب إن ترك ما أعطاه أولاً. وباب الرضاع باب طويل ومتشعب في كتب الفقه، جمع الفقهاء فيها كل ما يتعلق به...

﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا**﴾: هذا بيان حكم عدة الوفاة، فإذا توفى الزوج فعلى زوجته التربص أربعة أشهر وعشرا، وهو أمر واجب على الزوجة. والحكمة في ذلك براءة الرحم، وهذا الحكم خاص بغير الحامل. أمّا الحامل فعدتها وضع حملها. وقوله... ﴿**فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف**﴾: حكم يتعلق بالمعتدة بعد تمام عدتها، فبعدما تتم المدة فلا سبيل لأحد عليها سواء من أهلها أو من أهل الزوج، ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف في حدود سنة الله وشريعته، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، ولها أن تتلقى خطبة الرجال، ولها أن تختار ما تحب من زوج وصداق ومتاع، فلا تقف في سبيلها عادة بالية، ولا كبرياء زائفة، وليس عليها من رقيب إلاّ ضميرها وإلاّ خشية في هذا الضمير... ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾!.

تنبيه: حكم الأزواج غير المدخول بهن هو حكم المدخول بهن فعليهن العدة في الوفاة لعموم هذه الآية، ولأن لهن الميراث، فالعصمة تقررت بوجه معتبر حتى

كانت سبب إرث، وعدم الدخول بالزوجة لا ينفي احتمال أن يكون الزوج قد قاربها خفية، بخلاف المطلقة قبل الدخول، فلا عدة عليها لأنّ الزوج يعلم أنّه لم يقربها!. ثم يأتي حكم الخطبة للنساء المعتدات من وفاة الأزواج، قائما على أدب النفس، وأدب الإجتماع، ورعاية المشاعر والعواطف، ورعاية المصالح والضرورات. . .

﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم﴾: فالمرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة كذلك بما قد يكون في بطنها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه، وكل هذه الإعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة؛ لأنّ هذا الحديث لم يحن موعده، ولأنّه يجرح مشاعر ويخدش ذكريات. ومع رعاية هذه الإعتبارات فقد أبيح التعريض - لا التصريح - بخِطبة النساء، وأبيحت الرغبة المكنونة التي لا يصرح بها لا تصريحاً ولا تلميحاً، أبيح هذا لأنّه يتعلق بميل فطرى، حلال في أصله، مباح في ذاته. . .

﴿علم الله أنّكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلاّ أن تقولوا قولاً معروفًأ. ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنّ الله غفور حليم﴾: حكم النكاح في العدة حرام باطل فيفسخ ويتأبد تحريمها على من عقد ودخل بها، والبحث في هذا الموضوع طويل في كتب الفقه، وفي الآية تحذير وتهديد لمن لا يراعى هذه الحقوق المتعلقة بالعدة. ثم يجيء حكم المطلقة قبل الدخول، وهى حالة كثيرة الوقوع. فبيّن ما على الزوجين وما لهما في هذه الأحوال: فإمّا أن تطلق الزوجة ولم يكن قد فُرِض لها مهر معلوم، والمهر فريضة، فالواجب هنا على الزوج أن يمتعها، بأن يمنحها عطية حسبما يستطيع. ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعاً من التعويض. إنّ انفصام هذه العقدة من قبل ابتدائها ينشىء جفوة ممضة في نفس المرأة، ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة، ولكن التمتيع يذهب بهذا الجو المكفهر، وينسم فيه نسمات من الود والمعذرة، ويخلع على الطلاق جو الأسف والأسى؛ فهى محاولة فاشلة إذنْ وليست ضربة مسددة، ولهذا يوصى أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء للمودة الإنسانية واحتفاظاً بالذكرى الكريمة. . .

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾! . والحالة الثانية أن يكون قد فرض مهراً معلوماً، وفي هذه الحالة يجب نصف هذا المهر المعلوم للزوجة، هذا هو القانون. ولكن الإسلام يدع الأمر بعد ذلك للضمير، يدعه للتفضل والسماح، فللزوجة أن تعفو وتترك نصيبها إذا شاءت، ولوليها - إن كانت صغيرة أو مجبرة - أن يعفو كذلك عن تسامح وتراض. . . **﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾**: إنّ التنازل في هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضى القادر العفو السمح، الذي يأنف أن يأخذ من مال رجل قد انفصمت منه عروته، أو الذي يستشعر أنّ القطيعة قد جاءت من جانبه، أو لأى سبب من الأسباب، وهو تنازل عن حق معروف معلوم. ومع هذا فإنّ القرآن لا يترك التوجيه في هذا المقام إلى أن يسود التجمل والتفضل جو هذه العلاقة ناجحة كانت أو خائبة. . . **﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾**! . وأن يربط هذا التوجيه بالخالق العالم بالأعمال وببواعث الأعمال. . . **﴿إنّ الله بما تعملون بصير﴾**.

التوجيه الخامس: **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾**: في هذا التوجيه لفت النظر إلى الربط بين معاملتين مهمتين: معاملة بين الإنسان والإنسان، وهى الأحكام التي تتعلق بتنظيم الحياة الإجتماعية بين الأفراد والجماعات في جميع المعاملات. ومعاملة بين الإنسان وربه، وأجمع ما في هذه المعاملة الصلاة. ولقد عودنا القرآن بهذا الربط في أكثر من آية من القرآن، وخصوصاً في هذه السورة، فإنّا نجد مثلَ ما هنا قول الله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة» بين جملة «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي»، وبين جملة «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّى فضلتكم على العالمين»: ، وقول الله تعالى «ياأ يّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين»، بين جملة «فلا تخشوهم واخشونى. . . الآية»، وبين جملة «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات»، فقد جاءت هذه الآية التي نحن بصددها مرتبطة بالتذييل الذي ذيلت به الآية السابقة، وهو قوله: «وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم»، فإنّ الله دعانا إلى خُلُق حميد، وهو العفو عن الحقوق، ولما كان ذلك الخلق قد يعسر على النفس، لما

فيه من ترك ما تحبه من الملائم من مال وغيره، كالإنتقام من الظالم، وكان في طباع الأنفس الشح علّمنا اللهُ تعالى دواء هذا الداء بدواءين: الدواء الأول دنيوى عقلى، والدواء الثانى أخروى روحانى، وهو الصلاة التي وصفها الله تعالى: أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمدخل للذكر والقرب من الرضوان والروح والريحان وتفتح أبواب الجنان.

والمحافظة المأمور بها، الإهتمام بالصلوات المفروضة، وهى الصلوات الخمس. وخص من بينها الصلاة الوسطى، والمعلوم بين العلماء الإختلاف في تعيينها بالذات، والمعلوم من مذهب الإمام مالك أنّها صلاة الصبح. ويؤيد هذا المذهب ما يلى: أفضلية الصبح ثابتة بالقرآن والسنة ومدارك الوجدان. ففى القرآن «وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً». وفي الحديث الصحيح أنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح. ومن إدراك الوجدان، كل منّا يدرك أنّ لها مثبطات كثيرة تلهى الإنسان. وأيضاً توسطها بالمعنى الحقيقى ظاهر؛ لأنّ وقتها بين الليل والنهار، فالظهر والعصر نهاريتان، والمغرب والعشاء ليليتان، والصبح وقت متردد بين الوقتين، حتى أنّ الشرع عامل نافلته معاملة نوافل النهار، فشرع فيها الإسرار، وفريضته معاملة فرائض الليل، فشرع فيها الجهر. ومن جهة الوصاية بالمحافظة عليها، هي أجدر الصلوات بذلك، لأنّها الصلاة التي تكثر المثبطات عنها باختلاف الأقاليم والعصور والأمم، بخلاف غيرها فقد تشق إحدى الصلوات الأخرى على طائفة دون أخرى بحسب الأحوال والأقاليم والفصول. وكلمة الوسطى تعطينا معنى آخر يجعل الصلاة في الإسلام مختارة منسقة منظمة في أوقاتها واتجاهاتها وملابساتها وهيآتها بأفرادها وجماعاتها، فكلمة وقوموا لله قانتين تعطينا المعنى الكامل لكلمة الوسطى، وهذا الأمر موجه بالذات للأمة المختارة التي جعلها الله وسطاً شاهداً على صحة العمل، ونقاوة القصد، وسلامة المورد، ومن هذا التوجيه نأمن من عثرات الخلاف ونكبات الإختلاف... **﴿فإن خفتم فرجالاً وركباناً﴾**: من حكمة صلاة الإسلام أنّها تؤدى حسب الظروف من ضعف أو مشقة أو خوف، فتؤدى الصلاة حسب المستطاع من قيام أو قعود، من ركوع أو سجود أو إيماء، باليد أو بالعين أو بالنية الخالية من القيود، هذه الكيفية هي إحدى كيفيات ثلاث؛ والثانية صلاة الخوف جماعة في ميدان القتال التي ذكرت في سورة النساء...

﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون﴾: هذه هي الكيفية الثالثة، وهى الصلاة التي تؤدى حالة الأمن فرادى وجماعات. والفقهاء هنا بينوا جميع ما يتعلق بهذه الهيآت الثلاث بياناً استوفوا فيه المطلوب والمقصود جزاهم الله خير الجزاء، فعليك بطريقهم لترى سلامة تحقيقهم في الخلاف والوفاق من تقييد وإطلاق، ومن أخذ بالعزم والحزم ومن أخذ بالتسهيل والإرفاق. وهذه نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً»، «الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور. . . ».

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم. وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾: في هاتين الآيتين حكمان كان معمولاً بهما قبل تكملة أحكام العدة وقبل تكملة أحكام الطلاق، وهو ما يعرف بالتدرج في التشريع، وهو كثير في غير هذين الحكمين مرّ بنا حكم القصاص، وحكم الوصية، وحكم الصيام، وحكم الجهاد، وحكم الحج، وحكم الخمر والميسر، وسيمر بنا حكم الربا، وحكم حد الزنا. واعلموا أنّ العرب في الجاهلية كان من عادتهم المتبعة أنّ المرأة إذا توفى عنها زوجها تمكثُ في شر بيت لها ولبست شر ثيابها مبتذلة متقشفة متجنبة الزينة والطيب حولاً كاملاً، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك الغلو في سوء الحالة، فأمر الأزواج بالوصية لزوجاتهم أن تبقى في بيته إن شاءت تتمتع فيه إلى الحول. ثم جاء حكم العدة كاملاً مستوفياً بحكمته ومدته وكيفيته حسب ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع، فهو معروف في كتب الفقه من كتاب النكاح. ومثل هذا حكم متعة النساء عندما كان العرب في الجاهلية لا ترى لحق المطلقة إعتباراً ولا اهتماماً، فجاء الحكم في الإسلام بالتدريج أمر بالمتعة لكل مطلقة في وقت لم تستوف فيه أحكام الطلاق، ولما استوفت جاء التفصيل بالدليل قرآناً وسنةً وإجماعاً، ومن هذا نعلم سر ما ختمت به هذه الأحكام في قول الله تعالى. . . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون!.

8 ـ إعادة السياق في أمر الجهاد والإنفاق

النص

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن
دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿241﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿242﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً
وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿243﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا
لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿244﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُوتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ
قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ
وَاللَّهُ يُوتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (245)
* وَقَالَ لَهُمْ نَبِيئُهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ
أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (246)
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ
فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ (247) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (248) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ

وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دِفَٰعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿249﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿250﴾

البيان

مبحث المفردات اللغويّة

﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت**﴾: تركيب ألم تر إلى كذا جرى مجرى المثل في ملازمته لهذا الأسلوب، وهو يخاطب به في أمر ليس من شأنه أن يكون مبصراً للمخاطب. والذين خرجوا من ديارهم قوم هَرَبُوا من أعدائهم جبناً وهلعاً!، وتركوا لهم ديارهم. والألوف جمع الألف، وهو العدد المعلوم، والألوف أكثر عدداً من الآلاف. حذر الموت محترز من الموت، والمقصود بالموت والحياة هنا الجبن والهلع والشجاعة والإقدام... ﴿**إنّ الله لذو فضل على الناس**﴾: حيث بين لهم معالم الطريق من أمن وخطر ويسر وعسر... ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾: لا يعرفون حقيقة النعمة متى تفقد...

﴿**وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم**﴾: أمر موجه إلى المسلمين بالجهاد في سبيل الله وتحذير من الجبن وإظهار الضعف... ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه الله أضعافاً كثيرة**﴾: حث على الإنفاق في سبيل الله. والإقراض إسلاف المال للغير ليعود. والمضاعفة الزيادة على الأصل بمثله أو أكثر.. ﴿**والله يقبض ويبصط**﴾: أصل القبض الشد والتماسك، وأصل البصط ضد القبض، وهو الإطلاق والإرسال، وقد تفرعت عن هذا المعنى معان: منها القبض بمعنى الأخذ، «فرهان مقبوضة»، وبمعنى الشح «ويقبضون أيديهم»، ومنها البسط بمعنى البذل «الله يبسط الرزق لمن يشاء» وبمعنى السخاء «بل يداه مبسوطتان... ».

﴿ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىء لهم﴾: الملأ الجماعة الذين أمرهم واحد، وهو اسم جمع كالقوم والرهط، وكأنّه مشتق من الملء، وهو تعمير الوعاء بالماء ونحوه، وأنّه مؤذن بالتشاور لقولهم: تمالأ القوم إذا اتفقوا على شيء. هؤلاء الملأ من بنى إسرائيل بعد زمن موسى عندما قالوا لنبىء من أنبئائهم... **﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾**: رد عليهم النبىء بقوله... **﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا﴾**؟!: فردوا عليه بقوله... **﴿ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟!. فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾**: الكلمات الواقعة في الحوار ظاهرة المعانى... **﴿وقال لهم نبيئهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾**: طالوت وزن اسم مصدر من الطول على وزن فعلوت، وهو وزن نادر عند العرب، ولعله كان مستعملاً كثيراً في اللغة القديمة التي نجدها في الأسماء مثل جالوت وهاروت وماروت وهو مما اتفق مع بعض اللغات التي أصلها واحد ومنعت من الصرف لهذه الوجهة...

﴿قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾: كلمة أنّى تأتى استفهاماً للتعجب، فهم يتعجبون ويستغربون من أن يكون طالوت ملكاً عليهم وهو فقير، وفي نظرهم حقير!.. **﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾**: هنا يجيبهم نبيئهم ويبين لهم حقيقة الأمر في استحقاق المُلك: بسطة العلم، وبسطة الجسم. وفي النهاية أنّ هذا أمر الله... **﴿والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيئهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم﴾**: آية ملكه علامة يستدلون بها على أحقيته الملك دونهم، وهى إتيان التابوت المقدس عند اليهود. وأصل التابوت الصندوق المستطيل، فيه سكينة اطمئنان وهدوء يحصلان لهم عندما يكون هذا التابوت معهم... **﴿وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هارون﴾**: بقايا من آثار مخلفات السابقين من آل موسى وآل هارون... **﴿تحمله الملائكة﴾**: الحمل هنا هو الترحيل، وهو السوق إلى المكان المطلوب... **﴿إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾**: فيما أتى به طالوت من هذه الأشياء الغريبة دليل على صحة ملكه، وأنّه الملك لبنى إسرائيل...

﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾: معنى فصل بالجنود قطع وابتعد بهم حتى

تجاوز مساكنهم وقراهم التي خرجوا منها. . . ﴿**قال إنّ الله مبتليكم بنهر**﴾: مختبركم بوجود نهر أمامكم يتدفق ماء فراتاً وأنتم في أشد الحاجة إلى الشرب منه. . . ﴿**فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنّه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده. فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾: جالوت قائد الجند المقابل لجند طالوت، وقد كان له دوى شديد عند اليهود، وكلمة لا طاقة لنا اليوم دليل على هذا!. . ﴿**قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾: الفئة الجماعة من الناس مشتقة من الفيء، وهو الرجوع؛ لأنّ بعضهم يرجع إلى بعض. . .

﴿**ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾: أصل البروز الخروج إلى البراز، وهوالفضاء، وبروز الجيش خروجه إلى ميدان القتال، وبرز فلان إلى فلان خرج إليه للقتال. وإفراغ الصبر صبُّه عليهم بكثرة. . . ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾: هزم جيشُ طالوت جيشَ جالوت. . . ﴿**وقتل داوودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**﴾: داوود ظهر في جيش طالوت، واشتهر بقتله طاغية العدو، ونال من الله النبوءة والملك فصار داوود بعد ذلك نبيئاً وملكاً. . . ﴿**ولولا دفاع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾: الدفاع والدفع مصدران بمعنى مقاومة الفساد بالقوة. . . ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين**﴾: كلماتها واضحة والخطاب للرسول ﷺ.

مبحث الإعراب

﴿**ألم تر**﴾ الفعل مجزوم بلم، وفاعله ضمير المخاطب، والهمزة الداخلة على لم للاستفهام. ﴿**إلى الذين**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**خرجوا**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**من ديارهم**﴾ متعلق بخرجوا. ﴿**وهم**﴾ مبتدأ. ﴿**ألوف**﴾ خبره، والجملة في محل نصب حال من واو الجماعة. ﴿**حذر**﴾ مفعول لأجله. ﴿**الموت**﴾ مضاف إلى حذر. ﴿**فقال لهم الله**﴾ الفاء للتعقيب، والله فاعل قال، ولهم متعلق به. ﴿**موتوا**﴾ الجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**ثم أحياهم**﴾ مرتب على قوله: موتوا. ﴿**إنّ الله**﴾ إنّ واسمها. ﴿**لذو**﴾ خبر إنّ أُكّد باللام. ﴿**فضل**﴾ مضاف إلى

ذو. ﴿**على الناس**﴾ متعلق بفضل. ﴿**ولكن أكثر**﴾ لكن واسمها. ﴿**الناس**﴾ مضاف إلى أكثر. ﴿**لا يشكرون**﴾ الجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لكن.

﴿**وقاتلوا**﴾ أمر للجماعة بالقتال معطوف على المفهوم من السياق. ﴿**في سبيل**﴾ متعلق بقاتلوا. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**واعلموا**﴾ معطوف على قاتلوا. ﴿**أنّ الله**﴾ أنّ واسمها. ﴿**سميع عليم**﴾ خبران لأنّ. ﴿**من**﴾ اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿**ذا**﴾ في محل رفع خبر المبتدإ. ﴿**الذي**﴾ في محل رفع نعت لذا. ﴿**يقرض**﴾ فاعله ضمير يعود على الذى، والجملة صلة الذى. ﴿**الله**﴾ منصوب بالفتحة مفعول. ﴿**قرضاً**﴾ مفعول مطلق. ﴿**حسناً**﴾ نعت له. ﴿**فيضاعفه**﴾ برفع الفعل على وجه الاستئناف، والضمير المتصل بالفعل مفعول، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿**له**﴾ متعلق بيضاعف. ﴿**أضعافاً**﴾ مفعول ثان ليضاعف. ﴿**كثيرة**﴾ نعت لأضعافاً. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**يقبض**﴾ الجملة من الفعل والفاعل خبر المبتدإ. ﴿**ويبصط**﴾ معطوف على يقبض. ﴿**وإليه**﴾ متعلق بالفعل بعده ﴿**ترجعون**﴾، وهو معطوف على يقبض، فمحله رفع على الخبرية.

﴿**ألم تر إلى الملإ**﴾ مثل ألم تر السابقة. ﴿**من بنى**﴾ متعلق بمحذوف حال من الملإ. ﴿**إسرائيل**﴾ مضاف إلى بنى مجرور بالفتحة. ﴿**من بعد**﴾ كذلك. ﴿**موسى**﴾ مضاف إلى بعد مجرور بكسرة مقدرة على الألف. ﴿**إذ**﴾ مبني على السكون في محل نصب ظرف متعلق بترى. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل جر مضافة إلى الظرف. ﴿**لنبىء**﴾ متعلق بقالوا. ﴿**لهم**﴾ متعلق بمحذوف نعت لنبىء. ﴿**ابعث**﴾ فعل أمر، وهو في محل نصب مقول القول. ﴿**لنا**﴾ متعلق بابعث. ﴿**ملكاً**﴾ مفعول ابعث. ﴿**نقاتل**﴾ مجزوم في جواب الأمر. ﴿**في سبيل**﴾ متعلق بنقاتل. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى سبيل. ﴿**قال**﴾ فعل ماضى، وفاعله ضمير يعود على النبىء. ﴿**هل عسيتم**﴾ فعل ناقص، والضمير اسمها دخل عليه حرف الاستفهام، والجملة في محل نصب مقول القول. ﴿**إن كتب عليكم القتال**﴾ جملة شرطية، وجوابها محذوف يدل عليه: هل عسيتم. ﴿**ألاّ تقاتلوا**﴾ الفعل منصوب بأن، ولا نافية، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب خبر عسيتم. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل.

﴿ومالنا﴾ الواو للعطف، وما في محل رفع اسم استفهام مبتدأ، ولنا متعلق بمحذوف خبر المبتدإ. ﴿ألاّ﴾ أن المصدرية، ولا النافية. ﴿نقاتل﴾ منصوب بأن، والفاعل ضمير المتكلمين، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بحرف مقدر، والتقدير: أيُّ سبب ثبت لنا في عدم القتال. ﴿في سبيل الله﴾ جار ومجرور متعلق بألاّ نقاتل. ﴿وقد أخرجنا﴾ الواو واو الحال، وقد للتحقيق، والفعل بعده مبني للمجهول، والجملة في محل نصب حال من فاعل نقاتل. ﴿من ديارنا﴾ متعلق بأخرجنا. ﴿وأبنائنا﴾ معطوف على ديارنا. ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ جملة شرطية مفرعة عما قبلها. ﴿تولوا﴾ جواب الشرط. ﴿إلاّ قليلاً﴾ منصوب بإلاّ على الإستثناء. ﴿منهم﴾ متعلق بمحذوف نعت قليلاً. ﴿والله﴾ مبتدأ. ﴿عليم﴾ خبره. ﴿بالظالمين﴾ متعلق به، والجملة اعتراض تذييلي.

﴿وقال لهم نبيئهم﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على قوله: إذ قالوا لنبيء لهم. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿قد بعث﴾ فاعله ضمير يعود على الله، وجملة قد بعث في محل رفع خبر إنّ. ﴿لكم﴾ متعلق ببعث. ﴿طالوت﴾ مفعول به. ﴿ملكاً﴾ نصب بياناً أو حالاً. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل. ﴿أنّى﴾ في محل نصب حال بمعنى كيف، وهو استفهام تعجب. ﴿يكون له الملك علينا﴾ الملك اسم يكون، وخبرها متعلق له، وعلينا متعلق بالملك. ﴿ونحن﴾ مبتدأ دخل عليه واو الحال. ﴿أحق﴾ خبر المبتدإ، والجملة في محل نصب حال. ﴿بالملك﴾ متعلق بأحق. ﴿منه﴾ كذلك. ﴿ولم يؤت﴾ معطوف على الحال. ﴿سعة﴾ المفعول الثانى ليؤتى، والمفعول الأول نائب الفاعل، وهو ضمير يعود على طالوت، والتقدير: ولم يؤت اللهُ طالوتَ سعةً. ﴿من المال﴾ جار ومجرور. ﴿قال﴾ مثل ما سبق. ﴿إنّ الله﴾ إنّ واسمها. ﴿اصطفاه﴾ فاعل اصطفى ضمير يعود على الله، والضمير المتصل بالفعل مفعول به، وجملة اصطفاه في محل رفع خبر إنّ. ﴿عليكم﴾ متعلق باصطفاه. ﴿وزاده﴾ معطوف على اصطفاه. ﴿بسطة﴾ مفعول ثان. ﴿في العلم﴾ متعلق ببسطة. ﴿والجسم﴾ معطوف على العلم. ﴿والله﴾ مبتدأ. ﴿يؤتى﴾ فعل مضارع فاعله ضمير يعود على الله، والجملة خبر المبتدإ. ﴿ملكه﴾ مفعول أول. ﴿مَن﴾ في محل نصب مفعول ثان. ﴿يشاء﴾ فعل مضارع فاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة مَن، والربط بين الصلة والموصول محذوف، أى: من يشاء إيتاءه. ﴿والله واسع عليم﴾ جملة من مبتدإ وخبر معطوفة على قوله: والله

يؤتى ملكه من يشاء، وهى تذييل لا محل لها من الإعراب.

﴿وقال لهم نبيئهم تقدم﴾ إعراب مثله. **﴿إنّ آية﴾** إنّ واسمها. **﴿ملكه﴾** مضاف إلى آية. **﴿أن يأتيكم﴾** الفعل منصوب بأن، وضمير المخاطبين مفعول به. **﴿التابوت﴾** فاعل يأتى، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع خبر إنّ. **﴿فيه﴾** متعلق بمحذوف خبر مقدم. **﴿سكينة﴾** مبتدأ مؤخر. **﴿من ربكم﴾** متعلق بمحذوف نعت لسكينة. **﴿وبقية﴾** معطوف على سكينة. **﴿مما﴾** متعلق ببقية. **﴿ترك آلُ﴾** فعل وفاعل، والجملة صلة ما. **﴿موسى﴾** مجرور بكسرة مقدرة على الألف مضاف إلى آل. **﴿وآل هارون﴾** معطوف على آل موسى. **﴿تحمله الملائكة﴾** تحمل فعل مضارع، والضمير فيه مفعول به، والملائكة فاعل، وجملة تحمله الملائكة في محل نصب حال من التابوت. **﴿إنّ في ذلك لآية﴾** الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ مقدم، لآية اسمها مؤخر، واللام لتوكيد الكلام. **﴿لكم﴾** متعلق بآية. **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** جملة كان واسمها وخبرها فعل الشرط، والجواب محذوف دل عليه ما قبله، وجملة إنّ في ذلك لآية لكم تعليلية.

﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ جملة شرطية. **﴿قال﴾** مثل ما سبق. **﴿إنّ الله مبتليكم بنهر﴾** جواب الشرط، والجملة مرتبة على ما قبلها. **﴿فمن شرب منه فليس منى﴾** جملة شرطية وجوابها مرتبة على ما قبلها. **﴿ومن لم يطعمه فإنّه منى﴾** معطوف على قوله: فمن شرب منه فليس منى، وإعراب الجملتين وما عطف عليهما واضح. **﴿إلاّ من﴾** في محل نصب مستثنى بإلاّ. **﴿اغترف﴾** فاعله ضمير يعود على من، والجملة صلة من. **﴿غرفة﴾** مفعول مطلق. **﴿بيده﴾** متعلق باغترف. **﴿فشربوا﴾** فعل وفاعل دخل عليه حرف التعقيب. **﴿منه﴾** متعلق بالفعل قبله. **﴿إلاّ قليلا﴾** منصوب على الإستثناء. **﴿منهم﴾** متعلق بمحذوف نعت لقليلاً. **﴿فلما جاوزه﴾** جملة شرطية دخل عليها حرف التعقيب. **﴿هو﴾** ضمير فصل بدل من الضمير المستتر جىء به ليصح العطف عليه وهو قوله. **﴿والذين آمنوا معه﴾** الذين مبتدأ، آمنوا فعل وفاعل صلة الموصول، معه متعلق بآمنوا. **﴿قالوا﴾** جواب الشرط. **﴿لا طاقة﴾** مبني على الفتح في محل نصب اسم لا. **﴿لنا﴾** متعلق بمحذوف خبر لا. **﴿اليوم بجالوت﴾** متعلقان بالخبر المقدر. **﴿وجنوده﴾** معطوف

على جالوت. ﴿**قال الذين**﴾ فعل وفاعل. ﴿**يظنون**﴾ فعل وفاعل صلة الذين. ﴿**أنّهم**﴾ أنّ واسمها. ﴿**ملاقوا**﴾ خبر أنّ مرفوع بالواو. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى الخبر، وأنّ وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب سد مسدّ مفعولي ظن.

﴿**كم**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**من فئة**﴾ بيان للمبتدإ، جرت بمن الزائدة فجرت لفظاً ورفعت محلاً. ﴿**قليلة**﴾ بالجر عطف على اللفظ. ﴿**غلبت**﴾ فعل ماض، والفاعل ضمير يعود على الفئة القليلة. ﴿**فئة**﴾ مفعول غلبت. ﴿**كثيرة**﴾ نعت لفئة، وجملة غلبت في محل رفع خبر المبتدإ كم. ﴿**بإذن**﴾ متعلق بغلبت. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى إذن. ﴿**والله**﴾ مبتدأ. ﴿**مع**﴾ متعلق بمحذوف خبره. ﴿**الصابرين**﴾ مضاف إلى مع. ﴿**ولما برزوا**﴾ جملة شرطية. ﴿**لجالوت**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**وجنوده**﴾ معطوف إلى جالوت. ﴿**قالوا**﴾ فعل وفاعل جواب الشرط. ﴿**ربنا**﴾ منصوب على النداء بحذف حرف النداء، وهو مضاف إلى ضمير المتكلمين. ﴿**أفرغ**﴾ فعل دعاء، والفاعل ضمير يعود على ربنا. ﴿**علينا**﴾ متعلق بأفرغ. ﴿**صبراً**﴾ مفعول به. ﴿**وثبت**﴾ معطوف على أفرغ. ﴿**أقدامنا**﴾ مفعول ثبت. ﴿**وانصرنا**﴾ مثله. ﴿**على القوم**﴾ متعلق بانصر. ﴿**الكافرين**﴾ نعت للقوم. ﴿**فهزموهم**﴾ فعل وفاعل ومفعول، دخل عليه فاء التعقيب. ﴿**بإذن**﴾ متعلق بالفعل قبله. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى إذن.

﴿**وقتل داوود جالوت**﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على هزموا. ﴿**وآتاه الله الملك**﴾ الضمير المتصل بالفعل مفعول أول، والملك مفعول ثان. ﴿**والحكمة**﴾ معطوف على الملك. ﴿**وعلمه**﴾ معطوف على آتاه. ﴿**مما**﴾ متعلق بعلمه. ﴿**يشاء**﴾ فاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ما. ﴿**ولولا دفاع**﴾ مبتدأ دخل عليه حرف الشرط «لولا»، والواو للعطف. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى دفاع. ﴿**الناسَ**﴾ مفعول بالمصدر، وهو يعمل عمل الفعل. ﴿**بعضهم**﴾ بدل من الناس بدل بعض من كل. ﴿**ببعض**﴾ متعلق بدفاع. ﴿**لفسدت الأرض**﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب لولا، وخبر المبتدإ بعد لولا محذوف غالباً، وتقديره هنا: ولولا دفاع الله موجودٌ. ﴿**ولكن الله**﴾ لكن واسمها، دخل عليها حرف العطف. ﴿**ذو**﴾ خبرها مرفوع بالواو. ﴿**فضل**﴾ مضاف إلى ذو. ﴿**على العالمين**﴾ متعلق بفضل. ﴿**تلك**﴾ في محل رفع مبتدأ. ﴿**آياتُ**﴾ خبر المبتدإ. ﴿**الله**﴾ مضاف إلى آيات. ﴿**نتلوها**﴾ فاعل نتلو نحن، والضمير المتصل بالفعل مفعول به. ﴿**عليك**﴾ متعلق بنتلو. ﴿**بالحق**﴾ متعلق

بمحذوف حال من الضمير المنصوب. ﴿**وإنّك**﴾ إنّ واسمها دخل عليها حرف العطف. ﴿**لمن المرسلين**﴾ متعلق بمحذوف خبر إنّ، واللام لتوكيد الخبر.

مبحث الأسلوب البلاغي

﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَرَ الموت**﴾: هذا الكلام استئناف ابتدائى للتحريض على الجهاد، والتذكير بأنّ الحذر لا يؤخر الأجل، وأنّ الجبان قد يلقى حتفه في مظنة النجاة. وموقع هذا الكلام قبل قوله: وقاتلوا في سبيل الله موقع ذكر الدليل قبل المقصود، وهذا طريق من طرق الخطابة. والمقصود من مثل هذا الإهتمام والعناية بالحجة قبل ذكر الدعوى، تشويقاً للدعوى، وحملا على التعجيل بالإمتثال. وركب الأسلوب بقوله: ألم تر إلى الذين. . . تركيب المثل في مقام التعجيب لما أنّه شبه حال غير الرائى لشىء عجيب بحال الرائى له، بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى في إدراكه الشاهد والغائب. ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب.

والقصة تمثيل لحال أهل الجبن في القتال بحال الذين خرجوا من ديارهم بجامع الجبن، وكانت الحالة المشبه بها أظهر في صفة الجبن وأفظع. وظاهر الكلام أنّ القصة واقعة كما هو معلوم من سياق القرآن في مثل هذا الأسلوب، فالتمثيل ليس خيالياً كما قيل في بعض روايات التفسير. والمقصود من هذا موعظة المسلمين المأمورين بالقتال في سبيل الله بترك الجبن، ولأنّ الخوف من الموت لا يدفع الموت. . . ﴿**فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. إنّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾: الجملة واقعة موقع التعليل لجملة ثم أحياهم، فالمقصود منها بث خُلق الإعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم. . .

﴿**وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم**﴾: هذه الآية هي المقصود الأول، فإنّ ما قبلها تمهيد لها. وجملة: واعلموا أنّ الله سميع عليم حث على القتال وتحذير من تركه، وفيه وعد ووعيد. وافتتاح الجملة بقوله: واعلموا للتنبيه على ما تحتوى عليه من معنى صريح وتعريض. . .

﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة**﴾: الإستفهام هنا مستعمل في التحضيض والتهييج على الإتصاف بالخير كائناً من كان. . .

﴿**والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون**﴾: تذييل يقرر حقيقة الإعطاء والمنع، فالإنسان مطالب بما عنده، وإنما الأعمال بالنيات. فيجازيكم بما كُلّفتم لا بما هو خارج عن طاقتكم، فعليه لا فزع من الموت ولا فزع من الفقر... ﴿**ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىء لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله**﴾: هذا مثل ثان يعقب المثل الأول، وقد قدم الأول وأخر الآخر ليقع التحريض على القتال بينهما، ومناسبة تقديم الأول «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم... » أنّه يشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدّم بين يدى الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة، فالأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة. ومناسبة تأخير الحالة الثانية أنّها تمثل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله، فسألوه دون أن يفرض عليهم، فلما عين لهم القتال نكصوا على أعقابهم. وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال، أو بعد كتبه عليهم، فلله بلاغة هذا الكلام وبراعة هذا الأسلوب: تقديماً وتأخيراً!..

﴿**قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا**﴾: هذا حوار بين بنى إسرائيل وبين أحد أنبئائهم. فاستفهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا، ففيه تحريض وإظهار خوف من موقفهم المبهم. فردوا عليه... ﴿**قالوا ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾؟!: ومقول القول معطوف على مقول قولهم الأول: ابعث لنا ملكاً، وما بينهما جاء معترضاً. والإستفهام انكارى تعجبى، وجملة ألاّ نقاتل حال، وهى قيد للإستفهام الإنكارى. وجملة وقد أخرجنا حال معللة لوجه الإنكار...

﴿**فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين**﴾: تعقيب على قولهم: ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله، وهو كلام اعتراضى جىء به للعبرة والموعظة تحذيراً للمسلمين من حال هؤلاء أن يتولوا عن القتال بعد أن أخرجهم المشركون من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن تمنوا قتال أعدائهم وفرضه الله عليهم. وقوله: والله عليم بالظالمين تذييل جاء تهديداً لكل من يعمل هذا العمل كائناً من كان. فإذا تقرّرت هذه الحقيقة عاد السياق يفصّل ما أجمل، ويعرض كيف كان تولى بنى إسرائيل ونكوصهم عن القتال الذي طالبوا به وألحّوا فيه، وأنكروا أن يستوثق منهم نبيئهم قبل أن يبدأوه...

﴿وقال لهم نبيئهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾؟!: أعاد الفعل في قوله: وقال لهم للدلالة على أنّ كلامه هذا ليس من بقية كلامه الأول، بل هو حديث آخر متأخر عنه، وتأكيد الخبر بإنّ إيذان بأنّ من شأن هذا الخبر أن يتلقى بالإستغراب والشك، وزاده تأكيداً ذكر لفظ الجلالة وحرف التحقيق، ولام الإختصاص، وتمييز المبعوث بالصفة المطلوبة. قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟!، فأنّى بمعنى كيف؟ وهو استفهام مستعمل في التعجب: تعجبوا من جعل مثله مِلِكاً!. فقولهم: ونحن أحق بالملك منه جملة حالية أغنتهم عن الاستدلال بعدم أحقيته بالمُلك. وقوله: ولم يؤت سعة من المال حال ثانية زيادة في إبعاده عن استحقاق الملك، فكيف يستطيع قليل المال أن يكون ملكاً؟!. فردّ عليهم نبيئهم ردّاً على قولهم...

﴿قال: إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم. والله يؤتى ملكه من يشاء. والله واسع عليم﴾: فصالحية الملك لطالوت أتت من عدة نواح: اختيارُ الله إيّاه، وزيادة قوة الجسم، وغزارة العلم، وإرادة الله فوق الكل، فالملك لله وحده يؤتيه من يشاء من عباده... **﴿وقال لهم نبيئهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آلُ موسى وآلُ هارون تحمله الملائكة إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾**: معطوف على قوله السابق: وقال لهم نبيئهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، وتوسيطه فيما بين قوليه المحكيين عن نبيئهم؛ للإشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر، وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنّهم طلبوا منه آية تدل على اصطفائه عليهم زيادة على ما أخبرهم به في السابق، فكأنّهم لم يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به، ولهذا علل هذه الآية بقوله: إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، وهى آية لا يستفيد منها إلاّ من ثبت واستقر واستمر إيمانه. أمّا المتردد المتمسك بعاداته وادعاآته فلا تنفعه الآيات، فها نحن أمام الأمر الواقع المشاهد...

﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى. ومن لم يطعمه فإنّه منى إلاّ من اغترف غرفة بيده. فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم﴾: فهذا الكلام مترتب على عدة جمل تؤخذ من أسلوب السياق، فقد رضوا بملكه بعدما جاءتهم الأدلة القاطعة ورأوها بأعينهم وخضعوا لأمره فرتب الأمور

وجهز الجنود. فهنا تظهر حكمة اصطفاء طالوت مِلِكاً، حيث ظهرت عليه ملكة العلم جلية بهذا الإبتلاء العظيم، فظهرت نتيجة الإختبار تحت المتوسط، وبقيت القلة معه. فجاوز النهر بمن ظهر منه الإيمان والإنقياد والإذعانُ، ولكن حين يرون العدو أمامهم فتهولهم كثرتهم فيعلنونها صريحة واضحة...

﴿**فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾: فهو تصريح خطير في وقت يحتاج فيه المقاتل إلى إظهار الصبر والتصبير... ﴿**قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾: هذه المقالة جاءت ممن صح إيمانُه وثبت يقينُه ونظر إلى وعد الله فرجا نصره، فهذا القول هو تثبيت أنفسهم وتَثبيت رفقائهم، فدعوا إلى ما به النصر وهو التزام الصبر... ﴿**والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾: وبعدما حصل ما حصل وقيل ما قيل، برزوا لجالوت وجنوده، فقالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وهذا ترتيب بديع حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر، الذي هو ملاك الأمر، ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه، ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى... ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾: إنّه إعلان النصر المفاجىء الذي جاء بعد دعاء المضطر اللاجىء...

﴿**وقتل داوود جالوت**﴾: وهو تتويج النصر بقتل الطاغية فانتهى كل شىء... ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة. وعلمه مما يشاء**﴾: ويتفتح لبنى إسرائيل عهد جديد لم يكن في حسبانهم، فيرسل الله تعالى داوود رسولاً ملكاً يجدد لهم العهد ويعيد إليهم ما فقدوه من المجد... ﴿**ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾: ذيلت هذه الآية العظيمة كلَّ الوقائع العجيبة التي أشارت بها الآيات السالفة: لتدفع السامع المتبصر ما يخامره من تطلب الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم، ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونُظَم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها، فعطفت على العبر الماضية كما عطف قوله: وقال لهم نبيئهم، وما بعده من رؤوس الآى. وعدل عن المتعارف في أمثالها من ترك العطف، وسلوك سبل الإستئناف... ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين**﴾: الإشارة إلى ما تضمنته القصص

الماضية وما فيها من العبر، ولعلو قدرها جاءت الإشارة مقترنة باللام، والخطاب فيها للرسول محمد ﷺ، وزيادة في تنويه شأنه وتثبيت دعوته؛ بما فيها من تعريض بالمنكرين لدعوته جاء قوله تعالى: وإنّك لمن المرسلين.

وتأكيد الجملة بإنّ للاهتمام بهذا الخبر، وجيء بقوله: من المرسلين دون أن يقول: وإنّك لرسول الله للرد على المنكرين بتذكيرهم أنّه ما كان بدعاً من الرسل، وأنّه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم، بل هو أزيد وأعظم، كما يأتى في أول الجزء التّالى. وكثيراً ما يرد القصص في القرآن لغرض إثبات الرسالة إلى جانب أغراض القصص الأصلية: الثقة بالله، والإعتماد على الله، والتوجه بكل حركة وكل خاطرة إليه وحده!.

خلاصة المعنى العام، وما فيه من التوجيهات والأحكام

التوجيه الأول: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إنّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾:
في هذا التوجيه لفت نظر السامع إلى ما حصل للذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف. والنص لم يعين هؤلاء بذواتهم وأنسابهم ومكانهم وزمانهم، فلا ينبغى لمتتبع البيان أن يجرى وراء التأويلات، أو ما قيل في ذلك من خرافات الإسرائيليات.

إنّما يراد أن يقال: إنّ الحذر من الموت لا يجدى، وإنّ الفزع والهلع لا يزيدان حياة ولا يمنعان أجلاً، فإن تجمع هؤلاء القوم وهم ألوف، وإنّ خروجهم من ديارهم - والخروج من الديار حذر الموت لا يكون إلاّ في حالة هلع وجزع - لم يغير مصيرهم ولم يدفع عنهم الموت، فلاقاهم، فماتوا عندما أراد الله موتهم، ثم أحياهم عندما أراد الله إحياءهم، فالحذر لا يجدى، وإن الفزع لا يمنع، وإن الهروب لا يحفظ حياة، فلا نامت أعين الجبناء. وهذا الكلام جاء مقدمة لأمر المسلمين بالقتال في سبيل الله تحذيراً مما وقع فيه هؤلاء القوم الذين هربوا وتركوا ديارهم مع كثرتهم، فلا ينبغى للمؤمنين الصادقين أن يكونوا مثلهم...

﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم﴾: وقد تقدم حكم القتال في قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»، وفى قوله: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم»، وسيأتى قريباً بيان حكمته. وقد ربط بالأمر بالقتال التحريض على الإنفاق، فجاء في أسلوب معبر مثير... **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً**

فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون﴾: وفي هذا الأسلوب إغراء يثير نفوس المؤمنين، ويجعلها تتسابق إلى دفع أموالهم رغبة في مضاعفة الأجر الأضعاف التي لا حصر لها دون خوف من عدم أو ضياع، فالله يقبض ويبصط، والله وحده إليه المصير، فلا خلف في وعد ولا خوف من تقصير. . .

﴿ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىء لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾: يعود التوجيه مرة أخرى ليلفت نظر المخاطب إلى ما حصل للملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى، وذلك أنّهم طلبوا من نبيئهم أن يعيّن لهم ملكاً يقاتلون معه حسب ما كان مقرراً عندهم في شريعتهم، ليستردوا أرضهم التي فقدوها، وعزتهم التي سُلبوها، وليدفعوا الظلم الذي لحق بهم، ولكن نبيئهم كان أعرف بطبيعتهم، طبيعة اليهود التي استعرضت هذه السورة كثيراً منها، فإذا هو يريد أن يستوثق من أنّهم جادّون فيما يقولون، مستعدون للبذل والتضحية والشجاعة التي يقتضيها هذا المطلب الكبير. . .

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا﴾؟!: ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال بعد أن يفرض عليكم؟! فأنتم الآن في سعة من الأمر، فأما إذا استجبت لكم - بوصفى نبيئاً - فتقرر القتال فتلك فريضة إذنْ مكتوبة، لا سبيل يومئذ إلى النكول عنها، فهى الكلمة اللائقة بالنبىء، والتأكد اللائق بنبىء، فما يجوز أن تكون كلمات الأنبئاء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ - وهو يعلم طبيعة قومه -، فلم يكن له بد إذنْ من الإستيثاق!. فهنا نلمح سمة من سمات بنى إسرائيل: إنّها اللجاجة في ساعة السلم، والحماسة في ساعة الأمن، فإذا جد الجد وجاء وقت التضحية تبخرت الحماسة وسكنت اللجاجة. . .

﴿قالوا ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾: فهم يستنكرون مقالة نبيئهم، وينفون أسبابها، ويقرّرون أنّ الطريق الواحدة المفروضة عليهم هي القتال، وأنّه لا ضرورة إلى مراجعة في هذه العزيمة أو جدال!. وإن هي إلاّ لحظة حتى نطّلع على الوجه الآخر، ونعرف الحقيقة العميقة. . . **﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم﴾**: إنّ القصة بتفصيلاتها لم تكمل ولم تعرض بعد، ولكن السياق أجمل بدأها وختامها على هذا النحو؛ ليقرر تلك السمة من سمات بنى إسرائيل، وليستنكر هذا السلوك وهذه الطبيعة، وليقرر أنّها ظالمة للحق، وظالمة لنفسها، وظالمة لقائدها. . . **﴿والله عليم بالظالمين﴾**!. فإذا

تقررت هذه الحقيقة عاد السياق يفصل ما أجمل، ويعرض كيف كان تولى بنى إسرائيل ونكوصهم عن القتال الذي طالبوا به وألحوا فيه، واستنكروا أن يستوثق منهم نبيئهم قبل أن يبدأوه. . .

﴿وقال لهم نبيئهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾: هنا تنكشف سمة أخرى من سمات بنى إسرائيل، فقد كان مطلبهم الأول أن يكون لهم ملِك يقاتلون تحت لوائه، ولقد قالوا إنّهم يريدون أن يقاتلوا في سبيل الله. فهاهم أولاء ينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويستنكرون أن يكون طالوت - الذي اختاره الله لهم - ملكاً عليهم، لماذا؟! لأنّهم أحق بالملك منه، ولأنّه لم يؤت سعة من المال!. والذى يقاتل في سبيل الله حقاً، والذى يبذل نفسه في سبيل الله لا يمكن أن يستنكر خيرةَ الله له، ولا يمكن أن يتلفت قلبه إلى تلك الأعراض الزائلة: الحسب والمال. ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل، فقد كان طالوت رجلاً من عامة الناس، لم يولد في بيت مُلْك، ولم يرث جاهاً ولا مالاً، ولكن كانت له صفات أخرى تؤهله للمهمة التي ندبه الله لها، فأعلنها نبيءُ بنى إسرائيل. . .

﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾: إنّه رجل يصلح للقيادة، رجل موهوب في العلم وموهوب في القوة، لذلك اختاره الله لهذه المهمة، دون ذوى الحسب وذوى المال. والبسطة في العلم مطلوبة في القائد الرائد في كل زمان، والبسطة في الجسم كانت صفة لازمة للقائد في حروب ذلك الزمان، فليس الأمر أمر وراثة في بيت أو قبيلة، وليست المسألة مسألة جاه أو حسب أو مال، إنّما الملك ملك الله. . . **﴿والله يؤتى ملكه من يشاء. والله واسع عليم﴾**!.

ثم بعد هذا الحوار في مسألة طالوت وملكه على بنى إسرائيل، فيذكر نبيء بنى إسرائيل بشرى يبشرهم بها تتحقق على يديه، وتكون آية على اختياره للملك من عند الله. . . **﴿وقال لهم نبيئهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾**: فهى بشارة كان بنو إسرائيل يترقبونها بلهفة واشتياق. ولم يفصل النص أين كان التابوت؟! وما سبب فقدانه؟! وأين كان؟! وعند من كان؟!، والأساطير الإسرائيلية لا تغنى في هذا الموضوع شيئاً، فلنبق النص مع السياق كما هو!.

التوجيه الثاني: ﴿**فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنّه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم**﴾: في هذا التوجيه بيان ما حصل من أمر طالوت بعد معارضة بنى إسرائيل لهذا الأمر، فهو مرتب على تعيينه ملكاً، ثم ترتيب أمور الدولة، ثم تجنيده الجنود، ففصل بهم الحدود، فعندئذ أخبرهم فقال لهم: إنّ الله مبتليكم بنهر. فهنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل من عامة الشعب للقيادة، ومصداق قوله: وزاده بسطة في العلم، فالرجل مقدم على معركة، ومعه جيش شعبٍ مغلوبٍ على أمره، يواجه به جيش شعبٍ قويٍ غالب، فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الشعب المغلوب، تقف به أمام القوة الظاهرة للشعب الغالب، هذه القوة الكامنة لا تكون إلاّ في الإرادة؛ الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتبتغى هدفاً لا تصدها عنه العقبات. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جنوده، وصبره وصموده؛ صموده للرغبات والشهوات، وصبره على الحرمان والمتاعب. واختار هذه التجربة بإلهام من الله وتوجيه إليه - وهم على حالة من العطش والتعب - ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، فقد صحت فراسته على ما ظهر عليهم. . .

فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم: وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم، انفصلوا عنه لأنّهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم، وكان من الخير أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنّهم بذرة ضعف وخذلان. فليست الجيوش بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد والإرادة الجازمة والإيمان الوثيق. وهنا كانت التجربة الأولى قد غربلت جيش طالوت - إلى حد -، ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد. . .

﴿**فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾: هنا جاءت التجربة الحاسمة؛ تجربة الإيمان بالعقيدة، والثقة بالله، والشجاعة في مواجهة القوة المتفوقة، وهذه لا يصمد لها إلاّ من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم. فلما رأى جنود طالوت أنّهم قلة بعدما تخلف منهم لدى النهر من تخلف، دبّ في قلوب بعضهم القلق، وخافوا قوة عدوهم وكثرته، وصرحوا بذلك التصريح الخطير: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده!. ولكن الفئة المؤمنة، الفئة الواثقة بالله، الفئة المتصلة بقوة الأزل والأبد، الفئة التي تعلم أنّ الله لا

غالب له، وأنّ النصر من عند الله يؤتيه من يشاء. هذه الفئة القليلة لم تيأس، ولم ترهب كثرة العدد، ولم تخش الغلب والهزيمة... **﴿قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾**!.

التوجيه الثالث: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾: في هذا التوجيه الإعلام ببداية المعركة ونهايتها لصالح المؤمنين الصادقين الصابرين. فإذا الفئة القليلة هي التي تقرّر مصير المعركة بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها لله، وتطلب النصر من عند الله وحده دون سواه...

﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داوودُ جالوَتَ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾: وقد أشارت الآية في قوله: فهزموهم بإذن الله... الخ إلى انتصار بنى إسرائيل على جالوت وجنوده، وهو انتصار عظيم كان به نجاح بنى إسرائيل في فلسطين وبلاد العمالقة كما يسميهم المؤرخون، وكان هذا أول بداية عهدهم باجتماع الملك والنبوة، فمن يوم أن تركهم موسى - عليه السلام - في التيه، لم يتحدث عنهم القرآن بشيء له بال، حتى وصل بهم الأمر إلى هذه الحال. وقد مرت عصور وأجيال طوال وطوال من عهد موسى وهارون إلى عهد داوود وسليمان، وهذه الآيات في جملتها أشارت إلى قصة عظيمة من تاريخ بنى إسرائيل، لما فيها من العلم والعبرة.

فإنّ القرآن يأتى بذكر الحوادث التاريخية تعليماً للأمة بفوائد ما في التاريخ، ويختار لذلك ما هو من تاريخ أهل الشرائع؛ لأنّه أقرب للغرض الذي جاء لأجله القرآن. ثم بين الله سبحانه الحكمة في ذلك الصراع الدائم بين الإنتصارات والهزائم... **﴿ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾**: فالحرب في الشرائع دفاع عن الصلاح في الأرض، فلولاه لفسدت الأرض بظهور الكفر والفساد على الإيمان والصلاح في البلاد، «إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إنّ الله لا يحب كل خوان كفور...» **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنّك لمن المرسلين﴾**: في ختام هذا الكلام تأتى الحكمة الدائمة في الإسلام لتأتى بالحجة القاطعة بصحة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.